دعوة جمال الدين الأفغاني

في ميزان الإسلام

تأليف
مصطفى فوزي بن عبد اللطيف غزال

دار طيبة

دعوة جمال الدين الأفغاني

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار طيبة
الرياض - البطحاء - عمارات الراجحي
المملكة العربية السعودية

دَعْوَة جمال الدّين الأفغاني

في

مِيزان الإسلام

تأليف
مصطفى فوزي بن عبد اللطيف غزال

وقد كنت أحسب أن جمال الدين مصلح «عظيم» لما كنت أسمع من الناس، ولما كنت أقرأ. فلفت نظري هذا الذي أشار إليه الدكتور خليل ملا خاطر كما أنني لم أجد من الدكتور الطحان إعتراضاً على كلامه. عند ذلك قلت لا بد من دراسة هذا الرجل عن كثب لسبر أغوار دعوته التي كال لها المداحون كيلاً.

وأذكر أنني بعد يوم أو يومين من إختياري هذا الموضوع لقيت فضيلة الشيخ السيد محمد ندا أستاذ الحديث في كلية أصول الدين فسألته عن رأيه في جمال الدين الأفغاني وأنني إخترته موضوعاً لبحثي فقال لي بالحرف الواحد: «هذا الرجل الذي أرسل إلينا ليهدم الخلافة الإسلامية». فاستغربت منه هذا الكلام وقلت: ألهذا الحد وصل جمال الدين؟ وبالطبع حصل هذا الإستغراب قبل الدخول في بحث الرجل.

وحتى تلك اللحظة لم أكن أعرف شيئاً عن جمال الدين إلا ما كنت أسمع من التمجيد والتعظيم به ووضعه في مقدمة المصلحين في القرن التاسع عشر الميلادي.

هذا وإني لم أجد كبير مشقة في بحث هذا الموضوع لتوفر مراجعه، ولكن الملاحظ أن معظم المترجمين والمقومين لدعوته، كانوا ينظرون إليه من خلال أقواله في الصحف والمجلات، ومن خلال ما كتب عنه الشيخ محمد عبده ورشيد رضا وكانوا يأخذون ما طاب ولذ، ويتركون ما خفي واستتر، فجاءت ترجمتهم له خاطئة وذلك لأن اعتمادهم على هذه المصادر دون غيرها أوقعهم في هذه الورطة. وهناك صنف من المترجمين وافق هواهم هوى جمال الدين فراحوا يأخذون منه الحبة ويجعلونها قبة، وينمون الصغير حتى يصبح كبيراً، ولذا تاه كثير من الناس في هذا الخضم، وأصبح من العسير إقناع الكثيرين أن جمال الدين الأفغاني يعمل وفق مخطط هدام، وأنه يأتمر بأوامر أعداء الإسلام، لذا كان هذا البحث عسيراً من هذه الناحية وشاقاً في إقناع الآخرين، ولكنني قررت قول الحق وإظهاره ودحض الباطل وإحباطه عملاً بقوله تعالى: (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون).

وكذا فإني لم أجد كتاباً واحداً أختص بتقويم دعوة جمال الدين الأفغاني من أول حياته إلى آخرها، وإنما كنت أجد في كتاب فكرة أو نصاً تذكر حقيقة من حقائق دعوته فكنت آخذها وأضعها في مكانها، فعلى سبيل المثال وجدت في كتب الدكتور محمد محمد حسين نصوصاً وتساؤلات وشكوكاً حول دعوة جمال الدين الأفغاني في كتب له تبحث في الشعر والنثر والأدب عامة ككتاب «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» أو تبحث في الغزو الفكري المعادي للفكر الإسلامي ككتاب «الإسلام والحضارة الغربية».

وبعض النصوص وجدتها متناثرة في مذكرات بعض العظماء والمفكرين كمذكرات السلطان عبدالحميد ومذكرات محمد كرد علي وخاطرات جمال الدين الأفغاني ومذكرات المستر بلنت وغير ذلك.

وبعض النصوص كنت آخذها من مؤلفات تلاميذه وأتباعه، حيث يذكرون حقائق عن جمال الدين الأفغاني وهي مطاعن عليه، ولكنهم يذكرونها مضطرين لئلا يقعوا في تكذيب المكذبين، أو إنتقاد المنتقدين، لأن تلك الأمور ظاهرة ظهوراً واضحاً لا يمكن إخفاؤها، وهم يحاولون إضفاء التعليلات والمسوغات على تلك المطاعن، حتى تظهر للبسطاء انها حسنة لا يلام فاعلها، كما حصل في تعليل دخوله في الماسونية مثلاً.

ومع ذلك فقد خفي كثير من الأمور في سيرته كشفتها فيما بعد أوراقه التي خلفها في صندوقه السري الذي كان يصحبه أين توجه، ولا تمسه يد إلا يَدُه، وبعد وفاته فتح الصندوق وأخرجت الأوراق وصورت ونشرت على الملأ وهي بخط يده، وقد كشفت كثيراً من الحقائق التي لم تكن بالحسبان، ولو كان معاصروه أحياء لغيروا وجهة نظرهم فيه ولغير المترجمون له كثيراً من تعليلاتهم ومسوغاتهم. وحتى هذه اللحظة لا زلت أقول: هناك أمور كثيرة لم تكشف بعد غامضة جداً منها: ما هو دوره في هدم الخلافة؟ وما هي مهمته الأصلية التي خرج من ايران لأجلها؟

وما هي الأعمال التي قام بها خلال أربع سنوات قضاها في روسيا؟.

وقد كشفت بعضها في رسالتي هذه وأجبت عن هذه الأسئلة بما تيسر وأرجو أن يجيء الله تعالى بمن يكشف ما بقي مستوراً حتى اليوم.

ومن العجائب أنني كنت أقع في بحثي هذا على أدلة ونصوص تساق إلي سوقاً بقدرة الله القادر، مما يدل على أن هذا البحث فيه عناية إلهية وتوفيق رباني. وهكذا كنت أجد توفيقاً في كتابة موضوعي هذا كلما تعسرت الأمور، حتى جئت إلى نهاية البحث.

ولكن عليّ أن أبين أن هناك كثيراً من الكتب فيها ما يتعلق بدعوة جمال الدين الأفغاني، وقد عجزت عن الوصول إليها وتركتها لأني أخذت معظم ما فيها أو على الأقل ما أحتاج إليه من كتب أخرى تأتي على تلك الأمور.

فأخذتها ونسبتها إلى المكان الذي حصلت عليه مع الإشارة إلى مصدرها الأصلي الذي لم أعثر عليه مثل ذلك: سيد جمال الدين المعروف بالأفغاني لمؤلفيه «أصغر مهدوي»، و«ايرج افشار» وهو عبارة عن صور لأوراق جمال الدين الأفغاني من الرسائل والوثائق التي كان يحتفظ بها، وكان يضعها في صندوق خاص، لا يعرف أحد محتواه إلا هو، ولما مات أخذ الصندوق وبقي طي الكتمان إلى أن نشرته جامعة طهران بعد مدة طويلة من وفاته. وقد كشف هذا الكتاب أموراً كثيرة كانت خافية على الناس، وأحدث هزة عنيفة في سيرته.

وقد وجدت بغيتي من هذا الكتاب في عدة كتب منها مذكرات السلطان عبد الحميد، ولمحات إجتماعية في تاريخ العراق الحديث، ورسالة ماجستير لأحد طلاب كلية أصول الدين.

وفي الختام أتوجه بالشكر إلى الله تعالى الذي وفقني وسهل لي مهمتي وأعانني وصبرني كما أشكر الدكتور محمود الطحان المشرف على رسالتي لما قدم لي من نصائح وإرشادات فجزاه الله عنا كل خير، كما أشكر كل من مد لي يد العون لإنجاح هذه الرسالة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليمًا كثيراً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ـ ترجمة جمال الدين الافغاني ـ

اول ما ابدأ به في الكلام على دعوة جمال الدين الافغاني سرد حياته من منشئه الى وفاته، حسب ما وردت في كتب مترجميه، وخاصة منهم تلاميذه الذين لازموه وتاثروا بدعوته.

ومعظم ما كتبت من ترجمته ماخوذ من كتاب «الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني» مع ذكر بعض الخلافات التي احجم عن ذكرها او تغاضى عنها.

مولده: اختلف المترجمون في مكان ولادته ونشأته الاولى، فبعضهم يقول: انه ولد في افغانستان في قرية اسعد آباد التابعة لكنر من اعمال كابل العاصمة.

ويقول آخرون: انه ولد في ايران في قرية اسد آباد التابعة لهمذان.

والجميع متفقون على ان ولادته كانت عام ١٢٥٤ هـ الموافق لسنة ١٨٣٨ م.

وسبب هذا الخلاف يرجع الى الغموض الذي يكتنف نشأته الاولى، فليست هناك وثائق صادرة من جهات رسمية يذكر فيها تاريخ ميلاده ومكانه، كما هو معروف اليوم.

وجميع من قالوا بافغانيته يرجعون الى تصريحات جمال الدين، فهو

يقول: «لقد جمعت ما تفرق من الفكر، ولمت شعث التصور، ونظرت الى الشرق واهله، فاستوقفني الافغان وهي اول ارض لمس جسمي ترابها. . .»

اما القائلون بان اصله ايراني، فعندهم ادلة كثيرة، يرجع بعضها الى اقوال ايرانيين عرفوا ولادته واقرباءه، وبعضها يرجع الى مشاهدات لآثار باقية تتصل بمولده او باصوله وفروعه. . وسنأتي على تفصيل هذا الخلاف عند الكلام على دعوته.

وقد حاول بعض الكتاب فض الخلاف، فأوجد قولا ثالثا يجمع بين القولين. فقالوا بانه فارسي الاصل افغاني المنشأ، وبهذا القول اخذ الشيخ مصطفى عبد الرازق احد تلاميذ الشيخ محمد عبده، وبمثله قال الشيخ عبد القادر المغربي احد تلاميذ الشيخ جمال الدين الافغاني.

هذا بالنسبة لمولده، اما نسبه فقد حصل الخلاف فيه ايضا فمنهم من يقول: بانه من الاشراف ، وينتهي نسبه الى الحسين بن علي رضي الله عنه، مارا باحد ائمة الحديث، وهو السيد علي الترمذي.

ولكن هذا النسب رده فريق آخر، وعلى رأسهم شيخ الاسلام ابو الهدى الصيادي. وسنأتي على تفصيل القول في ذلك عند البحث في دعوته.

إسمه الصريح محمد جمال الدين بن صفدر، وقد وقع خلاف في اسم ابيه فمنهم من يقول ان اسم ابيه (صفدر) كما ذكرنا، ومنهم من يقول: «ان اسم ابيه (صفتر) ولدى التحقيق تبين ان الثاني مصحف، وذلك لان جميع من ترجم له ذكروا ان اباه ايراني الاصل، ولا يعرف في ايران اسم (صفتر) وانما المعروف انه (صفدر) ومعناه مفرق الصفوف، فكلمة (صف) عربية، وكلمة (در) فارسية، ومعناها بالعربية مفرق الصفوف، وهو كناية عن الشجاعة والاقدام في الحرب.

وقد كانت هذه صفة علي بن ابي طالب الذي كان يفرق الجموع في هجماته على اعدائه.

نشأته: اما عن نشأته فيقولون بانه نشأ في منزل والده، واشرف والده على تعليمه حتى السنة العاشرة، فحفظ القرآن، ودرس العربية ، وظهر ولوعه بالمناقشة، وبرزت هوايته في حب الاسفار والرحلات، ثم انتقل الى مدرسة قزوين التي كان والده يدرس فيها، وفي تلك الفترة ظهرت منه اهتمامات بدراسة العلوم وخاصة النجوم، ثم انتقل به ابوه الى طهران وعمره ١٢ سنة وهناك ظهرت نباهته وذكاؤه عندما جالس اكبر علمائها الذي عرف جرأته ومقدرته العلمية ثم انه امر اباه بان يشتري له عباءة وعمامة ليكون في عداد العلماء حيث كان هذا سمة اهل العلم.

ثم رحل الى النجف مع والده فمكث فيها اربع سنوات درس فيها التفسير والحديث والفلسفة والمنطق وعلم الكلام والاصول والرياضة والطب والتشريح والهيئة وعلم النجوم، وانهى دراسته في النجف وعمره ١٦ سنة تقريبا، وقد ظهر لاول مرة في حياته حسد الحساد له فنصحه الشيخ مرتضى شيخ تلك المدرسة بمغادرة النجف فذهب الى الهند وتنقل في مدنها وتعرف على علمائها ثم قصد مكة المكرمة للحج وعمره ١٩ سنة ثم عاد ادراجه الى النجف فكربلاء فأسد آباد مسقط رأسه في ايران. ثم الى طهران حيث فتن به شيخ الطريقة الذهبية فترك طريقته ولحق به فذهب الى خراسان، ثم ذهب الى افغانستان وتعرف على اميرها دوست محمد خان والف اول كتاب له باللغة العربية وهو (تتمة البيان في تاريخ الافغان) ودخل السياسة ووقف جمال الدين مع الامير محمد اعظم خان ضد امير البلاد دوست محمد خان وكان له من العمر ٢٣ سنة فعينه رئيسا للوزراء فلعب دورا بارزا في تلك الصراعات التي لا زالت دائرة بين الامراء للوصول الى كرسي الحكم ولكن الغلبة كانت للامير شير علي خان حيث نجح في احتلال كابل عاصمة الدولة فرحل الامير محمد اعظم خان الى ايران وبقي جمال الدين في كابل محاطا بالحراسة والاقامة الجبرية، ثم انه طلب السفر الى الحجاز للتخلص من هذا القيد فسمح له بمغادرة افغانستان فذهب الى الهند وهناك فرضت السلطة البريطانية عليه قيودا مشددة في تنقله ثم انها حملته الى السويس على سفنها فدخل

القاهرة لاول مرة ومكث فيها اربعين يوما ومنها ذهب الى الآستانة عاصمة الدولة العثمانية وكانت تحت حكم السلطان عبد العزيز محمود فرحب به الصدر الاعظم وكبار رجال الدولة بما فيهم السلطان. وعين هناك عضوا في المجلس الاعلى للمعارف فاظهر نشاطا وابدى مقدرته في حل المشكلات المستعصية ، كما انه اخذ يتصل بالعامة عن طريق الخطب والاحاديث التي كان يبثها من جامع الفاتح الكبير وكان مجلسه يجمع العامة والخاصة ورجال الفكر والدولة، وظهرت له افكار منحرفة لم يعهدوا مثلها من قبل. فنقل هذا الانحراف في الافكار الى شيخ الاسلام حسن فهمي افندي الذي نقله بدوره الى السلطان عبد العزيز ، فكانت هذه اول غمزة في عقيدته تصل الى المراجع العليا.

خطبته في الصناعات: ثم انه كلف بالقاء محاضرة عن الصناعات في دار الفنون فتحدث عن الكون ومثل له بجسم حي ذي اعضاء، وتحدث عن روحه فقال انها اما الحكمة المكتسبة او النبوة التي يصطفي لها الله ما يشاء.

لنقف قليلا عند هذا الحادث لنرى الآراء المختلفة في الموضوع لعلنا نحسم هذه القصة بالذات ونرى وجه الحق فيها.

ان هذه الخطبة او المحاضرة التي القاها في دار الفنون لم تكن مسجلة ولا مكتوبة وانما ارتجلها ارتجالا وعلى ذلك فان النقل لها يكون على حسب حال الناقل من حيث التثبت وعدمه ومن حيث الدقة في النقل وعدالة الناقل وبعدها نحكم على صحة العبارة او عدم صحتها ثم نحكم على قائلها بالكفر أو الإيمان.

١ ـ يقول **الدكتور أحمد أمين**: «رمي بالالحاد وهو في الآستانة عند زيارته لها لأول مرة، إذ خطب في دار الفنون خطبة ذكر فيها أن المعيشة الانسانية اشبه ببدن الحي، وأن كل صناعة بمنزلة العضو، فالملك كالمخ والحدادة كالعضو والزراعة كالكبد... و... و... الخ. ولا حياة للجسم إلا بالروح وروح المعيشة الانسانية النبوة والحكمة.

فاتهموه بالالحاد لهذا وشنعوا عليه بأنه يقول بان النبوة صناعة،

وشغبوا عليه حتى نصح له بالخروج من الآستانة. فلما جاء إلى مصر اتهمه العلماء كالشيخ عُلَيش وبعض العامة بالالحاد[1].

٢ ـ يروي **سليم عنحوري** القصة بعبارة ثانية عندما ترجم للأفغاني فيقول:

«ارتجل خطبة في الصناعات غالى فيها الى حد ان ادمج النبوة في عداد الصنائع المعنوية، فشغب عليه طلبة العلم وشددت صحيفة الوقت عليه النكير»[2].

٣ ـ الشيخ **مصطفى صبري** يستنتج ويعطي رأيه في الموضوع فيقول:

اذا كان اسناد القول بان النبوة تكتسب الى الشيخ جمال الدين الأفغاني صحيحا فتعريف النبي الذي نقلته من قبل من كتاب الشيخ محمد عبده تلميذ الشيخ جمال الدين يرمي الى هذه النبوة المكتسبة على الرغم من كون ظاهر كلام الشيخ التلميذ في التعريف يأباها حيث بني أمر النبي المعروف على الجبلة والفطرة، لأن امتيازه في الجبلة والفطرة غير مناف للاكتساب[3].

ثم ان الشيخ **مصطفى صبري** ينقد موقف الشيخ عبد القادر المغربي من هذه القضية وكيف خالف أباه الذي حضر الخطبة وأنكر على الأفغاني مقالته، فقال الشيخ مصطفى صبري: «إنه ـ أي الشيخ **عبد القادر المغربي** ـ ذكر الشيخ جمال الدين الأفغاني واتهامه لما كان في استانبول من علمائها بأنه قال في خطبة ألقاها في حفلة من الحفلات: «ان النبوة كانت في الأزمنة القديمة ـ أزمنة الأنبياء ـ اتخذت صنعة من الصنائع». وكان والد الأستاذ الحاكي يومئذ في استانبول حاضرا في الحفلة مشاركا للسامعين في اتهام الخطيب حتى كتب رسالة في الرد عليه، وفضيلة الاستاذ يدافع في النهاية عن الخطيب بعد

(١) زعماء الاصلاح في العصر الحديث ـ ١١٠.
(٢) تاريخ الأستاذ الامام جـ١ ص٤٤.
(٣) موقف العقل والعلم من رب العالمين جـ٤ ص١٥٢.

معرفة أبيه اللغة التركية التي كانت لغة الخطيب، فكأن صنيعه اتهام ابيه لانقاذ الشيخ جمال الدين، وهو دفاع لا يخلو من غرابة. أما اتهام علماء الآستانة باختلاق هذه المسألة من عندهم افتراء على الخطيب كما يعتقده كثير من الكاتبين بمصر عن الشيخ جمال الدين فهو ابعد. وقد قرأت في اخبار اليوم بمناسبة مرور ملك الافغان اخيرا بالقاهرة في طريقه الى بلاده عائدا من اوروبا:

(ان علماء استنبول حكموا بكفر الشيخ جمال الدين لشربه الدخان). وهو دليل على ان في مصر كتّابا يستبيحون في جمال الدين مالا يستباح من سخف القول[1]

٤ ـ ذكر شاعر الترك الأكبر عبد الحق حامد بك في مذكراته ان السيد قال له «أن سبب متاعبه هو قوله بأن النبوة من الصناعات»[2].

لو استعرضنا هذه الأقوال نجد بينها وفاقا في امور وافتراقا في امور، فالجميع متفقون في حدوث هذه المحاضرة وأن موضوعها كان في الصناعات ومتفقون ايضا على أن الناس كفروه ونسبوا اليه الالحاد من أجل عبارة فهموها أن النبوة صناعة كباقي الصناعات.

ومختلفون في الفاظ العبارة بالذات فبعضهم يقول بأنه قال النبوة كالروح للجسم وهذه العبارة لا شك أنها صحيحة لا غبار عليها وكل من فهمها خلاف ذلك فهو مخطيء.

وبعضهم قال بأنه جعل النبوة مكتسبة وانها صنعة من جملة الصنائع وهذا القول كفر والحاد ان ثبت ذلك عنه وهذا القول منقول عن خيرة من الناس كالشيخ مصطفى صبري ووالد الشيخ عبد القادر المغربي وعن شاعر الترك عبد الحق حامد، ثم كيف يكفره علماء الترك وهم المعروفون بتقواهم وشدة تمسكهم بدينهم دون ان يكون لديهم بينة، فهذا ما لا يُعقل. فالظاهر انه قالها على

---

(١) موقف العقل والعلم من رب العالمين جـ٤ ص ١٦٥.
(٢) مجلة الزهراء ـ المجلد الأول ص ٦٣٧.

وجه فلسفي لم يستطع التخلص منه بعد أن قرر ذلك وأعلنه على الملأ.

لذا نجد شيخ الاسلام في الدولة العثمانية (حسن فهمي افندي) يحكي عن الأفغاني أنه جعل النبوة صنعة وسوى بينها وبين الفلسفة، ثم انه أمر الوعاظ في المساجد أن يهاجموه ويفندوا أقواله وانتهى الأمر باجلائه عن الآستانة وسفره الى مصر[1].

ومن المؤسف أن بعض الناس يحاولون اللف والدوران وينسبون الى العدول النقصان وسوء الطوية ليبرءوا موقف جمال الدين من هذه القضية ولذا نجد الدكتور محمود قاسم يقول: «ومن المؤسف حقا أن يكون امام الكائدين له والناقمين عليه احد أئمة رجال الدين بل شيخ الاسلام في تركيا وهو حسن فهمي افندي»[2].

ثم يذهب ليفند سبب هذا الكيد فيقول: « ويقال ان شيخ الاسلام هذا كان متغيرا على جمال الدين بسبب خال جرت له في مجلسه» ثم لا يكتفي بذلك فذهب الى قول أضعف منه في سبب هذا الكيد فيقول: « ويقول آخرون ان حسن فهمي افندي انما ضاق بالأفغاني صدراً لأن هذا الأخير كان قد اقترح في مجلس المعارف طرقاً خاصة لنشر التعليم وان بعض هذه الطرق المقترحة لم تحظ برضا شيخ الاسلام لأنها أصابت أو كادت أن تصيب في الأصح شيئاً من رزقه»[3].

كل هذه التأويلات المريضة وهذا الطعن في الكرام لتبرئة جمال الدين مع أنه اعترف بخطئه أمام شاعر الترك وقد سجلها في مذكراته- كما مر بنا-.

ويعلق الدكتور محمود قاسم على تأثير الحادثة على نفسية جمال الدين فيقول: « هذا الحادث ترك في نفسه هو أثرا لم يَنْمَحِ، بل

(١) الاسلام والحضارة ص ٧٥ ــ ٨٩.
(٢) جمال الدين الأفغاني ــ محمود قاسم ــ ص ٢٠.
(٣) المرجع السابق ص ٢٠.

حدد موقفه من رجال الدين الرسميين، وهو موقف الحذر بل السخرية والتهكم أحيانا»[1].

نعود الى جمال الدين الأفغاني لنرى أين وصل.

هذه المحاضرة التي ألقاها في دار الفنون في اسطنبول أقامت عليه الدنيا وأقعدتها وعلى رأسهم شيخ الاسلام حسن فهمي افندي ورفعوا أمر الأفغاني الى السلطان وكتبت ضده رسائل منها ما كتبه الشيخ مصطفى المغربي والد تلميذه ومريده عبد القادر المغربي الذي مر ذكره بعنوان (عين الصواب في الرد على من قال ان الرسالة والنبوة صنعتان تنالان بالاكتساب)».

وأمام هذا الاتهام ثارت ثائرة جمال الدين، وطالب بمحاكمة شيخ الاسلام ومن رموه بالالحاد والانحراف وانقسم الرأي العام المثقف بين مؤيد له وضده، فأبدى السلطان رغبته في أن يغادر جمال الدين الآستانة، فامتثل الأمر وعزم على الذهاب الى الهند عن طريق مصر.

جمال الدين في مصر: واصل الأفغاني رحلته، فوصل مصر، ولكن رياض باشا- وزير المعارف استطاع ان يغير عزمه الى البقاء في مصر فسكن في القاهرة وأجرى له راتبا شهريا مقداره عشر جنيهات، ولكن ما الذي دعى رياض باشا لهذا العمل ومن أين يعرف جمال الدين؟

الجواب على هذا عند رشيد رضا اذ يقول: « جاء مصر وكان قد تعرف في الآستانة على رياضها المشهور (وزير المعارف انئذ)» فأكرم مثواه، اجلالا لعلمه، وأنزله حجرة في الجامع الأزهر وعين له راتبا رابيا مع وظيفة التدريس بعد أن محضه النصح بأن يلتزم خطة الشرع الأنور والدين الحنيف»[2].

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢.
(٢) تاريخ الأستاذ الامام جـ١ ص ٤٤.، تطور الصحافة: الجندي ص ٣٩٥.

ثم اختلف المترجمون في دخوله الأزهر وتدريسه فيه، فمنهم من يقول بأنه لم يدخل الأزهر مطلقا وبعضهم يقول بأنه دخل الأزهر ودرّس فيه ثم خرج منه أو أخرج.

يقول **سليم عنحوري**: «ثم لاح له أن يغادر الأزهر فاتخذ له في حارة اليهود بيتا ما لبث أن صار منتدى العلماء والأدباء»[1].

أما الدكتور **محمود قاسم** فلا يجزم بشيء ولكنه يؤكد أن جمال الدين سكن بحارة اليهود أو بخان الخليلي فيقول: «ويقال انه سكن في الأزهر ثم تركه، ويقال انه كان ينزل بخان الخليلي أو بحارة اليهود»[2].

فأما حارة اليهود فقد ذكرت صراحة في عدة مراجع. أما خان الخليلي فقد وردت في تسميته عدة وجوه فمثلا عباس محمود العقاد عندما ترجم لسعد زغلول ذكر أن سعد زغلول «اختلف الى مجلس السيد جمال الدين في داره بخان ابو طاقية حيث كان يجلس لتعليم تلاميذه»[3]. فهل خان الخليلي وخان أبو طاقية شيء واحد أو أنه غيره؟.

الدكتور **علي الوردي** يحدد لنا موقعا كأنه غير الاثنين فيقول: «اتخذ الأفغاني محل سكناه في عمارة العناني في حارة أم الغلام قريبا من المسجد الحسيني وخان الخليلي»[4].

فمن هذه الأقوال يتبين أنه كانت له مجالس في بيته غير الأزهر أما رشيد رضا فهو يؤكد دخوله الأزهر ولكن هل كان مدرسا رسميا يتقاضى راتبا أم انه كان متبرعا؟ فحسب رواية **جولد سيهر** إنه كان متبرعا أما الراتب الذي كان يتقاضاه لا ليدرس ولكن على شكل هبة فرضها له رياض باشا، يقول المستشرق جولد سيهر: «كان يأخذ هذا

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام جـ١ ص٤٤.
(٢) جمال الدين الأفغاني ــ محمود قاسم ص٢٣.
(٣) سعد زغلول للعقاد ص٦٢.
(٤) لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث جـ٣ ص٢٧٥.

الراتب دون أن يسند اليه عمل رسمي من تدريس أو عمل وانما كان يعطى له هبة»[1].

فبعد هذا لا تعجب اذا قيل بانه لم يدخل الأزهر قط، واسمع الى الفيكونت فيليب دي طرازي يقول: « وكانت مدرسته بيته من اول ما ابتدأ الى آخر ما اختتم، ولم يذهب الى الأزهر مدرسا ولا يوما واحدا»[2].

ويؤيده في ذلك الدكتور محمد عمارة فيقول: « ومع ان نفرا كثيرا من طلاب الأزهر وشيوخه قد جذبهم مجلس علمه، فلم يجلس بالأزهر مدرسا، اذ كان، كما يقول الأستاذ الامام: « كانت مدرسته بيته» من أول ما ابتدأ الى آخر ما اختتم، ولم يذهب الى الأزهر مدرسا ولا يوما واحدا. نعم كان يذهب اليه زائرا»[3]. [illegible]دا ما سبب خصومة الشيخ عليش له؟

فلنسمع الى الدكتور الشيخ محمد محمدحسين يحدثنا عن تدريسه في الأزهر وموقف الشيخ عليش منه فيقول: « ولما تصدر الأفغاني للتدريس في الأزهر هاجمه علماؤه وكان الشيخ عليش اعنفهم في ذلك، فكان يروغ بعكازه على جمال الدين وتلاميذه في صحن الأزهر، حتى انقطع عنه وأصبح يجتمع بتلاميذه في بيته أو في قهوة البوستة»[4].

ويمكن الجمع بين القولين فنقول بأن جمال الدين لم يكن معينا في الأزهر مدرسا رسميا ولكنه كان يدرس في الأزهر متبرعا، أما نفي دخوله الأزهر فهذا كلام بعيد لا تحتمله النصوص التي بين أيدينا. .

وعلى كل حال لقد دخل مصر واستقبل استقبالا حارا كما استقبل سابقا في دخوله الآستانة وأكرم اكراما جيدا وأجرى له العطاء

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية جـ٧ ص٩٦ بالمعنى.

(٢) تاريخ الصحافة لطرازي جـ٢ ص٢٩٥ نقلاً عن العروة الوثقى.

الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني جـ١ ص٣٢.

(٣) د. محمد محمد حسين ــ ٨٩.

ثم انقلب الحال عليه وودع خلاف ما استقبل، وفي هذا الاستقبال الذي حظي به جمال الدين في مصر وتركيا وهذه الحفاوة والاكرام وقع الاستغراب من الدكتور علي الوردي فيقول:

«اننا على اي حال نقف هنا تجاه لغز غامض ولا بد لنا من أن نتساءل: « كيف استطاع الأفغاني أن ينال تلك الحظوة الكبيرة في اسطنبول وفي القاهرة بمجرد وصوله اليهما؟ نحن نعرف أن العشرات من رجال الأدب والعلم يفدون الى تينك المدينتين في كل عام فما هو السبب الذي جعل الأفغاني وحده يتميز عنهم جميعا بمقابلة كبار رجال الدولة ونيل المكانة الرفيعة عندهم؟ أكان الأفغاني يحمل طلسما أم ماذا؟»[1].

ونستطيع أن نجيب الدكتور الوردي على تساؤله فنقول بأن الأفغاني كان مدعوما من منظمات سرية كانت تضفي عليه هالة عظيمة كلما حل في مكان لتجعل منه رجل العصر في العلم والسياسية والله اعلم بالاسرار.

والذي يؤكد هذا الرأي أنه ما كاد يدخل مصر حتى بدأ بأعماله السرية.

وهكذا استقر الحال بجمال الدين وطابت له مصر وكانت أخصب سنوات حياته وكانت مدتها ٨ سنوات، وفي مصر ألف الحزب الوطني الحر الذي رفع شعار (مصر للمصريين) وكان العمل فيه سريا وهدفه تحقيق الديموقراطية السياسية والتحرير من الاستعمار الاوروبي والعثماني»[2]. وبلغ عدد أعضائه ٣٠٠ كلهم من كبراء القوم.

وأنشأ الصحف أو شجع على انشائها وكانت الصحافة سابقا وقفا على الدولة. كما قاد حركة ما يسمى بالاصلاح والتجديد في

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: د. علي الوردي. جـ٣ ص: ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(٢) د. محمد عمارة ص٣٣. (الأعمال الكاملة).

مصر ونشأت على أثره مدرسة حاولت التوفيق بين متطلبات العصر وبين الدين المتطور وظهر في هذا الاتجاه الشطط والخروج عن روح الشريعة، وقد انصبت الانتقادات عليه من كل جانب.

ومن الصحف التي نشأت بايعاز منه وتوجيهه جريدة مصر للكاتب أديب اسحق وستأتي ترجمته، وكان الأفغاني يكتب فيها تحت اسم مستعار (مظهر بن وضاح) ثم شجع أديب اسحق وسليم اللقاني على اصدار صحيفة (التجارة) التي كانت تصدر في الاسكندرية كما شجع تلميذه ابراهيم اللقاني على اصدار صحيفة (مرآة الشرق) التي كانت لسليم عنحوري، كما دفع الكاتب يعقوب صنوع لاخراج صحيفة باسم (أبو نظارة زرقاء) وغيرها.

اذا نستطيع أن نقول بأن جمال الدين حرك الفكر والتعليم في مصر فظهر كتاب معظمهم منحرفون ، كما ظهرت صحافة تكتب وتنقد وتقارع الحكام، ولكن ما هدفه من هذا .. سيظهر لنا فيما بعد.

ثم ان جمال الدين راح يبحث عن طريقة يجمع فيها الناس فدخل في الحركة الماسونية الاسكتلندية التابعة لبريطانيا والتي مركزها الرئيسي في لندن ثم اخذ يتدرج فيها الى أن حصل خلاف بينه وبين قيادة الحركة بسبب اعلانهم أن الماسونية لا تتدخل في السياسة فتركهم وأنشأ محفلا وطنيا مرتبطا بفرنسا فقدم لهم طلب التأسيس فوافقوا على ذلك وبدأ العمل وقسم المحفل الى فروع، وكان من أعضائها البارزين الأمير محمد توفيق ولي العهد، وكان يؤكد لجمال الدين ايمانه بالديموقراطية والاصلاح والتجديد الذي تنادي به الحركة الماسونية.

ظن جمال الدين أن الاطاحة بالخديوي اسماعيل باشا وارتقاء محمد توفيق العرش نصر للحركة التي يعمل من أجلها، فتضافرت على خلعه الحركة الماسونية مع الحزب الوطني الحر أضف الى ذلك رغبة الحكومة الفرنسية في تولية محمد توفيق.

لذلك ذهب وفد من المصريين، ومعهم جمال الدين الى وكيل دولة فرنسا في مصر وأبانوا لـه أن في مصر حـزبا وطنيـا يطلب الاصلاح ويسعى اليه. وان الاصلاح لمصر لايتم الا على يد ولي العهد توفيق باشا»[1]. وكان من ذلك أن عزل اسماعيل وتولى بعده توفيق.

ويجب أن لا يغرب عن أذهاننا أن الاصلاح والتجديد الذي تطلبه تلك الدول الكافرة انما هو ابدال الأحكام الشرعية واحلال القوانين العصرية مكانها.

لنقف هنا قليلا لنرى لماذا التجأ جمال الدين الى فرنسا لا الى غيرها من أجل عزل وال مسلم وتنصيب غيره مكانه.

ان جمال الدين الأفغاني بعد تأسيسه المحفل الماسوني الفرنسي أصبح لزاما عليه استشارة فرنسا دون غيرها في هذا الأمر، وهذا يعني أن جمال الدين أصبح تابعا لفرنسا ولا يعقل أن يعمل دون رأيها.

ثم يجب ألا ننسى أنه يوجد منافسة استعمارية شديدة بين فرنسا وانجلترا على ابتلاع الدول الضعيفة وخاصة التابعة لتركيا، وبعد أن نصب جمال الدين العداء لانجلترا وتخلى عن محفلهم لا بد له من الاستعانة بدولة تنافسها فوقع على فرنسا وخاصة انها كانت تطمع في مصر.

وكأن جمال الدين شعر خلال وجوده في المحفل الماسوني أن اسماعيل باشا لا بد من خلعه لأنه اصبح غير مرضي عنه من جميع الأطراف ، وأراد أن تصبح له يد على توفيق باشا فراح يسعى في مساعدته لتوليه العرش من بعد اسماعيل، والى هذا ذهب **أديب اسحق** اذ يقول: « ظهر للسيد جمال الدين أن الخديوي اسماعيل مخلوع لا محالة؛ فكشف الغطاء عن مقاصده السياسية، وأخذ يسعى

(١) تاريخ الاستاذ الإمام ١ : ٧٥

في انفاذ أغراضه، فلقي المسيو تريكو قنصل جنرال فرنسا ومكاتب التيمس وكلمة بلسان حزب كبير [١].

لذا نجد الخديوي توفيق بعد توليته الحكم يشكر جمال الدين على صنيعه كما نقل لنا ذلك **عبد الرحمن الرافعي** عن حاضر العالم الاسلامي للمؤرخ **شكيب أرسلان**[٢].

ومن شدة تحمسه للخديوي توفيق وتنفيذا لهذا المخطط فكر جمال الدين بالتعاون مع الشيخ محمد عبده على اغتيال الخديوي اسماعيل، اذا تعذر عليه خلعه وذلك في أثناء مروره على كوبرى قصر النيل، وذلك لأن جمال الدين كان متفقا على برنامج الحكم مع توفيق الذي نجح في ضمه الى محفله الماسوني، وقد اشترك من بعد مع **نوبار باشا** في السعي لعزل اسماعيل »[٣].

ثم يأتي رشيد رضا بخلاصته لهذا السعي فيقول: « بعد هذا ذكر ــ أي الشيخ محمد عبده ــ ما كان من سعي نوبار باشا في أوروبا لعزل اسماعيل وأشار الى ما كان من سعي جمال الدين لذلك بمصر لما كان بينه وبين ولي العهد (توفيق باشا) من المواطأة على الاصلاح اذا صار الأمر اليه »[٤].

وعلى كل حال لم يكن توفيق باشا ذاك الرجل المتحمس للاسلام ولتطبيق شريعته، وانما كان رجلا ماسونيا من أفراد محفل جمال الدين، ورغم أن اسماعيل كان مسرفا ومبذرا الا أنه كان يكره التدخل الأجنبي ويعمل على محاربته فهو خير من توفيق باشا بكثير.

خصومة توفيق له: ورغم هذا فقد عمل الخديوي توفيق باشا على نفي جمال الدين من مصر مع أول صدام حصل بينهما فتنكر له ونسي

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام جـ١ ص ٤١.
(٢) جمال الدين الأفغاني ــ جمال الرافعي ــ ص ٤٥.
(٣) الاسلام والحضارة الغربية ص ٦٧ ــ ٨١.
(٤) تاريخ الأستاذ الامام جـ١ ص ٧٤.

معروفه له وخاب ظنه فيه ونقض تعهداته له، وفي سبب هذا التحول تضاربت الأقوال.

قيل أن سببه سعاية سعاها القنصل الفرنسي والقنصل الانجليزي بمصر، اذ صورا للخديوي الحركة الديموقراطية المصرية في صورة الخطر على سلطته وسلطانه[1].

ولعل هذه السعاية هي الايحاء للخديوي توفيق بأن جمال الدين يسعى لازاحته عن العرش كما أزاح اسماعيل اذا لم يمتثل تعليماته ويصبح أسير أفكاره.

والى هذا ذهب سليم عنحوري اذ يقول: « وعلا أريكة الخديوية صاحب السمو الأمير توفيق وكان من الواجدين على جمال الدين فأخذ يجوس مرامي اقواله ويرود مرامي افعاله حتى علم انه ممن ينزعون الى ابدال الحكومة المقيدة بجمهورية شورية تحدثه نفسه بتولي زعامتها »[2].

وعلى حسب رأي سليم عنحوري فان جمال الدين كان يهيء الشعب بالاتصال به عن طريق الحزب والمحفل الماسوني ليتولى رئاسة الدولة، ولذا كان الخديوي توفيق يخاف من قيام ثورة يترأسها جمال الدين.

وكان شكيب أرسلان يرى أن الدس وصل الى الخديوي بقيام ثورة ثانية أو غير الثورة فقد تكون اغتيالا لتوفيق ولا بد من اقامة الحكم الجمهوري الذي عاهد توفيق عليه عندما كان في المحفل الماسوني[3].

وفي رأيي ليس الأمر وشاية ولا دسيسة فقط بل ان جمال الدين نفسه عبر عن أفكاره وأهدافه في مجلس الخديوي مما جعل مجال الريبة أوسع، وقد دار بينه وبين الخديوي حوار، اذ قال توفيق للأفغاني: « مع الأسف ان أكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقون

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين جـ١ ص٣٦.
(٢) تاريخ الأستاذ الامام جـ١ ص٤٨.
(٣) جمال الدين الأفغاني ــ للرافعي ــ ص ٤٥.

من الدروس والأقوال المهيجة فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة ». فقال له جمال الدين: « ليسمح لي سمو أمير البلاد... ان قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم في اشراك الأمة في حكم البلاد على طريق الشورى فتأمرون باجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذ باسمكم وبارادتكم يكون ذلك اثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم (١).

والمدقق لهذه المناقشة يجد أن جواب جمال الدين يتضمن تهديدا واضحا فكيف بعد هذا لا يخاف الخديوي توفيق على نفسه منه، فلا يستغرب نفيه بعد ذلك.

وفي رأي المستر براون أن بريطانيا وحدها هي التي أوعزت الى الخديوي توفيق بنفي جمال الدين بعد ان رابها نشاطه السياسي (٢).

ولعل ما رابهم من نشاطه تأسيس المحفل الماسوني التابع لفرنسا والتخلي عن المحفل الاسكتلندي.

ويؤيد هذا الرأي كل من الدكتور علي الوردي والدكتور سامي عزيز، يقول الدكتور علي الوردي: « اختلفت الاقوال في تعليل نفي الأفغاني من مصر، فمنهم من ذهب الى أن الخلاف في الرأي بينه وبين توفيق باشا كان هو السبب في نفيه، ومنهم من قال بأن نفيه انما جرى بضغط من المستر فافياني قنصل بريطانيا العام في مصر.

وللباحث المصري الدكتور سامي عزيز رأى غريب في هذا الموضوع اذ يقول: « ويلاحظ في دراسة تاريخ الأفغاني أن الانجليز سكتوا عنه وهو في مصر طالما كان عضوا في الماسونية الانجليزية، ولكنه عندما خرج عليها وأنشأ المحفل التابع للشرق الفرنسي وأخذ يهاجم سياسة بريطانيا، عندئذ أشار الانجليز على توفيق بضرورة التخلص منه (٣).

وهكذا فبعد أن كان توفيق يقول لجمال الدين: « أنت موضع أملي

---

(١) المرجع السابق ٤٥.
(٢) الاسلام والتجديد في مصر ص ١٠ هامش عن الثورة الفارسية للمستر بروان ص ٨.
(٣) لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث جـ٣ ص ٢٨٣.

في مصر ايها السيد» ثم ها هو ذا يصدر أمرا بنفيه من البلاد. وأصدرت الحكومة بيانا بسبب طرده من البلاد قالت فيه: « انه رئيس جمعية سرية من الشباب ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا»(١).

ولعل هذا ليس هو النص الحقيق في سبب طرده وذلك لأن الدكتور توفيق طويل ينقل لنا نصا قريبا منه يختلف معه بعض الاختلاف في الالفاظ والمعاني فيقول: « فقرر مجلس الوزراء نفي جمال الدين الأفغاني من مصر بحجة أنه (رئيس جمعية مطرود من بلاده ثم من الآستانة العلية لما ارتكبه من امثال هذه المفسدة في ديارنا المصرية)(٢).

وهكذا أخرج من مصر الى ميناء السويس واودع في باخرة ذاهبة الى ميناء بمباي الهندي وأرسلوا كتبه والاشياء التي يمتلكها الى ميناء بندر بوشير في ايران ظنا منهم أنه سيعرج عليها.

جمال الدين في الهند: اما خادمه **ابو تراب** فسجن زمنا ثم اطلق سراحه فاتى بيروت (٣). وأما جمال الدين فلم يذهب الى ايران كما توقع نافوه من مصر بل انه ذهب الى الهند فوصل بومباي واقام هناك وشارك بقسط من الحياة الفكرية عندما تصدى للدفاع عن فئة تعارض فئة اخرى من الهنود كانت الحكومة الانجليزية في الهند تناصرهم في تقديم العلوم العصرية والتفسيرات الحديثة لقضايا الكون وظواهره مع مزجه بشيء من الانحراف، فرد عليهم جمال الدين برسالة ألفها في الرد على الطبيعيين أو الدهريين سماها (الرد على الدهريين) وكانت باللغة الفارسية وقد قام بترجمتها الى العربية خادمه **ابو تراب**، فيما بعد.

وقد مكث في الهند ثلاث سنوات لا نعرف عن حياته فيها سوى أنه ألف تلك الرسالة وهي (الرد على الدهريين) فكيف أمضى تلك المدة وماذا صنع فهذا ما يحير الدكتور علي الوردي (٤). ثم يذكر قصة عجيبة

---

(١) زعماء الاصلاح في العصر الحديث ص ٧١ ــ ٧٦.
(٢) الفكر العربي في مائة سنة ص ٣٠١.
(٣) تاريخ الأستاذ الامام جـ١ ص ٤٨.
(٤) لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث جـ٣ ص ٢٨٣.

في تأليف هذا الكتاب أو الرسالة فيقول: « كان المسلمون في الهند يعانون صراعا شديداً بين تراثهم الديني القديم وما جاءت به الحضارة الأوروبية من مفاهيم ونظم حديثة .

والواقع أن المسلمين في جميع أقطارهم كانوا يعانون مثل هـذا الصراع ولكن المسلمين في الهند سبقوا غيرهم في ذلك، وكان الصراع بينهم أشد وفي القرن التاسع عشر ظهر في الهند مفكر اسلامي حاول أن يوفق بين ذينك التيارين المتصارعين واندفع في ذلك بحماس منقطع النظير هو السيد **احمد خان**.

فقد نظر هذا الرجل الى حالة المسلمين في زمانه فوجدهم كما يقول الدكتور احمد أميـن يرزحون تحت وطأة الفقر والجهل والقلق، وكان رجال الدين فيهم لا يفهمون من الدين الا رسمه ويريدون أن يخضعوا العالم الواسع لتعاليمهم الضيقة فحرموا المدارس الحديثة وكل ما جاءت به الحضارة الاوربية من نظم، وقد أرسل الهندوس أبناءهم الى تلك المدارس ونالوا الوظائف بينما بقي المسلمون في معزل عن ذلك اذ هم لم يدخلوا المدارس الحكومية ولم يؤسسوا مدارس خاصة بهم.

نهض السيد احمد خان يدعو المسلمين الى تبني الحضارة الحديثة وعلومها وكان من رأيه أن العلوم الحديثة لا تعارض في حقيقتها التعاليم الدينية.

وفي عام ١٨٧٥ وضع في بلدة عليكرة بذرة مدرستها المشهورة ليجعل منها جامعة اسلامية تنشر الثقافة الحديثة بين المسلمـين، وقد أحدثت حركة السيد احمد خان ضجة كبرى في الهند، فكثر أتباعها كما هاج عليها رجال الدين والعامة.

اطلق خصوم السيد احمد خان على حركته اسم (النيشرية) وهو نبذ لها اذ هو ماخوذ من لفظة (الطبيعة) الانكليزية، فقد اتهمها الخصوم بانها تؤمن بالطبيعة وتنكر وجود الله، واتهموها ايضا بأنها من صنع الانجليز الكفار الذين يريدون بها هدم الاسلام. وتعرضت حياة السيد

احمد خان للخطر من جراء هذا التهمة التي الصقت بحركته، فقد حاول احد العوام طعنه بخنجر ذات مرة غير أنه نجا بأعجوبة، وظل ثابتا جريئا في دعوته ولم يتزحزح عنها ولم يداج فيها.

وصل الأفغاني الى الهند في الوقت الذي كان فيه الصراع على أشده بين أنصار السيد أحمد خان وخصومه ، وكان المتوقع منه أن يقف إلى جانب السيد أحمد خان لأنه كان مثله يعتقد أن العلوم الحديثة لا تعارض التعاليم الدينية ، ولكنه لم يفعل ذلك بل فعل عكسه وقد ألف كتابه « الرد على الدهريين » لهذا الغرض فملأه بالتهجم المقذع على السيد أحمد خان وأنصاره وألصق بهم تهمة الالحاد .

كان رأي الأفغاني في السيد احمد خان وأنصاره أنهم يتظاهرون بمظهر الاسلام نفاقا بينما هم يضمرون الحقد والغل اذ هم باعوا أنفسهم للانجليز فاتخذهم هؤلاء أعوانا لكي يفسدو بهم عقائد المسلمين ولكي يزيلوا منهم الاعتزاز بدينهم فتخمد حميتهم ويتبدد شملهم وبذلك تكون الغلبة للانجليز عليهم(١).

مما سبق يتبين لنا أن جمال الدين ما ألف كتابه لمحاربة فرقة دهرية تنفي وجود الله وتؤله الطبيعة وانما لمحاربة جماعة أطلق عليهم اسم النيشريةوهي الطبيعة والطبيعة كانت تعرف لدى الأقدمين بالدهريين، ثم ان جمال الدين كانت عدواته لهم لا لنصرة الدين وانما لمآرب في نفسه قد تكون حب المنافسة والظهور.

ويقال ان الحكومة البريطانية نقلته وهو في الهند من بمباي الى كلكتا عندما قامت الثورة العرابية عام ١٨٨٢ م أي بعد اخراجه من مصر بثلاث سنوات، ويقال أيضا انها حددت اقامته ومنعته من التنقل حيث يشاء الى أن انتهت الأحداث باحتلال مصر وهزيمة عرابي، وعند ذلك سمحت له بالسفر حيث يشاء.

ولنا هنا وقفة تأمل في هذا العمل المجمع عليه من قبل المترجمين له، لماذا نقلته من بمباي الى كلكتا؟ ولماذا حددت اقامته؟ اذ كان بامكان

---

(١) لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث جـ٣ ص ٢٨٤ .

الحكومة البريطانية تحديد اقامته وهو في بمباي. وهل كانت تخاف أن يفر فيلتحق بالثوار، مع أن أحمد عرابي وجيشه لم يستطع الصمود أمام الجيوش الحديثة والكثيفة. ثم هو الذي اختار في البداية الهند فلماذا لم يذهب الى بلد حر مستقل أو الى بلد مقدس كالحجاز مثلا لينشر الاسلام هناك إذا كان حريصاً عليه؟

جمال الدين في اوروبا: وبعد أن أمضى تلك المدة الطويلة في الهند تركها وأبحر قاصدا باريس سنة ١٣٠٠ هـ/١٨٨٣م، وأثناء عبور سفينته قناة السويس بعث بخطاب الى تلميذه الشيخ محمد عبده، الذي كان منفيا يومئذ ببيروت تنفيذا لأحكام المحكمة الخاصة التي حاكمت زعماء الثورة، وطلب منه الالتحاق به في باريس.

ولقد عرج الأفغاني على لندن لبضعة أيام، وهو في طريقه الى باريس، وفي باريس استضافه المستشرق الانجليزي الذي كان يناصر الثورة العرابية (ولفرد سكاون بلنت) في منزله. وسيأتي معنا عند البحث عن علاقة الأفغاني بالانجليز كيف أن هذا المستشرق كان يعمل على هدم الخلافة الاسلامية.

والسؤال الذي يرد الى الذهن هنا هو أن الأفغاني قصد لندن فهل كان يقصد أمرا أم أنه ذهب للتنزه؟

وقبل أن ننتقل الى نقطة غيرها من حياة الأفغاني يجب الوقوف قليلا عند خبر يقول بأن الأفغاني ذهب الى أميركا قبل أن يصل الى اوروبا وهذه الرواية منقولة عن المستر (بلنت) وهو ينقلها عن المستر (براون) وذلك أنه ذهب الى أمريكا ليتجنس بالجنسية الأميركية وأقام بها أشهرا ولم ينفذ ما اعتزمه [١].

وقد نقل هذه الرواية المستشرق (جولد سيهر) وعلى ما يظهر أن الرواية نفسها نقلها الدكتور أحمد أمين في كتابه، ثم رد عليها واستبعدها ، وجولد سيهر ينقل الخبر من مذكرات بلنت اذ يقول: « وقد عرفنا من

---

(١) زعماء الاصلاح في العصر الحديث ص ٨٠.

مذكرة (ولفرد سكاون بلنت) الذي كان معنيا بالسياسة المصرية أمرا لم يذكره غيره من كتّاب سيرة جمال الدين، وهو أن السيد خرج من الهند قاصداً أميركا وبقي فيها بضعة أشهر، وكان في نيته أن يتجنس بالجنسية الأميركية، والظاهر أنه لم ينفذ هذا العزم»(١).

وقد قام الدكتور أحمد أمين بالتعليق على هذا الخبر فقال: « وأنا أستبعد رواية مستر بلنت لأن السيد خرج من الهند وسافر بحراً عن طريق البحر الأحمر، فلما كان ببور سعيد كتب الى الشيخ محمد عبده كتاباً لا تزال محفوظةً صورتُه الفوتوغرافية يقول فيه: « أنا الآن في بربط سعيد اذهب الى لندرة، ان أخبار العالم كانت قد انقطعت عني مدة سبعة أشهر ، ولذا لا أدري مستقر عارف (٢)». (وهو تابعه).

وبمثل ما استشكل الدكتور أحمد أمين استشكل غيره وان كنت أنا لا أستبعد ذلك عن جمال الدين الافغاني، وقد ورد في كتاب الاسلام والتجديد في مصر العبارة التالية: « ذكر ولسون في كتابه (الحركات الحديثة) ص ٧٢ أن جمال الدين سافر في ذلك الوقت الى أمريكا ليتجنس بالجنسية الأميركية، ولكنه لم يقم بها، ويظهر أنه اعتزم ذلك الأمر غير أنه من المشكوك فيه أن يكون قد أنفذه ولم يشر براون وهو صديق شخصي لجمال الدين الى زيارته لامريكا في ترجمته له.

ويقول (بلنت) وهو أيضا صديق شخصي لجمال: (لقد حاولت أن أقف على احوال جمال في امريكا التي يقال انه سافر اليها بعد تجواله عامين في الهند).

ويقول ميشيل في مقدمة الرسالة ص ٢٢ : (ان رسائله التي لم تنشر والتي أتيح لنا الاطلاع عليها تدل على أنه لم يكن من الممكن أن يقوم بهذه الرحلة)»(٣).

لماذا يستبعد الدكتور أحمد أمين وغيره سفر جمال الدين الى امريكا؟

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية جـ٧ ص ٩٧.

(٢) زعماء الاصلاح في العصر الحديث. ص ٨٠

(٣) الاسلام والتجديد في مصر ص ١١ هامش.

وهل كان المستر ولسون يرجم بالغيب أو أنه وقع على وثيقة أو مستند في ذلك ولم يطلعنا عليه؟

فأنا لا أستبعد هذه الرحلة لأن جمال الدين يحب الترحل وسيأتي معنا كيف سافر الى روسيا دون أن يعلم أحد بعزمه على ذلك.

ومن كتاب جمال الدين الأفغاني الى الشيخ محمد عبده يمكن أن نستنتج بعض الأمور، فهو يقول في رسالته الى الشيخ محمد عبده: «ان أخبار العالم كانت قد انقطعت عني مدة سبعة أشهر» فلماذا انقطعت عنه أخبار العالم في هذه المدة؟ ألا نفهم منها أنه ذهب الى مكان بعيد جداً فانقطعت عنه الأخبار، والا فالباخرة الذاهبة من كلكتا الى بورسعيد تمر بعدة محطات يمكنه التزود منها بالأخبار عن طريق الصحف المنتشرة في هذه الموانيء الكبيرة كجدة والسويس وعدن، خاصة وأن هذه الموانيء يمر منها الحجاج من جميع أقطار العالم.

ثم هو يقول بأن المدة التي أمضاها منذ خروجه من كلكتا الى بورسعيد سبعة أشهر مع العلم أن الباخرة العادية تستطيع قطع هذه المسافة بأقل من شهر فأين الستة أشهر الباقية؟

وعلى كل حال فقد ارسل كتاباً الى محمد عبده في بيروت وكان قد نفي من مصر بعد فشل ثورة عرابي يطلب منه اللحاق به في باريس ففعل والتقى الشيخ وتلميذه في باريس وعملا على الاتصال بالجمعيات والمنظمات الثورية أمثال جمعية الاتحاد والترقي وجمعية العروة الوثقى السرية التي كان لها فروع في بلاد الشرق ثم أخرجا معا مجلة العروة الوثقى، فكان الأفغاني مديرها السياسي ومحمد عبده محررها الأول أو رئيس التحرير فصدر منها ١٨ عدداً ثم توقفت عن الصدور، وكانت تمول من الجمعية.

أما أسباب توقفها فذكر المترجمون أسباباً كثيرة منها ما رواه الوردي يقول: «والمظنون أن من أسباب توقفها ما وقع من خلاف بين الأفغاني والشيخ محمد عبده حول توجيه سياستها فقد بدأ الشيخ محمد عبده يسأم من الأشتغال بالسياسة ويميل الى مثل منهج السيد احمد خان في مهادنة

الاستعمار البريطاني والاتجاه نحو اصلاح الناس عن طريق التعليم والتهذيب، وقد عرض الشيخ محمد عبده على الأفغاني محاولا اقناعه فلم ينجح في ذلك. . .[1].

وكانت أفكار ومعاني العروة الوثقى من الشيخ جمال الدين، أما الصياغة والتحرير فمن الشيخ محمد عبده، وكان ميرزا محمد باقر، وهو أحد تلاميذ الأفغاني، فارسي الأصل، يترجم للمجلة من الصحف الأجنبية كل ما يهم العالم الشرقي[2].

وفي فرنسا حصل بين الأفغاني وبين المستشرق الفرنسي (رينان)، نقاش حاد على اثر محاضرة ألقاها رينان في السوربون اتهم فيها الاسلام بالعداء للعلم وتقييد حرية العلماء، وكان رده عليه بمحاضرة ألقاها وطبعت في كتيب ونشرتها صحيفة (ديا) الفرنسية.

جمال الدين في روسيا: بقي الأفغاني في اوروبا الغربية يتنقل بين باريس ولندن حتى منتصف سنة ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦ م حيث عزم التوجه الى اوروبا الشرقية، روسيا وما حولها، والى شبه جزيرة العرب، وعلى ما يظهر أنه تلقى أمرا من أسيادة بالتوجه الى روسيا لأنه لا يوجد أي مسوغ لتركه أوروبا الغربية سوى قصة يذكرها البعض من أنه اختلف مع بلنت الذي كان ضيفا عنده وسيأتي تفصيل هذه القصة فيما بعد عند الكلام على علاقة جمال الدين بالدولة البريطانية.

تلاميذه المقربون يقولون بأنه ذهب الى روسيا على أمل اقامة خلافة اسلامية وغيرهم يقول غير ذلك.

وقبل أن يدخل روسيا دعاه ناصر الدين شاه ايران الى طهران وطنه الأصلي ووعده بالعمل على اصلاح ايران فرحل الى طهران وفي طريقه الى طهران نزل ضيفا على أحد أولاد الشاه ثم توجه الى طهران وهناك راح يخطط مع الشاه لاقامة حكم دستوري، ولكن سرعان ما اختلف مع الشاه وشعر جمال الدين أنه أصبح في موقف حرج وخشي

(١) لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث ٣ / ٢٨٨.
(٢) زعماء الاصلاح في العصر الحديث / ٨١.

الصدام مع الشاه فاستأذن في الرحيل عن ايران الى بلاد الروس لعمل مجهول.

أقام الأفغاني ثلاث سنوات في روسيا على رأي المقلين، والبعض الآخر يقولون بأنه أقام في روسيا أربع سنوات.

وعلى كل حال لقد أطال المكث في روسيا.

ثم ان جمال الدين الأفغاني بعد أن أمضى هذه المدة الطويلة في روسيا وأثناء اقامته في بطرسبرج زارها الشاه ناصر الدين ورغب في لقاء جمال الدين ولكن جمال الدين رفض المقابلة، وسافر الى ميونخ في المانيا على عزم مواصلة السفر الى باريس لمشاهدة معرضها، لكن الشاه أدركه في ميونخ، وسعى الى لقائه فقام بعض رجالات السياسية في المانيا لترتيب أمر اجتماعه بالشاه، فعرض عليه الشاه العودة ثانية الى طهران فرفض، فألح الشاه واعداً إياه بتوليته منصب رئيس وزراء، فوافق على ذلك.

ويبدو أنه كانت للألمان مصلحة في عودة الوفاق بين ايران وجمال الدين، لأنهم كانوا يرغبون في وساطته لدى أصدقائه الروس والحقيقة أن المانيا في أواخر القرن التاسع عشر بدأت تظهر على المسرح الدولي كمنافس استعماري لكل من فرنسا وبريطانيا، فأرادت اشغال روسيا بايران عن طريق الأفغاني كي لا تقف في وجه ألمانيا في تنافسها مع فرنسا وبريطانيا والله أعلم.

جمال الدين في طهران: وأخيرا وصل طهران سنة ١٣٠٧ هـ/ ١٨٩٠ م، واستلم مهامه وأخذ ينشر آراءه. ولكن سرعان ما عاد الخلاف بينه وبين الشاه مرة أخرى وبشكل حاد ومن أول لقاء بالشاه في طهران ومن خلال نقاش دار بينهما يتبين للباحث المدقق أن الخلاف لا بد أن يقع بينهما فقد قال الشاه لجمال الدين:

«يا سيدنا انك قد أتيت أهلا ونزلت سهلا، فقل الآن ما تريده

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص ٤١ / ١.

وما تطلب مني أن أفعله». فقال جمال الدين: « أريد شيئين: أذناً صاغية تسمع ما أقوله، وارادة قوية تأمر باجراء ما سمعته».

فهذا الرد من جمال الدين أوقع الشاه في شك عظيم وهو أن الشاه قد أصبح تابعا وجمال الدين الآمر، فلم يكن أسلوب مخاطبته تليق بالملوك ولا أدنى من الملوك، وكان ذلك سببا في ايغار صدر الشاه عليه وزاد في ذلك أواراً حاشيته وعلى رأسهم الصدر الأعظم.

وقد تهيب الشاه من جرأة جمال الدين، وشرع بوضع العراقيل امامه وبدأ جمال الدين يوجه النقد تلو النقد للشاه. وبعد عدة شهور تصاعد العداء بين جمال الدين والشاه وبلاطه، وعرف جمال الدين أن مشاريعه لن تحظى بالقبول بعد هذا، فطلب أن يسمح له بالسفر الى أوروبا، ولكن الشاه رفض ذلك وأراد وضعه تحت الحراسة الشديدة داخل ايران، ويصف جمال الدين هذه الحقبة العصيبة من حياته فيقول: « فبعد أن مكثت مدة في بلاده طلبت الذهاب الى اوروبا، فمنعني وسمعت منه كلاما خشنا في حقي، وآراء رديئة مآلها الحجر علي في البلاد الايرانية.. فأعملت الحيلة وذهبت الى (مقام عبد العظيم) وهو من أحفاد بعض الأئمة ومقامه حرم من دخله كان آمنا»، فمكثت هناك سبعة أشهر، كتبت في أثنائها عدة مقالات وحررت في الجرائد جملة كتابات في مثالب الشاه المذكور وحث الشعب على خلعه».

اتفق البلاط على طرد جمال الدين من البلاد، وفي شهر شعبان ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١ م أصدر الصدر الأعظم (أصغر خان) أمره الى حاكم (مقام عبد العظيم) [١]. بالتنفيذ فاقتحمت قوة من الجند الدار الذي ينزل فيه جمال الدين وقبضوا عليه واقتادوه في شتاء قارس بلغ ارتفاع الثلج فيه الى الركبتين وأخرجوه من ايران الى الحدود العراقية.

وبقيت هذه الصورة المزرية في ذهنه يذكرها حتى بعد أن استقر في الآستانة، يقول ميرزا حسين خان دانش الأصفهاني- الذي كان يحضر مجالسه في تركيا-: « وكانت عيناه أثناء كلامه عن ذلك الحادث تحمران

(١) مدينة في ايران.

وتدوران في محجريهما في حرارة وشدة وتتوجان كسراج يتقد، ويظل مدة على تلك الحال دون أن يستطيع كظم الغيظ أو الهدوء».

هذه الروايات في سبب الخلاف بين الشاه وجمال الدين جاءت مبهمة اذ لم تذكر لنا السبب المباشر لطرد جمال الدين، ولكن أنور الجندي يستظهر رواية تبين سبب الخلاف المباشر فيقول: «قصد جمال الدين الى فارس، حيث كلفه الشاه بأن يضع القانون الأساسي لمحكمة فارس، لتكون حكومة ملكية شورية، فلما وضع جمال الدين الدستور انزعج له الشاه أيما انزعاج وصدق وشايات الصدر الأعظم من أن ما وضع من القوانين ينزع منه سلطانه ويضمه الى السوقة والفلاحين، وهناك سافر جمال الدين الى بلدة الشاه عبد العظيم وقد تبعه عدد من العظماء والعلماء حيث أخذ يشجعهم على اصلاح حكومتهم، فخاف ناصر الدين وأوفد الى بلدة (شاه عبد العظيم) مائة فارس حيث قبضوا على جمال الدين [1].

وواضح من هذه الرواية أنه كان يحرض الشعب على الثورة، والاطاحة بالشاه فهذا وحده مسوغ لالقاء القبض عليه واخراجه ن ايران وان كان يستطيع أن يحاكمه بالخيانة العظمى ويعدمه.

أخرج جمال الدين من ايران وأدخل العراق وفي بغداد استقبلت السلطات العثمانية جمال الدين وأكرمته في أول الأمر، ولما رغب في زيارة المشاهد المقدسة هناك اعتذروا، كما سمحوا له بالتجول في أي بلد يختارها من شبه جزيرة العرب، ثم جاءت الأوامر من الآستانة بنقله من بغداد للبصرة، وهناك التقى بأحد علماء الشيعة المنفيين، وهو الحاج (سيد علي أكبر شيرازي)، فحمله مهمة توصيل رسالته الشهيرة «حجة الله البالغة وحملة القرآن» التي وجهها الى عالم الشيعة (**الحاج محمد حسن المجتهد الشيرازي**) وبقية العلماء والمجتهدين في كربلاء والنجف وسامرا.

ومضمون الرسالة التحريض على مقاطعة شركة الريجي الانجليزية

---

(١) أعلام وأصحاب أقلام ص ١١٢.

التي احتكرت بيع الدخان في ايران بأكملها بموجب عقد بين الدولة والشركة، ومن قراءة نص الرسالة نجد عباراتها جاءت موافقة لأسلوب الشيعة في النعوت وطريقة الخطاب وها هو نصها: « بسم الله الرحمن الرحيم: حقا أقول: ان هذا الكتاب خطاب الى روح الشريعة المحمدية اينما وجدت وحيث ماحلت... حبر الأمة، وبارق أنوار الأئمة، وعامة عرش الدين، واللسان الناطق عن الشرع المبين، جناب الحاج ميرزا محمد حسن الشيرازي صان الله به حوزة الاسلام..

لقد خصك الله بالنيابة العظمى عن الحجة الكبرى واختارك من العصابة الحقة... وأنت وارث الأنبياء.. وان الأمة قاصيها ودانيها وحاضرها وباديها ووضيعها وعاليها قد أذعنت لك بالرئاسة السامية الربانية وجاثية على الركب، خارة على الأذقان تطمح نفوسها اليك في كل حادثة تعتورها، تطل بصائرها عليك في كل مصيبة تحسها وهي ترى أن خيرها وسعدها منك، وأن فوزها ونجاتها بك، وان أمنها واماني‌ها فيك...[1].

وبعد هذه المقدمة الطويلة يشرح له وضع الشاه ويهيجه عليه ليضطره لالغاء الامتياز الذي أعطاه الشاه للشركة باحتكار التبغ والتنباك.

فبعد هذه الرسالة يصدر المجتهد ميرزا محمد حسن الشيرازي فتواه الشهيرة بتحريم التبغ والتناك ـ كما يقولون ـ فكسدت بضاعتهم لاحجام الناس عن شرائه فألغيت المعاهدة ودفع الشاه التعويض للشركة وبذلك حقق جمال الدين انتصارا أوليا على الشاه، وقيل بأن رسالته السبب في تحريمه.

ومن الطرائف التي يذكرونها بهذا الخصوص والذي يدل على طاعة الشعب الايراني لعلمائه، أن الشاه كان مولعا (بالشيشة) فاصبح ذاك اليوم، الذي أصدر فيه الشيرازي فتواه المشهورة، فطلب من الخدم

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام جـ١ ص٥٦.

اعداد الشيشة فأخبروه أن ليس في القصر تنباك وأنهم تخلصوا من الشيشة لأن المفتي أصدر أمره بتحريم التنباك.

غادر الأفغاني العراق الى لندن قبل أن تصدر الآستانة أمرها بمنعه من السفر، وهناك أخذ في الخطابة والكتابة ضد الشاه ناصر الدين، ولم يوقف حملته هذه احتجاج السفير الايراني بلندن لدى الحكومة البريطانية، كما كتب هناك في صحيفة (ضياء الخافقين) التي كانت تصدرها هناك احدى الشركات بالعربية والانجليزية على أنه عطلت الحكومة البريطانية الصحيفة.

وقد عرض عليه سفير ايران في لندن عروضاً مغرية في سبيل اسكاته فلم يفلح، وكان جوابه له: « لا أتمنى الا أن تزهق روح الشاه، ويشق بطنه، ويوضع في القبور» هذه عبارة الدكتور محمد عمارة ولكن الشيخ رشيد رضا يكتب العبارة السابقة التي قالها جمال الدين الأفغاني مع شيء من الاختلاف وهي كما يلي:

« لا أرضى الا ان يقتل الشاه ويبقر بطنه ويوضع في القبر» وفي العبارتين خلاف فالدكتور عمارة قال: « ويوضع في القبور» وهي قولة الأفغاني الصحيحة التي توافق عجمته وفارسيته، أما قول رشيد رضا: « ويوضع في القبر» فهي الخطأ. ثم ان قول الأفغاني «يبقر بطنه» هي الصحيحة وليست عبارة الدكتور عمارة وهي «ويشق بطنه» والله اعلم.

جمال الدين في الآستانة: ويذكر المترجمون أن الشاه تضايق جدا من حال جمال الدين الأفغاني لشدة ما حط من مكانته فسعى الى السلطان عبد الحميد كي يعمل على دعوته الى الآستانة ويعمل على ايقاف حملاته ضد الشاه والتشهير به. فقام السلطان عبد الحميد بالمساعي الحميدة فاستدعاه الى بلاده ، وكانت الدعوة بواسطة الشيخ ابي الهدى الصيادي الذي نجح باسلوبه في اقناعه فسافر الأفغاني الى الآستانة واستقر فيها.

وهكذا أفلح السلطان في اصطياد جمال الدين ووضعه في قفص من ذهب عام ١٣١٠ هـ/ ١٨٩٢م على أمل الاصلاح والتجديد وترسيخ

القوانين في ربوع تركيا الاسلامية وحاضرة العالم الاسلامي.

يقول شكيب ارسلان: « ومن الغريب أن الشاه بعد أن خلي سراح جمال الدين وذهب الى أوروبا بلغ الشاه أن المترجم كان يسعى على تدبير مكيدة مع بعض الايرانيين لخلع الشاه أو قتله، فندم جدا على افلاته، ويقال إنه هو الذي بعث الى السلطان عبد الحميد يرجو منه استقدام جمال الدين اليه ووضعه تحت المراقبة أمانا من شر غوائله، فاستقدمه السلطان بكتاب من قلم ابي الهدى. ولما ورد الآستانة أمر بالمبالغة باكرامه ليلهيه عن عداوة شاه العجم [1]

ويقال في دعوة السلطان عبد الحميد سبب آخر وهو خوف السلطان من انضمام جمال الدين الى جمعية تركيا الفتاة وكان قد اجتمع بهم في باريس وأطلعوه على خطتهم في اصلاح الدولة العثمانية فوافقه مذهبهم وشجعهم على عملهم وسمى جمعيتهم بالجمعية الصالحة، وعلم السلطان عنه ذلك بواسطة جواسيسه فعمل على استقدامه بحيلة الى الآستانة [2].

والواقع أن كلا الأمرين وقعا، وعمل السلطان عبد الحميد ذلك ليسجل على الشاه خدمة قام بها من أجله، وليتخلص من مؤامرة الاتحاديين ضده.

ويذهب محمود أبو ريه في سبب استقدامه الى الآستانة مذهبا بعيدا كل البعد عن الحقيقة، لم :جد رواية تؤيده من قريب ولا من بعيد، اذ يدعى أن السلطان عبد الحميد كان يخاف منه على عرشه فاسقدمه ليسلم على عرشه، فلنسمع الى تخرصاته اذ يقول: « وفزع أي الشاه الى السلطان عبد الحميد الذي كان أكثر طغاة الملوك في عهده، واستنصره لينقذه من جمال الدين وطغيانه، وهنا أدرك عبد الحميد مبلغ خطر جمال الدين عليه وعلى ملكه، وأنه أولى بالأمن من ملك ايران[3]. ثم يسوق خبراً مفاده أن الاتحاديين يعملون على خلع السلطان

(١) حاضر العالم الاسلامي جـ٢ ص ٢٩٦.
(٢) زعماء الاصلاح الحديث ص ٩٩.
(٣) جمال الدين الأفغاني ــ محمود أبو ريه ص ٦١.

عبد الحميد وقد اطلعوا جمال الدين على ذلك، يقول أبو ريه: «كانت دعوة جمال الدين الى الآستانة لأسباب بعيدة وعميقة، ذلك أن السلطان كان يخاف على نفسه وملكه من لسان السيد ومن قلمه فيما يكتبه في الصحف الأوروبية عن السياسة الشرقية فينتهي الأمر إلى خلعه وينقلب الحكم في بلاده من استبدادي إلى شورى وهو أمر بديهي، وهذا أمر يمقته كل المقت.

ومما زاد السلطان رعباً على رعب أن خشي أن ينضم السيد إلى جمعية تركيا الفتاة، وبخاصة بعد أن علم أن السيد وهو في باريس قد اجتمع بأقطابها وأنهم قد أطلعوه على أغراضها التي تتفق مع أغراضه[1].

اذن يفهم من كلام أبي ريه أن أسباب استقدام جمال الدين الأفغاني البعيدة هي خوف السلطان عبد الحميد على عرشه، وهذا الكلام لم يقل به أحد. مع العلم أن كلام أبي ريه يتناقض، ففي البداية قال بأن السلطان عبد الحميد أدرك خطر جمال الدين بعد أن استنجد به الشاه، ثم رجع عن كلامه وقال بأن السلطان كان يعرفه سابقا منذ أن اجتمع مع جماعة الاتحاد والترقي.

وكان الاتحاديون، على حسب كلام أبي ريه، ينتظرون جمال الدين ليعطيهم الأوامر بخلع السلطان وما درى أن الاتحاديين يعملون من أجل هذا منذ أن وجدت جماعتهم.

وهذا مطعن كبير على أبي ريه وجمال الدين وكل من أيد الاتحاديين في عملهم على هدم الخلافة والاسلام، وقد ناضلوا من أجله وحققوا الشيء الكثير.

ولا يكتفي أبو ريه بهذا الانحياز السافر ضد الاسلام بل يأتي برواية ثالثة يصف السلطان عبد الحميد بالخوف والضعف والاستسلام لحاشيته، ويصف أبا الهدى الصيادي بالمكر والخداع فيقول: « وتنسم أبو

---

(١) جمال الدين الأفغاني ــ محمود أبو ريه ٦٢.

الهدى ريح هذه المقابلة (بين عباس حلمي والأفغاني) فوسوس الى السلطان وألقى في روعه أن جمال الدين وعبد الله النديم يحاولان نقل الخلافة الى عباس حلمي وكان قبل ذلك قد اقنع السلطان بأن للسيد من النفوذ ما يجعله خطرا يهدد حياته وحكومته (١).

فمن أين جاء بهذه الرواية الغريبة؟ ومتى حصل اقناع أبي الهدى للسلطان؟ فان كان قبل مقدمه فكان السلطان يمكنه درء خطره بتركه خارج بلاده، وان كان بعد قدومه الى الآستانة فللسلطان الحق في أن يعمل ما يشاء مع جمال الدين ومع ذلك لم نسمع منه سوى عتاب يسير جرى بينه وبين الأفغاني.

كما أن الروايات الصحيحة تذكر هذه المقابلة بين جمال الدين والخديوي عباس حلمي على انها حصلت عن طريق المصادفة عام ١٨٩٣ م وكانت العلاقات طيبة بين الأفغاني والسلطان، وما ساءت العلاقات بينهما الا بعد مقتل شاه ايران ومجيء طلب الى السلطان بتسليم جمال الدين الى الشاه الجديد، وقد رفض السلطان عبد الحميد الطلب، فاذا كان فعلايخافه على عرشه فكان بامكانه تسليمه والتخلص منه، ومع ذلك لم يفعل، فهذا يدل على أنه لا يخافه ولا يخاف غيره.

ومما يدل على أن جمال الدين قبل قدومه الآستانة كان يحيك مؤامرة للقضاء على الشاه أن أبا الهدى عندما كتب الى جمال الدين يطلب منه القدوم الى الآستانة رد عليه: انه لا يستطيع أن يلبي الدعوة انتظاراً لما يتوقع حدوثه في طهران، وقد أورد هذا الخبر شاعر الترك عبد الحق حامد بك في مذكراته (مجلة الزهراء المجلد الأول ص ٦٣٩) ولعله كان يتوقع ثورة عارمة على أثر الرسالة التي كتبها الى الشيرازي وهذا ما جعل البعض يقول بأنه كان ينوي الرجوع الى طهران لو أزيل الشاه ناصر الدين.

وعلى كل فقد كان من المآخذ التي سجلت على الأفغاني قسوته في عدائه للشاه حتى أن الذين يعدونه من دعاة الاسلام المرموقين نقدوه على

(١) جمال الدين الأفغاني ــ محمود أبو ريه ٦٤.

موقفه هذا، منهم الدكتور محمود قاسم اذ يقول: « والحق أن الأفغاني قسا في عـدائه للشاه أكثر مما ينبغي، وما كان له أن يشوه سمعة أحـد الأقطار الاسلامية الى هذا الحد، وأن يكشف عيوبه للاجانب انتقاما لما لقيه من أمير هذا القطر . ولقد أساءت حدة جمال الدين الى ايران أكثر مما أساءت الى ناصر الدين، فان هذه المخازي التي نشرها عن هذا البلد الاسلامي كانت دعاية سيئة للشرقيين وذريعة للانجليز للتدخل بزعم تحقيق العدالة الانسانية (١).

كما أن الأستاذ أنور الجندي: نسب الى جمال الدين اغراء الدولة البريطانية على خلع الشاه (٢) ولذا عد الدكتور محمود قاسم اتصاله بانجلترا لهذا الأمر، خيانة ونقطة سوداء ومطعن في أخلاصه.

وأخيرا وصل جمال الدين الآستانة موفور الصحة والسلامة ليستقر فيها القرار الأخير ليستريح ويريح، ورحب به السلطان عبد الحميد أجمل ترحيب، وأخذ يدعو الى وحدة اسلاميـة بقيادة السلطنـة العثمانيـة، واشترك معه في الدعوة علماء الشيعة وساسة ايران الأحرار الذين كانوا يتخذون من الآستانة منفى لهم لمعارضتهم حكم الشاه ناصر الدين.

وتذكر بعض الروايات أن السلطان عبد الحميد عرض عليه مشيخة الاسلام فرفضها وقال: « ان وظيفة العالم ليست بمنصب ذي راتب بل بصحيح الارشاد والتعليم ورتبته ما يحسن من العلوم مع حسن العمل بالعلم (٣).

وقد نقل عبارة جمال الدين الكاتب والاديب احمد حسن الزيات فحرف بعضها فقال: « واراده السلطان عبد الحميد على مشيخة الاسلام فأباها وقال: « ان وظيفة العالم فيها يزاول من تعليم وان رتبته فيما يحسن» (٤).

---

(١) جمال الدين الأفغاني ــ محمود قاسم ص ٧٩.
(٢) أعلام وأصحاب أقلام ص ١٢.
(٣) خاطرات جمال الدين ص ٣٩.
(٤) وحي الرسالة للزيات جـ٣ ص ٥٨.

ولعل رفضه لها يرجع الى كراهية جمال الدين الالتزام ووضع نفسه تحت المراقبة في الحركات والسكنات مع العلم أنه دخل بلاد الترك من أجل الوحدة الاسلامية، ووجوده في هذا المنصب أكبر عون له على ذلك فما باله يحجم عن قصده الذي خرج من أجله، فهذا ان صح مدعاة للعجب والتساؤل.

والآن وقد اصبح في الآستانة ينعم بمنزل مريح وطعام طيب بجانب السلطان فهل نسي الشاه بعد هذا أو انه لا زال يذكره؟

تقول الروايات أنه بقي ينتقد الشاه ويمعن في التهجم عليه الى أن طلب منه السلطان بالكف عن ذلك تنفيذاً لما تعهد به السلطان للشاه عندما استقدم جمال الدين، ولدى الحاح السلطان بالكف عن الشاه قال له: «امتثالا لأمر خليفة العصر قد عفوت شاه العجم، قد عفوت شاه العجم» . وقد أجمع المترجمون على أنه ذكره بدون تعدية وهذا من بقايا عجمته.

ثم انه بايع السلطان عبد الحميد بالخلافة رغبة منه في تحقيق آماله وامانيه كما يقولون في الاصلاح والحرية وترسيخ العمل النيابي وهذا مقصده منذ أن خرج من بلاده.

وقد كان جمال الدين يدخل على السلطان عبد الحميد دون تكلف لكثرة ما يرى من الاكرام والاحترام حتى انه دخل مرة عليه وأخذ في مجلسه يلعب بالسبحة كما لو كان بين يدي صديق عزيز عليه ونسي انه عندسلطان يحكم نصف الأرض المعمورة، ولكن أحد الحاشية ألمح له بأن هذا العمل يعد سوء أدب مع السلطان، وذلك بعد الخروج من مجلس السلطان، فرد عليه رداقبيحا وقال: «ان السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة، افلا يحق لجمال الدين أن يلعب بسبحته كما يشاء»[1]

إن هذا الكلام وصل الى السلطان عبد الحميد وعرف ما تكنه نفسه، وأنه يدل على سوء الظن بالسلطان الذي بايعه على الخلافة ،

---

(١) زعماء الاصلاح في العصر الحديث ص ١٠٠.

والعجب انه تكلم بمثل هذا الكلام امام حاشية السلطان وهو يعلم انه لا بد أن يرفعوه اليه.

مع أننا لو ناقشناه على كلامه لظهر لنا أنه افتراء على السلطان فمثلا هو يدعي بأن السلطان يلعب بمقدرات الملايين أي انه يحكم بهواه لا يقيده دستور ولا قانون ونسي أن السلطان عبد الحميد كان رجلا تقيا مؤمنا وكان يحكم بكتاب الله وسنة رسوله وكان يستشير المشايخ والعلماء في كل ما عسر عليه.

أما اذا كان يقصد من هواه هو عدم الحكم بالدستور والقانون الوضعي فهذا صحيح لا شك فيه.

وكلنا يعرف مكانة شيخ الاسلام منه وكذا موقفه من قضية فلسطين والجامعة الاسلامية وغير ذلك مما يدل على حرصه على مصلحة المسلمين فاذا قال جمال الدين بأنه يلعب بمقدرات الشعوب فهل حرص الرجل على مصلحتهم لعب وعبث؟ لقد أساء جمال الدين الأدب مع السلطان وتخطى حدوده فحق للسلطان بعد هذا أن يغير نظرته نحوه.

واذا استقرأنا الأحداث التي تلت هذه الواقعة لوجدنا أن جمال الدين بدأ يتطاول على السلطان وغره ما كان يلقاه من تكريم.

توترت العلاقات بينهما الى أن ادى بالشيخ جمال الدين أن يقول عن السلطان عبد الحميد: « ان هذا السلطان سل في رئة الدولة»(١).

وبدأ يتمنى خلعه ويدبر المكائد من أجل ذلك وهكذا ظهر جمال الدين للعيان أنه ما حل في بلد الا خرج على حاكمها وسعى الى خلعه أو اغتياله، فقد جرب نفسه مع اسماعيل باشاوعمل معه ثم انقلب عليه، ثم عمل مع الشاه ثم انقلب عليه وعمل على اغتياله وخلعه وقد اغتاله اخيرا كما سيأتي، وها هو ذا يعمل مع السلطان عبد الحميد الذي فتح له قلبه وبلده، وأكرمه واحسن وفادته، ثم انقلب عليه وتمنى خلعه، بل انه تجزأ أكثر من ذلك فقال

(١) زعماء الاصلاح في العصر الحديث / ١٠١.

عن السلطان عبد الحميد وشاه ايران ناصر الـدين: « ان خلعهما أهون من خلع النعلين [٢]

فان صح هذا القول، وجب علينا أن نعي ما يقول فهذا الكلام لا يقوله أحد أفراد الناس.

وقد كان ما قال وخلع السلطان عبد الحميد على يد الماسون وقتل شاه ايران على يد جمال الدين فقد قال قاتل الشاه عندما أرداه قتيـلا: «خذها من يد جمال الدين».

ومن المستغرب هنا أن يقول جمال الدين ان خلع السلطان عبد الحميد أهون من خلع النعلين. الهذا الحد بلغ استهانته به بعد أن كان يقول عنه بأنه خليفة المسلمين، وأنه جامع كلمة المسلمين، أين ذهبت تلك الثقة؟

ويظهر أن السلطان بدأ يتخوف منه ويحيطه بالعيون حتى لا ينفلت منه وقد شعر جمال الدين بهذا التغير وهذا التشديد وبدأ يتذمر منه.

ورغم هذا الموقف غيرالمشرف من جمال الدين نجد معظم المترجمين يقعون في خطأ فاحش في نظرتهم الى جمال الدين والسلطان عبد الحميد يقعون في السلطان عبد الحميد سبا وشتما ويبرئون جمال الدين من كل عيب.

فهذا الكاتب التونسي رشيد الذوّادي يقول: « ان الأفغاني خدع بما أظهره له السلطان عبد الحميد، فظن أنه بامكانه إن اعتمد عليه أن يوسع في دائرة اصلاحه ويتمكن من انشاء جامعة اسلامية تمثل منطقة هامة من أرض الاسلام هي تركيا وفارس والأفغان، وفاته شيء هو أن عبد الحميد رجل سفاح ماكر يمقت الاصلاح ويعدم كل من يسعى فيه، ودليلنا على ذلك ما الحقه بمدحت باشا (١٨٢٢- ١٨٨٣) من متاعب ودسائس ومناورات »[١].

---

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين ص ٤٥.

(١) رواد الاصلاح ص ٧٥.

فهل نسي الذوّادي موقف عبد الحميد من قضية فلسطين؟ أو انه لم يقرأ عنها شيئا؟ ثم ان مدحت باشا هذا الذي يضعه فوق قدره كان رجلا يعمل لصالح اليهود عن طريق الاتحاد والترقي، وهو الذي وضع الدستور موضع كتاب الله وسنة رسوله.

ان تاريخ السلطان عبد الحميد قد حشي بالكثير من المغالطات والتشويه وكل ذلك من فعل اليهود الذين خذلهم وردهم ردا قبيحا عندما طلبوا منه فلسطين وطنا لهم.

وأغرب من هذا أن تجد مؤرخا كبيرا في العصر الحاضر يقدح في حكم السلطان عبد الحميد ويتحيز الى جمال الدين انه المؤرخ عبد الرحمن الرافعي اذ يقول: « وقد يكون غريبا أن السلطان عبد الحميد الذي كان نصيرا للاستبداد وخصما للحرية، يدعو الى جواره أكبر زعيم للحرية في الشرق، وأغلب الظن، أنه أراد أن يخدم سياسته في الجامعة الاسلامية، باستضافته فيلسوف الاسلام، لكي يظهر للعالم الاسلامي أنه يرعى العلم والعلماء من الأمم الاسلامية كافة. »[1].

فهو بهذا الكلام يناصر الصهيونية العالمية في نسبة الاستبداد للسلطان عبد الحميد، وزيادة على ذلك ينسب اليه الرياء وعدم الاخلاص والتظاهر باكرام العلماء.

وأغرب من هذا نسبة الجبن اليه من جمال الدين الأفغاني الذي جالسه وعرف شدته وبطشه، يقول الدكتور احمد امين: « وكون أخيرا فكرة عن السلطان عبد الحميد بأنه ذكي واسع الاطلاع على السياسة الأوروبية وألاعيبها، واسع الحيلة في العمل على ضرب بعض الدول ببعض، ولكنه جبان يفسد عليه جبنه ذكاءه ومعرفته »[2].

وعلى كل حال لقد اعترف جمال الدين بأن السلطان عبد الحميد محنك وأنه بالأوروبيين ذو بطش وحيلة ولكنه ناقض نفسه فادعى أنه

---

(١) جمال الدين الأفغاني ـ عبد الرحمن الرافعي ص ١٣٧.
(٢) زعماء الاصلاح في العصر الحديث ١٠١.

جبان، انها الأحقاد والضغائن حفظنا الله منها.

وفي موضوع آخر يصف السلطان عبد الحميد بأوصاف لا تخرج من أقرب المقربين اليه فيقول: « ان السلطان عبد الحميد لو وزن بأربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة وخصوصا في تسخير جليسه.. ولا عجب اذا رأيناه يذلل ما يقام في ملكه من الصعاب من دول الغرب، ويخرج المناويء له من حضرته راضياً عنه وعن سيرته مقتنعاً بحجته، سواء في ذلك الأمير والوزير والسفير ولكن يا للأسف عيب الكبير كبير، والجبن من أكبر عيوبه»(١).

فهو مصر على أنه جبان والواقع غير ذلك، فالتاريخ يحدثنا عن مواقفه الكثيرة التي تدل على شجاعته واقدامه وحزمه، كموقفه من مدحت باشا أبي الدستور وموقفه من جماعة الاتحادوالترقي الماسونية وموقفه من زعماء اليهود حيث بصق في وجه زعيمهم وردهم على أعقابهم غير متهيب ولا وجل، أفبعد هذا يوصف بالجبن والخور، حاشا لله أن يكون جبانا. هذا موقف جمال الدين من السلطان أما موقف السلطان من جمال الدين فانه الثقة.

يقول محمد حرب عبد الحميد: « كان السلطان عبد الحميد جادا في البحث عن صيغة توحيد كل المسلمين لمواجهة خطر كل من روسيا وانجلترا... فتقدم اليه جمال الدين الأفغاني وأعطاه الأمل في ايجاد هذا التفاهم المنشود (أي مع ايران)، واقنع السلطان بامكان توحيد الشيعة مع أهل السنة... ويبدو أن جمال الدين قام باقناع كبار الموظفين في ايران وبعض علمائها بفكرته هذه.. وكان عبد الحميد في تلك الأيام راضيا كل الرضا عن جمال الدين الأفغاني (٢).

ويؤكد هذا ما وجد في مكتبة السلطان عبد الحميد من خلاصات يقول محمد حرب عبد الحميد: « وجدنا في مكتبة السلطان عبد الحميد خلاصات لاطلاعات قام بها جمال الدين الأفغاني ولخصها وقدمها

---

(١) زعماء الاصلاح ١١٧.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد / ٩.

للسلطان عبد الحميد، مما يؤكد المكانةالتي كان جمال الدين يحملها [١].
وكان السلطان اذا سئل عن جمال الدين يثني عليه ويقول: «عالم مشهور في قصر يلديز» [٢].

وتمر الأيام واذا بهذه العلاقة تنقلب رأسا على عقب بعد ما تبين للسلطان حقيقة جمال الدين والمهمة التي يعمل من أجلها. يقول في مذكراته «وقفت في يدي خطة أعدها في وزارة الخارجية الأنجليزية، كل من مهرج أسمه جمال الدين الأفغاني، وأنجليزي يدعى بلنت قالا فيها باقصاء الخلافة عن الأتراك، وأقترحا على الأنجليز أعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين. كنت أعرف جمال الدين هذا عن قرب وكان في مصر وكان رجلا خطراً، أقترح على ذات مرة وهو يدعى المهدية ـ أن يثير جميع مسلمين آسيا الوسطى. وكنت أعرف أنه غير قادر على هذا وكان رجل الأنكليز،ومن المحتمل جداً أن يكون الأنجليز قد أعدوا الرجل لأختباري» [٣].
ثم يقول أن الأنجليز بدأو يأخذون على عاتقهم التحرش بمسألة الخلافة متخذين جمال الدين الأفغاني وسيلة لمآربهم.
فاذا عدنا الى مصادر أخرى نجد التأييد لكلامه على لسان من سماهم، فهنا يقول بأن بلنت الرجل الانجليزي كان مع جمال الدين من وراء اسقاط الخلافة. لنسمع الى الدكتور محمد محمدحسين: «كتب كتاب الانجليز في هذا الموضوع (أي هدم الخلافة) ومنهم المستر بلانت المعروف في مصر. فقد كتب كتابا قبل احتلال الانجليز لمصر في هذا المعنى سماه (مستقبل الاسلام) وقد كتب في فاتحة كتابه (هذا):

لا تقنطوا فالدر ينثر عقده   ليعود أحسن في النظام وأجملا

أي أن هدم السلطنة العثمانية لا يضر بالمسلمين بل ان هذا العقد العثماني ينثر ليعودعقداً عربياً أحسن وأجمل. ولكن ما لم يقله المستر بلانت هو أن قومه يريدون هذا العقد العربي في جيدبريطانيا لا في جيد الاسلام»...

(١) نفس المرجع / ٨.
(٢) نفس المرجع / ٨.
(٣) نفس المرجع ٦٧
(٤) نفس المرجع ٦٨.

يبق للمستر بلانت الا أن يقول بأن الخليفة يجب أن يكون انجليزيا»[1].

ولذا نجد ـ «الدستوريين»ـ في تركيا من وراء هدم الخلافة باسم الدستور وكان جمال الدين من المحرضين والمشجعين لهم على ذلك وهذا بشهادة بلنت نفسه، يقول الشيخ عبد القادر المغربي: « قال مستر بلانت الانجليزي: « انسعي العثمانيين في تحويل حكومتهم الى دستورية في باديء الامر قد ينسب الى شيء من تأثير جمال الدين فقد أقام في عاصمتهم يحاورهم ويخطب فيهم»[1].

اذن جمال الدين كان يتكلم عن ثقة عندما ما قال: « ان خلعها أهون من خلع النعلين» لأنه يعلم أن الأمور تحاك في السر، وبالفعل لم تمض مدة على هذا الكلام حتى قام الاتحاديون وعلى رأسهم مدحت باشا وأجبروا السلطان عبد الحميد على قبول الدستور ولكن سرعان ما شل حركتهم وتخلص من مدحت باشا .

لقد أطلنا الوقوف على هذه النقطة لما لها من تأثير عميق في دعوة جمال الدين والكشف عن أهدافه ومراميه.

وها نحن نعود لنرى ماذا حصل بعد ذلك؟ يقال بأن جمال الدين احس بتغير السلطان عليه رغم أنه كان يخفي أضعاف ما يبدي ولا يقابله الا بالاكرام والتبجيل ولا يناديه الا بالسيادة، هذا ما أجمع عليه المترجمون حتى نهاية حياة الأفغاني غير أن أبا رية خرق هذا الاجماع فيأتينا برواية تدل على عكس ذلك فيقول:

« قد بلغ من نكايتهم (أي السعاة) به أن أمر السلطان بتفتيش بيته على اعتبار أن به «ديناميتا» فغضب السيد وغضب لهذه الأعمال المشينة وأدرك لوقته أنها من آثار طباع السلطان الفاسقة وأرسل ـ أي الأفغاني مذكرة الى جميع السفراء في الآستانة يبلغهم بما فعل السلطان مع

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢٥ / ١.

(١) جمال الدين للمغربي / ٢٩.

المترجمون حتى نهاية حياة الأفغاني غير أن أبا رية خرق هذا الاجماع فيأتينا برواية تدل على عكس ذلك فيقول:

« قد بلغ من نكايتهم (أي السعاة) به أن أمر السلطان بتفتيش بيته على اعتبار أن به «ديناميتا» فغضب السيد وغضب لهذه الأعمال المشينة وأدرك لوقته أنها من آثار طباع السلطان الفاسقة وأرسل - أي الأفغاني مذكرة الى جميع السفراء في الآستانة يبلغهم بما فعل السلطان مع أنه أصبح مراقبا من قبل الخليفة [١].

وهذه الرواية بعيدة عن الحقيقة بل انها مختلفة اذ كيف يرسل هذه الرسائل الى السفراء وهو مراقب كما يدعي ثم هل يصدق أن السلطان عبد الحميد يتهمه باقتناء الديناميت لمجردسعاية السعاة مع أن السلطان عبد الحميد قد أحاط الأفغاني بالجواسيس ويعرف مدخله ومخرجه.

وقد طلب الأفغاني مغادرة الآستانة الى اليابان فرفض السلطان عبد الحميد . وطلب السفر الى امريكا لنشر الاسلام عندما طلب ذلك سفير امريكي اعتنق الاسلام فرفض السلطان كذلك. بل شدد عليه الحراسة في تنقلاته ومع ذلك كان يتصل بالأحرار والمناضلين والعلماء في منزله على اختلاف المذاهب والأديان.

وحتى انه التقى بالخديوي عباس حلمي الثاني وكان السلطان يخشى من هذا اللقاء حدوث مالا يحمد عقباه، وجالسه على انفراد في احدى الحدائق وجرى بينهما حديث ثم افترقا فنقل الجواسيس الخبر وثارت حوله مشكلة مرت بسلام وقيل ان السلطان حاول أن يزوجه فأبى. وأنعم السلطان على جمال الدين مع ذلك رتبة (قاضي عسكر) فرفض الشارات التي أرسلت اليه.

بعد هذا كله أمر السلطان بالتضييق عليه، ولم تمض مدة يسيرة حتى مرض الرجل بالسرطان في فكه السفلي ومات على اثره.

وقد اختلفت الروايات في أسباب وفاته وذلك لما جرى من ملابسات وحوادث قبل ذلك، ولما كان من عداوة بينه وبين من حوله .

---

(١) جمال الدين الأفغاني ــ أبو ريه / ٤ .

ويقول الأستاذ قدري قلعه جي: « ظهر في فكه مرض السرطان أو ما يشبه السرطان واشتد عليه فأمر السلطان قنبور زادة اسكندر باشا كبير جراحي القصر، وأحد المقربين من عبد الحميد أن يجرى له عملية جراحية ولكن العملية لم تنجح»[١].

أما أنور الجندي فانه ينقل لنا رواية تدل على أنه مات مسموما. فيقول: «وقيل كان هناك رجل عراقي اسمه (جارح) يعمل طبيبا للأسنان وكانت نظارة الضبطية قد استمالته بالمال ليكون جاسوسا على جمال الدين»[٢].

ثم يذكر أن هذا الطبيب هو الذي سمه عندما كان يعالج أسنانه. وهذه الرواية لا يعضدها نقل.

وقد نسب الشيخ عبد القادر المغربي ظهور السرطان في فكه الى الدخان وأشياء أخرى كان يسرف في شربها الأفغاني فيقول: « وكانت وفاته بعلة السرطان الناشب في فكه الأسفل وزعم بعض الأطباء بأن علة السرطان نتجت عن كثرة شرب السيد للشاي وتدخينه بالسيكار الافرنجي واستكثاره من الملح في الطعام»[٣].

ولمثل قول الدكتور احمد امين ذهب محمود ابو ريه مع شيء من التفصيل حيث يقول: « شكا جمال الدين ألماً في أسنانه، فوصف الدكتور غبارة اليهودي الذي كان جاسوسا للقصر على السيد ـ ومتصلا بخدمته ـ علاجا يتبعه، ولم تمض مدة غير قليلة حتى تزايدت الآلام الى حد لا يطاق.

وقد التمس السيد جمال الدين من السلطان أن يؤذن له بالسفر الى أوروبا عندما اشتد الألم لكي يعالج هناك، ولكن لم يصرح له، وبناء على تقرير جميل باشا طبيب القصر أمر السلطان أن تجرى له عملية جراحية، وبعد أن عملت له اشتد عليه المرض يوما فيوما فطلب

(١) (جمال الدين الأفغاني) ـ قلعه جي / ١٠٧.
(٢) أعلام وأصحاب أقلام / ١٢٢.
(٣) (جمال الدين الأفغاني): عبد القادر المغربي ١١٨.

استشارة أطباء عسكريين فلم يقبلوا، وبعد ذلك رؤي أن يعمل له عملية ثانية، وجاءت هذه العملية على ما يهوى السلطان، فلم تفلح وبعد معاناة آلام شديدة مات السيد... اه كلام جورجي كوتشي»(١).

أما الدكتور عبد المنعم محمد حسنين فانه يؤيد رأي من يقول بأن السلطان تخلص منه بالسم بعد أن عرف انه شيعي متستر بلباس أهل السنة فيقول:

«وكان كشف حقيقة جمال الدين امام السلطان عبد الحميد ضربة قاضية وجهها مظفر الدين شاه الى جمال الدين بوثيقة سلمها علاء الملك سفير ايران في تركيا الى الحكومة التركية، تثبت بالأدلة القاطعة أن جمال الدين ايراني شيعي يختفي في ثياب الأفغان ويتخذ المذهب السني ستارا يحتمي به فدبر السلطان وسيلة للتخلص منه بدس السم، وكانت هذه الوسيلة هي طريقة السلاطين العثمانيين للتخلص ممن لا يرغبون فيهم»(٢).

وحتى الدكتور محمد عمارة رمى بشبهة في هذا المجال فاجتهد اجتهادا جديدا في سبب وفاة جمال الدين حيث يقول: «لقد أشاع البلاط العثماني أن وفاته كانت بسبب السرطان الذي أصابه في فكه بعد خلع احدى أسنانه أو أضراسه، وحدث التهاب استدعى اجراء عمليات جراحية ثلاث قطع الطبيب فيها جزءا من لسانه، واستأصل فكه»(٣).

ولا أدري من أين جاء بهذه الرواية فلو صحت فانه نشر صورة للشيخ جمال الدين في كتابه وهي واضحة تمام الوضوح يظهر فيها فكه السفلي سليما وكتب تحتها: «جمال الدين الأفغاني على فراش المرض الذي توفى فيه بعد العملية الجراحية التي أجريت له في فكه».

فلعل هذه الرواية أخذها من جريدة المؤيد المصرية فقد كتبت في عددها الصادر في ٦ مارس ١٨٩٧ م ما يلي: «ان صحة السيد في غاية

---

(١) (جمال الدين): أبو ريه ٦٧.
(٢) جمال الدين الأسد آبادي ٣٤.
(٣) الأعمال الكاملة ٤٧.

الانحلال وأنه انقطع عن الكلام بالمرة اثر العملية الجراحية التي أجريت له أخيرا فقطع فيها جزء من لسانه، واستؤصل الفك السفلي»[١].

ثم ان الدكتور عمارة يضعف هذه الرواية لما وجد فيها من الثغرات ويأتي برواية أضعف منها فيقول: «ولكن روايات الثقات تقول: انه مات مسموما، وان الجناة قد يكونون ايرانيين بعثهم وحرضهم شاه العجم مظفر الدين خَلَف الشاه ناصر الدين، وقد يكونون عثمانيين أوعز اليهم بذلك السلطان أو بعض حاشيته من خصوم جمال الدين».

ولعل الدكتور عمارة أخذ هذه الرواية من كتاب جمال الدين الأسد آبادي والله أعلم.

والرواية الراجحة أنه مات بالسرطان، وقد أجريت له عملية لم تنجح بسبب عدم القيام بالعناية اللازمة للعملية عن غير قصد، والى مثل هذا ذهب المستشرق جولد سيهر اذ يقول: «توفي جمال الدين... اثرسرطان أصابه أولا في ذقنه ثم جاوزها الى سائر وجهه. تهامس الناس أن أبا الهدى قد حرض عليه من دس له السم»[٢].

فبعد هذا نقول كل من اتهم قنبور أو طبيب الأسنان فهو مخطيء، وقد حصل شكيب أرسلان من بعض رجال القصر على تصريح بأن قنبور زاده كان أطهر وأشرف من أنيرتكب مثل تلك الدناءة[٣].

ولكن ربما يكون قد حصل بعض الاهمال والتقصير في العناية بالعملية فقد تحدثالمستشرق (لادناستردروغ) الى الأمير شكيب ارسلان بأن جمال الدين دعاه بعد اجراء العملية الجراحية، فرأى أن حاله بعدها قد ازدادت شدة، ورجاه أن يرسل اليه جراحا فرنسياً حر الفكر طاهر الذمة ليفحص العملية، فأرسل اليه الدكتور (لاردي) فوجد أن العملية لم تجر على وجهها الصحيح[٤].

---

(١) (جمال الدين الأفغاني): أبو ريه ٦٧.
(٢) دائرة المعارف الاسلامية: ٧ / ٩٦.
(٣) جمال الدين الأفغاني ــ قلعة جي ــ ١٠٨.
(٤) نفس المرجع ١٠٧.

والآن سلمنا أن جمال الدين أصيب بالسرطان وكان فيها نهاية أجله بقي علينا أن نعرف أحواله ساعة احتضاره.

ينقل لنا محمود أبو ريه حالة احتضاره فيقول: «رأى الطبيب هارون صباح الثلاثاء ٩ الجاري أن ساعة وفاة السيد قد دنت فقصد جورجي كوتشي صديقه الأمين، وأيقظه من نومه قائلاً أدرك السيد فقد حضرته المنية وقد تركته وهو يحتضر، فأسرع جورجي افندي إلى منزله فوجده في حالة النزع، وليس عنده غير خادمه، فلما رآه أمسك بيده، وكلما اشتدت عليه الحشرجة، حول عينيه اليه كأنه يرتاح لوقوع عينيه على عينيه ثم أسلم روحه» (١).

ويسوق القصة نفسها الدكتور محمد عمارة ويضيف اليها انه كان آخر كلامه «الله... الله... الله. ثم أسلم الروح» .

ورواية أبي ريه أصح لأنها منقولة عن جريدة المقطم الصادرة في شهر مارس ١٨٩٧ م نقلا عن صديق يوثق بروايته، هذا ما صرح به أبو ريه، أما رواية عمارة فلا ندري من أين جاء بها.

أما الرواية التي وردت في كتاب جمال الدين الأسد آبادي على لسان الميرزا حسين خان انش الأصفهاني الذي رافق جمال الدين في الآستانة فهي كما يلي: « وقالوا أيضا انه لم يكن معه ساعته الأخيرة سوى خادمه صادق نصراني، فأسلم روحه بين أحضانه»(٣).

وهذه الرواية مخالفة لما رواه الجندي اذ يقول: « وقال عبد الرشيد ابراهيم الداعية الاسلامي والرحالة التركستاني المسلم، وقد حضره قبل وفاته أنه ردد كلمات مهمومسة قال له: أشهد بالله أن كلام النبي قبل وفاته: «أمتي أمتي. وأنا أقول: ملتي ملتي»(٤).

---

(١) جمال الدين ـــ أبو ريه ـــ ٦٧.
(٢) الأعمال الكاملة ١ / ٤٧.
(٣) جمال الدين الأسد آبادي ١٦٩.
(٤) أعلام وأصحاب أقلام ١٢٢.

ومحمود ابو ريه يذكر الرواية نفسها مع اضافة بسيطة أن الشيخ عبد الرشيد ابراهيم دخل على جمال الدين في آخر أيامه وكان لا يستطيع الكلام فأخذ قلماً وورقة وكتب فيها : « نشهد أن كلام محمد قبل وفاته . . . »[١] .

هذا التضارب في هذه الرواية مما يجعل الضعف يتطرق اليها، وهذه الرواية ان صحت فان النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن آخر كلامه: « أمتي أمتي، وانما كان يقول: « الرفيق الأعلى. الرفيق الأعلى »[٢].

ولكن قوله: «أمتي. أمتي» يكون يوم القيامة عندما يقف الناس للحساب والله أعلم.

وبعد التحقق من موته أصدر السلطان أمراً بمصادرة أوراقه وتركته[٣].

---

(١) جمال الدين أبو ريه ــ ٦٨.

(٢) ورد في تاريخ ابن كثير جـ٤ ص ٤٧٤: قالت عائشة: «توفي رسول الله ﷺ في بيتي وتوفي بين سحرى ونحرى، وكان جبريل يعوذه بدعاء إذا مرض، فذهبت أعوذه، فرفع بصره إلى السماء وقال: «في الرفيق الأعلى. في الرفيق الأعلى... ورواه البخاري عن سليمان بن حرب عن حماد بن زيد به. وقال البيهقي عن عائشة: «... حتى قبض ومالت يده في الماء... رواه البخاري عن محمد عن عيسى بن يونس.

وورد في كتاب السيرة النبوية والآثار المحمدية للسيد أحمد زيني المشهور بدحلان، الجزء الثاني ما يلي:

وفاته ــ عليه الصلاة والسلام ــ: «كان يقول عند وفاته: «اللهم الرفيق الأعلى». (المواهب عن الواحدي بسند وصله إلى عبد الله بن مسعود. وفي الرواية: اللهم اغفر لي وارحمني والحقني بالرفيق الأعلى». وروى ابن حيان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ انه قال: «أسأل الله الرفيق الأعلى الأسعد مع جبريل وميكائيل واسرافيل». وفيه أيضاً عن عائشة: انه قال: «أسأل الله الرفيق الأعلى مع جبريل وميكائيل واسرافيل.

قال السهيلي: إن أول كلمة تكلم بها النبي ﷺ وهو مسترضع عند حليمة: (الله أكبر). وآخر كلمة تكلم بها: «الرفيق الأعلى».

(٣) جمال الدين ــ قلعه جي ١٠٨ ومحمود قاسم ص ٨٤ نقلاً عن جريدة المقطم عدد ١٨ مارس من السنة التي مات فيها جمال الدين».

فبعض الروايات تقول بأن رجال السلطان حصلوا عليها وصادروها، وبعض الروايات ترجح أن تلاميذه كانوا قد هربوا تلك الأوراق قبل وصول السلطة والله أعلم.

وكذلك اختلف الرواة في تشييعه، فبعضهم يقول بأنه شيعت جنازته بالاحتفال اللائق (١). والبعض الآخر يقول بأن السلطان أصدر أمرا بأن يدفن جمال الدين في غير احتفال (٢).

دفن جمال الدين في مقبرة المشايخ في الآستانة وبعد أن نسي قبره وضاع بين القبور جاء في عام ١٩٢٦ م مستشرق أمريكي اسمه كراين وجدد بناءه. فكلفه على ما يقال عشرة آلاف دولار (٣).

وبعد مرور خمسين عاما على وفاته نقلت رفاته في احتفال عظيم الى بلاد أفغانستان في عام ١٩٤٤/١٣٦٣هـ(٤).

يقول الأستاذ سعيد الأفغاني: « فنقلوا رفاته الى بلاد الأفغان في سنة ١٩٤٤ م، ودفن هناك في مدينة كابل عاصمة أفغانستان في منطقة علي آباد وبني عليه بناء عظيم الشأن(٥) ».

ثم يأتي كاتب آخر وهو غلام حسين الموسوي الأفغاني فيذكر مكانا محددا لقبره فيقول:

«وعلى كل حال فقد رجع السيد الى وطنه الأصلي واستراح هناك كالأسد في عرينه عند سفح جبل هندكوش في عاصمة ١٦ مليون أفغاني...»(٦).

---

(١) (جمال الدين: محمود قاسم) ٨٤.
(٢) جمال الدين قلعه جي ١٠٨.
(٣) جمال الدين ــ المغربي ١١٨.
(٤) جمال الدين ــ قلعه جي ١٠٩.
(٥) جمال الدين: سعيد الأفغاني ٨٧.
(٦) الرد على الدكتور الوردي ٨.

(أخلاقه وعاداته)

يصفه المداحون والدائرون في فلكه بأوصاف توصله إلى مرتبة الأنبياء والصديقين وقد ذكروا كل ما شاهدوه منه ولو كان ذلك منتقداً، ولكنهم إذا رأوا منه حسنة كبروها وعظموها، وإذا مروا بما يكره من أفعاله وأخلاقه ذكروها باقتضاب أو حاولوا أن يوجدوا لها مسوغاً ولكنهم مع ذلك كتموا عنه أشياء كثيرة وقد يختلفون في بعض ما لا يحمد من أخلاقه.

أما أعداؤه فيصفونه بأقبح ما رأوا أو سمعوا ويتغاضون عن كل حسنة فيه ولو أنها نادرة، وإذا ذكروها مروا عليها مر الكرام.

ونحن حيال هؤلاء وهؤلاء نستطيع أن نصل إلى الحقيقة في أمره فهو داعية والداعية يجب أن يكون على جانب عظيم من الأخلاق.

فإن كان ذا دعوة صالحة فعلينا أن نحاسبه على دعوته وما يقتضيها من منهاج خلقي وإن كان ذا دعوة فاسدة فليس للأخلاق شأن.

وطريقتنا في البحث عن أخلاقه بأن نجمع كلام المعاصرين له الذين صحبوه وتتلمذوا على يديه أو من أعدائه ثم نضع الموازين لكل مدع لنستخرج الحق من بينها.

يصفه تلاميذه وأصحابه: «بأنه ذا سلامة في القلب سائدة في

صفاته وحلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب وتنقض منه الشهب . بينما هو حليم أواب إذا هو أسد وثاب ! وهو كريم ، يبذل ما بيده ، قوى الاعتماد على الله لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر ، عظيم الأمانة ، سهل لمن لا يناله ، صعب على من خاشنه ، طموح الى مقصده السياسي . إذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول اليه ـ وكثيراً ما كان التعجل علة الحرمان ـ وهو قليل الحرص على الدنيا . بعيد من الغرور بزخارفها ولوع بعظائم الأمور عزوف عن صغارها ، شجاع مقدام ، لا يهاب الموت ، كأنه لا يعرفه ، الا أنه حديد المزاج ـ كثيراً ما هدمت الحدة ما فعلته الفطنة ـ الا أنه صار اليوم (سنة ١٨٨٥ م) في رسو الأطواد وثبات الأوتاد ، فخور في نسبه الى سيد المرسلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لا يعد لنفسه مزية أرفع ولا عزا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر »[١] .

هذا ما وصفه أقرب الناس اليه الشيخ محمد عبده ولكنه لم يأت على كامل أوصافه فجاءت التكملة من تلميذ آخر وهو سليم عنحوري صاحب جريدة مرآة الشرق فيقول : « كان من خلقه الأخذ بناصر كل ضيم الى العلم وشد أزر كل ذي ميل للأدب . ومع أنه كان كثير الأنفة شديد الوطأة على الحكام ، يعاملهم بالعجب والخيلاء ، ويرنو اليهم بعين المقت والازدراء ، تراه بالعكس كثير التعظيم والتكريم لأولياء العلم وأنصاره مهما كانوا خاملين قاصرين ، يبذل لهم الأنس والدعة ، ويخفض جانب الرقة والدماثة ، ويواسي مجتاحهم ومحتاجهم بكل ما يقدر عليه وتصل يده اليه »[٢] . والدكتور أحمد أمين يضيف صفة أهملها الشيخ محمد عبده فيقول : « عصبي دموي في مزاجه وكان مفرطاً في الشاي والتدخين »[١] .

وهناك صفة انفرد بها سليم عنحوري من بين زملائه وهو انه

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين جـ ١ ص ٤٩

(٢) الأعمال الكاملة للأفغاني جـ ١ ص ٤٩ .

(١) زعماء الاصلاح في العصر الحديث ص ٦٢ .

كـان يتعـاطى أحيـانـاً مسكـراً فيقـول : « كـان يكـره الحلو ويحب المـر ، وقلما خلت جيـوبـه من خشب الكينـا والـراونـد . . . يكـثر من الشـاء والتبغ وإذا تعاطى مسكراً فقليلاً من الكونياك »(١) .

أما التدخين فلم أجد أحداً أنكره عليه ولكن أفاض البعض في ذكر نوعه وأوصافه وإسرافه فيه. يقول الوردي: «وكان الأفغاني يفرط في التدخين، ويفضل السيكار على السيكارة الاعتيادية، وكان لشدة ولعه بالتدخين لا يعتمد على أحد في ابتياع السيكار له، فكان يذهب بنفسه إلى السوق حيث يختار منه النوع الأفرنجي الجيد، وكان ينفق في ذلك جزءاً كبيراً من دخله. وكان يعتقد أن التدخين يفتح الذهن وأنه هو الذي ساعد الأوربيين على إبداع تلك المخترعات العظيمة»(٢).

أما طريقة أكله فيصفها أحد الذين لازموه في تركيا وهو الميرزا حسين خان دانش الأصفهاني فيقول: «وكانت رغبته في الحوامض تفوق ميله إلى الحلوى، ومع أن مائدة طعامه كانت تصف على منضدة عاليه على الطراز الأوروبي فانه كان يأكل بأصابعه الخمس بينما يتناول أضيافه طعامهم بالشوكة والسكين، إذ لم يكن يأبه بعادات أهل زمانه وآدابهم في هذا الباب»(٣).

ومن جهة النساء فلم يذكر أحد أنه تزوج أو مال إلى الزواج، يقول الدكتور أحمد أمين: «وقد عاش عزبا طول حياته»(٤) ــ وورد أيضاً «لم تكن له علقة بالنساء والزواج فلم يتزوج طيلة حياته»(٥) ويـذكر المترجمون أن السلطان عبدالحميد عرض عليه الزواج باحدى الأميرات فرفض رفضاً قاطعاً.

يقـول الـدكتـور الـوردي : «كـما عـرض عليـه ــ أي السلطان عبد الحميد ــ أن يهديه من جواريه المشهورات بالجمال، غير أن الأفغاني رفض قبول هذه الهدية «اللذيذة».

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام جـ١ ص ٤٩ .

(٢) لمحات اجتماعية جـ٣ ص ٣١١.

(٣) جمال الدين الأسد آبادي ١٥٣ .

(٤) زعماء الاصلاح في العصر الحديث ١١٧ .

(٥) جمال الدين آبادي ١٥٣ .

وقد يكون عنيناً لا أرب له بالنساء، وهذا ما ذهب إليه الدكتور علي الوردي. (لمحات ص ٣، ٣١٢)

وهناك أوصاف كثيرة أفرطوا في مدح الأفغاني بها وهو بعيد عنها وقد أخرت ذلك إلى فصل بعنوان: «الغلو في مدحه»، وهناك أوصاف يراها تلاميذه مثالب كانوا يريدون كتمانها ولكنهم اضطروا لذكرها ليستوفوا ترجمته.

قال الشيخ محمد عبده بعد ذكر أوصافه: «بقي علينا أن نذكر له وصفاً لو سكتنا عنه سئلنا عن إغفاله، هو أنه كان في مصر يتوسع في اتيان المباحات كالجلوس في المتنزهات العامة والأماكن المعدة لراحة المسافرين وتفرج المحزونين»[٢].

يستفاد من كلامهم أنه كان ذا خصال حميدة كثيرة وان كان بعضها يشوبه النقصان فذكروا بعض الأخلاق غير المحمودة اضطراراً.

فمن خصاله التي نقدوه عليها: العجلة، حدة الطبع، تعاليه على الحكام، إفراطه في الشاي والتدخين، تعاطيه بعض المسكرات، التوسع في المباحات.

ولو تأملنا في هذه الصفات لوجدنا أن ما ذكر على سبيل المدح يتناقض مع مقابلها فمثلاً سلامة قلبه المهيمنة على سائر صفاته تتنافى مع تعاليه على الحكام ومعاملتهم بالعجب والخيلاء ومقتهم وازدرائهم في حين أن من الحكام من كان على جانب عظيم من التقوى كالسلطان عبد الحميد.

وكذلك الأمر بالنسبة لحلمه فهو يتناقض مع حدته، فالحليم يصبر ويتحمل كثيراً ما دام الأمر يتعلق بنفسه لا بدينه كما هو المعروف عن حلم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولذا وجدنا الشيخ محمد عبده ينقده على طبعه هذا فيقول: «وكثيراً ما هدمت الحدة ما فعلته الفطنة» أي أنه لو حلم لما أضاع ما فعلته فطنته التي يتحلى بها.

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ١/٣٥.

أما باقي خصاله التي نقد عليها فبعضها تركت دون تعليل وبعضها قدم لها مسوغات لا تخلو من النقد.

فمثلاً التدخين، وتوسعه في المباحات لم نجد أحداً نفاها بل أخذوا يؤكدونها بعبارات أخرى تزيدها يقيناً ورسوخاً، فعن التدخين يقول البعض بأن انتقاء التبغ يكون بنفسه فلا يكلف أحداً بشرائه لأنه يحب أجوده، ثم عن نوعه فهو لا يدخن إلا النوع الافرنجي الجيد، وهو النوع الأسود المعروف باسم «بابيروس»[1].

ومع ذلك لم يذكر أحد حكم الشريعة في الدخان رغم انهم يعلمون أن الميرزا حسن الشيرازي أصدر حكمه بتحريمها ــ كما يقولون ــ بناء على كتاب جمال الدين الأفغاني، فلماذا لم ينكروا على الأفغاني ارتكابه المحرم؟ فلعلهم يرونه مباحاً لم يحرمه الشرع: كما يقول بعض المتسرعين بالفتوى ــ. أو قد يكون الاعجاب بالأفغاني حجب عنهم الرؤية الصحيحة، فهو محرم على غيره مباح له. ولكن ماذا يقولون بعد أن ثبت أن السرطان الذي أودى به كان بسبب كثرة التدخين، يقول الشيخ عبد القادر المغربي: «وكانت وفاته بعلة السرطان الناشب في فكه الأسفل وزعم بعض الأطباء بأن علة السرطان نتجت عن كثرة شرب السيد للشاي وتدخينه بالسيكار الأفرنجي والاستكثار من ملح الطعام». وقد أصبح هذا الزعم، حقيقة بعد أن ثبت في الطب الحديث أنه من أسباب مرض السرطان. فهذا وحده يكفي للحكم على الدخان بالتحريم، عدا عن أن الدخان من الخبائث المحرمة وما هو من الطيبات. يقول الله تعالى: «ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث[2]». وورد في تفسيرها: «قال بعض العلماء فكل ما أحل الله تعالى من المأكل فهو طيب نافع في البدن والدين، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين»[3].

---

(١) جمال الدين الاسد آبادي ص ١٥٢.
(٢) الأعراف ــ ١٥٧ ــ.
(٣) ابن كثير جـ٢ ص ٢٥٤.

ولا أريد أن أتوسع في هذا الموضوع لأن العلماء أشبعوه بحثاً، ويكفي أن أقول بأن الدخان أقل ما نقول فيه أنه لا يليق بأصحاب العمائم وحملة شعار العلماء والمصلحين، عدا عن ضياع المال في غير فائدة.

أما ما قيل في تعاطيه المسكرات فلم أجد أحداً ردها سوى الشيخ رشيد رضا، فهو وإن كان معاصراً لجمال الدين ولكنه لم يصحبه، وإنما ثبت أنه التقى به وجرت بينهما مكاتبات وهذا لا يكفي لمعرفة دخائل الأفغاني وعاداته الدائمة، ولذا كان رده ناقصاً لا يرفع التهمة عنه.

يقول الشيخ رشيد رضا في رد هذه التهمة: «ما قيل من شربه لقليل من الكونياك فرية، فيحتمل أن يكون له شبهة، كأن يكون رآه الناقل يشرب شيئاً يشبه الكونياك أو يكون شرب ذلك القليل تداوياً فظنه الناظر عادة»[1].

فهذا الكلام مردود من عدة وجوه:

١ ــ فقوله (يحتمل) دليل على عدم وجود مستند صحيح لرد هذه الشبهة وانما هو احتمال وافتراض، بينما الناقل يروي لنا ما رآه وبلغة الجزم، فقول سليم عنحوري «وإذا تعاطى مسكراً فقليلاً من الكونياك». يعني أنه قد يتعاطى المسكر على سبيل الندرة ومع ذلك فهو لا يشرب الخمرة ولا النبيذ أما الكونياك فانه المشروب المفضل عنده.

٢ ــ ثم دعوى رشيد رشا أن الرائي توهم وظنه مسكراً وهو في الحقيقة قد يكون عصير فواكه أو غيره بما يشبه الكونياك لونا، فهي دعوى باطلة، لأن سليم عنحوري نصراني، يعرف هذه المشروبات لأنها غير محرمة عندهم ومن يدري انه شربها ويعرف أوصافها.

هذا فيما إذا كان الكونياك في كأس، فكيف إذا كان في

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ٥٣ / ١.

زجاجة معروفة لأن الراوي يجزم بأنه كونياك فلا بد أنه رأى الزجاجة.

٣ ــوأخيراً وقع الشيخ رشيد رضا فيما لم يكن في حسابه إذ أقر أن جمال الدين شرب الكونياك ولكن أراد أن يسوغ شربه بأنه كان تداوياً وذلك عندما قال: «أو يكون شرب القليل تداوياً فظنه الناظر عادة»، ولا يهم أن نعرف ان كان قليلاً أو كثيراً، وإنما المهم أن نعرف أشربها أم لا؟ فكأنه شعر من جوابه السابق بدعوى توهم الناظر غير حاسم فأراد أن يأتي بجواب آخر، لا يقول به هو ولا يجيزه، وهو جواز التداوي بالمحرم وهذا تخلص غير لائق من الشيخ رشيد رضا.

المهم أن نصل إلى أرضية نقف عليها وهي معرفة ما إذا كان جمال الدين شرب المسكر أم لم يشربه، وليس علينا الدخول في متاهات فقهية لا طائل تحتها.

وهنا يثور سؤال وهو كيف نعرف أن جمال الدين أصابه مرض ووصف له الطبيب شرب الكونياك وأن هذا دواؤه الوحيد فشربه مضطراً. وهل كان له طبيب خاص مسلم؟. الروايات تقول بأنه كان له طبيب خاص يهودي، وكان لا يثق بغيره من الأطباء، وهو الذي كان معه ساعة وفاته.

نخلص من هذا إلى أنه كان يشربها على غالب الظن وقد يكون هذا المشروب في نظره غير محرم. ويعلق على هذا الخبر الدكتور الوردي فيقوله: «وحدثني رجل من أهل نجف أن الأفغاني شوهد ذات مرة وهو يدخل المبغى العام في عشقباد عند زيارته لها»[(١)]

ومن الصفات التي لم يذكرها المترجمون حب الانتقام لنفسه، وعدم الصفح والعفو عن المسيئين مهما أعطى من وعود وعهود، فقد أقسم أن لا يسمح عن شاه ايران رغم الوساطات التي قدمها له ذوو المكانة

---

(١) لمحات اجتماعية ص ٣١٢ / ٣.

والوجاهة. حتى أن السلطان عبد الحميد توسط في العفو عن الشاه فأعطاه الوعد بقوله: «امتثالاً لأمر خليفة العصر قد عفوت شاه العجم، قد عفوت شاه العجم» ومع ذلك لم يفِ بوعده وبعد سنوات من تاريخ طرده خر الشاه صريعا بيد أحد أعوانه، بل لقد تم اغتيال جميع الذين دبروا ونفذوا طرده من ايران[1]. ولذا نقده الدكتور محمود قاسم في هذا الموقف فقال: «ولم يفِ جمال الدين بما وعد، ولم يكف عن الطعن في الشاه والتحريض عليه إلا بعد أن أنزله لحده، كما أقسم من قبل»[2].

ومن الصفات التي لم يذكرها المترجمون تلون جمال الدين في تسمية نفسه كلما دخل بلدة جديدة، وتغيير لباسه كلما حل في بيئة.

يحدثنا عن هذا التلون الدكتور علي الوردي فيقول: «وقد اعتاد الأفغاني أن يغير لقبه كلما انتقل من بلد إلى آخر فقد رأيناه في مصر وتركيا يلقب نفسه بـ(الأفغاني) بينما هو في إيران يلقب نفسه بـ(الحسيني).

ويتضح من أوراقه المحفوظة أنه كان يتخذ ألقاباً أخرى مثل (الاسطنبولي) و(الكابلي) و(الروسي) و(الطوسي) و(الأسعد آبادي).

والمظنون أنه كان يغير لقبه حسب تغير الظروف أثناء تنقلاته المختلفة، فكان يتخذ اللقب الذي يظن أنه يقربه إلى الناس في المحيط الذي يحل فيه.

وكان الأفغاني يغير زيه ولباس رأسه مثلما كان يغير لقبه، فهو في ايران يلبس العمامة السوداء التي هي شعار السادة من رجال الدين، فإذا ذهب إلى تركيا ومصر لبس العمامة البيضاء ــ فوق طربوش تارة وبغير طربوش تارة أخرى. وقد لبس الطربوش مجرداً في أوروبا أحياناً.

أما في الحجاز فقد لبس العقال والكوفية. وقيل أنه في بعض

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين ص ٤٦.

(٢) جمال الدين الأفغاني ــ عبد الرحمن الرافعي ــ ص: ١٥٢.

جولاته لبس العمامة الخضراء. ومن يدري فربما لبس القبعة أيضاً[1]»

فهذا يدل على أن له مهمة خفية يسعى لتنفيذها، وأنه يوجد وراءه من يخطط له ويطلب منه التلون بهذه الألوان والتسمي بتلك الأسماء.

---

(١) لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث. جـ٣ ص٣١٣.

(أشهر مؤلفاته)

نذكر هنا بعض مؤلفات الأفغاني التي حصلنا عليها عدا عن المجلات التي عمل فيها:

١ ـ «ومن الطريف أن نذكر أن الأفغاني أثناء مكثُه في بغداد نسخ بخط يده «رسالة صغيرة في الكيمياء» القديمة، ولا تزال هذه الرسالة محفوظة في المتحف الخاص به في طهران، وقد كتب الأفغاني في آخرها هذه العبارة: «كتبته بيدي في دار السلام البغدادي وأنا الغريب في البلدان الطريد عن الأوطان جمال الدين الحسيني الاستنبولي»، ثم أعاد الأفغاني النظر في العبارة فشطب بالقلم الأحمر فوق كلمتي (البغدادي) و(الاستنبولي) وكتب فوق الكلمة الأولى (الشريف) وفوق الثانية (الكابلي)[١]».

هذا كلام الدكتور علي الوردي. ونستطيع أن نقول هذه هي المخطوطة الوحيدة التي خلفها.

٢ ـ كتاب (الخلافة): ذكر المستشرق س. ج. ولسون أنه وجد كتاباً لجمال الدين بهذا الاسم ويقول بأن هذا الكتاب كان نصيبه المصادرة، ولم يذكر من الذي صادره ولا عن موضوعاته. ولكن كما

---

(١) لمحات اجتماعية جـ٣ ص ٢٩٧.

يبدو من عبارته أن فيه مساس بالخلافة العثمانية وأن المصادرة كانت من قبلهم، وغير بعيد أن يكون متوافقاً مع كتاب المستر بلنت (مستقبل الاسلام) الذي جعل الخلافة في العرب(١).

٣ ـ كتاب (الرد على الدهريين) الذي كتبه باللغة الفارسية وترجمه إلى العربية تلميذه عارف أبو تراب بمساعدة الشيخ محمد عبده حيث صاغه بأسلوبه البليغ.

٤ ـ كتاب (تتمة البيان في تاريخ الأفغان) وهو أول كتاب خطه قلمه ـ كما يقولون ـ حيث كتبه باللغة العربية.

٥ ـ مخطوطات ورسائل ومذكرات كتبها في حياته وكان يحفظها في صندوق له لا يطلع أحد على ما فيه إلى أن توفي حيث صورت هذه المذكرات والرسائل في طهران، ونشرت ليراها الباحث بخط يد جمال الدين، وفيها أسرار عجيبة كشفتْ الشيء الكثير مما كان غامضاً في حياته.

٦ ـ كتاب (أسطورة الخوف): ذكرته مجلة «الفيصل» عدد ٤٤ الصادر في شهر صفر عام ١٤٠١هـ في السنة الرابعة. ص٨.

«وقد أخرج الكتاب وعلق عليه الدكتور محمد عمارة، صدر عن المؤسسة العربية للدراسة والنشر ضمن سلسلة «الشبل الذكي».

وعلى كل حال لم يكن له مؤلفات كثيرة، لأنه كان مشغولا بالسياسة.

يقول الدكتور توفيق طويل:

«كان جمال الدين الأفغاني مقلاً في إنتاجه إلى حد أن ما خلفه من كتابات لا يعدل آية من آيات جهاده في أي مجال من مجالات نشاطه، ويبدو أنه استعاض عن قلمه بفكره ولسانه، ويقوم وراءها ولاؤه

---

(١) عبارة ولسون من كتابه (الحركات الحديثة بين المسلمين) ص ٧١.

لمبادئه، وجرأته في الحق»[1]. أي تعبه وكده في الوصول إلى تحصيل المهمة الموكولة إليه. وليس مراد الكاتب الجهاد الشرعي. لأن الكاتب لم يطلع على أهدافه من وراء جهاده المزعوم.

(١) (الفكر العربي في مائة عام ص ٣٠٠).

الباب الأول

الفصل الأول: اتجاهه العقدي والفقهي.
الفصل الثاني: آراؤه السياسية.
الفصل الثالث: ما قيل في دخوله الماسونية.

(الفصل الأول)

اتجاهه

العقدي والفقهي

جمال الدين الأفغاني شيعي المذهب:

نسب إلى جمال الدين أنه شيعي اثنا عشري وهو مذهب الايرانيين، وكان أبو الهدى الصيادي يثير حوله هذه الشبهة محاولاً الحط من قدره لدى المسؤولين ولدى علماء تركيا والعامة، فهل كان أبو الهدى متجنياً على جمال الدين أو أنه يقول الحق؟

لو تتبعنا حياته الدراسية من مبدئها إلى منتهاها لبدا لنا أنها كانت شيعية كلها، فقد تنقل من مدرسة إلى أخرى ومن بلدة إلى أخرى ومن شيخ إلى آخر وفي كل ذلك يتقلب في مجالات شيعية بحتة.

فهو درس في قزوين ـ وهي مدينة ايرانية ـ دراسته الابتدائية، ويقال أنه سجن فيها مع البابي قاتل الشاه ناصر الدين، ـ كما سيأتي معنا في باب وسائله في دعوته ـ.

ثم انتقل إلى طهران ليدرس العلوم الشرعية ويتابع دراسته.

ثم انتقل إلى العراق ليدرس الدراسات العليا في العتبات المقدسة التي إليها يحج طلاب العلم الشيعي من جميع أنحاء العالم.

يقول الدكتور عمارة: «كان والده يشتغل في التدريس في مدرسة

قزوين فالتحق بها جمال الدين ومكث فيها مدة سنتين. . . وعندما ظهر وانتشر مرض الطاعون خاف عليه والده مغبة ذلك فانتقل به إلى طهران. . . ويتحدث جمال الدين عن هذه الرحلة إلى طهران فيقول: «وصلنا إلى طهران في أوائل سنة ١٢٦٦ هـ. ونزلنا في محلة سنكلج ضيفين على **سليمان خان المعروف بصاحب اختيار**. . . ثم سألت عن أكبر علماء طهران في ذلك الحين فقيل لي: «انه **آقاسيد صادق**» فتوجهت إلى مجلس درسه في اليوم التالي، دون أن أخبر والدي بذلك، فوجدته جالساً بين طلابه يقرأ كتاباً عربياً، ويشرح مسألة من المسائل العلمية، ولاحظت أنه شرحها شرحاً مقتضباً فطلبت منه أن يعيد شرحها بصورة أكثر تفصيلاً، حتى يتفهمها الجميع، فتعجب الشيخ من جرأتي وفضولي، ولكني أجبته بأن طلب العلم لا فضول فيه. ثم قمت بقراءة تلك المسألة وتفسيرها، فتحرك الشيخ من مكانه، فظننت أنه يريد بي شراً، ولكنه أقبل علي، وضمني إلى صدره، وقبلني ثم أرسل إلى والدي يستدعيه، وأمر أن يشتري لي عباءة وعمامة، وأن يلبسوني العباءة ثم قام هو بلف العمامة، ووضعها بيده فوق رأسي وكنت حتى ذلك الوقت ألبس قلنسوة ولا ألبس عمامة»[1].

فهذه دراسته منذ البداية إلى أن تقلد شعار العلماء كلها على المذهب الشيعي، ومن المحتمل أنه بقي محافظاً على مذهبه حتى نهاية حياته، ودليلنا على ذلك هو تردده على المشاعر الشيعية في الحين بعد الحين واجتماعه المتواصل مع رجالات الشيعة، وما نزل في مكان إلا هم بالبحث عن شيعته.

فها هو الدكتور محمد عمارة يحدثنا عن مراحل دراسته التي تلت بعد الابتدائية فيقول: «ومن طهران سافر جمال الدين مع والده في نفس العام ١٢٦٦ لزيارة معالم النجف ومشاهدها. . . وكان سفرهما عن طريق (بروجرد) وفي (بروجود) رحب بهما نفر من أهلها في مقدمتهم الحاج **ميرزا محمود المجتهد**، الذي استضافهما ثلاثة أشهر. . . وعندما وصلا إلى النجف استضافهما الشيخ مرتضى في منزل خصص لهما. . .

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ٢٩.

وفي النجف مكث جمال الدين أربع سنوات... أما والده فقد غادرها بعد بضعة أشهر.[1] «ثم إن جمال الدين يذهب إلى الهند فأفغانستان وليس هذا مما يهمنا لأن هذه المرحلة غير واضحة في حياته ولا نعلم له صلة بالشيعة وانما كان يتنقل في بلاد سنية وفيها اختفى وصفه الشيعي وظهر له وصف جديد وهو المذهب الحنفي وكاد ينسى تشيعه.

ثم دخل مصر وذاع صيته على أنه سني وأنه أفغاني وأنه حنفي وأنه شريف ينتمي إلى النسب الطاهر وصدّق الناس ذلك لأنهم لا يعرفون سابقته واكتفوا بتصريحاته التي كان ينشرها في كل مجلس.

ولكن هذا التستر والتخفي بدأ يظهر ثانية للعيان بعد حلوله في استنبول مركز الحكم الاسلامي، وحاضرة الخلافة العثمانية، وذلك عندما أراد السلطان عبد الحميد جمع الشيعة إليه. يقول الوردي: «أخذ الأفغاني منذ حلوله في اسطنبول يعمل على التقريب بين الشيعة والسنيين وعلى اجتذاب الشيعة إلى الجامعة الاسلامية، وقد استعان في ذلك بثلاثة ايرانيين كانوا يسكنون اسطنبول انذاك هم: المرزا حسن خان الملقب بـ(خبير الملك)، والشيخ أحمد روحي كرمان، والمرزا حسن خان الكرماني. وكان أحد هؤلاء الثلاثة ـ وهو الشيخ أحمد روحي ـ من أشد الناس حماساً للجامعة الاسلامية...

كان الافغاني يجتمع بهؤلاء الثلاثة في قصر السلطان حيث أعدت لهم قاعة خاصة، فكانوا يجتمعون فيها والسلطان يراقبهم من وراء الستار، فيكتبون الرسائل إلى علماء الشيعة في العراق وايران يدعونهم فيها إلى نبذ الخلاف مع السنيين في قضية الخلافة، وإلى الالتفاف حول السلطان عبد الحميد من أجل تقوية الأمة الاسلامية تجاه الكفار الذين يريدون ابتلاعها.

وصلت رسائل الأفغاني إلى علماء الشيعة، والظاهر أنه عرف كيف يخاطبهم ويؤثر في عقولهم لأنه كان واحداً منهم في سالف الأيام. فهو يقول لهم أن الامام علياً صلى وراء عمر ونصحه وعاونه وزوجه بنته، وهو

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ٢٩.

إنما فعل ذلك حرصاً على مصلحة الاسلام وتوحيداً لشمله تجاه الكفار، وهم يجب أن يقتدوا بامامهم فيلتفوا حول السلطان عبدالحميد ويساندوه.[1]»

وتشير بعض القرائن إلى أن رسائل الأفغاني أنتجت ثمرتها في أوساط الشيعة. ذكرت جريدة التايمس اللندنية في ٣ آب ١٩٠٣ أن فريقاً من علماء الدين البارزين في ايران أخذوا يدعون إلى الاعتراف بخلافة السلطان العثماني، ويفسر براون هذه الدعوة بأنها ربما كانت من نتيجة المساعي التي قام بها الأفغاني في التوفيق بين الشيعة وأهل السنة[2].

كل هذه المساعي قام بها السلطان عبدالحميد من أجل الجامعة الإسلامية التي تضم الشيعة والسنة، ويرجح البعض أن أسباب اختيار جمال الدين لهذه المهمة هو ما لاحظ فيه من قوة الشخصية في هذه الطائفة كما أن السلطان كان يريد أن يعيد رحى صف المسلمين بعد أن تفرق الجمعان بسبب الأحداث السيئة التي أدت إلى هجرة كبار الشيعة من وطنهم تخلصاً من وطأة أهل السنة عليهم، ويحدثنا عن هذا الدكتور الوردي: «ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن العلاقة بين الشيعة والسنيين لم تكن حينذاك على ما يرام من جراء هجرة المرزا الشيرازي إلى سامراء، ويخيل لي أن السلطان عبد الحميد كان يبحث عن رجل من الشيعة يستطيع أن يرقع الفتق الذي حدث بين الطائفتين ويجتذب الشيعة إلى الجامعة الإسلامية. وكأنه وجد هذا الرجل أخيراً في شخص الأفغاني فدعاه إليه[3]».

وحتى مشايخه جميعهم من الشيعة فقد عد المترجمون من مشايخه آقا خان صادق وهو شيعي والشيخ مرتضى شيعي، ويذكر أبو ريه بعضاً من المشايخ ويقول: «ولقد سمعت أن السيد تتلمذ على القاضي بشد والحافظ دراز وحبيب الله القندهاري»[4]. وهؤلاء من الشيعة أيضاً. فبعد هذا ألا

---

(١) لمحات اجتماعية ٣ : ٣٠٣

(٢) لمحات اجتماعية ٣ / ٣٠٣ .

(٣) لمحات اجتماعية ٣ / ٣٠٣.

(٤) (جمال الدين الأفغاني): أبو ريه ٥٥ .

يحق لنا أن نقول بأنه شيعي جعفري اثنا عشري. ويؤيد هذا الرأي الدكتور عبد المنعم محمد حسنين فيقول: «وكان شيعياً جعفري المذهب[1]».

ولم يصدر هذا الحكم إلا بعد أن قرأ رسائل الأفغاني التي نشرت بعد وفاته لذا يقول: «وان الأدلة التي تثبت أن جمال الدين ايراني شيعي المذهب كثيرة وقاطعة»[2]. ثم لا يكتفي الدكتور عبد المنعم محمد حسنين باثبات شيعيته بل يؤكد أنه متعصب لمذهبه فيقول: «بل لقد كان جمال الدين متعصباً لبلاده ومذهبه الشيعي حتى في اتخاذ من يقوم على خدمته ويعني بمصالحه الخاصة، فقد اتخذ له خادماً يسمى (أبا تراب) — وكان هذا الخادم ملازماً له أينما ذهب، كما كان أميناً على أسراره الخاصة. واسم (أبا تراب)... من الألقاب الخاصة بعلي بن أبي طالب. ويشبه هذا حرصه على أن يوقع باسم (جمال الدين الحسيني) فانه يرجح انه شيعي ايراني. لأن لقب الحسيني له معنى خاص عند الشيعة الايرانيين، لشدة تعلقهم بآل البيت ولا سيما الحسين بن علي»[3].

ويحدثنا الدكتور الوردي عن واقعة لرجل حصلت معه يستدل بها على تشيعه فيقول: «روى لي أحد المسنين من بغداد أن الوالي عند التقائه بالأفغاني سأله: (هل أنت سني أم شيعي)؟ فأدار الأفغاني وجهه تغاضياً عن الجواب[4]. فلو كان سنياً لما تأخر في الاجابة.

ثم يتابع الدكتور الوردي حديثه عن تشيعه فيقول:

«كانت الحكومة الايرانية قد طلبت من الوالي سري باشا أن يمنع الأفغاني من الذهاب إلى العتبات المقدسة لكي لا يتصل بعلماء الشيعة فيثيرهم على الشاه. ويزعم الدكتور مهدي البصير أن الوالي ضيق على الأفغاني وراقبه مراقبة شديدة بناء على الأوامر التي تلقاها من السلطان عبد الحميد. هذا ولكن القرائن تشير إلى خلاف ذلك، فقد تواترت

---

(١) جمال الدين الأسد آبادي ٩).
(٢) جمال الدين الأسد آبادي ١٠ — ١١.
(٣) جمال الدين الأسد آبادي ٣٥ — ٣٦.
(٤) لمحات اجتماعية جـ٣ ص ٢٩٦.

الروايات على أن الأفغاني زار الكاظمية والنجف متنكراً، والمظنون أن الوالي سمح له بذلك بشرط أن يتكتم في جولاته فلا يعرف الجمهور عنها شيئاً. زار الأفغاني الكاظمية ومكث فيها أياماً في دار الملا **أحمد اليزدي** واتصل به في تلك الدار جماعة كان منهم الحاج **علي أوف التبريزي**، **والحاج علي المطلب، والحاج علي أكبر الأهرابي**، فكانوا يجتمعون سراً في سرداب تحت الأرض، والشائع أن **الشاعر عبد المحسن الكاظمي** كان من الذين اتصلوا بالأفغاني وتأثروا بأفكاره، إذ كانت داره ملاصقة للدار التي نزل فيها الأفغاني في الكاظمية.

وحدثني ثقة من أهل النجف أن الأفغاني حين زار النجف متنكراً اجتمع بالسيد **محمد سعيد الحبوبي** الذي كان زميله في الدراسة سابقاً، وكان اجتماعهما في الصحن الشريف في الغرفة التي تقع فوق باب القبلة وقد طال اجتماعهما منذ صلاة العشاء وحتى مطلع الفجر. وقيل أيضاً أن الأفغاني زار سامراء وقابل **المرزا محمد حسن الشيرازي** واختلى به برهة من الوقت. ولا ندري مبلغ هذا القول من الصحة»[1].

كل هذا لا يفعله إلا شيعي فلو كان سنياً لما فتح هؤلاء الشيعة صدورهم وقلوبهم له.

والظاهر أنه لا يصرح بأنه سني إلا أمام طلاب العلم من أتباعه لئلا ينقلبوا عليه أما باقي أتباعه فكانوا خليطاً من اليهود والنصارى وعوام المسلمين وهؤلاء لا يهمهم الاتجاه المذهبي فالذي يجمعه بهم هدف آخر وهو السياسة الدنيوية لقلب أنظمة الحكم التي يتفقون عليها. ولذا كان أكثر ما يقرأ على أتباعه من طلاب العلم بصورة خاصة كتباً لا تثير جدلاً مذهبياً ولكنها على الطريقة الشيعية، فكان أكثر الكتب التي يقرأها على هؤلاء في المنطق والفلسفة والتصوف والهيئة مثل كتاب الزوراء للدواني في التصوف[2].

وكان الشيخ يستند إلى هذه الكتب في شرح أفكاره وآرائه والتبسط

---

(١) لمحات اجتماعية جـ٣ ص٢٩٧ ـ ٢٩٨.

(٢) زعماء الاصلاح في العصر الحديث ٦٤.

في مناحي فكره والتطبيق على الحياة الواقعة ونظرته إلى العالم كوحدة، مازجاً التصوف بالفلسفة وبالهيئة وبغير ذلك[1].

وعلى كل حال لم يكن داعية إلى مذهبه لأن مقصده غير ذلك، وكان يبحث عن سمعة لدى الناس تساعده على الدخول في جميع الفئات ليسهل عليه مخاطبتهم. فكما ادعى أنه سني ادعى أيضاً أنه حنفي لأن الدولة العثمانية على المذهب الحنفي.

ولذا نجد أن جمال الدين الأفغاني كثيراً ما يقع في إحراجات مثال ذلك أنه عندما عرض ناصر الدين شاه إيران عليه رئاسة الوزارة في بلده، قال جمال الدين في مجلس يضم عدداً من تلاميذه منهم عبد القادر المغربي: «إن بعض الكبراء من الألمان وغيرهم جمعوني به ـ يعني ناصر الدين ـ فرغب إلي أن أذهب معه إلى بلاده ليجعلني رئيس وزرائه فأبيت. . . وكان يقول عني: «هذا الرجل العالم السياسي الحربي الجديد بأن يكون رئيس وزارة، ويقوم بتدبير الشعب.

فقال له بعض الحاضرين ـ وهو الشيخ عبد القادر المغربي الذي كتب حديثه. . . كيف يدعوك إلى ذلك وأنت مشهور بشدة رغبتك في تشييد عقائد أهل السنة. فقال: جنون وهوس منه[2]».

هذا الكلام صدر من جمال الدين عندما كان يأبى الذهاب مع ناصر الدين إلى ايران، ولكنه أخيراً وافق على طلب ناصر الدين ودخل طهران واستلم منصباً عنده، قيل انه رئاسة الوزارة وقيل وزارة الحربية وقيل غير ذلك، ولكن المهم هنا هو قبوله المنصب وزال الهوس والجنون وانجلى الأمر أنه شيعي من عدة أمور: منها قبول الشاه له فلو كان سنياً لما سلمه أرفع منصب وهو يعلم أن شعبه أكثره شيعي، وعلى فرض أن التعامل في هذه الأمور لا دخل له في مذهب صاحبه، لم نجد أحداً نفى عنه تشيعه بعد الخلاف مع الشاه. ومنها التجأ إلى مقام عبد العظيم عندما تخاصم مع الشاه ليحتمي في وسط شيعي، فلو كان سنياً لفضل مغادرة البلاد على

(١) زعماء الاصلاح في العصر الحديث ٦٥.
(٢) تاريخ الأستاذ الامام جـ١ ص ذد.

البقاء في وسط شيعي. ومنها أن الشاه عندما أراد التشهير به ادعى أنه بابي مخرب ولم يقل بأنه سني يخرب عقائد الشيعة أو أنه تهجم على معتقداتهم.

والواقع كما ذكرت الروايات الموثوقة أن شاه ايران عندما عرض على جمال الدين المنصب كان يجهل أن جمال الدين ايراني ولكنه يعرف انه شيعي بالوهم نفسه وقع السلطان عبد الحميد، يقول لطف الله خان: «كان السبب في مجيئه إلى ايران هو أن ناصر الدين شاه أثناء سفره إلى أوروبا سمع كثيراً عن السيد جمال الدين وعن اشتهاره وبعد صيته ونفوذ كلمته، فرأى أن دعوته تكون مدعاة لفخر الايرانيين ومباهاتهم في الأوساط الأوروبية، وظن أن السيد أفغاني ولم يعرف أنه ايراني بيد أن الميرزا حسن خان (صنيع الدولة) برهن للشاه أن السيد ايراني أسد آبادي»[1].

فهذه رواية أقرب الناس إليه تجزم أنه شيعي متستر بالحنفية، وكثيراً ما كان يحرج في دعوى الحنفية فيتخلص منها بدعوى الاجتهاد، وأنه لا يقلد أحداً ويأخذ من الكتاب والسنة كما أخذ الأئمة. ودعوى الاجتهاد من أركان عقيدة الشيعة وهي من حق كل طالب علم أنهى أعلى مراحل الدراسة ولذا نجد المجتهدين عندهم لا يحصرهم عدد.

ونختم بحثنا عن تشيعه بنقل ما كتبه الدكتور علي الوردي في رفع صفة التغالي عن الأفغاني فيقول:

«وكان الأفغاني على الرغم من أصله الشيعي لا يتعصب للتشيع تعصباً أعمى، ففي الوقت الذي نراه فيه ينتقد أهل السنة على سدهم باب الاجتهاد نراه ينتقد الشيعة على عاداتهم في إقامة المآتم الحسينية حيث يضربون أنفسهم بالسلاسل[2]. أو في تذهيب المراقد المقدسة والتذلل نحوها[3]. وكان الأفغاني يعتقد أن إثارة قضية الخلافة بعد وفاة النبي أمر يضر بالمسلمين في الوقت الحاضر ولا ينفعهم، وهو يتساءل في ذلك قائلاً: «لو أن أهل السنة وافقوا الشيعة الآن على أحقية علي بالخلافة فهل يستفيد

---

(١) جمال الدين الأسد آبادي ٩١.
(٢) خاطرات ١١١.
(٣) تتمة البيان في تاريخ الأفغان ص: ١٥٠ ـ ١٦٦.

الشيعة من ذلك شيئاً. أو أن الشيعة وافقوا أهل السنة على أحقية أبي بكر فهل ينتفع أهل السنة. ويهتف الأفغاني بعد ذلك قائلاً: «أما آن للمسلمين أن ينتبهوا من هذه الغفلة؟ ومن هذا الموت قبل الموت؟؟»[1].

فالوردي لم ينف عن الأفغاني تشيعه ولكنه جعله من المتساهلين في هذه الأمور. قلت: وذلك لأسباب منها أنه يسعى لأهداف أخرى، منها أنه في بلاد السنة، فلا يناسبه التعصب لمذهبه الشيعي.

نسبه البابيه إلى جمال الدين: ورد في كتاب حقيقة البابية في ترجمة زعيم البابية الميرزا حسين علي المازندراني: «تربى في طهران وكان يعاشر الصوفية»[2].

ويقول أيضاً: «أن الميرزا حسين اقتبس مزاعم الربوبية من نظرية وحدة الوجود المشهورة وهو يؤمن بها.. واثبات وحدة الوجود قديمة قال بها جمع من غلاة الصوفية وتلقنها الميرزا عنهم لأنه كان صوفياً في بداية حياته»[3].

وحتى البهائية التي جاءت بعد البابية وانشقت عنها وخلفتها في كثير من عقيدتها تنادي بوحدة الوجود وبالحلول والاتحاد، قال صاحب كتاب حقيقة البابية: «إن البهائية اضافة إلى تأثرهم في هذا الاتجاه الهدام بالنظريات الصوفية والاتحادية، متأثرون أيضاً بما دعت إليه الماسونية من ترك الأديان والاجتماع على دين واحد في زعمهم وهو دين الحب»[4].

ويقول صاحب كتاب حقيقة البهائية «إن البهائيين يزعمون أن الأديان بأوضاعها الحاضرة سبب البغضاء والشحناء، ثم هم يعالجون هذا بالخروج على الأديان جميعاً والايمان بطاغيتهم الميرزا حسين. تلك الأفكار التي سلخها من كتابات شيوخ الصوفية.. وهذه الأفكار كما سبق في هذا الكتاب نابعة من نظرية وحدة الوجود[5].

---

(1) خاطرات ١١٣ ـ ١١٤.
(2) حقيقة البابية والبهائية ١٤٧.
(3) المرجع السابق ١٦٠.
(4) المرجع السابق ٢١٠.
(5) المرجع السابق ٢١٠.

من أجل هذا كان ينسب إلى جمال الدين الأفغاني أنه بابي وكان أبو الهدى الصيادي يقول عن جمال الدين بأنه مازندراني أي بابي لما يرى عنده من أفكار متقاربة مع أفكار ومعتقدات البابية[1]. ويقول الدكتور عمارة: «كتب أبو الهدى الصيادي إلى الشيخ رشيد رضا مهاجماً ترديد المنار لأفكار الأفغاني وقال: «إني أرى جريدتك طافحة بشقائق المتأفغن جمال الدين الملفقة... وقد ثبت في دوائر الدولة رسمًا أنه مازندراني من أجلاف الشيعة.. وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرميّة»[2]. والمقصود من المازندراني أي نسبة إلى مؤسس الحركة البابية الميرزا حسين علي المازندراني.

ومما يؤكد هذا الاتجاه أن قاتل ناصر الدين شاه ايران كان بابياً وكان من أتباعه ومحبيه وكان قد اجتمع معه في سجن واحد يوم كانت الحكومة الايرانية تكافح وتلاحق عناصر البابية بعد أن ثبت لديها أنهم حاولوا اغتيال الشاه ناصر الدين عام ١٢٦٨[3]. وقد ضحى بنفسه من أجل جمال الدين فقال لناصر الدين شاه ايران عندما طعنه (خذها من يد جمال الدين).

ولما وصف جمال الدين قرة العيون وهي أعظم اتباع الميرزا حسين علي المازندراني قال: «فتاة بارعة الجمال متوقدة الجنان، فاضلة عالمة تسمى باسم سلمى» (البابية ص ٢٤٠) انها كانت من أحط النساء فكانت تنادي بالاباحية. اسمها الحقيقي أم سلمة أبوها الملا محمد الصالح القزويني أحد علماء الشيعة، وبايعت على الطريقة الشيخية الصوفية، اشتهرت بذكائها وفصاحتها وطلاقة لسانها وجمالها الفائق، وكانت تلقب بالتاج الذهبي لجمال شعرها الذهبي.

يقول الكونت بوبيو الفرنسي: «وكانت هذه من مدهشات العصر في علمها وفضلها وحماستها الدينية الشيخية والبابية بعد ذلك».

---

(١) رشيد رضا الامام المجاهد ٩٧.
(٢) الأعمال الكاملة ٢٣ نقلاً عن تاريخ الأستاذ الامام ١/٩٠.
(٣) دراسات عن البابية والبهائية ١١٣ ــ من كلام محمد كرد علي.
(٤) البابية ٢٤٠.

ولكن البيئة التي نشأت فيها كانت لا تزال محافظة على القيم الروحية وبقية الأخلاق والانسانية الاسلامية فالتجأت منها إلى الشعر الغزلي الفاجر السافل... فاشتهرت قصائدها بالغزل المشوب باللهفة والمهيج للعواطف الشهوانية الحيوانية، وشعرت انه لا سبيل إلى قضاء شهواتها وطلب رغباتها والفسق والفجور إلا برفع القيود الاسلامية والحدود الأخلاقية(١).

وكانت تردد: «يا أواه... متى يطلع ذلك اليوم الذي تظهر فيه شريعة جديدة، ومتى يأتي ربي والهي بتعاليمه الحديثة وأتشرف بأن أكون أول نساء العالم التي اعتنقتها وألبي دعوته»(٢).

ثم انها رحلت إلى كربلاء والعتبات المقدسة في العراق، وبقيت مع المرزة محمد علي القزويني أول الأمر ثم تركها وحدها بين الطلاب والرجال، وأفتت أول ما أفتت بأنه يجوز للمرأة أن تتزوج تسعة رجال(٣).

ثم رفعت الحجاب وكانت تظهر سافرة في الأماكن العامة وتختلط بالرجال وتدرسهم وتخطبهم دون حاجز بينها وبينهم(٤).

ويروى عنها أنها كانت تقول بحل الفروج ورفع التكاليف بالكلية(٥).

وكانت تدعي أنها مظهر فاطمة بنت النبي وزوجة علي عليهما السلام، وكانت تقول: «حكم عيني عينها، وكل شيء ألقيت عليها نظرتي ورأيتها بعيني طهرت وحلت مع حرمتها ونجاستها. وأيضاً: فأتوا إلي الأشياء حتى أحلها وأطهرها بنظرتي إليها»(٦).

---

(١) البابية ص ٢٤١.

(٢) البابية ص ٢٤٢ نقلاً عن كتاب قرة العين ص ٣٩ طبع المحفل الملي البهائي.

(٣) البابية ص ٢٤٥ عن كتاب مفتاح باب الأبواب ص ١٧٦.

(٤) البابية ص ٢٤٥ عن مطابع الأنوار ٢١٤ هامش.

(٥) البابية ص ٢٤٦ عن كتاب مختصر التحفة الأثني عشرية ص ٢٤.

(٦) نفس المرجع ٢٤٦ عن كتاب نقطة الكاف.

ولما خرجت من كربلاء مع أصحابها ورفيقاتها كان الأهالي يرمونهم بـالحجارة(٢). وعملت المنكـرات وارتكبت الفواحش واطلقت نفسهـا للشهوات وقدمتها فريسة لكل مفترس(٣).

وقد خطبت يوماً فقالت: «لا تحجبوا حلائلكم عن أحبابكم، إذ لا ردع الآن ولا حد ولا منع ولا تكليف ولا صد فخذوا حظكم من هذه الحياة فلا شيء بعد الممات»(٣).

وأخيراً اشتركت في مؤامرة قتل عمها ورحيمها الملا تقي أمام الجمعة بقزوين لمـا أراد الحيلولة بينهـا وبين لهـوها واستهتـارها عـام ١٢٦٣هـ فسجنت في قـزوين ثم اشتركت في مؤامـرة اغتيال الشـاه ناصرالدين القاجاري بعد قتل الشيرازي، وقبض عليهـا وحكم بأن تحرق حية، ولكن الجلاد خنقها قبل أن تلعب النار بالحطب الذي أعد لاحراقها(٤).

هذه هي ترجمة المرأة التي وصفها الأفغاني بالفضل والعلم وقد عاشت كما رأينا في البلدة نفسها التي أمضى جمال الدين قسمًا من حياته فيها وهي قزوين، كما أنه رحل إلى كربلاء والعتبات المقدسة التي رحلت إليها قرة العيون، وأمضى شطراً من حياته في منطقة المازندران التي خطبت فيه وأباحت المحرمات.

ولذا كانت معرفته لها جيدة ومن يدري لعله تأثر بمذهبها البابية وقد أثبت التاريخ أن الماسونية لها دور عظيم في تكوين هذه الفرقة.

نخلص إلى القول بعد هذا كله بأنه ربما يكون له صلة بالبابية خاصة وأنه يؤمن بوحدة الوجود مثلهم، ومن قادة الحركة الماسونية منشئة البابية.

---

(١) نفس المرجع ٢٤٦

(٢) نفس المرجع ٢٤٧.

(٣) نفس المرجع ٢٤٩ من خطبة القتها عام ١٢٦٤هـ في مؤتمر أقيم في بيداء بست على شاهرود بين خراسان ومازندران ــ نقلاً عن كتاب مفتاح باب الأبواب ١٨٠.

(٤) نفس المرجع ٢٥٠ عن الكوكب الدري ودائرة المعارف للبستاني.

وانصافاً للبحث نحب أن ننقل ما قيل في تبرئته من البابية. فقد تكون هذه النسبة جاءتـه من خصومـه في ايران إذ بعـد أن ناصب ناصر الدين العداء لجمال الدين بدأت الشائعات تذاع في كل مكان عن مثالبه لتأليب الناس عليه.

يقول الكاتب آغا بزرك الطهراني في كتابه الذريعة: «فأراد القبض عليه فاتهمه لذلك بالبابية ونفاه إلى العراق»[1].

ويقول ميرزا لـطف الله خان: «فلذلـك بلغت بهم (أي الشاه وأتباعه) القحة إلى درجة أنهم شهروا في وجه السيد راية التكفير وموهوا الحقيقة على الناس... والطريف أنهم حركوا زمر العامة ليجتمعوا هنا وهناك ويلغطوا فيما بينهم قائلين: ألا لعنـة الله على البـابية وأعـداء الشاه»[2].

بقي علينا أن نعرف هل انصفه المنصفون حين ادعوا أن البابية الصقت به الصاقاً أو أن محبتهم له جعلتهم ينفون ذلك عنه.

في الحقيقة ليس لدينا دليل قاطع يحكم بهذه النسبة اليه ولكن الملابسات كثيرة التي تدعم هذه النسبة ذكرنا بعضها وبقي أن نضع مقارنة بين الماسونية التي كان يؤمن بمبادئها وبين البابية التي نسبت إليه وصلة كل واحدة بالأخرى.

إن مبادىء وأسس البهائية، خليفة البابية، تتفق في كثير من الأمور مع مبادىء وأهداف جمال الدين. فالبهائية اضافة إلى تأثيرهم في هذا الاتجاه الهدام بالنظريات الصوفية الحلولية الاتحادية متأثرون بما دعت إليه الماسونية من ترك الأديان والاجتماع على دين واحد[3].

وكذلك أنشأ جمال الدين الماسونية في مصر ودعا إلى جمع الأديان وكان قبل ذلك يؤمن بوحدة الوجود. فلا يبعد أن يكون اذن بابياً.

---

(1) الرد على الدكتور الوردي ٤١.
(2) جمال الدين الأسد آبادي ١٠٦.
(3) حقيقة البابية والبهائية ٢١٠.

على أنه يجب أن نعلم أن جمال الدين أسس الماسونية في مصر وبقي يعمل فيها حتى بعد خروجه من مصر وكان من أتباع محافلها في ايران عندما كان مقيمًا فيها.

وايران التي كانت مهد البابية كانت واقعة تحت وطأة الماسونية، يقول الأستاذ محمد عبد الحميد: «أما الدوائر اليهودية العالمية فكانت من البديهي جداً أن ترحب بهذه الحركة ـ أي البابية ـ باعتبارها تستهدف القضاء على ملة الاسلام التي يشتد اليهود في معاداتها، ولذلك فانها أوعزت إلى يهود ايران أن ينضموا تحت لواء هذه الحركة بصورة جماعية. ففي طهران دخل فيها (١٥٠) يهودياً، وفي همذان (١٠٠) يهودي وفي كاشان (٥٠) يهودياً وفي كلباكيان (٨٥) يهودياً»[١].

ثم يتحدث عن اليهود وانطوائهم على أنفسهم وأنهم دخلوا هذه الحركة لأنها تخدم مخططاتهم فيقول: «إن دخول اليهود في هذه الحركة تحت شعار «وحدة الأديان» والانسياق فيه كان تدبيراً من الحركة الماسونية العالمية التي كان لها ركائز قوية في ايران بين الطبقات العليا، والتي أمرت البابيين بشعاراتها في التغني الكاذب بالانسانية، والادعاء الباطل بأن الأديان هي السبب في فرقة البشر»[٢]. ثم يذكر مآربهم في دخولهم هذه الحركة فيقول: «إن الماسونية العالمية التي يسيرها اليهود، قد سيطرت على الحركة البابية حتى توجهها لأغراضها الخاصة، وهي تمكينها لتنفيذ مؤامراتها وإنشاء وطن قومي لليهود على أرض فلسطين. .[٣]» ثم يقول: «لننظر فهذا جولد سيهر اليهودي المتعصب على الاسلام والمسلمين يتكلم عن الحركة البابية فيدافع عنها، ويضفي على رجالاتها لقب «البطولة» وخاصة غانيتهم الفاجرة (قرة العيون)[٤]».

كما يجب ألا يغرب عن ذهننا أن البهائية التي ورثت البابية كانت تجمع في صفوفها مختلف الأصناف والمعتقدات فلا مانع عندهم الجمع

(١) حقيقة البابية والبهائية ١٠٢.
(٢) حقيقة البابية والبهائية ١٠٢.
(٣) حقيقة البابية والبهائية ١٠٢.
(٤) حقيقة البابية والبهائية ١٠٢.

بين البهائية وبين أي معتقد آخر، والمهم أن ينتظم الرجل في صفوفهم ويعمل معهم ويتظاهر بعدها بما يشاء وهذا ما نطق به شيخهم عبد البهاء المسمى عباس أفندي إذ أنه لما سأله ملحد في أحد اجتماعات له في أوروبا السؤال الآتي: «أليس من المستحسن بقائي في الطريقة التي درجت فيها طول أيام حياتي»، فأجابه وهو يعلم أنه ملحد: «ينبغي لك ألا تنفصل عنها فاعلم أن الملكوت ليس خاصاً بجمعية مخصوصة، فانك يمكنك أن تكون بهائياً مسيحياً وبهائياً ماسونياً، وبهائياً يهودياً وبهائياً مسلماً»(١). فجوابه هذا يدل على أن البابية أو البهائية لا تمانع من دخول الماسوني أو المسلم المدعي الاسلام، ثم يعمل كلما سنحت له الفرصة لمبدئه الخفي مثاله مثال سائر الفرق الباطنية، وهذا المبدأ كان اليهود ولا يزالون يعملون به، فقد كان معظم المنافقين الأولين من اليهود، وهم الذين كانوا يدعون إلى الايمان وجه النهار والكفر آخره ثم انهم هم الذين قوضوا الدولة العثمانية باسم الاسلام.

مذهب جمال الدين الفقهي:

إن الاعلان على الملأ شيء والحقيقة شيء آخر، فهو يعلن للناس أنه حنفي المذهب، وجميع إخوانه وتلاميذه يقولون عنه: إنه حنفي المذهب.

وحتى أن جولد سيهر يدعي بأن جمال الدين الأفغاني حنفي من أسرة حنفية المذهب(٢).

مع أن الاجماع منعقد على أن أباه علمه في صغره ونقله في مدارس الشيعة ووضعه في أحضان علماء الشيعة فهل يعقل أن يكون أبوه حنفي المذهب كما يدعي. ولم أجد أحداً ذكر أسرته ومذهبها الحنفي إلا المستشرق جولد سيهر.

ولكن لو رجعنا إلى تصريحات جمال الدين لرأيناها متناقضة فهو يصرح بأنه حنفي ثم إذا أحرج يدعي الاجتهاد ويصرح بأنه لا يتقيد

(١) حقيقة البابية والبهائية ١٨٣.
(٢) دائرة المعارف الاسلامية جـ٧ ص٩٧.

بمذهب وإنما هو مجتهد كسائر المجتهدين وهذه من بقايا أصوله الشيعية.

والأفغاني يعتبر أبا حنيفة ليس أولى منه بهذه الرتبة، فكما أن أبا حنيفة كان يأخذ من الكتاب والسنة وكذلك هو، يقول الدكتور أحمد أمين: «وكان ينفر من التقليد ويدعو إلى الاجتهاد ويُذْكر في مجلسه القاضي عياض فيقول: «سبحان الله إن كان القاضي عياض قال ما قال على قدر ما وسعه عقله وتناوله فهمه، وناسب زمانه، أفلا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه وأصوب من قول القاضي عياض وغيره من الأئمة»[١].

وقد اعترض عليه أحد المريدين بأن باب الاجتهاد قد سد ولم يعد هناك مجال للاجتهاد قال: «ما معنى باب الاجتهاد مسدود، وبأي نص سد، أو أي امام قال: لا يصح لمن بعدي أن يجتهد ليتفقه في الدين»[٢].

ورغم هذا فان الشيخ محمد عبده قال في ترجمته: «أما مذهبه فحنيفي حنفي وهو وان لم يكن في عقيدته مقلداً لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية»[٣].

والسبب في تضارب الأقوال في مذهبه الفقهي بين من يقول بأنه حنفي وبين من يقول بأنه مجتهد هو أن جمال الدين خرج من ايران مجتهداً فدخل أفغانستان مقلداً وعلى المذهب الحنفي بالذات لأن الأفغان عموماً على المذهب الحنفي ثم استمر على ذلك بعد دخوله مصر فتركيا لأن الدولة العثمانية كانت قد اتخذت المذهب الحنفي مذهباً رسمياً.

ومع هذا كله فلم يكن يتورع عن نقد المذهب الحنفي وغير الحنفي بجرأة دون أن يحسب حساباً لأحد وذلك بعد أن رأى اقبال الناس عليه وازدياد شعبيته وثقة اتباعه بأقواله، ولذا فان صديقه البريطاني المستر بلنت يقول: «وينقد المذاهب المسَلَّم بها حتى مذهب أبي

---

(١) زعماء الاصلاح في العصر الحديث ١١٣.
(٢) نفس المرجع ١١٣.
(٣) جمال الدين ــ أبو ريه ٤٧.

حنيفة، فَيَقبل الناس نقده بما لم يكن أن يتيسر لرجل غيره»[٢].

وكان المخزومي يقول في خاطراته: «إن جمال الدين شديد التمسك بحكمة الدين، نفوراً من التقليد في المذهب، مجتهداً[٣].

ووصل به الحد أن جعل نفسه فوق المذاهب جميعاً وأنه أعرف بالدين من أبي حنيفة وغيره، يقول الميرزا حسين خان عدالت» الـذي صحب جمال الدين في روسيا: «كان كل من يسأل عن دين المرحوم الشيخ السيد يجيبه: (بأني مسلم).

وحدث أن سأل أحد علماء السنة ـ وكان يلقي درساً ـ المرحوم السيد قائلاً: (ما عقيدتك). فأجاب: (إني مسلم)، فسأله ثـانية: (ومن أي المذاهب أنت). فأجـاب السيد: (إني لم أعـرف في أئمة المذاهب شخصاً أعظم مني، حتى أسلك طريقه)[١]. وهذه عبارة الشيعة عامة.

---

(٢) نفس المرجع ٤٧.
(٣) أعلام وأصحاب أقلام ١٢٤ .
(١) جمال الدين الأسد ابادي ١٩٧.

(الفصل الثاني)
آراؤه السياسية

تمهيد: إذا أردنا تقويم دعوة جمال الدين الأفغاني فلا بد لنا من البحث عن أعظم شيء شغل فيه حياته منذ أن خرج من بلاده إلى أن انتقل إلى العالم الآخر، ولدى البحث والتنقيب وجدنا أن معظم حياته أمضاها في العمل السياسي، وله فلسفة خاصة به تفرد فيها عن أقرانه ومعاصريه ألا وهو العمل في الخفاء وراء الأستار.

ولذا كانت أهدافه وغاياته غامضة تمام الغموض.

من أجل هذا كان الدكتور محمد محمد حسين يقول عن دعوة جمال الدين وأهدافه: «يحيط سيرتَه وأهدافَه كثيُر من الغموض، الذي لم تكشف الأيام حقيقته بعد»[1].

ولمعرفة آرائه السياسية والكشف عما غمض منها، علينا أن ندرس ما قام بالتصريح به، وأبانه في خطبه وصحفه ومجلاته وفي كتبه على قلتها، ثم الرجوع إلى ما كُشف من سره بعد موته، وما صرح به في مجالسه الخاصة وزلقت الألسن من مقربيه، ثم جمع هذه الأمور كلها مع ماضيه الذي كان يخفيه على الناس لنصل إلى حقيقة دعوة جمال الدين السياسية.

---

(١) الاسلام والحضارة الغربية: ص ٧٤

وعلينا أن نقرر قبل كل شيء هل كان داعية اسلامياً أو أنه رجل سياسة، ولا بد لنا من فصل معنى السياسة الشرعية عن السياسة التي يدعو إليها جمال الدين الأفغاني، لأن السياسة الشرعية لها شروط لم تتحقق في دعوة جمال الدين.

وقد بدأ عمله في مصر في الأدب والفلسفة وانتهى به إلى السياسة وهذا رأي الرافعي فيه(٢).

وكذلك كان رأي المستر براون في جمال الدين، فهو يعتبره فيلسوفاً وكاتباً وخطيباً وصحافياً، في آن واحد، على أنه قبل كل شيء رجل من رجال السياسة، ينظر إليه مريدوه نظرتهم إلى وطني كبير، وينظر إليه خصومه نظرتهم إلى مهيج خطير(٢).

وقد لفت نظر الدكتور علي الوردي انتقاله المفاجىء من العمل في حقل العلم والدين إلى العمل في الحقل السياسي فيقول: «ومما يلفت النظر، أن الأفغاني في ذلك الوقت بالذات، أي عندما أخذ اسماعيل يشجع مهاجمة التدخل الأجنبي، صار سياسياً، مع العلم أنه كان قبل ذلك يتجنب الخوض في السياسة في أحاديثه، وقد أدى هذا التحول في مسلك الأفغاني إلى حصول شيء من الخلاف، والنفرة بينه وبين أعضاء المحفل الماسوني. . .»(٣).

ثم يستشكل الدكتور الوردي موقف جمال الدين بعد هذا التحول فيقول : « هنا يواجهنا سؤال : هل كان الأفغاني في نشاطه السياسي هذا ، واقفاً الى جانب اسماعيل باشا ، أم الى جانب خصومه ؟ »(٤) .

---

(١) جمال الدين / الرافعي ص١٦.
(١) دائرة المعارف الاسلامية جـ٧ ص دا.
لمحات اجتماعية جـ٣ ص ٢٧٨.
(٤) لمحات اجتماعية في تاريخ العراق جـ٣ ص ٢٨٩.

والجواب على سؤ ال الوردي أن جمال الدين كان موقفه واضحاً فقد وقف مع خصوم اسماعيل وتآمر على اغتياله وسعى الى خلعه ، فخلع اسماعيل بعد توسط جمال الدين لدى الدول الأجنبية وتولى الخديويه ولي العهد توفيق الماسوني ، وقد ذكرت ذلك في ترجمته .

تجاربه السياسية :

تجلى عمله السياسي في نزاعه مع الحكام والتآمر عليهم، صالحِهم وطالحهم، فما حل في بلد حتى ناصب حاكمه العداء وعمل على ضربه سراً وجهراً إن لم يوافقه على آرائه ويسير في مخططه.

أما بدء عمله السياسي وباكورته فكانت في أفغانستان، عندما تولى وزارة أو رئاسة وزارة في عهد الأمير محمد أعظم خان، كما سبق، رغم أني أستبعد إسناد رئاسة وزارة إليه، وهو لا زال في الخامسة والعشرين من عمره، فهل أصبح نابغة الزمان، مع انه لم يسبق له أن تسلم وزارة سابقاً ولا منصباً حكومياً خطيراً، فهل يصدق أنه يصل إلى هذا المنصب طفرة، إلا أن يكون مدعوماً من فئات خفية، وليس هذا ببعيد، فقد أنشأ أول جمعية سرية منذ أن كان في الحجاز أي منذ نعومة أظفاره، وعلى كل حال أنا أستبعد إسناد رئاسة الوزارة اليه في هذه السن المبكرة.

دخل جمال الدين معترك الصراعات السياسية في أفغانستان، ولما أخفق الأمير محمد أعظم خان في الحفاظ على عرش أفغانستان، أفلت من جمال الدين المنصب فغادر البلاد آسفاً إلى بلد آخر ليجرب خطته مرة ثانية»[١].

بعد هذه التجربة الفاشلة سنة ١٨٦٩ انتقل إلى الأستانة واستقبل استقبال الفاتحين، من فئات رسمية، وكانت هذه أول مرة يدخل فيها تركيا، وكان على رأسها السلطان عبد العزيز عم السلطان عبد الحميد،

---

(١) الأعمال الكاملة جـ١ ص ٣٠.

فعين عضواً في المجلس الأعلى للمعارف، وبدأ يمارس ألواناً من النشاط السياسي، وعرض عليه حل أعظم مشكلة مستعصية على الدولة العثمانية وهي مشكلة اليمن، إن صح هذا الخبر، فقد كانت هناك أزمة حادة بين الدولة وبين اقليم اليمن، التي كانت تريد الانفصال عن الدولة العثمانية، وترفض قبائلها الزيدية خاصة، السلطة العثمانية السنية عامة. فعرض جمال الدين نفسه على قادة الدولة العثمانية، للتوسط في هذه الأزمة، بين الزيدية الثائرة وبين السلطة العثمانية، ويذكر المترجمون أن كبار رجالات الدولة العثمانية رفضوا هذه الوساطة(١).

وفي رأيي أن هذه المشكلة المتعلقة بالزيدية، ربما كان جمال الدين أقدر على حلها من غيره، لأن الزيدية والشيعة أولاد عم، فلو ترك وشأنه لحلها، ولارتفع شأنه في نظر السلطة العثمانية، وقد تسند إليه أعلى المناصب، وعندها يزداد خطره، بتقريب أنصاره الذين يرون ضرورة نقل الخلافة الاسلامية إلى العرب، ليسهل القضاء عليها. ولكن شاءت القدرة الإلهية أن تقف في وجهه العراقيل دون حلها.

وقد أخطأ الدكتور عمارة عندما قال: «بان كبار رجالات الدولة أشاروا برفض وساطته، مخافة أن ينجح فيما فشلوا هم فيه»(٢).

فقد ظن أن جمال الدين ذو مقدرة فائقة وذكاء خارق تفوق رجال الدولة العثمانية وغفل عمن وراءه الذين رفعوا شأنه، كما أن رجالات الدولة العثمانية استبعدوا عن جمال الدين قدرته على حلها لأنهم لا يعرفون أنه شيعي، فقد دخل بلاد الترك سنياً حنفياً بزي أفغاني، بينما كان يعرض وساطته لما يعرف من الشيعة وتقاربها مع المذهب الزيدي.

مرت التجربة الثانية في تركيا، ثم اختلفوا عليه فأخرجوه منها، فدخل مصر لا ليستلم وزارة، ولا منصباً حكومياً، ولكن ليؤلف حزباً كبيراً هو «الحزب الوطني الحر» ويصبح ولي العهد توفيق من أتباعه، وعلا شأنه، حتى كان يخشى منه أن يصبح رئيس الدولة، وهذا ما دعى

(١) الأعمال الكاملة جـ١ ص ٣١.
(٢) الأعمال الكاملة جـ١ ص ٣١.

الخديوي توفيق بعد توليته السلطة، أن يصدر أمراً بنفيه من مصر، ليذهب إلى أوروبا ينتظر الأحداث في ايران.

أما التجربة الرابعة والأخيرة فكانت في ايران، فقد أسند اليه رئاسة الوزارة في طهران، في عهد الشاه ناصر الدين، فقد عاد إلى وطنه ليعمل باخلاص تمليه عليه المحافل الماسونية، فراح ينظم المحفل الماسوني من جديد في طهران، ويدخل فيه كبار العلماء والمفكرين، ولم يبق بينه وبين الوصول إلى سدة الحكم إلا قليل، وأصبح قاب قوسين منها أو أدنى، ولكن الشاه كان متيقظاً فاهماً لمقصده، ولذا أخرجه من طهران في أقبح صورة، وأسوأ معاملة.

وهكذا انتهت تجاربه جميعها بالاخفاق، وانتهى به الأمر أن أصبح رهين محبس السلطان عبد الحميد، وفارق الحياة في قصر من قصوره.

نشاطه السري:

هذا فيما يتعلق بنشاطه السياسي الذي حاول فيه تحقيق أهدافه الخفية ولكن هناك نشاط سري كان يخفيه أحياناً ويبديه أخرى، وكان يعمل من وراء هذا النشاط السري، فلم يدخل بلداً إلا عمل فيه جهازاً سرياً يتصل من خلاله بأفراد الشعب، على مختلف طبقاتهم ومستوياتهم الاجتماعية والفكرية.

من أجل هذا كان يرتاب من سلوكه الدكتور محمد محمد حسين، ويشك في جميع أعماله إذ يقول: «ومما يريب الباحث في أمر جمال الدين وأهدافه أيضاً أن أكثر نشاطه كان سرياً، فقد كان أول من أدخل نظام الجمعيات السرية في العصر الحديث في مصر، وكان حيثما حل يؤسس الجمعيات السرية وينشرها»[1].

---

(١) الاسلام والحضارة الغربية ص ٦٥ ـ ٧٨.

وأخطر عمل سري دخل فيه جمال الدين الأفغاني الماسونية وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل القادم، وإنما سأتكلم في هذا البحث عن النشاط السياسي الذي كان يتلون فيه كلما دخل قصراً أو بلداً ليواجه به الأحداث وهو:

١ ــ الحزب الوطني الحر:

أنشأ جمال الدين في مصر حزباً سياسياً أطلق عليه اسم (الحزب الوطني الحر) وقد كان في بداية أمره سرياً، وهذا كما قلنا شعاره الدائم، ولكن لم يلبث أن ظهر وكان أول ظهور له، عندما ذهب وفد من المصريين، ومعهم جمال الدين، إلى وكيل دولة فرنسا، وأبانوا له أن في مصر حزباً وطنياً يطلب الاصلاح، وأن هذا الاصلاح لا يتم إلا عن طريق الأمير توفيق، الذي كان ولياً للعهد في زمن اسماعيل، وكان توفيق من أعضاء هذا الحزب، ومن أعضاء الجمعية الماسونية التي أسسها جمال الدين، ومنذ ذلك الحين شاع الخبر بوجود حزب وطني برئاسة جمال الدين، وتناقلته الصحف، وانتشر صيته بين الناس[١].

ثم إن هذا الحزب، على ما يظهر، لم يكن خافياً على الحكومة المصرية، رغم أنه سري، وكان اسماعيل يخاف منه، ولذا كان يراقبه مراقبة شديدة.

يقول الدكتور مكي شبيكة: «وعلمت الحكومة بأمر هذا الحزب السري، وشددت الرقابة على نشاطه، ويبدو أن اسماعيل المخلوع له اتصال ببعض زعماء هذا الحزب لأن شاهين باشا كنج (وهو من كبار الضباط) احتمى بالسفارة الايطالية حينما انكشف أمره وسافر إلى ايطاليا، ولذلك جردته من رتبه وألقابه، ومحت اسمه من سجل الجيش»[٢].

وبعد تولي شريف باشا الوزارة في مصر سنة ١٨٧٩، أعلن الحزب عن مبادئه التي كانت طي الكتمان، ولم يعد هناك حاجة لاخفاء تحركاته

(١) تاريخ الأستاذ الامام جـ١ ص ٧٥.
(٢) تاريخ شعوب وادي النيل للدكتور مكي شبيكة ص ٥٧٢.

وأهدافه، وكان ذلك بعد توليته الوزارة بأشهر قليلة، ويظهر أن هذا الحزب كانت له صلة بالانجليز، لأن أول من أصدر مبادئه المستر بلنت وأعلن عنها، ولذا اختلفت الآراء في مبادىء الحزب وارتباطه بالحركة العرابية التي كانت تسيرها الماسونية، فنشر المستر بلنت مبادىء الحزب تحت عنوان (برنامج الحزب الوطني) في جريدة التايمز اللندنية بتاريخ أول يناير سنة ١٨٨٢ حسب ما تلقاه من بعض الزعماء ومن بينهم الشيخ محمد عبده ومحمود سامي البارودي وعرابي[١] .

قد يسأل سائل لماذا تأخر اصدار هذا البيان، علمًا بأن جمال الدين أخرج من مصر عام ١٨٧٩م، أي صدر البيان بعد إخراجه بثلاث سنوات؟

السر في ذلك أن مبادىء الحزب كانت سرية جداً، وكان عرابي يتزعم ثورة ضد الخديوي، وكانت الأوامر تأتيه من الخارج، وبعد اخفاق عرابي بالحركة تسربت أخبار الحزب للخارج وكادت تسوء سمعة جمال الدين وجماعة عرابي فأصدر البيان لتبرئة هؤلاء مما علق بهم.

ولذا نجد بعض البنود من مبادىء هذا الحزب أتت تركز على هذه الناحية، وقد تولى الدكتور مكي شبيكة سردها بنداً بنداً، وهي التي كتبها بلنت في جريدة التايمز.

ومع أن البيان جاء للدفاع عن الحزب وجماعته، ولكنه وقع في أمور صرح بها جعلت المتتبع لها يرى جلياً أن دعوة الحزب، لم تكن نزيهة، كما أن يد الانجليز واضحة الظهور فيها، لا تحتاج إلى بيان، ويكفي أن نعرف أن الذي تولى نشر مبادئِه، هو بلنت ذاك الرجل الثعلب الانجليزي، والذي يعتقد أنه أمين سر الحزب، ومن هذه المبادىء التي نشرها، يتبين كذلك أن له ارتباطاً وثيقاً بالماسونية التي تنادي بأخوة الانسان للانسان، لا فرق بين مسلم ويهودي ونصراني.

وقد كان نشر هذه المبادىء، ضربة قاضية لكل من يدعي أن

---

(١) تاريخ شعوب وادي النيل للشبيكة ٥٨٢.

جمال الدين لا يتحرك إلا في الاسلام، ولا يعمل إلا للاسلام، وأنه ألفه لنشر مبادىء الاسلام.

كما انه كان صفعة مشينة لكل من يدعي أن جمال الدين كان يسعى لجمع كلمة المسلمين تحت راية خلافة واحدة وهذا ما يسمى بالجامعة الاسلامية أو الوحدة الاسلامية. إذن تعال ننظر إلى بعض بنود هذا الحزب:

مادة ١ — يرى الحزب الوطني المحافظة على العلاقات الودية الحاصلة بين الحكومة المصرية والباب العالي، واتخاذ ذلك الباب ركناً يستند عليه في أعماله، ويعتقد أن جلالة السلطان عبد الحميد كمتبوع وخليفة وإمام المسلمين، ولا يريد تبديل هذه الصلات والروابط ما دامت الدولة العلية في الوجود، ثم يعترف باستحقاق الباب العالي لما يأخذه من الخراج بمقتضى القوانين وما يلزمه من المساعدة العسكرية، إذا طرأت عليه حرب أجنبية، كما يحافظ الحزب على حقوقه وامتيازاته الوطنية بكل ما في وسعه، ويقاوم من يحاول اخضاع مصر وجعلها ولاية عثمانية، وله ثقة بدول أوروبا لا سيما انجلترا المدافعة عنه في متابعة ضمان استقلال مصر الداخلي»[١].

فهذا البند وهو الأول منها يبين عدة أمور هامة منها أن الحزب يرى بقاء الدولة المصرية تابعة لتركيا ولكن بشكل فيدرالي أي من الناحية الخارجية فقط، وهذا ما كان يدعو إليه جمال الدين الأفغاني في أكثر المناسبات. ومنها أن الحزب لا يقوم على شريعة الاسلام وانما هو تجمع شعبي وطني. ومنها أن الحزب من صنيعة الانجليز أو أنه ميال إلى موالاته والاعتماد عليه. ومن المادة الثالثة التالية يتوضح لنا جلياً ما قلناه.

مادة ٣ — رجال الحزب يعترفون بفضل فرنسا وانجلترا اللتان خدمتا مصر خدمة صادقة ويعترفون باستمرار المراقبة الأوروبية كضرورة

---

(١) (تاريخ شعوب وادي النيل) ٥٨٢.

اقتضتها الحالة المالية وضمانة لتقدم البلاد...»[1]. ثم يذكر أموراً مالية لا صلة لها ببحثنا إلى أن يأتي إلى المادة الخامسة فيقول: «الحزب الوطني حزب سياسي لا ديني، فانه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذهب، وأغلبيته مسلمون، لأن تسعة أعشار المصريين من المسلمين، وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم إليه لأنه لا ينظر لاختلاف المعتقدات، ويعلم أن الجميع اخوان وان حقوقهم في السياسة والشرائع متساوية، وهذا مسلم به عند أخص مشايخ الأزهر الذين يعضدون هذا الحزب ويعتقدون أن الشريعة المحمدية الحقة تنهي عن البغضاء وتعتبر الناس في المعاملة سواء، والمصريون لا يكرهون الأوروبيين المقيمين بمصر من حيث كونهم أجانب أو نصاري، وإذا عاشروهم على أنهم مثلهم يخضعون لقوانين البلاد ويدفعون الضرائب، كانوا من أحب الناس إليهم»[2].

فهذه المادة ترد على الذين يدعون أن دعوة جمال الدين كانت دعوة دينية فهي صريحة في أن دعوته كانت سياسية لا دينية فهذا الحزب ينطق على دعوته.

فلا عبرة بعد ذلك لما يدعيه الأستاذ سعيد الأفغاني من أن الحزب كان قائمًا على الاسلام وأن أعضاءه كلهم مسلمون. فهو ينقل لنا من كتاب (كفتار خوش يارقلي) للشيخ محمد محلاتي الغروي الفارسي عبارات لا ندري مدى صحتِها فيقول بأن جمال الدين ألقى خُطبة في الحزب بين فيها محاسن الاسلام وعظمته وجماله، ثم يقول: «وحينما نزل السيد من فوق المنبر وجد أن ثلث أعضاء الجلسة قد أغشى عليهم من فرط التأثر، ووجد الباقين على وشك أن يفقدوا رشدهم فبكى السيد وأخذ يردد قوله إي وحقك اللهم نسيناك فأنسيتنا أنفسنا. ويظل يردد هذا القول حتى يسقط، ويفقد صوابه، وهكذا ظل الحاضرون ثلاث ساعات بين بكاء وأنين واغماء ثم يتقدم (حسن عطا بك) صهر خديوي

---

(١) (تاريخ شعوب وادي النيل) ٥٨٣.

(٢) (تاريخ شعوب وادي النيل) ٥٨٤.

مصـر إلى السيـد ويـرش عـلى وجهـه مـاء معـطراً فـأفـاق واختتم كلامه. . . »[١].

ولا يكتفي بهذا بل إنه بعد ذلك أخذت التبرعات تنهال عليه من كل مكان فيقول: «وقد تحمس الناس وكان أول عمل عملوه أنهم باعوا ما يملكون من أثاث وفرش، ومن وسائل الركوب والترف، وتبرعـوا بثمنها لصندوق الحزب ينفق منها على المعوزين والمحتاجين. . . »[٢].

ثم يتكلم عن التعهدات التي أخذها جمال الـدين على أعضـاء الحزب وذلك بأداء الفرائض والنـوافل والـدعوة إلى الاسـلام وتطبيق الاسلام بحذافيره. . . الخ مما لا يصدق ولا يرتاب في انه كذب ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى الكتاب ليرى مثالاً حياً للمبالغات التي كنا نسمعها عن الوضاعين في القرون الأولى من ظهور الاسلام.

ويختم قوله عن الحزب فيقول: «وكان لهذه الأقوال جميعها أثر في نفوس أفراد الشعب البريطاني فأيقنوا أن بقاء الحزب الوطني المصري فيه قضاء عليهم، فسارعوا بتنبيه حكومتهم إلى ضرورة القضاء على الحزب الوطني المصري والتنكيل برئيسه قبل أن يستفحل شره، ولذلك دبـر الانجليز نسج المؤامرات لنفي جمال الدين الأفغاني ثم محمد عبده من مصر. . . »[٣].

هذا كلام لا يقبله عقل، هل وصل الحد إلى أن تخافه بريطانيا العظمى؟ وهل فعل أكثر من خطبة كما يزعمون؟ ومتى كانت بريطانيا غبيـة إلى هذا الحـد، حتى جعلهـا تغفـل عن خـطورة أمثـال هـذا الخطيب؟. . . كل هذه الترهات تساق لرفع جمال الدين الأفغاني وجعله في مصاف العظماء، ومن ورائه جمعية عالمية تروج هذه الترهات لتنفيذ مخططاتهم.

وبعد أن أفصح الحزب عن أهدافه أخذ يظهر بنشاط سياسي

---

(١) جمال الدين ــ سعيد الأفغاني ٣٣ ــ ٣٤ وجمال الدين الأسد آبادي ٧٧ ــ ٧٨.
(٢) (جمال الدين الأسد آبادي) ٣٤.
(٣) نفس المرجع ٣٨.

جديد، وذلك بمنافسة الأحزاب الوطنية في مصر، فأعلن الحرب على الحزب الوطني الذي كان يترأسه مصطفى كامل[1].

لم يكن حربه لهذا الحزب دلالة على وطنيته، لأن حزب مصطفى كامل كان معروفاً في خصومته الشديدة للاستعمار البريطاني، وكان يضم في صفوفه العدد الكبير من رجالات العلم والأدب من الشباب، وكان حرباً على الخديوي عباس رغم انه هادنه بادىء ذي بدء وظن فيه خيراً.

وعلى كل حال كان حزب مصطفى كامل حرباً على الاستعمار وأعوانه، موالياً للخلافة العثمانية، ويرى ضرورة الحفاظ عليها، ولم يعرف عنه أنه هاجم الخلافة العثمانية قط[2].

ومن حسنات مصطفى كامل أنه كان أول من كشف الجاسوس البريطاني بلنت الذي كان وراء مشاكل مصر، رغم أنه كان صديقاً حميًا لجمال الدين، فكان مصطفى كامل أول من نبه إلى خطورته ومؤامراته[3].

ومن العجيب أن الحزب الوطني الحر الذي أسسه جمال الدين الأفغاني كان سريع الانتشار، فلم يمض على تأسيسه عام واحد حتى أصبح أعضاؤه (٢٠١٨٠) عضواً، وأصبح له رصيد ضخم في المصارف[4].

٢ ـ جمعية مصر الفتاة:

أنشأ جمال الدين الأفغاني جمعية في الاسكندرية، باسم مصر الفتاة، لم يكن فيها مصري حقيقي واحد، وإنما كان أغلب أعضائها من شبان اليهود[5].

كانت هذه الجمعية سرية، وكان لها صحيفة تنطق باسمها هي

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. جـ١ ص ٩١.
(٢) نفس المرجع جـ١ ص١٣.
(٣) الاسلام والحضارة الغربية ٦٨ ـ ٨٢.
(٤) نفس المرجع ص ٦٥ ـ ٧٨.
(٥) تاريخ الاستاذ الامام جـ١ ص ٧٥.

صحيفة «مصر الفتاة» ذكر ذلك الشيخ محمد عبده في كتابه «أسباب الحوادث العرابية»[1].

ويظهر أنهم كانوا من الأتراك النازحين، لأنه كان معروفاً عن الأتراك المعادين لسياسة السلطان عبد الحميد، أنهم يهربون إلى مصر، وإلا فما معنى قول الشيخ محمد عبده (لم يكن فيها مصري واحد). وقد كان لهذه الجمعية دور خطير في إدارة ثورة عرابي، وهذا ما يجعلنا نشك في إخلاص أحمد عرابي في ثورته، خاصة وانه ثبت أنه ماسوني.

يقول الدكتور محمد يوسف نجم: «وتوالى تأسيس الجمعيات في مصر، فكان فيها العلمية والأدبية والاجتماعية والخيرية.

وأحب أن أنوه هنا بعدد من الجمعيات السياسية التي قامت بدور خطير في مرحلة التوعية قبل الثورة العرابية، ومنها جمعية الآداب والجمعية الشرقية وجمعية مصر الفتاة ــ ١٨٧٧ م ــ وهي أشدها اتصالاً بالسياسة، وكان من أعضائها جمال الدين الأفغاني وأديب اسحق وسليم نقاش وعبد الله النديم ونقولا توما[2]».

والملاحظ أن هؤلاء معظمهم من النصارى، وقد قال سابقاً بأن أغلب أعضائها من اليهود، فعلم من ذلك أن هذه الجمعية كانت خليطاً من النصارى واليهود، وإن كان أغلبهم من اليهود، ولا يبعد أن يكونوا ماسونيين، لأني لم أعثر على أسمائهم جميعاً.

ورغم أن هذه الجمعية تأسست في الاسكندرية، إلا أنه أصبح لها فروع في مختلف المدن المصرية، وكانت هذه الجمعية أشبه ما تكون بجمعية تركيا الفتاة، التي حركت الثورة ضد السلطان عبد الحميد وانتهت بخلعه[3].

وهنا يعلق الدكتور محمد حسين على التشابه بين هاتين الجمعيتين فيقول: «هذا التشابه بين الأسمين وبين الأهداف الثورية لكل منها، مع

(١) الاسلام والحضارة الغربية ٦٥ ــ ٧٨.
(٢) الفكر العربي في مائة سنة ٧٢ ــ ٧٣. (كلهم نصارى إلا النديم).
(٣) الاتجاهات المعاصرة في الأدب جـ١ ص ٦٩ .

الاتفاق الزمني، لأن مؤسس تركيا الفتاة على ما هو معروف، هو مدحت المعاصر للثورة العرابية، يوحي بوجود صلة، ويؤيد وجود هذه الصلة أن عدداً كبيراً من أعضاء الحزبين التركي والمصري كانوا من الماسون، وأن الحزبين كليهما كانا متأثرين بمبادىء الثورة الفرنسية التي كان بعض زعمائها ومفكريها من الماسون أيضاً»[1].

إذن لا بد أن تكون جذور هذين الحزبين واحدة، ولا يستبعد أن تكون الماسونية هي التي أوعزت إلى جمال الدين الأفغاني بتشكيل هذا الحزب أو الجمعية.

والذي يؤيد القول بأن هذه الجمعية كانت وراء ثورة عرابي وأن للماسونية الدور الأكبر في أمثال هذه الجمعيات السرية التي لا يعرف أعضاؤها ومحركوها ما جاء في البحوث التي نشرتها الجامعة الأمريكية في بيروت إذ تقول: «..ويكفي أن نقول انه كان للماسونية دور كبير في هذه الجمعيات لم يكشف بعد، ولم توضح جوانبه الخفية... ونحن نعلم أن الجمعيات الماسونية وعلى رأسها مكاليبري اليوناني، قامت بدور كبير في حركة الانتفاض على حكم عبد الحميد في تركيا.

وأحب أن أشير أيضاً إلى تأثر بعض هذه الجمعيات بتنظيم جمعيات الكاربوناري كما كان الأمر في «جمعية مصر الفتاة» التي نظمها عدد من يهود الاسكندرية بالاشتراك مع بعض المثقفين المصريين على غرار جمعيات الكاربوناري، وفي الجمعيات السرية في العهد الحميدي»[2].

ولما سافر جمال الدين إلى أوروبا، اتصل بأعضاء جماعة الاتحاد والترقي ومدحها بقوله: «إنها الجماعة الصالحة» وعلم السلطان عبد الحميد بذلك، وهي نفسها جماعة تركيا الفتاة التي أخذت أسماء مختلفة خلال تطورها مثل (العثمانيون الجدد) و(الاتحاد والترقي)[3] وهم يهود حاقدون على الخلافة الاسلامية المتمثلة بالدولة العثمانية، كما

(١) نفس المرجع جـ١ ص ٦٩.
(٢) الفكر العربي في مائة سنة ٧٣.
مذكرات السلطان عبد الحميد. ـ ٥ ـ.

كان أعضاء مصر الفتاة من اليهود أيضاً، وكلاهما يعملان في خط واحد وهو وضع الدساتير والقوانين بدل الشريعة، وإلغاء الخلافة الاسلامية، وتعمل على التحكم في السلطة وتسييرها حسب تعاليمهم، وكان جمال الدين يرى كما ترى هذه الجمعية، بأن إنقاذ الدولة لا يكون إلا في نظام برلماني بالمفهوم الأوروبي[١].

وجمعية تركيا الفتاة هي التي عزلت السلطان عبد العزيز ثم السلطان عبد الحميد، وهذا معروف لدى الناس جميعاً، وهم الذين جاءوا بالسلطان مراد الخامس وهو ماسوني ثم خلعوه ووضعوا مكانه السلطان عبد المجيد[٢]. وكل هذه الأمور تجري باسم شخص واحد هو البارز والظاهر كما أسلفنا، وهو مدحت باشا أبو الدستور وكذلك كان جمال الدين في مصر يخلع الأمراء ويضع الآخرين وكان هو البارز ومن ورائه الجمعيات السرية المتصلة اتصالاً وثيقاً باليهود عن طريق الماسونية. ولقد كان في تركيا رجل يهودي اسمه (إيمانويل قراصو) وهو من أصل اسباني، ويعتبر من أوائل المشتركين في حركة تركيا الفتاة وكان مسئولاً أمام جمعية الاتحاد والترقي عن إثارة الشعب وتحريضه ضد السلطان عبد الحميد... وكان أثناء وجوده في الدولة العثمانية الأستاذ الأعظم لمحفل مقدونيا ريزولتا الماسوني[٣]. فكان الواحد منهم يشترك في عدة جمعيات ومرجعه الحركة الماسونية وكان انتماؤهم إلى الحركة الماسونية مع هذه الجمعيات يعطيهم الحماية اللازمة، لأن الماسونية لها جذور في جميع الدول الأوروبية[٤].

ويظهر أن جمعية مصر الفتاة، التي تأسست بعد جمعية تركيا الفتاة بـ١٧ سنة، كانت فرعاً من فروعها، أو أن مؤسسيها المشتركين هم أنفسهم المؤسسون لتلك، ولذا نجد قادة هذه الحركة في تركيا يلجؤن إلى مصر عندما يشتد عليهم الضغط والملاحقة، كما حصل بولي الدين

(١) نفس المرجع ـ ٤ ـ.
(٢) نفس المرجع ـ ٥ ـ.
(٣) نفس المرجع ـ ٧ ـ.
(٤) نفس المرجع ـ ١٢ ـ.

يَكنْ ، فقـد لجـأ إلى الانجليـز بسبب العـداء الشـديـد للسلطان عبد الحميد، وحماه كرومر مع من حماهم من أعضاء حزب تركيا الفتاة الفارين من عبد الحميد إلى مصر، وهـو أحد أعضـاء حزب الاتحـاد والترقي الذي كان يضم متفرنجي الترك أمثاله، والذي كان واقعاً تحت سيطرة اليهودية العالمية عن طريق الماسون[1].

من هذا نفهم أن جمعية مصر الفتاة هي صورة مصغرة عن جمعية تركيا الفتاة، وكلاهما يعملان سراً بأوامر الماسونية اليهودية العالمية.

٣ ــ جمعية العروة الوثقى: يقول الدكتور محمد محمد حسين: «أنشأ ــ أي جمال الدين ــ أثناء إقامته في الهند جمعية العروة الوثقى السرية التي امتد نشاطها إلى الشام ومصر وإلى السودان وتونس، وكان من أعضائها الأمير عبد القادر الجزائري ومن اختار من أنجاله ورجاله، ومنهم محمد أحمد المهدي السوداني الذي تتلمذ على الأفغاني أربع سنوات، وقد حفظ الجزء الثاني من (تاريخ الأستاذ الامام) لمحمد رشيد رضا عدداً من المسائل التي تداولها محمد عبده مع أعضاء هذه الجمعية، وهي مليئة بالإشارات والرموز، وبعض هذه الإشارات تدل على أن محمد عبده قد دخـل سـراً إلى مصـر استعـداداً لـدخـولـه إلى السـودان والاتصـال بالمهدي[2]».

وقد مر بنا أن الجمعية أصدرت فيما بعد في باريز صحيفة باسم الجمعية (العروة الوثقى) وهي لسان حال الجمعية ولو قرأنا أعدادها لعجبنـا بما فيهـا من حماس وهجـوم على الإستعمـار البريـطاني وعلى الاستبداد والظلم وعلى الحكام الطغاة. ويـزداد عجبنا إذا علمنـا أن المنتسبين إلى هذه الجماعة كانوا مسلمين أمثال عبـد القادر الجـزائري ومحمد أحمد المهدي وغيرهما، فكيف يجتمع هذا الجمع من المسلمين مع جماعة تركيا الفتاة ومصر الفتاة ومع الماسونية الملحدة.

---

(١) (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) ١ / ١١٣.

(٢) الاسلام والحضارة ٦٦ ــ ٧٨. راجع تاريخ الأستاذ الامام ٢٨٠ ــ ٢٨٣ / ١، ٥٥٣ ــ ٥٥٨ / ٢ ٢٥٣ ــ ٢٥٥ / ١.

يذهب عجبك إذا قرأت منشورات الماسونية والأحزاب الهدامة فهي مؤمنة مع المؤمنين ملحدة مع الملحدين، وجهها ما تقابل به الناس وتواجههم، فإذا كانت البيئة مؤمنة فعليها أن تظهر الإيمان لجلب أنظار الناس في تلك البيئةفكلنا يعلم مخططات الشيوعية في هذا المجال ففي عهد لينين كتبت الصحف عن سمو الاسلام ووزعت على الأقطار المحكومة والتي تدين بالإسلام ولكن هل استمر هذا الوجه في الظهور، إنه تنظيم مرحلي، فبعد أن قوي ساعد الدعوة الشيوعية واستتبت لها الأمور أظهرت وجهها القبيح.

وبهذا الخصوص في ظاهر جمعية العروة الوثقى يقول الدكتور محمد محمد حسين: «ليس مهمًا أن تكون المبادىء التي تنشر على الناس وتذاع سليمة أو منحرفة، فالذي ينشر على الناس دائمًا نظيف وسليم، ولكن المهم هو أن الذين يشتركون في التنظيمات السرية يجهلون دائمًا حقيقة أهدافها ولا يعرفون إلا ما يريد رؤوس التنظيم السري أن يعرف بين الناس. والدارس لتاريخ الدعوات السرية في الإسلام ولتاريخ الباطنية على وجه الخصوص يرى الشاهد على ذلك في بدئهم بالدعوة إلى إعلاء كلمة الله وانصاف المحرومين، وانتهائهم آخر الأمر إلى عقيدة فلسفية تنكر الأديان وتخوض في دماء المسلمين»(١).

ولم يكن جمال الدين في إبداعه تنظيم هذه الجمعية مقتبساً شيئاً من التنظيمات المنتشرة في أوروبا فقد بدأ هذا التنظيم في وقت مبكر جداً بالنسبة للتنظيمات الأوروبية الحزبية والفكرية والاجتماعية، كما يقول الدكتور محمد عمارة، فقد سبق جمال الدين في تنظيم جمعية العروة الوثقى الفابية وحزب العمال البريطاني بعشر سنوات، وحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي بثلاث عشرة سنة(٢).

إن سبق جمال الدين لهذه الأحزاب راجع إلى أصله الشيعي، والشيعة مشهورون بالتنظيمات السرية منذ القدم، وقد اعترف الدكتور

---

(١) الاسلام والحضارة الغربية ٦٧ ـ ٨٠.
(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين جـ١ ص ١١٨.

عمارة بعلاقة هذا التنظيم، الذي أبدعه جمال الدين الأفغاني، بأصله الشيعي عندما قال: «ومن هنا فليس هناك مصادر مؤثَرة أثمرت تبلور النظم الداخلية والقواعد التنظيمية المتقدمة لجمعية العروة الوثقى إلا تلك المصادر التي زخرت بها صفحات التراث العربي الإسلامي في ذلك الميدان، وهي الصفحات التي جسدت لنا حياة التنظيمات السياسية والاجتماعية والفكرية، وخاصة السرية منها، والتي عرفتها المراحل المختلفة من حياة هذه الأمة النضالية عبر تاريخها الطويل، وذلك مثل تنظيمات القدرية والمعتزلة والقرامطة ومختلف فروع التنظيمات الشيعية وتياراتها[1]».

ففي نظر الدكتور عمارة أن القرامطة والقدرية والمعتزلة والشيعة حركات نضالية في تاريخ الأمة الإسلامية. وبهذا الرأي خرق إجماع المسلمين في تضليل هذه الفروق ومروقها وخروجها على جماعة المسلمين.

ولا يكتفي الدكتور عمارة في ثنائه على جمال الدين الأفغاني وعبقريته في إبداع وتنظيم جمعية العروة الوثقى بل إنه يجعله في القمة التي لا تطال ويضعه في جملة التراث الإسلامي الذي يجب أن يعتز به كل مسلم، فلنسمع إليه: «من مجموعة الأوراق والوثائق والمراسلات التي بقيت من آثار هذا التنظيم نضع يدنا على خبرة في العمل السياسي والتنظيمي بلغت درجة عالية من النضج والعبقرية، إذا ما قيست بظروف عصرها، ذلك العصر الذي لم تكن مثل هذه القواعد والخبرات قد استقرت فيه بعد بأوروبا، وهي خبرات نعتقد أن لها صلات وثيقة بتراث العرب والمسلمين في التنظيم السري منذ جمعيات: المعتزلة، وإخوان الصفا وخلان الوفاء والقرامطة، والحشاشين، وحركات الشيعة المختلفة والباطنية[2]».

فهنيئاً للدكتور عمارة أن جعل جمعية العروة الوثقى في هذه الدرجة العالية من العبقرية التي توازي جمعيات الحشاشين والباطنيين

---

(١) المرجع نفسه جـ١ ص ١١٨.

(٢) المرجع نفسه جـ١ ص ١٢٩.

والقرامطة، لقد وضع العبقرية في أنزل مكانة عرفها التاريخ عند المسلمين.

وخلاصة القول أن هذه الجمعية لها جذور عميقة تتصل بأصلها الشيعي، وربما لها اتصال بجماعات باطنية نشأت في ايران واكتسب منها الخبرة في التنظيم، كالبابية مثلاً أو البهائية، وبذلك نكون قد وافقنا الدكتور عمارة والدكتور محمد محمد حسين في هذا الموضوع.

وإلى هذا ذهبت مجلة الثقافة في تعليلها لهذا التنظيم السري الفريد فتقول: «واعتماد السيد جمال الدين في مساعيه الاصلاحية على الجمعيات السرية في مصر وفي غير مصر، قد لا يكون خالصاً من أثر بعض الأساليب التي يعتمد عليها فرق الشيعة[1]».

٤ ـ جمعية أم القرى:

ومن تتبع الأحداث والجمعيات السرية التي أنشأها جمال الدين الأفغاني يظهر لنا أن عمله هذا قديم، فقد وردت رواية تقول بأن جمال الدين أنشأ في مكة المكرمة جمعية أطلق عليها اسم أم القرى، وظاهرها الدعوة إلى الجامعة الإسلامية تحت لواء خليفة واحد يسيطر على العالم الإسلامي أجمع، بما في ذلك السنة والشيعة، ولم تذكر الرواية الجنس الذي يجب أن ينتمي إليه هذا الخليفة، ويبدو أنه كان يدعو إلى خليفة غير تركي. ولذا فقد قضى عليها السلطان عبد الحميد بعد عام واحد من تأسيسها[2].

ومما يجدر ملاحظته هنا أن السلطان عبد الحميد قضى عليها بعد عام واحد من تأسيسها، فلا بد أنه وجد فيها شيئاً مريباً، كأن تكون مناهضة للخلافة الإسلامية، أو أن تكون ذات صلة بجماعة الإتحاد والترقي، أو بالمحافل الماسونية.

وعلى كل حال لم يكن إلغاؤها لسمو مبادئها، ولا لأنها ذات صبغة

(١) مجلة الثقافة السنة السادسة ص ١٩٩.

(٢) الثورة الفارسية ص ١٥ والحركات الحديثة ص ٧٤ ـ والاسلام والتجديد في مصر ص ١٢.

إسلامية، وإنما ألغاها لخطورتها على الدين والخلافة.

لقد كانت جميع الأحزاب والجمعيات التي أنشأها جمال الدين أو نضم إليها، تضم مختلف الأديان والأجناس ما عدا جمعية العروة الوثقى، فقد كان أفرادها من المسلمين خاصة، كما يقولون، ولكن أهدافها لم تكن لنشر الإسلام ومبادئه.

كما يلاحظ أن عمله السري قديم ومتصل الحلقات يبدأ من الهند والحجاز ثم إلى مصر فإيران فأوروبا وينتهي في تركيا.

ولا ندري هل كان في تركيا منتسباً إلى جماعة سرية أو إنه بقي بعيداً عن العمل السري لعلمه بأن السلطان عبد الحميد كان شديد المراقبة والحذر.

أهدافه ومقاصده السياسية:

لقد وقف مترجمو جمال الدين في حيرة عظيمة واختلاف كبير، في معرفة أهدافه التي ينوي القيام بها، والعمل على تحقيقها. هل هو طالب حكم ورئاسة؟ أو هو طالب تحقيق نوع من أنواع الحكم؟ أو أنه يعمل وفق مخطط مرسوم له من منظمات هو أحد أعضائها المنفذين لها؟... كل هذه التساؤلات تدور حول أهدافه الغامضة.

١ ـ هل هو طالب حكم ورئاسة؟

الظاهر من حياته، وكثرة تنقله أنه لم يكن ليسعى لمثل هذا المطلب، فقد تنقل من إيران إلى أفغانستان، إلى الهند، إلى الحجاز، إلى مصر... الخ كل هذه البلاد تنقل فيها رغم أن موطنه الأصلي إيران.

صحيح إنه كان كثير التطلع إلى بلاده إيران، وأنه خرج منها وعاد إليها ثلاث مرات، وأنه ما نزل في قطر إلا كانت أنظاره متجهة نحو موطنه الأصلي، ولكنه كان يعمل في كل قطر نزل فيه وكأنه أحد أفراده،

ثم لا يلبث أن يكوّن حوله الحشود من الأتباع ويؤسس الجمعيات والأحزاب السرية والجهرية، ثم يصبح له شعبية عظيمة.

والغريب أنه ما أخرج من بلد إلا بسبب خوف حاكمه من قيام جمال الدين بانقلاب أو ثورة عليه، أو خوفاً على معتقدات أهله. وما رأيناه أخرج من بلد فذهب إلى آخر ليتابع نضاله للعودة إليه ومتابعة نضاله للقضاء على الظلم أو الإستعمار الذي يحكم ذلك البلد، وكان يدعي أنه نصير المظلوم وعدو الإستعمار والظلم والإستبداد. ثم إنه غالباً ما دخل بلدة إلا بدعوة رئيسها، بينما الواجب على مثله أن تكون الجماهير الشعبية هي التي تضغط على حكّامها لإعادته وإكمال مسيرته، وبعد أن يستقدمه هذا الحاكم فالمفروض أن يتعاون معه إن كان عادلاً، أو يرفض المجيء إن كان ظالماً، ولكن على العكس من ذلك، نراه يخرج عليه ويبدأ بنقده والتجريح به أو التهجم عليه ومحاولة اغتياله وينتهي الأمر به إلى إخراجه ليعاود الكرة مع حاكم آخر وهكذا..

دخل بلاد الأفغان وأسندت إليه رئاسة الوزارة وألف في مدح بلاد الأفغان كتابه المشهور «تتمة البيان في بلاد الأفغان»، ودخل مصر وامتدحها وامتدح أهلها فقال: «مصر أحب بلاد الله إلي، وقد تركت لها الشيخ محمد عبده...[1]». وقد مرّ بنا أنه استطاع في مصر خلع الخديوي اسماعيل وتنصيب الأمير توفيق مكانه فمن كانت له هذه الأيدي الطوال في خلع وتنصيب الملوك باستطاعته طلب الحكم لنفسه رغم أن البعض يرى أن طلب الأفغاني إقامة الحكم الجمهوري النيابي لغاية في نفسه وهي الوصول إلى الحكم، وحتى أن الخديوي توفيق ساوره الشك في ذلك واستقر الرأي عنده على ذلك وكانت هذه التهمة من جملة أسباب النفي، يقول رشيد رضا: «وعلا أريكة الخديوية صاحب السمو الأمير توفيق وكان من الواجدين على جمال الدين فأخذ يجوس مرامي أقواله، ويردد مرامي أفعاله حتى علم أنه ممن ينزعون إلى إبدال الحكومة المقيدة بجمهورية شورية تحدثه نفسه بتولي زعامتها»[2].

---

(١) رشيد رضا الامام المجاهد ٦٦.

(٢) تاريخ الاستاذ الامام ٤٨.

وهذا الرأي له جانب من الصحة لأننا وجدناه ما دخل بلدة إلا نادى فيها بإقامة جمهورية وحكومة شورية نيابية، على النمط الأوروبي.

فعندما كان في طهران طلب من شاه إيران إشراك الشعب في الحكم، ثم ذهب إلى مصر فعمل وناضل من أجل الحكم النيابي، ولما دخل الأستانة نشر هذا الرأي في الأوساط العامة والخاصة.

ولكن رغم هذا لا نستطيع الجزم بأنه كان يرمي وراء طلبه هذا النوع من الحكم، الوصول إلى سدة الحكم.

٢ ـ نوع الحكم الذي يسعى لتحقيقه:

الروايات التي بين أيدينا تكاد تجمع على أن جمال الدين يسعى لتأسيس حكم جمهوري دستوري نيابي على النمط الأوروبي. ويعتبر جمال الدين أكبر الداعين في القرن التاسع عشر إلى تطوير الشرق حتى يلحق بركب الدول الأوروبية المتقدمة، فهو من هذه الناحية يمثل مدحت باشا في تركيا وسيد أحمد خان في الهند وغيرَهما ممن كان ينادي بالأخذ من أوروبا المتحضرة أساليب الحكم ووسائل الحضارة . .

يقول مستر بلنت صديق جمال الدين: «إن سعي العثمانيين في تحويل حكومتهم إلى دستورية في بادىء الأمر قد ينسب إلى شيء من تأثير جمال الدين، فقد أقام في عاصمتهم يحاورهم ويخطب فيهم[1]». ولذا فلا أستبعد أن يكون مدحت تأثر بجمال الدين في هذا، مع أن كلًا من جمال الدين ومدحت باشا يستقون من مورد واحد، فهذا من حزب تركيا الفتاة والآخر من جمعية مصر الفتاة وكلاهما من أصل ماسوني.

وكان السلطان عبد الحميد يقاوم النظم النيابية ويحارب دعاتها وعلى رأسهم مدحت باشا لأن الداعين إليها كانوا مجموعة من الملحدين المتفرنجين الذين يريدون الإرتماء في أحضان الغرب الكافر ويعارضون سياسة السلطان عبد الحميد الإسلامية، وهم يعملون من حيث يدرون

(١) جمال الدين ـ المغربي ـ ٢٩.

أو لا يدرون لصالح الصهيونية العالمية، وقد دفع انيهود الصهاينة هؤلاء ليحاربوا السلطان عبد الحميد، لأنه منع هجرتهم إلى فلسطين، ولم تفلح جميع حيلهم ووسائلهم من تحريض بعض رؤساء الدول العظمى لتغيير رأيه[١].

ولما دخل جمال الدين مصر في زمن اسماعيل باشا كان رأيه في بداية الأمر أن مجلس النواب لا قيمة له ما دام المصريون على ما هم عليه من التأخر ومن قلة التنبه وضعف اليقظة وقلة الشجاعة وخاصة في قولهم للحاكم أنت ظالم مستبد، ولكنه في آخر عهده بدأ يلح في طلب الحكم النيابي ويحرض عليه[٢].

وذلك بعد أن نشر الوعي بينهم عن طريق الصحافة والجمعيات السرية وعرف كيف يستقطب المثقفين إليه الذين صاروا فيما بعد رؤساء وزارات وقبضوا على جهاز الدولة أمثال سعد زغلول والبارودي وغيرهما.

ولذا وجدنا أن الأمير توفيق باشا ولي العهد، الذي كان مقتنعاً ومتشبعاً بآرائه ينقض وعده له، ولا ينفذ رغبته في حكم دستوري كان قد طلبه منه، بل إن توفيق بعد أن أصبح خديوي مصر، قال لجمال الدين محذراً له من الدعوة إلى إقامة الدستور: «مع الأسف إن الشعب خامل جاهل، لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقون من الدروس والأقوال المهيجة، فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة.» فقال جمال الدين مجاوباً: ليسمح لي سمو أمير البلاد... فإن قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد على طريق الشورى، فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذ بإسمكم وبإرادتكم يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم»[٣].

فهو قد افتتح أيامه في مصر في مجانبة الحكم النيابي وانتهى بالدعوة إليه بحرارة، والمطلعون يقولون أن بدء الدعوة إلى الحكم النيابي كان مع

---

(١) الاتجاهات الحديثة في الأدب ٧٩ / ٢ هامش.
(٢) زعماء الاصلاح في العصر الحديث ٧٦.
(٣) جمال الدين الأفغاني ــ الرافعي ٤٥.

بداية تأسيس الحزب الوطني الحر، وكأنه تأسس لهذه الغاية، إذ كان الأفغاني يدعو بواسطته إلى قيام حكم دستوري نيابي وطني في مصر[1].

ولم يكن جمال الدين يعجبه الحكم الملكي المقيد، أو حكم السلاطين الملتزمين بدساتير، بل لقد كان مؤمناً بأن الحكم الدستوري النيابي من جهة وسلطة الملوك والأمراء والسلاطين والمستعمر من جهة أخرى، ضدان لا يجتمعان[2].

ولو أردنا مناقشته في هذا النوع من الحكم لوجدنا أنه يحاكي فيه الأمم والشعوب الغربية الكافرة التي وقفت في وجه الكنيسة ليحكم الشعب نفسه بنفسه، أما نحن المسلمون فلنا دستور ولنا تشريع فلا نحتاج إلى مجلس نيابي ينتخب من الشعب من برها وفاجرها، مسلمها وكافرها، ... الخ. ثم ماذا سيضع هذا المجلس من القوانين والتشريعات ما دام القرآن والسنة المطهرة لم تترك لنا ثغرة إلا سدتها، ولا أمراً إلا أعطتنا فيه حكماً؟ فلا نحتاج إلا إلى علماء يستنبطون الأحكام في الأمور المستحدثة قياساً على ما ورد نصه وحكمه.

نحن في ظل الاسلام، لا نحتاج إلى مجلس نيابي، خلافاً لأوروبا لأنه لم يكن لديها تشريع ولا دستور سماوي بعد أن حرفوا كتبهم وبدلوها.

وقد ظهر فيما بعد أن المجالس النيابية في أوروبا لا تعطي الوجه الصحيح للحق وإنما هي الأهواء والرغبات تلعب من وراء الأستار، وكم من حق ضاع، وكم من باطل أقر في هذه المجالس النيابية هذه أرقى دول العالم الولايات المتحدة الأمريكية تلعب الصهيونية العالمية بمجالسها، وتسيرها على حسب أهوائها، فتسن القوانين والتشريعات التي تخدم مصالحها، فأصبح الشعب من وراء هذه المجالس يساق لخدمتها، ويدفع ماله لنصرتها ويضحي الشباب بأرواحهم لقتال أعدائها، ولتحقيق مطامعها.

---

(١) الأعمال الكاملة للأفغاني ١٢١.
(٢) الأعمال ١٢١.

وبهذه المناسبة نسوق، رأى شيخ الاسلام مصطفى صبري تبيانا لمساويء، المجالس النيابية، التي تسن القوانين التشريعية فلتـزم الشعب بها، مع انها بعيدة عن الحق والصواب، يقول: « القوانين لا تسن مطلقا باجماع آراء الأمة ، وانما تسن بأكثرية الآراء النسبية، فيكفيه أن يكون زائداً على النصف ولو بواحد. وليس بمضمون ولا لازم أن يكون رأى هذا الأكثر حقا، بل يفضل خطأ الأكثر على صواب الأقل، كما هو المعروف في الأسلوب البرلماني، فتكون العبرة بعدد الآراء لا بقوتها وأصالتها. وليس بمضمون أيضا أن يكون هذا القدر من الكثرة حقيقيا، فهو صنعي على الأكثر، لأن النواب المجتمعين في البرلمان تدخل الشبهة في صحة نيابتهم عن الأمة بمدخول أنواع الحيل في انتخاباتهم»[١].

فالمجالس النيابية قد ظهر عوارها وثبت فشلها، الا أنها تحقق نوعا من الاستقرار والثبات الموهوم، والدول الأوروبية أخذت بها مندوحة عن التخبط الذي كانت تعيشه قبل ذلك من طغيان الكنيسة وتحكمها في الناس.

وفي ظل حكومة اسلامية تحكم بشريعة الله، لا يصلح هذا، ولن توجد المجالس النيابية الاستقرار والاطمئنان، وسينعكس الأمر وسيحصل النزاع والاضطراب، لأن هـذا المجلس سوف يضم مختلف النـزعات والعقائد ولأهواء، وكل يريد أن يسن قانونا يتمشى مع هواه أو نزعته أو عقيدته، فأين التشريع الاسلامي؟ وستقع المعارضة لا بل العراك والقتال بين هذه الفئات المتضاربة.

من هنا نقول ان جمال الدين الأفغاني في دعوته الى انتخاب مجالس نيابية، على خطأ فادح، وخاصة أن أتباعه الذين ربما يكونون في تلك المجالس اذا ما حصلت هم من النصارى واليهود وغير ذلك فعلى أي أرضية سيقف هؤلاء، ولا أظن أنهم يريدون تطبيق الشريعة الاسلامية منهجا للحياة، فأي مجالس نيابية يدعو لها جمال الدين؟ وأي شورى ينادي بها؟.

---

(١) مجلة المجتمع عدد ٤٨٦.

ومن العجب أن نجد الكثيرين يخلطون الغث بالثمين فيظنون أن جمال الدين يدعو الى حكم شورى.

فالمجالس النيابية لا تصلح في الاسلام الا على أساس واحد، وهو أن يكون الأعضاء جميعهم من المسلمين، وعلى شرط أن يكونوا موثوقين من قبل لجنة عليا لا تخاف بعد الله أحدا، وعند ذلك نستطيع أن نطلق على هذا المجلس النيابي اسم مجلس شورى. أما أن يكون أعضاؤه من النصارى واليهود والزنادقة فهذا لا يطلق عليه اسم مجلس شورى، ثم بعد ذلك سمه ما شئت.

٣ـ جمال الدين يعمل لهدف غامض:

بعد أن عرفنا أن جمال الدين لا يطلب ملكا ولا سلطانا، على أرجح الأقوال، وظهر لنا أنه يعمل لاحداث نوع جديد من الحكم وهو النيابي، على منوال الدول الأوروبية، بقي علينا أن نعرف أنه كان يدعو الى هدف أعم وأشمل.

لو استعرضنا حياته وتنقلاته لوجدنا أنه كان يتنقل من هدف إلى هدف ومن غاية إلى أخرى ، إلى أن إستقر به المطاف في الدعوة إلى حكم عام يشمل العالم الاسلامي قاطبة ، وظاهره أنه دعوة إلى جامعة إسلامية ، أما حقيقته فالله أعلم بها .

لقد بدأ بدعوته العامة هذه بعد أن ترك مصر وفكر في الاستقرار في أوروبا، ثم إنقطع عن هذه الدعوة عندما دعي إلى طهران ليكون كبير وزرائها، ثم عاد يدعو إلى هذه الجامعة بعد تركه إيران، وهذا ما دعا حكام تركيا لتوجيه الخطاب له للقدوم الى الآستانة، ويعتبر هذا المطلب أحد الأسباب في دعوة جمال الدين الى الآستانة.

كان جمال الدين الأفغاني يسمع ويعلم أن السلطان عبد الحميد يعمل على تقوية الروابط بين البلدان الاسلامية وخاصة بين السنة والشيعة، ويظهر ذلك جلياً من مذكرات السلطان وذلك عندما يقول: « يجب تقوية روابطنا ببقية المسلمين في كل مكان، يجب أن نقترب من بعضنا البعض

أكثر فأكثر، فلا أمل في المستقبل إلا بهذه الوحدة، ويقومون قومة رجل واحد، وفيه يحطمون رقبة الكفار»[1].

كان السلطان عبد الحميد يتحسر ويتأسف لهذا التفرق، ويتمنى لو يتحد العالم الإسلامي للقضاء على الدول الغربية، الذين أحاطوا بالدول الإسلامية وتكالبوا على تقسيمها وإلتهامها ، ولذا راح يسعى ويجتهد لايجاد هذا التقارب والاتحاد ، فأول ما بدأ يفكر فيه هو دولة إيران وكيف يتم التقارب والإتحاد معها، يقول السلطان عبد الحميد معبرا عن هذا التحسر: « عدم وجود تفاهم بين إيران ، أمر جدير بالتأسف عليه. وإذا أردنا أن نفوت الفرصة على الانجليز وعلى الروس، فأنا نرى وجودتقارب إسلامي في هذا الأمر»[2].

ولذا كان السلطان عبد الحميد يتطلع إلى رجل له صلة أو زعامة في إيران، ليكون همزة الوصل بينهاتين الفئتين من المسلمين، فوقع إختياره أخيرا على جمال الدين، فعرض عليه القيام بهذه المهمة عندما رأى فيه إستجابة، وعرض عليه أن يعمل على تقريب وجهة النظر بين السلطان والشاه، وإقتنع بالفكرة وهي إزالة الهوة السحيقة بين الشيعة والسنة.

ويبدو أن جمال الدين قام فعلاً بإقناع كبار رجالات الدولة الشيعية، وكذا رجال الدين والعلم فيها، وكسا الفكرة ثوباً قشيباً، وحتى تلك الساعة كانالسلطان عبد الحميد راضياً كل الرضا عن جمال الدين وعن نشاطه[3].

كما أن جمال الدين كان راضي كل الرضا عن السلطان عبد الحميد، ويدعو الناس للانضواء تحت رايته ومبايعته، لذا كان جمال الدين يقول: « أما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره، وإعداده العدة اللازمة لابطال مكايد أوروبا، وحسن نواياه وإستعداده للنهوض بالدولة (الذي فيه نهضة المسلمين عموما) فقد دفعني إلى مد يدي له، فبايعته

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد ٨.
(٢) المرجع نفسه ٧.
(٣) المرجع نفسه ٩.

بالخلافة والملك، عالماً علم اليقين، أن الممالك الإسلامية في الشرق لا تسلم من شراك أوروبا، ولا من السعي وراء أضعافها وتجزئتها، وفي الأخير إزدرادها واحدة بعد أخرى، إلا بيقظة وانتباه عمومي وإنضواء تحت راية الخليفة الأعظم»[1]. وليس هذا الخليفة الأعظم الا السلطان عبد الحميد.

وهكذا قام جمال الدين بتقديم التقارير الى السلطان، موضحاً إقتراحاته وإطلاعاته، وذلك لكسب ثقة السلطان وتأكيد جدية العمل، وقد وجدت هذه التقارير في مكتبة السلطان عبد الحميد ونشرت بعد وفاته[2].

وهذا ما جعل المستشرق المجري جولد سيهر يتوهم أن جمال الدين أصدق من عمل على الجامعة الإسلامية فيقول واصفاً هذه الواقعة في جمال الدين: «كان يفكر في جمع هذه الحكومات بأجمعها، ومن جملتها إيران الشيعية، حول الخلافة الإسلامية، لتتمكن بـذلك الاتحـاد، من منع التدخل الأوروبي في أمورها، فجمال الدين بقلمه ولسانه كان أصدق ممثل لفكرة الجامعة الإسلامية»[3].

ولكن السلطان عبد الحميد لم يجد بغيته في جمال الدين، بل على العكس من ذلك، وجده يعمل ضده، ويناصر أعداءه لاسقاطه من الخلافة العثمانية، لا بل يعمل على إسقاط الخلافة الإسلامية نهائيا ووضع أسس الحكم الجمهوري النيابي، ولذا صار السلطان عبد الحميد بعد ذلك يرتاب منه ويشك في أمره، وكان يقول:

«من المحتمـل جـداً أن يكـون الانجليـز قـد أعـدوا الـرجـل لإختباري»[4].

ويؤيد هذا الرأي الذي قاله السلطان عبد الحميد، ما ذهب اليه

---

(١) الأعمال الكاملة للأفغاني ٢٩. وخاطرات جمال الدين ٦٧.
(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد ٨.
(٣) الأعمال الكاملة ٦٧.
(٤) مذكرات السلطان عبد الحميد ٦٧.

أحد الكتاب المعاصرين إذ يقول: « وقد ثبت أنه ـ أي الأفغاني إجتمع ببعض رجال تركيا الفتاة، وهم الذين قاموا بالإنقلاب التركي، وعرف منهم خطتهم وشجعهم ودعا لهم بالتأييد.

وظلت جمعية تركيا الفتاة تجاهد حتى قامت بثورتها الكبرى سنة ١٩٠٨م»(١).

بل أن السلطان عبد الحميد يذهب الى أبعد من ذلك في شكه في جمال الدين فيؤكد أن جمال الدين يتآمر مع عناصر معادية للخلافة لإسقاط الخلافة نهائياً ونقلها الى العنصر العربي أو غير العربي، فيقول: « وقعت في يدي خطة أعدها في وزارة الخارجية الانجليزية، كل من مهرج اسمه جمال الدين الأفغاني، وانجليزي يدعى بلند، قالا فيها بأقصاء الخلافة عن الأتراك، واقترحا على الانجليز إعلان الشريف حسين، أمير مكة، خليفة على المسلمين، كنت أعرف جمال الدين هذا عن قرب، كان في مصر، وكان رجلا خطراً، إقترح علي ذات مرة أن يثير جميع مسلمي آسيا الوسطى، وكنت أعرف أنه غير قادر على هذا، وكان رجل الانجليز»(٢).

والواقع أن جمال الدين كان يعمل على هدم الخلافة العثمانية منذ أن كان في مصر، بل ربما يكون قبل ذلك، وقد ظهرت في أعماله وأقواله في الصحف التي أنشأها وكتب فيها وهو في مصر، يقول أنور الجندي: « أصدر السوريون الموالون للاستعمار صحفاً متعددة خارج الوطن العربي، خلال فترة ما قبل الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢م، وكلها تحارب الدولة العثمانية وتحمل عليها، ومن هذه الصحف. . .(٣)».

ثم يعدد صحفاً كثيرة ويتكلم على أصحابها إلى أن يقول: « يعقوب صنوع: ابو نظارة زرقاء، أبو زمارة، أبو صفارة.

أديب إسحق: جريدة مصر. . .(٤) الى أن يقول: « والواضح أن

---

(١) جمال الدين الأفغاني: محمود أبو ريه ٣١.
(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد ٦٧.
(٣) أنور الجندي تطور الصحافة ٣٦.
(٤) المصدر نفسه ٣٦.

أغلب الصحف التي صدرت في لندن وباريس كانت ذات ولاء للنفوذ الأجنبي في البلدان، وقداستهدفت أغلب هذه الصحف تمزيق وحدة الروابط القائمة في هذه المنطقة وفق المخطط الذي رسمه الاستعمار في مقدمة الاستيلاء عليها»[1].

ويظهر أن الانجليز لم يكتفوا بوضع الخطط لهدم الخلافة، بل بدأوا بالتنفيذ ووضعوا جمال الدين الواجهة الدينية، التي يتحرشون بواسطتها بمقام الخلافة، ولذا يقول السلطان عبد الحميد: « بدأوا - أي الانجليز- يأخذون على عاتقهم التحرش بمسألة الخلافة، متخذين جمال الدين الأفغاني وسيلة لمآربهم»[2].

وبهذا القدر يصبح معلوماً لدينا أن جمال الدين كان يحفر تحت أقدام الخلافة الاسلامية، المتمثلة بالسلطان عبد الحميد إلى أن جاء أتاتورك فيما بعد، فقضى عليها وألغاها نهائيا، وأقام مكانها حكمًا علمانياً الحادياً، ويكون بذلك قد حقق حلم جمال الدين الذي كان يعمل له طول حياته.

وهكذا تراجعت فكرة الجامعة الإسلامية من أقوال جمال الدين، وإزداد هجومه عليها ما دامت في ظل الدولة العثمانية، حاكياً بذلك مشاعر المستعمرين وآمالهم وأمانيهم، يقول الدكتور محمد محمد حسين: « موالاة تركيا والاشادة بها ومدح الشعراء للسلطان عبد الحميد لم يكن في حقيقة الأمر إلا تمسكاً بخليفة المسلمين الذي يلي أمرهم. ويجمع شملهم، وأن الخروج عليه ومهاجمته لم يكن يعني في أفهام كثرة المعاصرين إلا موالاة المستعمرين أعداء المسلمين »[3].

ومن العجب أن نجد بعض المشايخ الأزهريين يهاجمون السلطان عبد الحميد لأنه كان يعادي جمال الدين الأفغاني، حتى أن أحد هؤلاء المشايخ يسر ويشمت بالسلطان عبد الحميد عندما اقصاه المارقون جماعة الاتحاد والترقي اليهود وهو محمود أبو ريه.

---

(١) أنور الجندي ــ تطور الصحافة ٣٦.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد ــ ٧٢.

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ــ جـ١ ص ٩.

فبعد كل هذه التقلبات بدأ جمال الدين الأفغاني يتكلم على حكم إسلامي لا مركزي، أو كما يسمونه اليوم (الحكم الفيدرالي)، على مثل حال الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا الاشتراكية.

يقول الدكتور أحمد أمين: «كان مثله الأعلى حكومة اسلامية واحدة... ولما رأى أن ليس في الامكان خضوعها لأمير واحد اكتفى بالدعوة الى أن ترتبط أجزاؤها بروابط محكمة»(١).

ويقول جمال الدين معبرا عن هذا الحكم الفيدرالي: «لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً، فان هذا ربما يكون عسيرا»(٢).

فعلى رأي جمال الدين، ما دام الحكم سيكون فيدرالياً، فلا فائدة اذن من تنصيب خليفة للمسلمين بيده الأمر كله، ولذا لو سعى ساع لالغاء الخلافة يصبح الأمر سهلا، اذ أن لكل دولة حاكمًا مستقلاً عن غيره. ويبدو لي أنه كان يعلق الآمال على إيران في إستلام راية الحكم وجمع المسلمين عليها، فهو القائل في العروة الوثقى: «أنتم أجدر المسلمين بوضع أساس للوحدة الإسلامية»(٣).

وهو القائل أيضا: «ليس ببعيد على همم الايرانيين وعلو أفكارهم أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الاسلامية»(٤)..

علاقة جمال الدين بالانجليز:

لو تصفحنا حياته من خلال كتاباته وخطبه وأعماله، لرأينا في

---

(١) زعماء الاصلاح في العصر الحديث ص ٨٤.
(٢) زعماء الاصلاح في العصر الحديث ٨٤ ـ الأعمال الكاملة ١/٧٥ ـ العروة الوثقى مقال في الوحدة الاسلامية ١٣٩.
(٣) الأعمال الكاملة ٨١ ـ العروة الوثقى ١٩٢.
(٤) الأعمال الكاملة ٨١ ـ العروة الوثقى ١٩٠.

علاقته بالانجليز ما يثير الدهشة والحيرة، ولذا إختلف المترجمون في علاقته هذه على ثلاث فرق.

فرقة تقول بأنه كان عدواً للانجليزولكل مستعمر غاصب.

وفرقة تقول بأنه كان عدواً للانجليز فقط دون سواهم.

وفرقة ثالثة تراه صديقاً لهم يعمل على تنفيذ أغراضهم خفية ويتظاهر بعدائهم..

١ــ أدلة الفريق القائلين بعدائه لكل مستعمر:

إعتمد هؤلاء في قولهم على ما كتب في العروة الوثقى خاصة وعلى ما ورد في خاطراته وكتب محمد عبده وغيره من تلاميذه الذين صحبوه وسمعوا كلامه.

ولو أردنا إستعراض أقواله كما وردت وأقوال تلاميذه وخطبه لملأنا مئات الصفحات، فهذه أقوال ويستطيع كل إنسان أن يتكلم ما يشاء، والعبرة للعمل. فمن هذا الوجه أخذ أنصار هذه الدعوة حجتهم بأنه عدو للمستعمر، وجعلوا حجتهم على غيرهم تواتر هذه الأخبار التي لا يجوز لأحد أن ينكرها.

٢ــ أدلة القائلين بتخصيص عدائه للانجليز دون غيرهم:

يرد هؤلاء على أنصار القول الأول بأننا لا ننكر ورود أمثال هذه التصريحات التي ظاهرها العداء الشديد لكل مستعمر. ولكنه عندما يخص بذكر بعضهم، يخصص الانجليز دون غيرهم، فأين نصيب الافرنسيين؟ وأين هجومه على الهولنديين الذين إستعمروا اندونيسيا تلك الأرض المسلمة؟، بل وأين هجومه على روسيا التي إستولت على بلاد إسلامية نتيجة حربها الدائم على الدولة العثمانية؟ فلماذا هذا التخصيص بالهجوم على الإستعمار الانجليزي دون غيره.

هل الإستعمار الإفرنسي أقل خطراً على المسلمين من الانجليز؟ وهل الروس أقل ضراوة ووحشية من الانجليز؟ أو أن الاستعمار ملة واحدة لا فرق بين أبيضها وأسودها؟

الحقيقة أن الإستعمار الفرنسي كان يسير بخطوات متساوية تقريباً مع الاستعمار البريطاني، بل كان هناك تنافس بينهما على إقتسام مخلفات الدولة العثمانية وكانوا يسمونها بالرجل المريض، وكانت تعقد الإتفاقيات من أجل ذلك في الخفاء بين فرنسا وبريطانيا، وكم حصل بينهما من الحروب لنقضهم هذه الإتفاقيات، ومن أجل قطعة أرض أخذت من وراء هذه الإتفاقيات. وما الحرب العالمية الأولى الا نتيجة هذا التنازع وهذه الأطماع، ولكن هذه المرة ضد ألمانيا التي أخذت تظهر كدولة منافسة لهاتين الدولتين.

ثم أن ظهور جمال الدين على مسرح السياسة كان مع بداية إستعمار فرنسا لإحدى الأقطار الإسلامية وهي شمال أفريقيا، ومع بداية تحرك بريطانيا نحو السودان وعدن والممرات المؤدية الى الهند، درة التاج البريطاني. ومع ذلك لو قلبنا مجلة العروة الوثقى من أول عدد الى آخر عدد لما وجدنا فيها شيئاً عن الإستعمار الفرنسي أو الهولندي، وكذا خطبه وأقواله في مجالسه ومع تلاميذه.

كانت الجزائر تسام سوء العذاب من قبل الجيوش الفرنسية، تقتل الشباب وتيتم الأطفال وتنكل بالشيوخ وتسلب الأموال وتنتهك الأعراض والحرمات، تصل أخبارها الى كل مكان، وتصل إلى مصر وأوروبا، ثم لا نجد من جمال الدين موقفاً حاسماً أو قولاً بليغاً أو خطبة رنانة يفضح بها مخازي الاستعمار الفرنسي.

لذا نجد الدكتور محمد محمد حسين يستغرب هذا النوع من العداء لهذه الدولة المستعمرة دون غيرها فيقول: « ولماذا كانت عداوته الشديدة للإستعمار الانجليزي وحده دون الاستعمار الفرنسي والاستعمار

الهولندي؟ فلم ترد في العروة الوثقى إشارة للإستعمار الفرنسي للجزائر، كما لم ترد فيها إشارة للاحتلال الهولندي لأندونيسيا»[1].

وحتى أنه كان يأوي إلى قناصل فرنسا ويطلب مساعدتهم في حل مشكلاته، وذلك بعد أن ترك المحفل الماسوني التابع لاسكتلندا، وإلتحاقه بالمحفل الماسوني الفرنسي. يقول الشيخ رشيد رضا: « ظهر للسيد جمال الدين أن الخديوي اسماعيل مخلوع لا محالة، فكشف الغطاء عن مقاصده السياسية، وأخذ يسعى في إنفاد أغراضه، فلقي المسيو تريكو قنصل جنرال فرنسا، ومكاتب التايمس، وكلمه بلسان حزب كبير. فهال أمره بعض أمراء المصريين»[2].

٣ــ أدلة القائلين بأنه صديق للانجليز متعاون معهم:

منذ أن دخل معترك السياسة إلى أخريات حياته كان شغله الشاغل الحكام، وكان للانجليز إحتكاك دائم مع أولئك الحكام، فكان يميل إلى بعضهم ويتعاطف معهم، فأصحاب هذا القول يقولون: ننظر من يعادي ومن يصادق؟ فإن كان يعادي الحكام المتعاطفين مع الانجليز، فمعنى ذلك أنه عدو للانجليز. وأن كان يعادي أعداء الانجليز وخصومهم، فمعنى ذلك أنه صديق للانجليز.

ثم يستعرضون حياته فيرونه قد عادى السلطان عبد الحميد، وهو معروف في عدائه للانجليز الطامعين في أرضه، وعادى إسماعيل باشا وكان إسماعيل يرفض التدخل الأجنبي ويمد الصحف والمجلات التي تهاجم التدخل الأجنبي.

وهكذا فهو صديق للانجليز ومتعاون معهم.

بعد أن إستعرضنا أقوال هؤلاء جميعا، بقي أن نعرف الراجح منها.

---

(١) الاسلام والحضارة الغربية ٦٩ ــ ٨٥.

(٢) تاريخ الأستاذ الامام جـ١ ص ٤١.

١ــ ماهو رأي جمال الدين في الانجليز؟

قال الدكتور أحمد أمين: « بعض ساسة الانجليز ــ وقد أحسوا حملة جريدة العروة الوثقى وتهييجها الرأي العام على الانجليز ــ رأوا أن يتفاهموا مع القائمين عليها، فبعثوا الى السيد جمال الدين في ذلك، فأرسل مندوبه الشيخ محمد عبده وقال: (رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده ــ المحرر الأول بهذه الجريدةــ الى لندرة إجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لملتنا، ومن يؤمن فيهم حسن النيةـ»[١].

لم تظهر العبارة السابقة صفة هؤلاء الساسة الذين ارسلوا الى جمال الدين، هل هم أصدقاؤه؟ وعلى كل حال العبارة تشير إلى أن هؤلاء غير راضين عن العروة الوثقى، ويريدون التفاهم مع أصحابها على ما ورد فيها من تصد وهجوم على الانجليز، وكان مقصدهم فقط وقف الحملة ــ على ما يظهرــ على الاستعمار الانجليزي، فماذا كان جواب جمال الدين لهم؟

كان جوابه أن أرسل تلميذه محمد عبده للتفاهم معهم، وقد تلطف معهم كثيرا في القول بل مدحهم وأثنى عليهم بحسن النية والخيرية لديننا الاسلامي، وهذا خلاف طبعه وخلقه المشهور، فقد اشتهر بالحدة والغلظة على أعدائه، فلماذا رق لهم القول وهم أعداؤه؟

كان تلميذه محمد عبده يصفه بقوله (عصبي دموي في مزاجه)، وقد مر بنا في أول البحث، كما وصفه تلميذه سليم عنحوري: بأنه كان كثير الأنفة، شديد الوطأة على الحكام، يعاملهم بالعجب والخيلاء، ويرنو اليهم بعين المقت والازدراء. فأين ذهبت هذه الأوصاف في موقفه مع الانجليز؟ لقد اختفت امام الانجليز، أعداء الدين والخلافة الأسلامية، وظهرت أمام الحكام المسلمين.

ثم تعال نناقش كلامه جملة جملة، فقوله عن الانجليز المعروفين بحقدهم على الاسلام: (من يرجى منهم الخير لملتنا) ما هي الملة التي يقصدها في قوله هذا؟ فان كان مقصده الدين الاسلامي، فهم معروفون

(١) زعماء الاصلاح في العصر الحديث ٩٣.

بعدائهم له، ويكفيه أن يقف رئيس دولتهم انذاك، اللورد غلادستون، في مجلس العموم، رافعا القرآن الكريم بيده ويقول: « ما دام هذا القرآن موجودا فلن تستطيع أوروبة السيطرة على الشرق ولا أن تكون هي نفسها في أمان» (١) هذا فيما اذا كان يقصد الدين الاسلامي، أما اذا كان يقصد ملة أخرى غير الاسلام فهذا ما لا نعرفه.

والذي زاد الطين بلة قوله عن الانجليز (ومن يؤمل فيهم حسن النية)، يا سبحان الله! متى كان الانجليزي المستعمر حسن النية؟ وكيف يؤمل فيهم حسن النية وهم الذين استعمروا الهندالمسلمة وداسوا حرماتها، واختلقوا الاكاذيب والافتراءات للاحتيال على استعمارها، كما هو معروف من شركة الهند الانجليزية، التي كانت السبب الحقيقي وراء الاستعمار البريطاني للهند.

ربما يقول قائل ان مقصوده من حسن النية ليس الانجليز عامة بل بعضهم لأنه خص عبارته بقوله (بعض ساسة الانجليز)، ويذهب هذا التخصيص بنا الى القول بأن المقصود من هذا البعض هم اصدقاؤه الذين كانوا يتحفونه بالنصح والرأي السديد. فلنبحث من هم أشد الناس صداقة له من هؤلاء الانجليز؟ فلا نجد سوى بلنت. فمن هو هذا الرجل الذي كان من أعز أصدقاء جمال الدين وأكثرهم نصحا له؟

بلنت ــ هذا الرجل ـ كان من أشد الناس تفانيا في مصالح الانجليز، رغم أنه يتظاهر بصداقته للشرق المتمثل بالشعوب التابعة لتركيا، وبعدائه للحكومات البريطانية، بل كان أحيانا يتظاهر بالدفاع عن قضايا الشعوب الشرقية ويقف بجانبهم، كما وقف بجانب عرابي ودافع عنه بعد أسره، كان هذا نوعاً من الدهاء والحنكة الانجليزية.

بلنت واضع كتاب (مستقبل الاسلام) الذي يدعو فيه الى هدم الخلافة الاسلامية بنقلها من السلاطين العثمانيين الى العرب الضعفاء، ويدعو الى الاعتماد على الانجليز في اقامة خلافة اسلامية قوية.

---

(١) الأسلام على مفترق الطرق

بلنت كان على صلة بزعماء الثورة العرابية التي انتهت باحتلال مصر من قبل قومه [١].

بلنت شجع عرابي على الثورة، وهو يعلم أنه ضعيف لا يستطيع الوقوف أمام جيوش الاحتلال، وهو الذي زين لعرابي الحكم الجمهوري الذي قام من أجل تحقيقه، ووقف أمام الخديوي يطالب بالتخلي عن السلطة، ففي خطاب عرابي الى صديقه بلنت يقول: « ثم خلع اسماعيل فزال عنا عبء ثقيل، ولكنا لو كنا نحن قد فعلنا بأنفسنا لكنا تخلصنا من أسرة محمد علي بأجمعها، ولم يكن فيها أحد جدير بالحكم سوى سعيد، وكنا عندئذ اعلنا الجمهورية»[٢].

بلنت أودى بصاحبه عرابي وثورته وبلاده في الهاوية، ومع ذلك لم يفطن عرابي لخطره بل بقي على صداقته له بعد ذلك، وتولى بلنت الدفاع عنه بعد أسره ومحاكمته[٣].

يقول الدكتور محمد محمد حسين واصفا بلنت: « والمستر بلنت كان غريبا جدا في تصريحاته، « كان لا يفتر عن التنقل بين مضارب الأعراب في مصر وفي سوريا وفي نجد، يدعو المصريين الى الثورة، ويتكلم بعد وقوعها باسم عرابي، ويقدم صورا مضللة عن صفته الرسمية وقدرته السياسية»[٤].

وبلنت عندما وصف جمال الدين الأفغاني، وصفه بالرجعية وبالتخرج من مدارس الرجعيين فيقول عنه: « الغريب هو أن يعود الفضل في نشوء النقد بين أهله الى رجل تربى في بلاد رجعية، آسيا الوسطى، وتعلم في جامعة سحيقة كجامعة بخارى»[٥].

وموقفه من الخلافة العثمانية معروف ومشهور، وهو يعمل على

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر جـ١ ص١٥٣ هامش.
(٢) المرجع السابق نفسه ١٥٩ / ١.
(٣) المرجع نفسه ٣١٩ / ٢.
(٤) الاسلام والحضارة الغربية ٦٨ ــ ٨٢.
(٥) التاريخ السري لاحتلال مصر ٧٨.

تحقيق أماني وآمال الصليبية الحاقدة في نشر البلبلة وأسباب الضعف في جسم الدولة العثمانية بتأييد أعداء الخلافة العثمانية، ومدهم بالأفكار والآراء الهدامة.

يقول الدكتور فرحات: «المهم أن كلمة الصليبية الحاقدة اتفقت على اختلاف دولها الأوروبية وشعوبها، في القرن التاسع عشر، على الاغارة على العالم الاسلامي عن طريق تحطيم بابه الكبير الأول المتمثل بـ (الخلافة الاسلامية) فينتشر فيها يتتشر ويتهاوى من الممالك والولايات الاسلامية لينقض كل منهم على فريسته التي كان يحلم بها ويخطط السبل للوثوب عليها.

ولا نقصد في هذا القول أن الصليبية الحاقدة بدأت مؤامراتها في ذلك الوقت فقط وهي التي ما انفكت تتآمر ، عاملة على اضعاف شأن الخلافة العثمانية، ونشر أسباب الضعف والبلبلة في داخلها عن طريق الفتن والدسائس واثارة المشاكل.... ولكننا نقصد أن التفاهم المتبادل بين الدول الأوروبية على التركيز وعلى اقتسام الأدوار، قد بدأ في ذلك الوقت حيث ظهر في شكل دعوة الى جعل الخلافة في يد العرب بدلا من أن تبقى في أيدي الأعاجم من آل عثمان، يوم ألف المستر بلانت البريطاني كتابه المشهور (مستقبل الاسلام) داعيا فيه الى جعل مقر الخلافة الاسلامية في الحجاز بدلا من القسطنطينية، ومعبرا عن أغراض حكومة بلاده وأمانيها في مستقبل الاسلام اذا ما تحول زمام القيادة فيه الى ايدي العرب، ولكن مفكري وزعماء العرب تنبهوا الى هذا الكيد فراحوا يعلنون ولاءهم للحكم العثماني. وألف مصطفى كامل الزعيم المصري المشهور كتابا بعنوان (المسألة الشرقية) رد فيه على المستر بلانت، وأوضح في جملة ما أوضح أن الذي يبغض الانجليز على الخصوص بالسلطان عبد الحميد الثاني، انما هو ميله الشديد الى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة الاسلامية، وأن انكلترا تعلم بأن احتلالها لمصر لا يمكن أن يستمر الا اذا هدمت الخلافة العثمانية أو نقلت الخلافة الاسلامية الى يد رجل يكون تحت وصايتها أو بمثابة آلة في ايديها»[1].

---

(١) الحرب الصليبية: د. فرحات ١٠٢.

ولذا فقد لفت أنظار الكثيرين ، ممن درس حياة جمال الدين الأفغاني ، هذه الصداقة الحميمة لهذا الثعلب والجاسوس البريطاني ، الذي تنبه له مصطفى كامل وغفل عنه جمال الدين .

وكان الدكتور محمد محمد حسين قد شعر بهذه الصلة المشبوهة بين جمال الدين وبلنت فراح يتساءل ويقول : « فيم كانت صلة الأفغاني بهذا الرجل بلنت ، ينزل ضيفاً عليه عندما زار انجلترا ؟ ويكتب الى محمد عبده من بور سعيد وهو في طريقه اليها يطلب اليه أن يكون رده بعنوان المستر بلنت . . . »(١) .

وكان جمال الدين يحكي أفكار بلنت في مسألة الخلافة، فقد دعا المستر بلنت المسلمين في كتابه (مستقبل الاسلام) إلى نقل الخلافة من العثمانيين إلى العرب(٢). وكذلك جمال الدين كان يدعو إلى وضع الشريف حسين خليفة المسلمين بدلا من السلطان عبد الحميد الثاني(٣).

وهذا يؤكد صحة قول السلطان عبد الحميد بأنهما اتفقا في وزارة خارجية بريطانية على هدم الخلافة العثمانية كما ذكرنا سابقا.

ثم ان بلنت هذا رجل ملحد لا يؤمن بدين ولا شريعة، فهل يصح لمسلم مؤمن بالله واليوم الآخر أن يصادق رجلاً ملحداً، يقول الدكتور محمد محمد حسين: «بلنت كان من المتحررين الذين لا يؤمنون بالمسيحية، ولا يحسنون الظن بالكنيسة الكاثوليكية(٤)».

والغريب أنه كان له اتصال وثيق بجميع من اشتغلوا بالمسألة المصرية من المصريين والأجانب منذ عهد عرابي الى أن مات (٥). فقد صادق محمد عبده وبقي يراسله وينشر أفكاره حتى بعد موت جمال الدين الأفغاني، فهو الذي توسط لدى المعتمد البريطاني كرومر، بعد احتلال

---

(١) الاسلام والحضارة الغربية ٦٨ ـ ٨٣.

(٢) الاتجاهات الوطنية ٢٥ .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد ٦٧ .

(٤) الاسلام والحضارة ص ٩٥.

(٥) الاتجاهات الوطنية (٢/٣١٩).

مصر على اثر ثورة عرابي وطرد محمد عبده من مصر، على اعادة الشيخ محمد عبده الى مصر [1]. ولما عاد محمد عبده الى مصر كان أول هدف له هو ترك السياسة ومجانبة الخصام مع الحكومة البريطانية، كما سيأتي معنا في ترجمة الشيخ محمد عبده. وقد قال اللورد كرومر نفسه في كتابه «مصر الحديثة»: «ان العفو صدر عن الشيخ محمد عبده بسبب الضغط البريطاني»[2].

وأعجب من هذا أن تجد بعض المؤرخين المغفلين يقول بأن بلنت كان رجلا أرستقراطيا وثريا، وكان يحب العرب والشرق ويدافع عن قضاياهم ويعطف على ثوراتهم وقادتهم ومفكريهم، منهم جمال الدين الأفغاني وأحمد عرابي ومحمد عبده وغيرهم، وكذا كانت صداقته لهم شريفة.

ولكن ــ كما قلنا ــ كشف حقيقته مصطفى كامل، عندما أبان خطر صداقته من خلال عمله على هدم الخلافة العثمانية، ثم اشعار الفتن والثورات للتعجيل على الخلاص من هذه الخلافة التي اقضت مضاجع الأوروبيين عامة والانجليز خاصة.

وقد أبان، من بعد مصطفى كامل، خطر هذا الثعلب وسر علاقته بجمال الدين، الدكتور على الوردي اذ يقول: « كان بلنت يعتقد أن الأفغاني، وان كان خصما لدوداً للاستعمار البريطاني، غير أنه في خصومته ليس ذا تعصب اعمى، وأنه يرحب بأي اتفاق شريف مع بريطانيا، اذا كان ذلك ممكنا»[3]. ثم يذكر الدكتور الوردي المدة الطويلة التي مكثها جمال الدين في ضيافة بلنت، وهي ثلاثة شهور، وخلالها أثر في أفكار جمال الدين، وصار يثني على الانجليز وعلى سموأخلاقهم، وصار يميز بين ما هو حكومة وبين ما هو شعب، وكأن الحكومة ليست من الشعب فيقول: « يبدو أن الأفغاني اثناء مكثه في ضيافة بلنت قد غير

---

(١) أعلام وأصحاب أقلام ٣٩٠.
(٢) زعماء الاصلاح في العصر الحديث ٣١٠.
(٣) لمحات اجتماعية ٢٨٨ / ٣.

رأيه تجاه بريطانيا، فهو أصبح يعتقد ــ كما يروي عن بلنت ــ أن في روسيا خطراً على العالم الاسلامي أشد من خطر بريطانيا، وهو يرغب في تحقيق تقارب بين بريطانيا والاسلام»[1].

ولكن هذا الانقلاب من عداوة بريطانيا الى صداقتها سرعان ما تغيرت وانقلبت ثانية الى عداوة بريطانيا وصداقة روسيا ــ كما يقول الوردي ــ بسبب خلاف مع بلنت، يقول الوردي: «ان اثنين من أصدقاء الأفغاني تخاصما بحضوره في منزل بلنت، وضرب أحدهما الآخر بالمظلة على رأسه، فطلب بلنت منهما أن يخرجا من منزله، فلما خرج الرجلان من المنزل، خرج الأفغاني وراءهما، وعند هذا طلب بلنت من الأفغاني أن يجد منزلا آخر، ان بلنت، بعبارة أخرى، طرد الأفغاني من منزله.

ظل الأفغاني يتسكع في لندن بضعة أسابيع، ثم استقر رأيه أخيرا أن يذهب الى روسيا، ليعمل على عقد حلف بين تركيا وروسيا ضد بريطانيا»[2].

فكأن الوردي يريد أن يقول إن عداوة الأفغاني كانت نزوة نفسية فلما أغضبه بلنت لأمر تافه، غضب على بريطانيا، وعندما كان بلنت يحسن ضيافته كان يمتدح الشعب البريطاني ويثني عليه، فهل علم بعد هذا أن لا فرق بين شعب بريطانيا وحكومته؟

من أجل ذلك كان السلطان عبد الحميد يعتقد أن فساد عقل جمال الدين وأتباعه كانت من أمثال بلنت من الانجليز اذ يقول: « الانجليز قد أفسدوا عقول المصريين، لأن بعض المصريين يعتقدون أن سلامة مصر ستأتي من الانجليز»[3].

٢ ــ موقف جمال الدين من قضايا الشرق المتصلة ببريطانيا:

قلنا سابقا ان هناك فريقا كان يحصي على جمال الدين الأفغاني جميع تحركاته تجاه الانجليز، فيقولون بأن جمال الدين كان يعمل لصالح

(١) المرجع نفسه ٢٨٩ / ٣.
(٢) 〃 〃 ٢٨٩ / ٣.
(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد ٧.

الانجليز في الخفاء وان كان يتظاهر خلاف ذلك، وأول هؤلاء السلطان عبد الحميد، وكان يقول عنه بأنه رجل الانجليز ـ كما مر بنا ـ وأن الانجليز سخروه للنيل من منصب الخلافة ونقلها من العنصر العثماني القوي الى العنصر العربي الضعيف آنذاك والذي بدأ يرزح تحت نير الاستعمار البريطاني والفرنسي. ، فيقول السلطان عبد الحميد: «وقعت في يدي خطة أعدها في وزارة الخارجية الانجليزية كل من مهرج اسمه جمال الدين الأفغاني وانجليزي يدعى بلند قالا فيها باقصاء الخلافة عن الأتراك، واقترحا على الانجليز اعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين»[1].

فنعت جمال الدين بـ(المهرج) يعني أنه يمثل دورا مضحكا، وذلك لأنه يضحك على الشعوب بدعوى محاربته الاستعمار البريطاني وهو في حقيقة الأمر معهم وينفذ مخططاتهم.

وقد تحقق توقع السلطان عبد الحميد، فقد اتصل الانجليز بالشريف حسين، وخدعوه وعقدوا معه معاهدة بتتويجه ملكا على العرب، وقام بثورته المشهورة ضد الدولة العثمانية، وكان في صف الانجليز والفرنسيين الكفرة، فسجل عليه التاريخ هذه الخطيئة الكبرى بحق الخلافة الاسلامية.

هذه هي أمنية جمال الدين الأفغاني في جعل الخلافة في العرب، وهذه هي دعوة بلنت في جعل الخلافة في العرب.

لننتقل بعد ذلك الى أهم القضايا الاسلامية التي خاض فيها جمال الدين ليحقق للانجليز المكاسب، منها قضية السودان.

عندما قام محمد احمد المهدي بثورته في السودان، اقلق الحكومة البريطانية، وأشغلها مدة طويلة، عدا عن أنه أقض مضجعها بانتصاراته الباهرة وتدمير جيوشها

كانت دعوة المهدي صادقة في حرب الانجليز، وكان الأجدر

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد ٦٧.

بجمال الدين الذي يدعي عداوته للانجليز، أن يناصر المهدي ويشجعه على ثورته، ويقف بجانبه في تأليب الرأي العام العالمي ضد المستعمر الغاشم.

بينما نجده ينعت الدعوة المهدية بأنها فتنة وليست ثورة، وراح يرسل أخبار الثورة الى بريطانيا ليساعدهم على اتخاذ المواقف الحاسمة للقضاء على الثورة.

يقول الشيخ رشيد رضا: «أما ما قصد اليه من العمل في السودان، فقد كان السعي اليه مع الأستاذ الامام في لندرة أيام كانا يصدران العروة الوثقى بعد الاحتلال. فقد عظما أمر محمد احمد القائم بدعوى المهدية بالسودان في نفوس الانجليز، وكان لهما يدان فيما يرسل من مصر والسودان الى الانجليز من الأخبار»(١).

ثم أخذ وزير خارجية بريطانيا اللورد سالسبوري يتصل بجمال الدين ويعرض عليه عرش السودان، في الوقت الذي كانت الثورة قائمة، والهزائم تنزل بالجيوش البريطانية، وتفلت الأمر من يدهم تماما، فرفض عرش السودان قائلا: « هل تملكون السودان حتى تريدوا أن تبعثوا اليه بسلطان»(٢).
وبالمناسبة، لقد نقل الأستاذ الزيات عبارة جمال الدين في جوابه على عرض وزير خارجية بريطانيا، فغير بعض كلماتها فقال: « قال جمال الدين: ان السودان لأصله، وهل تملكونه حتى تملكون عليه»(٣).
والصحيح كما جاء في خاطرات الأفغاني كما اثبتناه . وكأن الزيات أراد أن يربط مصر بالسودان في المصير الواحد ، فنسب ذلك الى جمال الدين الأفغاني ، وذلك ليرفع من شأن جمال الدين في نظر المصريين ، وهكذا نجد أن أكثر المعجبين بجمال الدين ينقلون عنه ويضيفون أو ينقصون ليستقيم مقصودهم .

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ٧٨ / ١.
(٢) خاطرات جمال الدين ٢٧ ــ والمقتطف عدد ١١١ ص ٧٧.
(٣) وحي الرسالة ــ الزيات ٥٨ / ٣ نقلاً عن خاطرات ذد.

فلماذا عرضوا عليه عرش السودان وهو حسب الظاهر ـ عدو لهم، ومعارض لسياستهم؟ وهل يعرض العرش عليه ليستقل به أو ليصبح تابعا لهم؟ انهم عرضوا عليه عرش السودان لعلمهم أنه سيخدم مصالحهم وسيعمل على مساعدتهم في القضاء على الثورة المهدية.

يقول الأستاذ أنور الجندي: «دعاه الانجليز للتحدث معه بعد ثورة السودان، حيث لوح لـه اللورد سالسبوري بملك السودان ليطفيء الثورة، قال سالسبوري: «ان بريطانيا تعلم مقدرتك، ونحن نقدر رأيك قدره، ونحب أن نسير مع حكومات الاسلام بمودة وولاء على قدر ما تسمح لنا الظروف، ولذلك تصورنا أن نرسلك الى السودان بصفة سلطانا عليه فتطفيء جذوة فتنة المهدي وتمهد السبيل لاصلاحات بريطانيا منه[1]».

هذا كلام سالسبوري لجمال الدين، وهو واضح تمام الوضوح أنهم يثقون بجمال الدين، وانهم يعرفون مقدرته على خدمتهم.

وقد يظن البعض أن هذا الكلام أرسل اليه تحريرا، أو ارسل اليه رسول يحمل رسالة شفوية، لا! لقد ذهب جمال الدين بنفسه الى لندن وتفاوض معهم بشأن السودان، يقول طرازي: «ثم انه شخص الى لندرة بايعاز من اللورد شرشل واللورد سالسبوري ليطلعا على رأيه في المهدي وظهوره في السودان»[2].

فلماذا يسألونه عن المهدي ودعوته؟ هل يريدون معرفة رأي الشرع الاسلامي في صحة دعوة المهدي؟ هل يريدون معرفة تطابق علامات المهدي في هذا الرجل؟ انهم دعوه لعرض السلطان عليه دون سواه.

حتى ان مجلة الأزهر تعتبر هذه المفاوضات مع الانجليز ما هي الا عبارة عن استعانة بخبرة جمال الدين، ومده يد المساعدة لهم لحل هذه المشكلة التي سموها فتنة، وهو كذلك سماها فتنة، تقول المجلة: «وعلى

---

(١) أعلام وأصحاب أقلام ١١٦.

(٢) تاريخ الصحافة العربية: طرازي ٢٩٦ / ٢.

الرغم من هذه الكراهية العلنية التي يبديها السيد جمال الدين الأفغاني نحو الانجليز، قان رجال الحكومة الانجليزيةقد دخلوا في مفاوضة شخصية معه ليستعينوا به على إخفات الحركة السودانية في سنة ١٨٨٥م، ولكن هذه المفاوضة لم تنتج أية فائدة عملية»(١).

ويؤيد هذه الرواية المستشرق جولد سيهر ويبين علاقة بلنت بهذه القضية فيقول: «انه في سنة ١٨٨٥م، بالرغم مما اشتهر به المترجم من عداوة الانجليز، داخله الانجليز، باشارة المستر بلنت، في أمر ايجاد حل لمسألة المهدي السوداني ، ولكن لم يقترن شيء من ذلك بالعمل»(٢).

ويقول المستشرق نفسه: «وقد كان جمال الدين يثير الخواطر على الانجليز علنا وفي غير مواربة، الا أن قادة السياسة الانجليز قبلوا بوساطة بلنت، أن يدخلوا في مفاوضات شخصية مع جمال الدين لاخماد حركة المهدي في السودان ولكن هذه المفاوضات لم تنته الى نتيجة عملية»(٣).

ولعل مجلة الأزهر وصاحب كتاب حاضر العالم الاسلامي استقوا هذه الرواية من دائرة المعارف حتى جاءت متضاربة، أو قد يكون لكل مصدر مستقل، والمهم في الأمر هو أن العرض على جمال الدين حصل وبواسطة الجاسوس بلنت، صديق جمال الدين الأفغاني، وانتهى الأمر بالاخفاق.

وهذا يعطينا فكرة جديدة عن حقيقة علاقة جمال الدين بصديقه بلنت، فلماذا يطلب أن يتوسط جمال الدين في حل مشكلة السودان التي دوخت بريطانيا؟ أما كان بلنت يتألم لألم الانجليز ويشعر بشعورهم في هذه القضية؟ وحتى مجلة العروة الوثقى ـ في المقدمة ـ تؤيد هذه العلاقة الفاضحة وتقول بأن بلنت هو الذي جمع جمال الدين الأفغاني بساليسبوري وتشرشل للتفاوض في أمر المهدي»(٤).

(١) مجلة الأزهر سنة ٢٥ ص ٣٣٥.
(٢) حاضر العالم الاسلامي ٣٠٣/٢.
(٣) دائرة المعارف الاسلامية ٩٨/٧.
(٤) العروة الوثقى ٢٥.

والذي يزيد الأمر ريبة، أن جمال الدين الأفغاني عقد مع بريطانيا معاهدة سرية، لم يكشف النقاب عنها حتى الآن ـ كما ذكرت بعض الروايات ـ ثم عدلت بريطانيا عن هذه المعاهدة بعد موت المهدي، يوضح ذلك الدكتور محمد عمارة فيقول: «ومن باريس قصد لندن مرة ثانية في ١٠ شوال سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣) م بدعوة من الانجليز حيث تباحث هناك مع الساسة الانجليز، وخاصة تشرشل وسالسبوري وسير درموند ولف، ممثل انجلترا في مصر، تباحث معهم حول المسألة السودانية والمصرية»[(١)].

ولكن ماذا حصل في هذا الاجتماع؟ يقول الدكتور عمارة: «ويقال ان اتفاقا قد تم بينه وبين الانجليز على حل ما، وقد جعل الأمر مجهولا، فلم يذكر نوع هذا الحل ولا كنهه، اذ لم ينشر حتى هذا التاريخ ما يتعلق بهذا الأمر. فاما أن يكون الأمر شفويا أو أنه مما لا يجوز نشره».

ثم يتابع الدكتور عمارة كلامه فيقول: «وان هذا الحل قد تضمنته معاهدة ولكن وفاة المهدي جعلت الانجليزيعدلون عن الاتفاق، ويقررون الاستمرار في طريق ترتيب الاوضاع الاستعمارية على النحو الذي يريدون.. فعاد الأفغاني ثانية الى باريس»[(٢)]. فماذا تضمنت هذه المعاهدة، لم يذكر الرواة شيئا عنها، غير أننا علمنا منها أن موت المهدي انهى العمل بهذه المعاهدة. نستنتج من ذلك أن هذه المعاهدة كانت في عمل يتعلق بشخص المهدي، لا ثورته أو دعوته.

فلربما تكون المعاهدة للتفاهم مع المهدي أو التخلص منه. فلو كانت الاولى لما كان هناك حرج من نشر المعاهدة، فلم يبق أمامنا الا الثانية، علما بأن جمال الدين الأفغاني معروف بتخطيط المؤامرات وحبك الاغتيالات.

ويبدو أن المخطط وضعه جمال الدين بنفسه بالاتفاق مع الانجليز

---

(١) الأعمال الكاملة ٣٨.

(٢) المرجع نفسه ٣٨.

لاغتيال المهدي، لأن جمال الدين كان له جهاز سري في السودان وهو فرع عن العروة الوثقى، كما انه تابع للحركة الماسونية الممتدة الى السودان وغيرها، ولذا فضل الانجليز بعد موت المهدي أن يعملوا منفردين على النحو الذي يريدون.

ثم لا ننسى أن محمداحمد المهدي كان تلميذا للأفغاني ـ كما يقولون ـ تلقى عنه في مصر أربع سنوات الارشاد والفكر، وكان من أعضاء جمعية العروة الوثقى السرية التي كانت السودان أحد فروعها ـ كما سبق ـ (١). فان صحت هذه الرواية، فان المهدي قد خرج على جمال الدين وفارق تعاليمه.

وقد حفظ الشيخ محمد رشيد رضا عددا كبيرا من الرسائل التي تداولها محمد عبده مع أعضاء هذه الجمعية، وهي مملوءة بالاشارات والرموز، وبعض هذه الاشارات تدل على أن محمد عبده قد دخل سرا الى مصر استعدادا لدخوله السودان والاتصال بالمهدي، (٢). وهنا علينا أن نتساءل لماذا دخل محمد عبده سرا، مع أنه في مهمة رسمية من قبل الانجليز الذين يسيطرون على مصر؟ ثم هل صحيح أنه ذهب للاتصال بالمهدي؟ فلو كان كذلك فلا يحتاج الأمر لهذه السرية، اذ أنه ذاهب للتفاهم مع رجل الثورة، ومحمد عبده من أصدقاء المهدي. فالأمرفيه شيء من الغموض.

ويظهر من اختلاف الزمن التي ذكره عمارة مع الزمن الذي ذكره غيره ما يدل على أن المعاهدة سبقت التنفيذ بسنتين، فالمعاهدة كانت في عام ١٨٨٣م في حين كان التنفيذ عام ١٨٨٥ م وفيها توفى المهدي وانحلت المعاهدة.

ثم ان المعاهدة تقول بأنه اتفق مع الانجليز من أجل مصر والسودان في حين أن الروايات الأخرى تشير الى أن الاتفاق والتفاوض

---

(١) الاسلام والحضارة الغربية ٦٥ ـ ٧٨ (الأسد ٦١).
(٢) الاسلام والحضارة ٦٥ ـ ٧٨.

كان من أجل ثورة المهدي. وهذا دليل ثان على أن المعاهدة التي ذكرها عمارة غير التفاوض الذي ذكره غيره.

ولما كانت هذه المعاهدة مدار حديث بين الناس، واثارت الشكوك حول جمال الدين، اراد أن يدافع عن نفسه، فكان دفاعه ينم عن تورطه في هذه المشكلة مع الانجليز اذ يقول: «لقد اتفق لي فيها أن انجلترا ارادت أن أكون في الوفد الذي عزمت على ايفاده الى الثائر في السودان، بقصد مذاكرته في أمر الصلح، وكانت ثورته الشغل الشاغل لانكلترا في ذلك الحين... وقد سررت في نفسي من هذه الرحلة الى السودان، لما أنه انفتح أمام عيني الطريق الى خدمة المسألة المصرية، ومعالجة أسبابها، وانقاذها من سلطة الانجليز.. لو تم ذلك.. ولكنه لم يتم بسبب موت المهدي»[1].

فالمفهوم من كلام جمال الدين أنه ذهب لابرام الصلح بين المهدي وبين الانجليز فهل هناك نزاع على أمر يمكن التصالح عليه؟ أم أنه استعمار يريد ابتلاع البلاد؟ فهل يريد جمال الدين بهذا الصلح أن يتنازل المهدي عن بلاده، أو جزء منها؟ فما معنى هذا الصلح الذي أوفد من اجله؟ ومهما يكن هذا الصلح فلن يكون في صالح السودان. هل كان السودان هو المعتدي على بريطانيا؟ هل الاحتلال وقع في أرض بريطانية حتى يؤمر بالتراجع صلحا؟ لقد أثبت جمال الدين من كلامه أنه يعمل لصالح الانجليز.

ثم أخذ جمال الدين يضع هالة عظيمة لهذه المهمة التي سيقوم بها، وأنه أراد الذهاب لحل هذه المعضلة بغية الحصول على مكاسب لصالح مصر، فينقذها من الاستعمار البريطاني.

فمن يصدق أن بريطانيا، التي استطاعت أن تضع قدمها في مصر، تتخلى عنها، وهي في نظرها أهم من السودان وغير السودان، وهي مستعدة أن تتخلى عن كثير من مستعمراتها مقابل التحكم في

---

(١) الأعمال الكاملة ٣٨.

الممرات المائية المؤدية إلى الهند، درة التاج البريطاني. ولذا كان كلام جمال الدين الأفغاني ضربا من ضروب الخداع والغش لتغطية مهمته الأصلية التي تورط فيها.

هذا بعض ما توصلنا اليه من مشكلة السودان، وننتقل الآن الى موقف آخر يثير الشبهات حول جمال الدين الأفغاني في وقوفه هذا الموقف المخزي من القضايا الاسلامية ، وهو موقفه من شاه ايران ناصر الدين القاجاري:

عندما اشتد الخلاف بينه وبين شاه ايران ناصر الدين، أخرج من ايران اخراجا قبيحا، كما مر بنا، وهذا الاخراج والخلاف بينه وبين الشاه، جعله يقف موقفا عدائيا غير مشرِّف نحو الشاه، وانهالت عليه الانتقادات من كل جانب حتى أصدقاؤه نقدوه.

يقول الدكتور احمد امين: «وهذه زلةكبيرة من السيد جمال الدين، دعته اليها حدته وحبه للانتقام، اذ كيف جاز له التشهير بحكومة شرقية اسلامية في بلاد أجنبية تتخذ من أقواله حجة للتدخل الذي طالما حاربه في العروة الوثقى»(١).

لقد كانت زلته الكبيرة أنه راح يكتب في الصحف الأجنبية الكافرة، يتهجم على رئيس دولةمسلمة، ويلجأ الى حكومات هذه الدول الكافرة، يستعين بهم للتخلص من الشاه المسلم، هذه هي الزلة الكبرى التي لم يغفرها له احمد امين وغيره من المعجبين به.

والذي يعنينا هنا، هو الالتجاء الى بريطانيا، والتوسط لدى حكومتها في اسقاط الشاه وسعى في ذلك بقلمه ولسانه (٢).

حتى أن الدكتور محمود قاسم جعل هذا الموقف نقطة سوداء في سجل جمال الدين الأفغاني اذ يقول: « وربما كان مسلكه في انجلترا نقطة

---

(١) زعماء الاصلاح في العصر الحديث ٩٩.
(٢) اعلام واصحاب اقلام ١١٢.

سوداء في تاريخ حياته، فانه لجأ الى اعدائه وأعداء الشرق يلتمس عونهم للثأر لنفسه»[١].

هذا الموقف من جمال الدين، عـدّة أصدقاؤه نقطة سوداء أو زلة كبرى أما أعداؤه وخصومه فقد جعلوا هذا الموقف دليلا على انحيازه للانجليز وعمالته لهم، وأنهم أعوانه في السراء والضراء، فكما أنه يقف حيال مشاكلهم المستعصية موقف المنقذ، كما سبق أن ذكرنا في موقفه من مشكلة السودان، فكذلك يطلب منهم الوقوف معه في مشكلته مع شاه ايران.

فهذا التعاون المتبادل في السراء والضراء، ينم عن وجود ارتباط وثيق بينهما من وراء الأستار، قد تكون بسبب الانتهاء الى منظمات سرية تعمل من مبدأ الماسون الذي يقول: « الماسوني أخو الماسوني».

وموقف آخر وقفه في الآستانة سجل عليه كدليـل على عـلاقته بالانجليز، فقد مرت عليه مواقف عصيبة في تركيا مع السلطان عبد الحميد حتى أصبح في ضيق شديد فالتجأ الى الانجليز يلتمس منهم العون للخلاص من السلطان عبد الحميد فأرسل جمال الدين الى (فيس موريس) مستشار سفارة انجلترا يلتمس منه ايصاله الى باخرة يخرج بها من الآستانة ، فحضر (فيس موريس) اليه، وتعهد له بما طلب، واذ ذاك بلغ السلطان الخبر، فأرسل اليه احد حجابه يستعطف خاطره باسم الاسلام ان لا يعمل ما يمس كرامة الخليفة الى هذا الحد، ولا يلتمس حماية أجنبية .[٢].

لذا كان الدكتور محمد محمد حسين يرتاب في أمره، ويستغرب هذه الصلة الوثيقة بين جمال الدين والانجليز فيتساءل: « فيم كانت صلته بانجلترا، ويلجـأ الى سفيرها في الآستانة لكي يساعده على الخروج من تركيا حين غضب عليه السلطان عبد الحميد؟ وباسم من كان يفاوض

---

(١) جمال الدين ــ محمود قاسم ٧٧.
(٢) حاضر العالم الاسلامي ٢٩٦ / ٢.

الانجليز في الوصول الى اتفاق مع تركيا ضد روسيا؟ (وسيأتي معنا تفصيل ذلك في الفقرة الآتية). ومع المهدي للاعتراف باستقلال السودان؟»[٢].

وعلى ما يظهر أن صداقته للانجليز قديمة جدا ترجع الى ذاك الزمان الذي خرج فيه من بلاده، فارتحل عن طريق الهند الى القطر المصري على نفقة الحكومة الانجليزية، ومنه الى عاصمة تركيا»[٣].

فلماذا تنفق بريطانيا بالذات عليه؟، وهو ذاك العالم المسلم على حسب الظاهر، ثم لماذا أرسل الى الهند أولا، وهي في ذلك الحين مستعمرة بريطانية، ثم لماذا يسافر الى مركز الخلافة الاسلامية، وعلى نفقة الدولة البريطانية؟.

علاقة جمال الدين بالروس:

ظل الأفغاني يتردد في أوروبا ما بين باريس ولندن حتى منتصف عام ١٣٠٣ هـ /١٨٨٣م حيث عزم التوجه الى الشرق والى شبه الجزيرة العربية بالذات على أمل أن يسعى الى اقامة خلافة اسلامية عصرية في منطقة بعيدة ومؤهلة للاستقلال عن الأتراك [٣]. لكن الشاه ناصر الدين دعاه الى طهران ووعده خيرا فرحل الى طهران ، وسرعان ما اختلف مع الشاه فاستأذن بالرحيل عنها، فرحل الى روسيا[٤].

كانت رحلته الى روسيا وطول بقائه فيها مكان استغراب كثيرين من الكتاب منهم الأستاذ محمود عوض، فقال: « لقد كان اختيارا غريبا من الأفغاني أن يسافر الى روسيا...، وأقام فيها ثلاث سنوات كاملة»[٦].

(١) الاسلام والحضارة الغربية ٦٩ ــ ٨٣.
(٢) تاريخ الصحافة العربية: طرازي ٢٩٤ / ٢.
(٣) الأعمال الكاملة ٤٠.
(٤) الأعمال الكاملة ٤١.
(٥) محمود عوض ١٤. (جمال الدين الأفغاني).

ذكرت في المقدمة رحلة جمال الدين الى روسيا باختصار، ونعود مرة ثانية للتحدث عن هذه الرحلة، التي دار حولها نقاش حاد عند مترجميه.

وعلى كل حال فأغلب الروايات تدل على أنه ذهب لمهمة سرية، ولم يستطع أحد أن يحدد هذه المهمة، لماذا؟ لأن معظم الذين كتبوا عنه ينسون أنه كان من أعضاء جمعية الماسون، وأنه لا يتحرك الا بأوامرها.

وكلنا يعرف جيدا أن روسيا انقلبت بعد حين الى دولة شيوعية ملحدة، وكلنا يعلم أيضا أن اليهود والصهيونية العالمية كانت وراء هذا الانقلاب، ولا حاجة للاستدلال على هذه الحقائق، ونعلم كذلك أن اليهود وراء الماسونية فلا فرق بين مخططات الصهيونية ومخططات الماسونية، لأنهما مؤسسة واحدة.

جمال الدين زار روسيا مزودا بتعليمات يجب تنفيذها، لذا نجد بعض التصريحات التي صرح بها أمام تلاميذه، وخاصة الايرانيين منهم، ما يدل على أن القضاء على القيصرية باتت وشيكة الوقوع، عرف ذلك من الجمعية التي أولاها زمام امره وهي الماسونية فقد قال بصراحة لمن حوله: «لنصلين صلاة الجنازة قريبا على القيصر والقيصرية»[1].

وأكثر من هذا فان الروايات تقول بأنه بعد مغادرة روسيا، لم يلبث أن اشترك في مؤامرة خلع القيصر، وارسل من ميونخ الى المانيا رسالة سرية يحملها «عبدالرشيد ابراهيم» التتاري الى عم القيصر وزعيم المؤامرة[2].

ومع ذلك لم تذكر الروايات كيف اشترك في هذه المؤامرة، وانا أقول، اشترك في هذه المؤامرة بأن أرسل الى الايرانيين، وخاصة منهم الذين دخلوا في الماسونية معه، يأمرهم بالتعاون مع زعماء الانقلاب وعلى رأسهم عم القيصر.

---

(١) أعلام وأصحاب أقلام ١١٨.

(٢) أعلام وأصحاب أقلام ١١٨.

ومن طبيعة الشيوعيين أن يعملوا من وراء الستار، وقد يكونوا وضعوا عم القيصر واجهة اذا ما انتصروا ظهروا بوجههم الحقيقي وقضوا على الواجهة.

ثم لماذا كانت الرسالة موجهة من ميونخ، احدىأكبر مدن ألمانيا؟، السر في ذلك أن الدعوة الشيوعية بدأت في المانيا، فقد ولد كارل ماركس في المانيا عام ١٨١٨، ثم نشأ وترعرع فيها (١).

ويؤيد هذا الرأي أحد تلاميذه المعجبين به، والذين ساروا على خطاه، انه محمود ابو ريه ، اذ يقول: « ومن جهاد السيد ـ أي الأفغاني ـ ضد القيصرية أنه كان متصلا بحركة التحرير التي كانت ضد القيصرية. وفي مرة حمل تلميذه عبد الرشيد التتاري تقريرا منه الى جمعية سياسية سرية في عاصمة روسيا، ورئيسها عم القيصر وقال له: « اذهب بهذه الرسالة واوصلها الى الفرندوق فلان، واعلم أنك اما أن تقتل، واما أن تفوز وتغنم.

فأوصلها الشيخ عبد الرشيد، فقام لها الفرندوق وقعد، ثم أعاده بها الى بلاده اليونان ليطبعها باللغة الروسية، ويرسلها اليه، وعرض عليه من المال ما يشاء فلم يأخذ الا القدر الضروري، ولقي أهوالا كادت تذهب بحياته»(٢).

فهذا دليل قاطع على أن جمال الدين لم يزل في الماسونية حتى هذا التاريخ، وانه كان يتصل بجماعته الايرانيين المنتسبين الى الماسونية، وكانوا عونا لليهود في احداث الثورة الشيوعية الملحدة في روسيا، ولذا نجد محمود أبو ريه يعتبر انتصار الشيوعية في روسيا من حسنات جمال الدين الأفغاني، ومن جهاده المقدس اذ يقول:

«وقد علمت من قبل ما قاله للشيخ عبد الرشيد، من أنه سيصلي صلاة الجنازة على القيصرية الروسية، وسيحضر تشييع جنازة

---

(١) هذه هي الاشتراكية ١٤.

(٢) جمال الدين: أبو ريه ٣٢.

الامبراطورية الانجليزية في الهند، وقد تمت البشارة الأولى في سنة ١٩١٧ بالقضاء على القيصرية، وتمت البشارة الثانية في سنة ١٩٤٧ بخروج الانجليز من الهند»(١).

لقد استبشر أبو ريه بانتصار الشيوعية الملحدة على القيصرية التي تدين بدين سماوي. فأين هو من قوله تعالى: « غلبت الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله»(٢).

فالمؤمن يفرح ويستبشر عندما ينتصر الكتابي على عابد الوثن، فما بال الشيخ محمود أبو ريه يفرح بنصر الملحد على الكتابي؟ انه الحب الأعمى.

وسيأتي معنا ـ عند دراسة رأيه في الاشتراكية ـ كيف ان الدكتور محمد عمارة ظن أن جمال الدين الأفغاني غير رأيه في الاشتراكية، فبعد أن كان يهاجمها عندما كان في الهند، راح يمدحها ويثني عليها، بعد أن صار في أوروبا، بل ان جمال الدين يرى أن الاشتراكية لا بد أن تعم العالم(٣).

فالأفغاني في روسيا، حسب هذا الرأي، يعمل ضمن مخطط مرسوم من قبل اليهود، المتمثل بالماسونية العالمية.

نعود ثانية الى رحلة جمال الدين الى روسيا وأهدافها، لنرى الأقوال المتفرقة حولها. كانت احدى رحلاته الكثيرة والمستمرة رحلته الى روسيا، وليس من المستغرب على جمال الدين زيارة تلك البلاد ولو أنها كافرة، فقد زار دولا كافرة كثيرة أمثال بريطانيا وفرنسا، كما أن تلك الدول كانت معادية للدولة الاسلامية، فقد كان انتقاله من بلد الى بلد، ومن دولة الى أخرى، مدعاة للدهشة والتساؤل، فقد كان يتنقل بشكل يدل على أنه يسير ضمن مخطط مرسوم لا يحيد عنه، وقد يمكث في مكان مدة

---

(١) المرجع نفسه ٣٢.
(٢) سورة الروم آيات: ١ ـ ٤.
(٣) الأعمال الكاملة ١٠٨.

طويلة ولا يعرف ماذا فعل فيها، وأحيانا تقصر مدة مكثه ويحصى عليه الأعمال الكثيرة، فما هو السر في ذلك؟ ولم هذا التنقل ؟ الله أعلم به.

يهمنا هنا أن نعرف أن جمال الدين الأفغاني مكث في روسيا القيصرية مدة أربع سنوات(٢). وفي قول إنها ثلاث سنوات »(٣).

وعلى فرض أنها ثلاث سنوات، فليست مدة يسيرة ليستهان بها، في حين أنه لم يمكث في بلاد الحجاز، عندما زارها، سوى أيام معدودة في عام ١٨٥٧/١٢٧٤ وكان عمره عشرين سنة، يقال انه أدى فريضة الحج، ثم غادرها ولم يعد اليها حتى مات.

وأغرب من هذا أنه كان يدعو لأن يكون خليفة المسلمين من العرب، وأن يكون الخليفة الشريف حسين والي مكة المكرمة في تلك الأيام، ومع ذلك لم يزره ولم يتعرف عليه، وانما كان يقول ما يملى عليه.

ماذا فعل جمال الدين في روسيا؟ــ ذكرت رأيا واحدا والآن نذكر الآراء الباقية.

لو ستعرضنا الروايات الأخرى التي تذكر هذه الزيارة، لوجدنا فيها اختلافا كثيرا، فالأتباع والمعجبون به يقولون بأنه ذهب ليدعو الناس هناك الى الاسلام، ولتوزيع المصاحف على المسلمين ولزيارة المساجد والتعرف على الفئات الاسلامية وغير ذلك مما ينسجه خيالهم ولا يستند الى رواية صحيحة منقولة نقلا صحيحا عن الثقات.

يقول الدكتور عمارة: « رحل الى موسكو، سعيا وراء تنسيق جهود حركته الاسلامية مع جهود القيصرية الروسية. . »(٣).

وبعضهم يدعي بأن جمال الدين انما ذهب الى روسيا لعمل سياسي يخص العالم الاسلامي، فلنسمع الى الدكتور عمارة يحدثنا عن هذه الدعوة فيقول: « وفي طريق الأفغاني من ميونخ الى طهران ذهب الى

---

(١) الأعلام للزكلي ٣/٣٧.
(٢) زعماء الاصلاح ٩٥.
(٣) الأعمال الكاملة ٤١.

موسكو، للوساطة بين الروس وبين الشاه ولتوحيد الموقف ضد الانجليز. .»[1].

ولكن الحقيقة الخفية التي ذهب من أجلها الى روسيا، ومكث هذه المدة الطويلة يعمل من أجلها ، لم يكشف عنها النقاب بشكل واضح.

واذا أردنا رفع اليأس عنا من الوصول الى الحقيقة، نقول بأنه يوجد هناك نقاط هامة في الموضوع كشف عنها، يمكن البناء عليها لنصل الى الحقيقة نوعاً ما، ويتبين لنا سلفا ان رحلته كانت سياسية. ـ كما قالوا ـ لا دينية، وقد ذكرت طرفا منها. يقول المستشرق جولد سيهر: « لم يجد جمال الدين بدا من الرحيل من فارس متذرعا باعتلال صحته، فذهب إلى روسيا، وهناك دخل أيضا في مفاوضات سياسية»[2].

ولكن ما هي هذه المفاوضات السياسية؟ هذا ما لم تتعرض له هذه الرواية. ونستطيع أن نفهم من هذه الرواية أن جمال الدين في مهمة سرية للغاية، قد تكشف عنها الوثائق السرية في المستقبل. وعلى رأي الدكتور علي الوردي أنه لا يستبعد أن تكون هذه الرحلة للعمل على تقسيم أفغانستان بين ايران ورسيا، فقد كانت أفغانستان في تلك الأيام تمر بفترة عصيبة من الفوضى والتنازع على الحكم، وكان التنافس على النفوذ فيها شديد بين بريطانيا وروسيا، وكانت ايران تساهم في هذا التنافس، اذ كانت تقف الى جانب روسيا ضد بريطانيا[3].

والذي يقوّي هذا الرأي ، أن جمال الدين الأفغاني ، كان يتنقل على نفقة الدولة الايرانية[4]. كما أن غالبية مرافقيه في هذه الرحلة كانوا ايرانيين.[5].

---

(١) الأعمال الكاملة ٤١.
(٢) دائرة المعارف الاسلامية ٩٨ / ٣.
(٣) لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث ٢٧٢ / ٣.
(٤) الأسد آبادي ١٨٦. (جمال الدين الأسد آبادي).
(٥) الأسد آبادي ١٨٣. (جمال الدين الأسد آبادي).
(٦) الأسد آبادي ١٨٣.

وقد سبق لجمال الدين أن دخل بلاد الأفغان، واشترك في نزاعاتهم السياسية، فانحاز الى جانب أحد أمرائها الميالين لروسيا، يقول الدكتور الوردي: « وعند وصول الأفغاني الى أفغانستان كان هناك نزاع عنيف بين أميرين من أمرائها وهما (شير علي خان) الموالي لبريطانيا، وأخوه (محمد أعظم خان) الموالي لايران وروسيا»(١). هذه الرواية توضح لنا موقف ايران من الأمير محمد أعظم خان، وهو الموقف نفسه الذي كانت تقفه روسيا، أي أن ايران وروسيا كانتا طرفا في هذا النزاع، ولكن أين كان موقع جمال الدين من هذا النزاع؟ يتابع الدكتور الوردي حديثه فيقول: « مهما يكن الحال، فقد استطاع الأفغاني ـ حسبما ذكر هو عن نفسه ـ ان يدخل في حاشية الأمير محمد أعظم خان، وهو عم (عبد الرحمن خان)، ثم ارتفعت منزلته عند هذا الأمير، حتى أحله محل الوزير الأول، وعظمت ثقة الأمير به فكان يلجأ لرأيه في عظائم الأمور وما دونها»(٢). ونتيجة هذا النزاع خسران الجانب الايراني وفرار الأمير محمد الى دولة تحميه، ألا وهي ايران، وهناك طبعا بدأ يعمل ليعود الى أفغانستان (٣).

أما جمال الدين الأفغاني، فماذا حل به؟

على حسب رواية الوردي، أن جمال الدين الأفغاني بعد فشل تجربته في أفغانستان، اراد مغادرة أفغانستان، رغم أنه في قبضة عدوه، سمح له بمغادرتها ولكن على شرط أن لا يذهب الى ايران، لئلا يلتحق بالأمير محمد المهزوم (٤).

بعد هذه اللمحة الوجيزة عن تاريخ علاقته بأفغانستان، التي قيل انما ذهب جمال الدين الى روسيا للتفاوض على اقتسامها بين ايران ورسيا، نعود الى الدكتور علي الوردي ليحدثنا عن رأيه في زيارة جمال الدين لروسيا الطويلة فيقول: « غادر الأفغاني بريطانيا عن طريق البحر،

---

(١) لمحات.. (٢٧٢ / ٣).

(٢) لمحات ٢٧٢ / ٣. (لمحات اجتماعية).

(٣) لمحات ٢٧٢ / ٣. (لمحات اجتماعية).

(٤) لمحات ٢٧٢ / ٣. (لمحات اجتماعية).

فوصل الى بوش في ٢٠ آيار ١٨٨٦م، وبعد أن مكث أياما سافر الى أصفهان.

وكان الحاكم العام في أصفهان يومذاك الأمير سعود مرزا ابن الشاه ناصر الدين وهو الملقب بـ (ظل السلطان)، والمعروف عن هذا الأمير، أنه كان شديد الطموح ، يتوق للعرش، وقد كون لنفسه جيشا خاصا به، وجمع حوله الأنصار والدعاة.

وحين وصل الأفغاني الى أصفهان، أبرق الأمير سعود مرزا الى طهران راجيا السماح للأفغاني بالبقاء في ضيافته برهة من الزمن، وقد مكث الأفغاني في أصفهان شهرا ونصف شهر وجرت بينه وبين الأمير، محادثات لا نعرف عنها شيئا، غير أننا نعرف أن الأمير تعهد للأفغاني بجميع نفقات سفرته المقبلة الى روسيا»[١].

هذه الرواية تكشف بعض الشيء عن مهمته في رحلته الى روسيا، ولو أردنا الجمع بينها وبين رواية الدكتور عمارة، الذي يقول بأن رحلة جمال الدين كانت لطلب النصرة منها على بريطانيا، عدوة العالم الاسلامي المتمثل بالخلافة العثمانية، نجد هناك سرا دفينا في هذه العلاقة.

فنحن نعلم أن عداوة جمال الدين لبريطانيا كانت منذ أن ترك محفلها الماسوني وانحيازه الى المحافل التابعة لفرنسا، ولذا انحصر العمل في روسيا على ربط ايران بها، وعلى تثبيت العداء لبريطانيا، وخاصة أن ايران كانت في ذلك الحين واقعة تحت تقاسم نفوذ مشترك ما بين روسيا وبريطانيا، فانجلترا تحاول السيطرة على الجنوب، وروسيا القيصرية كانت تحاول السيطرة على الشرق والشمال [٢].

والظاهر أن رحلته الى روسيا كانت على مرحلتين، فان جمال الدين بعد أن أمضى تلك المدة الطويلة في روسيا تركها ورحل الى المانيا،

---

(١) لمحات ٢٩٠ / ٣.

(٢) الأعمال الكاملة ٥٥.

وهناك التقى ثانية بشاه ايران ناصر الدين، بعد لقائه الأول الذي جرى في روسيا، وبعد مداولات ومباحثات مع الشاه في العودة الى الوطن، رضي جمال الدين العودة الى ايران ليعمل رئيسا للوزارة فيها، وهذا ما حصل بعد محادثته السرية مع حاكم أصفهان، فذهب الى موسكو عاصمة الروس وهناك عمل وسيطا ـ كما يقول الدكتور عمارة ـ بين الشاه والروس لتوحيد الموقف ضد الانجليز، وهناك احرزت مهمته نجاحا ملحوظا بعد مباحثات مع رجال الدولةالتي استمرت شهرين، كما كانت القيصرة (زوجة القيصر) من جملةالمتباحثين مع جمال الدين ولكن على انفراد [١].

وهذه الرواية التي يرويها الدكتور عمارة، لم يذكر فيها ما هي هذه المهمة التي قام بها، والتي صادفت نجاحا ملحوظاً، سوى أنها وساطة. فوساطته في أي شيء؟ هذا ما لم يتعرض له.

في موضع آخر من كتاب الدكتور عمارة، نجد رواية ثالثة توضح نوعا ما مهمة جمال الدين، وتبين أنه ذهب ليبرم مع الروس معاهدة اقتسام الهند بين الروس وايران والأفغان ، ويعتبر الدكتور عمارة أن هذا العمل كان زلة من جمال الدين يعاب عليها.

يقول الدكتور عمارة: « واذا كانت هذه هي القدسية التي بلغتها قيادة الأفغاني في المعركة ضد الاستعمار، واذا كانت هذه النظرة، وذلك التقديم، انما جاء ثمرة للنظرة الموضوعية والمنهج العلمي، انما يتطلبان أن نشير الى نقطة ضعف خطيرة وهامة في موقف الأفغاني من الاستعمار.

فالرجل وهو يحارب الاستعمار الانجليزي ويصارع أخطبوط نفوذه وقواه وعملاءه، انما كان يلتمس العون من كل الذين تتناقض مصالحهم مع مصالح الانجليز، ويمد يده لكل الذين بينهم وبين بريطانيا أي قدر من الخلاف أو المنازعات، ويرمي خيط التعاون، ويحاول اقامة الجبهات مع كل أعداء الانجليز، وخلال هذه العملية الصعبة والمعقدة والشائكة

---

(١) الأعمال الكاملة ٤١.

وغير المأمونة العواقب، أحسن جمال الدين الظن يوماً بالقيصرية الروسية، بل وعرض عليها الشركة في استعمار الهند، واقتسام غنائم هذا الاستعمار لهذه البلاد بين روسيا ومسلمي الفرس، والأفغان، فهو يقول ان (الروس في حاجة للمواصلة مع أمراء الهند، وفي ضرورة الوقوف على أخلاقهم، ومجاري ميلهم، ومواقع أهوائهم، ولا سبيل يوصلهم الى ذلك الا اشراك الفارسيين والأفغانيين في أعمالهم الحربية والسلمية. ليس من السهل على الروسية (هكذا) أن تستعين بدولة فارس وامارة الأفغان على فتح أبواب الهند، الا أن تساهم في الغنيمة وتشركها في المنفعة ، والا كانا سداً محكماً دون أهم غاياتها »[1] .

وبعد أن يعرض الدكتور عمارة هذه الفكرة التي جالت في ذهن جمال الدين وأفصح بها في الصحف، والتي كان يتفاوض في روسيا لأجلها خلال هذه السنوات الطويلة، يعود الدكتور عمارة فينقدها ويعدها كبوة من كبوات جمال الدين فيقول:

«هذه زلة قدم، لا شك، من الرجل. وكبوة فكر من المناضل الذي أجاد فهم الاستعمار ومراميه، وأدرك مضمونه الاقتصادي والفكري. ولكنها تعقيدات التحالفات والجبهات، وقسوة المعركة، وأساليب السياسة الدولية، هي التي أوقعت الرجل في هذا المأزق، وجعلت من هذا الموقف نقطة الضعف الكبرى في سلسلة حياته النضالية ضد الاستعمار[2]».

ومع هذا نقول للدكتور عمارة، حفظه الله، لقد استطعت أن تكشف شيئاً خطيراً في ميل جمال الدين إلى التحالفات مع الدول الكافرة، ضد الدول الإسلامية، ولكن لماذا لم يقع ميل جمال الدين إلى التحالفات إلا على روسيا، وهناك وثائق ـ ذكرنا بعضها ـ وروايات صحيحة تشير إلى علاقة جمال الدين بدول كافرة أخرى مثل بريطانيا وفرنسا، فلماذا سكت عنها، إن الأمر أعمق مما يتصور الدكتور عمارة،

---

(١) الأعمال الكاملة ٥٩ ـ وكلام الأفغاني منقول من العروة الوثقى ٢١٥.

(٢) الأعمال ٥٩. (الأعمال الكاملة).

فجمال الدين يعمل ضمن مخطط رسمته الماسونية العالمية، فهي تقول له تحالف مع دولة كذا، وصادق دولة كذا، فهو منفذ وليس بمخطط حتى نعتبر هذه العملية زلة كبرى منه.

والذي يتبين لي من إرادة جمال الدين هذه الشركة بين هذه الدول لاقتسام الهند، والتي عرضت على الروس قبل دخوله ايران بقليل، هو أن جمال الدين اتفق مع أمير أصفهان، الذي زاره قبل دخوله طهران، على عمل انقلاب في ايران ضد الشاه، على أن تساعدهما روسيا في دعم هذا الانقلاب.

فلو رجعنا إلى الوراء قليلاً لتبين لنا أن جمال الدين زار روسيا مرتين لا مرة واحدة، فالمرة الأولى كانت بعد مغادرته أوروبا وقد طال بقاؤه ما يقارب الثلاث سنين ونصف، ثم غادرها واتصل بشاه ايران واتفق معه على العودة إلى الوطن، فزار أصفهان ومنها ذهب إلى طهران، ذهب بعد ذلك إلى روسيا ثانية لابرام معاهدة سرية مجهولة، كشف بعضها الدكتور عمارة، وبعضها الدكتور الوردي.

وتذكر الروايات أن جمال الدين كان له صديق روسي يعمل في الصحافة واسمه كاتكوف، وقد بدأت صداقته له ابان اقامته في باريس، وكان هذا الصحافي من أصدقاء الامبراطور الحميمين[1]، ومن يدري فلعله كان تابعاً للماسونية الفرنسية وإلا كيف تم له اللقاء به في عاصمة فرنسا، والتي ينتسب جمال الدين إلى ماسونيتها، لأن الروايات تذكر أن جمال الدين اتفق معه على مشروع عمل لم يذكر نوعه، وكان ينوي جمال الدين إبرامه في روسيا، ولكن المنية عاجلت كاتكوف حين وصل جمال الدين إلى روسيا، فاضطر للعمل بالمشروع بمفرده[2].

ويؤيد هذه الصداقة الدكتور عمارة فيقول: «وفي موسكو التقى بصديقه الروسي، الذي كان قد تعرف به في باريس، المسيو كاتكوف،

---

(١) جمال الدين الأسد آبادي ١٨٦.

(٢) جمال الدين الأسد آبادي ١٨٧.

مدير جريدة موسكو. . [1]» هذا اللقاء جرى في رحلته الأولى، أما رحلته الثانية فيحدثنا عنها الكاتب سعيد الأفغاني إذ يقول: «ارتحل جمال الدين من ايران إلى روسيا في سنة ١٨٨٦م، فلما نزل عاصمتها بطرسبورج أكرمه القيصر، وقد مال الأفغاني إلى الذهاب إلى روسيا لأنه ظن أنه يمكن أن يحطم مشروعات الاستعمار الانجليزي في الشرق، لو وقفت روسيا إلى جانبه، لأجل ذلك أخذ يكتب مقالات في الصحف، عرض فيها لبيان الاتجاهات السياسية في بلاد أفغانستان وفارس والدولة العثمانية»[2] ثم يتابع كلامه عن هذه الرحلة وأن جمال الدين عرض على الروس الحرب ضد الانجليز، ولكن الروس رفضوا هذه الحرب، لأنهم كانوا قد انتهوا لتوهم من حربهم مع العثمانيين، ولا بد لهم من مدة حتى يستعدوا لحرب ثانية.

أنا أستبعد هذا العرض من ناحية، وأؤيده إذا كان العرض في مجابهة الانجليز في الهند حتى تأتي الروايات متلاحمة، أما أن تقوم حرب بين الروس والانجليز في أوروبا مثلاً فهذا بعيد كل البعد.

هذا فيما يتعلق بالمعاهدة التي ذكرناها، أما أعمال جمال الدين في روسيا فيحدثنا عنها حسين خان عدالت ويقول: «قدم السيد جمال الدين سنة ١٣٠٤هـ إلى بطرسبورج (لبينجراد) وكان غالبية الايرانيين يزورونه، لما له من الشهرة، وتعرفت به أثناء زيارتي له، وسرعان ما تحولت تلك المعرفة إلى صداقة قوية.

ولعل السبب المهم الذي جعله يرغب في صداقتي، هو أن السيد كان شديد الميل إلى أن لا يتدخل الآخرون في سلوكه ومقاصده، وأما أنا فقد كنت أسير حسب رغبته، وفضلاً عن ذلك فإنه لم يكن يعرف اللغة الروسية، وكان في حاجة إلى من يترجم له، فكنت أقضي كل أوقات فراغي في حضرته.

وبلغ انسجامه معي إلى درجة أنه كان يشرح لي كل أفكاره

---

(١) (الأعمال الكاملة) ٤١.

(٢) جمال الدين ـ سعيد الأفغاني ٧٤. (نابغة الشرق).

وعقائده وأهدافه. وإن كل ما سأذكره فيما يأتي صورة صادقة لما قاله لي السيد نفسه.

هذا وقد دون البروفسور «براون» جزءاً من تاريخ حياته، والحق أن أكثره يطابق الواقع، وغير قابل للشك، وهذا ما عدا القسم الخاص بسفره إلى ايران وروسيا.

ولذلك فأنا أبادر بشرح القسم المذكور..[1]».

وبعد هذه المقدمة، أخذ يذكر ما حصل لجمال الدين في ايران ثم خروجه منها إلى باريس ثم دخوله روسيا، كما ذكرنا تماماً في سيرته، فمن أراد التذكر فليرجع إليها.

ومن خلال ذلك يذكر التقاء جمال الدين بالكاتب الروسي كاتكوف وحصول الصداقة بينهما، ثم يقول: «فكان السيد في هذه الظروف يعمل على تهيئة الوسائل لإثارة الحرب بين الروس والانجليز، حتى تتهيأ الفرصة للقيام بمهمته، ولكن الروس كانوا غير راغبين في خوض معركة أخرى...[2]».

هذا ما ظهر لجميع الرواة الذين نقلوا خبر زيارته لروسيا، وخبر المعاهدة وأنها كانت لحرب الانجليز ولاقتسام الهند، ولكن هناك معاهدة سرية كانت ستبرم، أكثر الرواة نوهوا عنها، وبعضهم ذكر ملامحها.

ففي روسيا ـ كما يذكر الدكتور أحمد أمين ـ استقبله رجال الحكم وكبار الضباط وتباحث معهم في هذا الأمر السري الذي جاء من أجله، والذي قيل عنه إنه مسألة الهند، وقد أراد أن يتفاوض مع الأمبراطور بصورة علنية، ولكن الأمبراطور رفض هذه المفاوضات العلنية، وأبى إلا أن تكون سرية[3].

---

(١) جمال الدين الأسد آبادي ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٢) (جمال الدين الأسد آبادي) ١٨٨.

(٣) زعماء الاصلاح ١٨٨.

فحسب كلام أحمد أمين، فإن جمال الدين لم يتفاوض مع القيصر في شيء، ولا أظن أن جمال الدين يفضل المباحثات العلنية وهو قادم بمهمة سرية، وحتى لو كان الأمر يتعلق باقتسام الهند، فليس من المعقول أن يفضح الأمر، وكأن الدكتور أحمد أمين أراد تنزيه جمال الدين عن الأعمال السرية التي تجري في الخفاء، وأنه رجل سره كجهره، وغابت عنه أعماله السرية التي أمضى حياته كلها فيها.

والظاهر أن جمال الدين أصر على أن تكون بعض المباحثات علنية وبعضها سرية، فما ينشر للعامة سيكون الجانب الحسن، وهو الذي لا يعمل به، وما يكون في السر فسيبقى في الخفاء وهو الذي يعمل به.

ولذا نجد كثيرين يشيدون بموقفه من القيصر وأنه جاء لينصر القضية الاسلامية وأنه جاء ليحارب الانجليز التي كانت تطمع في المزيد من الاحتلال.

ومن جهة أخرى يظهر للشاه أنه كان يعمل لايران ومصالحها ويريد تخليص ايران من النفوذ البريطاني.

والذي يعزز هذا الرأي أن الروايات التي تذكر إخفاقه في التفاوض مع القيصر في زيارته الأولى لروسيا، تقول بأنه أحرز بعض النجاح في زيارته الثانية، التي كانت بعد مقابلة الشاه في طهران، ومقابلة أمير أصفهان، الذي كان يميل إلى روسيا.

نخلص إلى القول بأن جمال الدين، في الزيارة الأولى الطويلة، كان يجري المباحثات السرية بنفسه ومن خلال مخطط بعث إلى روسيا من أجله، لا علاقة للشاه به، قد يكون للعمل على تقسيم الهند أو لعمل ثوري في ايران تكون عاقبته الإطاحة بالشاه الممثل الشرعي لايران.

ولو رجعنا إلى الوراء قليلاً، لنرى نيات روسيا في بلاد الاسلام عامة، وايران خاصة لوجدنا تاريخها مليئاً بالمؤامرات والمكائد لالتهام ايران، البلد المجاور لها.

وهنا لا بد لنا أن نرجع إلى ملف جمال الدين الأفغاني، وصلاته

المباشرة والبعيدة لتكشف لنا حقيقة الزيـارة الأولى التي دامت ثلاث سنوات أو أكثر.

فهناك رواية تكشف بعض الغوامض عن سر الزيارة، وهي أنه علم باطلاعاته الخاصة من أجهزته السرية ومن خلال صداقته للصحافي الروسي كاتكوف أن القيصر يبحث عن رجل كفء يستطيع أن يشغل ايران عن التفكير في استرجاع مملكة القوقاز التي انتزعت منها بعد حرب مع الدولة الايرانية(١). وكانت القيصرية قد أعدت سابقاً رجلاً روسياً ذهب إلى طهران للمهمة نفسها فتعلم اللغة الفارسية وأتقنها ثم أظهر التدين بالاسلام، وتزي بزي أهل العلم واشتهر باسم الشيخ عيسى ثم جال في عواصم ايران كأصفهان وشيراز فوجد فيها ضالته فاجتمع بالباب الذي هو الميرزا حسين محمد الشيرازي صاحب الدعوة المشهورة، ولقد لعب هذا الجاسوس دوراً كبيراً في ايجاد البابية ثم البهائية(٢).

فالقيصر يبحث عن رجل له صفات العلم وأن يكون ايرانياً أو يتكلم الايرانية على الأقل ليقوم بدعـوة يشغل الحكـومة عن المـطالبة بالقوقاز، ومن يدري أنها رأت الصفات منطبقة على جمال الدين وأرادت التفاوض معه على القيام بهذه المهمة الخطيرة، ويتفق مع المخطط الماسوني العام.

ولم تكتف الحكومة الروسية باعداد تلك المؤامرة السرية الخطيرة ـ وهي إرسال المتسمي بالشيخ عيسى ـ على الأمة الاسلامية بل دفعت الأرمني الروسي (منوجهر خان) لاعلان اسلامه في ايران فغمره الشاه بالفضل وأعطاه ثقته فعينه معتمداً للدولة في أصفهان وكان له دور خطير في توسيع نار الحركة البابية(٣).

وان هذا الدور الذي كانت الحكومة القيصرية تقوم به في الخفاء انكشف أخيراً للحكومة الايرانية عندما تدخلت روسيا عن طريق قنصلها

---

(١) حقيقة البابية ١٢٠.
(٢) حقيقة البابية ١٢٠.
(٣) حقيقة البابية ١٢٥٧

في طهران تدخلاً مباشراً لانقاذ صَنيعتها الميرزا الباب من الاعدام ولكن بعد أن سبق السيف العزل وأعدم الباب[1].

علمًا بأن جماعة الباب هم الذين حاولوا اغتيال الشاه وكانت النكبة التي حلت عليهم وأودعوا في السجون وكان من جملتهم ذاك الرجل الذي قتل الشاه ناصر الدين بايعاز من جمال الدين وقد اجتمعا في سجن واحد في ذلك الحين ــ والله أعلم ــ كما ذكر في حاضر العالم الاسلامي.

وهكذا خلصنا إلى أن روسيا كانت طامعة في ايران وكانت لها سابقة اعتداء على أراضيها وعلى عرش سلطانها، وما كان ذهاب جمال الدين إلى روسيا إلا من أجل ايجاد حل لمشكلة ايران.

ــ كيف نوفق بين علاقته مع بريطانيا وروسيا وهما عدوان:

بعد أن عرضنا مواقف جمال الدين من حكومة بريطانيا وخفاياها، ومن حكومة روسيا وأسرارها، بقي علينا أن نعرف كيف استطاع أن يجمع بين الضدين، وقد حصل هذا وهو في أوروبا، خارجاً من مصر، مطروداً من قبل حاكمها، وكان يتنقل بين باريس ولندن ويعمل على نشر أفكاره في الصحف والمجلات والزيارات والاجتماعات السرية والعلنية، مع المنظمات السرية، ومع الشخصيات البارزة. كل هذا النشاط ما بين عام ١٢٩٦ هـ/ ١٨٧٩م إلى عام ١٣٠٧ هـ/ ١٨٩٠م أي خلال إحدى عشرة سنة.

خلال وجوده في أوروبا رأى الأمور واضحة ورأى السياسة تميل إلى وجوب إنهاء الخلافة الاسلامية المتمثلة في الدولة العثمانية وكانت الماسونية مسيطرة سيطرة فعلية على كافة المرافق في أوروبا بما فيها الاعلام، واتصل جمال الدين بها وكان سابقاً يعمل لها في مصر، كما اتصل بجماعة الاتحاد والترقي واطلع على مبادئها وأهدافها، وأعجب بها

---

(١) حقيقة البابية ١٢٦.

وأثني عليها، وعَلم عِلم اليقين أن الدولة العثمانية زائلة لا محالة، وعلم أيضاً أن زوالها لن يكون إلا على يد إحدى هاتين الدولتين، روسيا أو انجلترا، وكان السلطان عبد الحميد جاداً في البحث عن صيغة لتوحيد المسلمين لمواجهة خطر كل من روسيا وانجلترا[1].

بقي جمال الدين إحدى عشرة سنة يتنقل بين عواصم الاستعمار لندن وباريس وبطرسبرج، ويجتمع مع رجال مشبوهين أمثال بلنت الداعي إلى هدم الخلافة الاسلامية وكاتكوف صاحب جريدة موسكو ولسان حال الدولة، فماذا كان يرجو من هؤلاء غير مصالح دولهم التي يعملون من أجلها، وكان هدفهم الرئيسي اثارة الفتن والثورات في البلاد الاسلامية حتى لا يحقق السلطان عبد الحميد غايته وهي الجامعة الاسلامية للوقوف في وجه الكفار كما قال في مذكراته.

ولذا وجدنا أن الثورة العرابية خدمت بريطانيا وقطعت صلة مصر نهائياً بالدولة العثمانية ثم حركة البابية في ايران التي كانت تهدف إلى فصل ايران نهائياً عن جسم الجامعة الاسلامية.

فكان جمال الدين الأفغاني يعمل مع كل من بريطانيا وروسيا للاجهاز على الخلافة العثمانية وقد صرح بذلك مراراً وتكراراً، فكان في ايران ينادي بالحكم الدستوري، ولما دخل تركيا كان يعمل لاقامة الحكم الدستوري الجمهوري، وما سبب خلافه مع كل من شاه ايران وتوفيق إلا هذه الدعوة.

ووراء الدعوة إلى الدستور وإلى حكومة جمهورية تشجيع دول أوروبا للقضاء على الرجل المريض، وكان أسهل طريق موصل إلى ذلك هو تفريق الأمة الاسلامية بجعلها دولاً مستقلة. فيلتهمونها الواحدة تلو الأخرى.

ثم إننا لو نظرنا إلى مبدأ أمره في مصر نراه دخلها في حماية ورعاية رياض باشا وهو معروف بميله إلى الأجنبي أيا كان نوعه، يقول أحمد أمين

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد ٩.

في رياض باشا إنه كبير التعظيم للأجانب، معتقداً بقوتهم، يرى أنه لا يستطيع الحكم إلا بالاعتماد عليهم أو على أقوالهم، لا يرى بأساً من إغضاب الخديوي وإغضاب الأمة في سبيل إرضائهم[1]. إنه كان يعظم كل أجنبي دون تخصيص ولكنه في موضع آخر يحدد نوع هذا الأجنبي فيقول: «يعتقد في الأجانب من انجليز وفرنسيين القوة ويسالمهم، ويرى الطريق الوحيد هو التفاهم معهم[2].

ثم لما ألف وزارته كانت من جملة الوزارات التي استسلمت للانجليز ووقعت في أحضانهم[3]. وحتى آخر أيام جمال الدين كان يكن له المحبة ويثني عليه ثناء عطراً فقد كتب رسالة إلى الشيخ محمد عبده عند مروره ببور سعيد في طريقه إلى لندن يطلب منه ابلاغ سلامه إلى صاحب النفس الزكية والهمة العلية دولة رياض باشا، ـ أيده الله ـ على حد تعبيره[4].

والواقع أن جمال الدين كان يعمل لاسقاط الخلافة منذ أن كان في مصر، بل ربما يكون قبل ذلك، وقد ظهرت نياته ومخططاته من أعماله التي قام بها، ومن أقواله في الصحف التي قام بانشائها أو شجع على انشائها في مصر.

يقول الجندي: «أصدر السوريون الموالون للاستعمار صحفاً متعددة خارج الوطن العربي خلال فترة ما قبل الاحتلال البريطاني لمصر ١٨٨٢ . . . وكلها تحارب الدولة العثمانية وتحمل عليها. . .[5]» ثم أخذ الجندي يعدد هذه الصحف بادئاً باسم مؤلف كل صحيفة إلى أن يقول: «يعقوب صنوع: أبو نظارة (فزرقاء) أبوزمارة. أديب اسحق: جريدة مصر[6]» فبعد أن عدد الصحف وأصحابها يقول: «والواضح أن أغلب

---

(١) زعماء ٢٢١ . . (زعماء الاصلاح).
(٢) زعماء ٢٩٦ . . (زعماء الاصلاح).
(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١٦١ / ١.
(٤) الاسلام والحضارة الغربية ٧٤ ـ ٨٨، ورسالة جمال الدين إلى محمد عبده منقولة من تاريخ الأستاذ الامام ٢٨٢ / ١.
(٥) تطور الصحافة ـ الجندي ٣٦.
(٦) تطور الصحافة ـ الجندي ٣٦.

الصحف التي صدرت في لندن وباريس، كانت ذات ولاء للنفوذ الأجنبي في البلدان، وقد استهدف أغلب هذه الصحف تمزيق وحدة الروابط القائمة في هذه المنطقة وفق المخطط الذي رسمه الاستعمار في مقدمة الاستيلاء عليها. . .[1]».

وأزيد من عندي عبارة فأقول: «ووفق المخطط الذي رسمه اليهود في محافل الماسونية». وهو ايجاد البلبلة والفوضى في البلاد الاسلامية ليسهل عليهم القضاء على الخلافة التي تقف في طريقهم حجر عثرة.

وحتى الدكتور الوردي أحس بمثل هذه المخططات الهدامة، ولكنه أخذ يتساءل عن المخطِط لها فيقول:

«والواقع أن أكثر الذين كتبوا في سيرة الأفغاني أشاروا إلى أنه وقف ضد اسماعيل باشا وطلب بخلعه، فقد ذكروا أنه ذهب على رأس وفد لمقابلة وكيل دولة فرنسا. . .» ثم يسرد القصة بكاملها وكيف تآمر جمال الدين على اغتيال اسماعيل باشا إلى أن يقول: «ويمكن القول على أي حال أن هذه إحدى النقاط الغامضة في حياة الأفغاني، فنحن لا نعرف على وجه اليقين أية جهة ارتبط بها الأفغاني في تلك الفترة، وما هو الهدف الذي كان يقصده فيها.

إنها نقطة تحتاج إلى مزيد من الدراسة ويؤسفنا أن نجد معظم المؤرخين يمرون بها مراً خفيفاً دون أو يولوها العناية الكافية»[2].

صلة جمال الدين الأفغاني باليهود:

في استعراضنا لحياة جمال الدين، مر بنا في أماكن متعددة، أن جمال الدين كانت له صلات وارتباطات مع عناصر يهودية مشبوهة.

---

(١) تطور الصحافة ــ الجندي ٣٦.

(٢) لمحات ٢٧٩ / ٣.

فعندما دخل مصر كان جمال الدين في حماية ورعاية رياض باشا، وقد خصه بالعناية ووضع له راتباً شهرياً، وعينه في الأزهر ليُدرس فيها، مع أن رياض باشا دعاه إلى مصر عندما كرهه الشعب التركي ونبذ من قبل حكومتها.

رياض باشا من أصل يهودي، وكان ميالاً إلى الانجليز والأجانب، رغم أنه دخل في الاسلام والله أعلم باسلامه. يقول الصحافي والكاتب المشهور أديب اسحق، وهو أحد تلاميذ جمال الدين الأفغاني، تحت عنوان رياض باشا ما يأتي: «هو من بيت الوزان، من يهود مصر الأذكياء. أقيم جده على وزانة النقود، فأظهر الاسلام، وتبعه بنوه من بعده...[٢]».

ومعروف عن اليهود المتمسلمون أنهم يربون أولادهم تربية مغلقة، ويلقنونهم عقيدتهم في السر، ويعلمونهم العلوم العصرية حتى ينافسوا أقرانهم من المسلمين، ثم تصبح لهم الكلمة العليا في البلد، كما حصل في تركيا.

ولذا نجد الأفغاني بعد دخوله مصر التزم الأزهر وأخذ يدرس فيه، ولكن ماذا يعلم؟ إنه أخذ ينشر الأفكار الغريبة التي يستشم منها رائحة الزندقة، وهذا ما حدا بالشيخ عليش أن يطرده من الأزهر.

خرج جمال الدين من الأزهر، ولكن إلى أين؟ الظاهر أن الذي أدخله مصر، والذي فرض له راتباً ورعاه، هو الذي بحث له عن منزل فآواه.

فالروايات الموثوقة تقول بأنه اتخذ له بيتاً في حارة اليهود، ليكون على صلة دائمة معهم دون أن يشعر أحد بذلك، وبقي في منزله هذا إلى أن أخرج من مصر.

فمن كان يدفع له أجرة البيت وتوابعه؟ لا شك أنه رياض باشا نفسه.

---

(١) تطور الصحافة للجندي ٣٤.

ومر بنا في سيرته أنه اتخذ طبيباً يهودياً عرف باسم هارون، فلماذا لم يتخذ طبيباً مسلماً؟ أم أن البلد لم يعد فيها أطباء مسلمون؟

ثم انه في مصر اتخذ صديقاً حميماً، يبث أفكاره، ويكتب له المقالات في صحفه إنه يعقوب صنوع، وهو رجل يهودي، من أبوين يهوديين اسرائيليين وكان يتقن التوراة منذ نعومة أظفاره، حتى استحق أن يكون لاوياً أي مؤمناً بعقيدة اليهود إيماناً راسخاً، كما قرأ القرآن والانجيل[١].

وسيأتي تفصيل الكلام عليه وعلى أصله في بحث الصحافة من هذه الرسالة.

أجاء اختياره لهذا الصاحب صدفة من غير قصد؟ أم أنه مبعوث إليه وموصى به؟

ثم إن جمال الدين لما ألف جمعية مصر الفتاة واسندت الرئاسة اليه في الاسكندرية، كان معظم أعضائها من اليهود الشبان، ولم يكن فيها مصري واحد وكان لهذه الجمعية دور كبير في إشعال ثورة عرابي، التي جاءت بالاحتلال البريطاني لمصر.

كما أن جمال الدين كانت له صلات مشبوهة، كشفها السلطان عبد الحميد مع جماعة الاتحاد والترقي، التي كانت تتألف من معظم يهود سلانيك (الدونمة) المتسترين بالاسلام والمتظاهرين باعتناقه، وكان منهم مصطفى كمال أتاتورك هادم الخلافة الاسلامية وهم الذين أرسلوا وفداً إلى السلطان عبد الحميد لابلاغه قراراً بتنحية وخلعه وقد كان على رأسهم (ايمانويل قرصو) اليهودي الإسباني وهو المسؤول أمام جمعية الاتحاد والترقي عن إثارة الشعب وتحريضه ضد السلطان عبد الحميد[٢].

ثم لا ننسى أن جمال الدين دخل الماسونية وأسس محفلها في مصر، ولا يخفى على أحد ارتباط هذه الجمعية باليهودية العالمية.

---

(١) أعلام الصحافة العربية ٥٠. وتاريخ الصحافة الطرازي ٢٨٤ / ٢.
(٢) مذكرات ٧. (للسلطان عبد الحميد).

وفي ايران كان التزاور بينه وبينهم مستمراً وحتى بعد دخوله المرة الثانية إلى طهران وهذا ما يرويه لنا لطف الله خان ـ ابن أخت جمال الدين ـ إذ يقول: «وفي أيام عيد النوروز (وهو اليوم الأول من الشهر الأول لفصل الربيع) التي صادفت رحلة السيد الأولى أو الثانية إلى طهران، أخذ الناس من جميع الطبقات ـ وضيعهم وشريفهم وخواصهم وعوامهم ـ يتوافدون على منزل الحاج محمد حسن (أمين الغرب) لزيارة السيد (أي جمال الدين الأفغاني) ومقابلته حيث كان قد نزل في هذا المنزل، وتصادف أن عدداً من اليهود ذهبوا لزيارته وكان اليوم ممطراً، فمنعهم خادم الحاج أمين الضرب.

وما أن علم السيد بأمرهم حتى أمر بعدم منعهم، وأحضرهم لديه، وبعد أن دخلوا عليه، وتبادل معهم المجاملات المعتادة خاطبهم قائلاً: (أريد أن أعاملكم اليوم بالرسم المتبع في بلدتي أسد آباد. فأخذ مناديلهم، وملأها بالحلوى ثم أعطاها لهم.[١]».

فهذا النص يشير إلى أن جمال الدين معتاد على الاجتماع بهم في بلدته أسد آباد حيث أراد معاملتهم اليوم في طهران كما كان يعاملهم هناك باكرامهم وحسن وفادتهم.

كما أنه كان معتاداً على مجاملتهم والتحدث إليهم ومسايرتهم.

---

(١) جمال الدين الأسد آبادي ١٧٨.

الفصل الثالث

دخول جمال الدين الأفغاني

في

الماسونية

تمهيد:

رغم أن دخول جمال الدين في الماسونية، أمر محقق، لا شك فيه ولا ريب، نجد بعض المترجمين، يحاولون اغفال هذه الحقيقة، فبعضهم لا يمر على ذكرها مطلقاً وكأنه مسلم في أنه يترفع عن هذه القاذورات، لعلو مكانته، أو كأنه يعلم بها ولكنه يستبعد دخوله فيها.

وبعضهم عرف دخوله فيها وأيقن من ذلك وإذا مر على ذكر هذه الحقيقة مر مراً خفيفاً، أو حاول أن يسوغ هذا الأمر وأنه ما دخل في الماسونية إلا للعمل على نصرة الاسلام ونشر دعوته، وانقاذ البلاد الاسلامية من نير الاستعمار.

ولذا سأستعرض في هذا الفصل النصوص التي تدل على دخوله في الماسونية وأنه كان يعمل فيها بنشاط، ثم أبين رأي الشريعة الاسلامية في الماسونية، لنقف على حقيقة هذا الانتماء وشرعيته.

آراء المترجمين في صحة هذا الانتماء:

هناك ثلاث فئات من المترجمين، نستطيع أن نميز بين آرائهم بوضوح في مجال دخوله في الماسونية، وهي:

١ ــ النافون لدخوله في الماسونية: نجد على رأس هؤلاء لطف الله خان ابن أخت جمال الدين، فقد أغفل ذكر الماسونية ــ إلا عرضاً ــ وكأن جمال الدين لم يعرف الماسونية مطلقاً، وكأنه لم يسمع عن ماسونية جمال الدين ولا محافله التي تنقل فيها ولا ادخال الايرانيين في الماسون، أو قد يكون سمع بذلك ــ وهو الغالب ــ ولكنه أكبر على جمال الدين دخوله في الماسونية، مع أنه تكلم على تأسيس الحزب الوطني الحر في مصر ودور جمال الدين فيه، وكيف أنه ضم في صفوفه رجال الفكر والقلم والعلم، فيتكلم عن الماسونية ولكن بلباس الحزب الوطني الحر فمثلا يقول: «افتتح الندوة المصرية التي كانت تضم ثلاثة ملايين نسمة من شباب المسلمين في مصر، بمفتاح السعادة الذي كان في يده المباركة، وانعقدت أولى جلسات الحزب الوطني برئاسته[1]».

ولذا فهو يقر دخوله في الماسونية ولكنه أنف أن يذكرها، وفضل نسبتها إلى الحزب الوطني المصري لما له من وقع حسن على أسماع الناس.

وممن أغفل ذكر الماسونية الكاتب محمود عوض ففي كتيب له اسمه (جمال الدين الأفغاني مصلح الشرق) ذكر حياة جمال الدين من أولها إلى آخرها على أنه مصلح الشرق وأنه أعاد للاسلام جدته، ولذا أصبح لزاماً عليه أن يتخطى دخول جمال الدين في الماسونية لئلا ينقض كلامه.

ومن الذين وقعوا في هذه الغفلة المؤرخ المشهور عبد الرحمن الرافعي، والواجب على مثله كمؤرخ، أن لا تغيب عنه هذه القضية المشهورة، ألا وهو دخول جمال الدين الأفغاني في الماسونية.

وقد تعرض لها ــ أي لدخول جمال الدين في الماسونية ــ تعرضاً غير مقصود عندما استشهد بوصف سليم عنحوري لجمال الدين، وأن سليم عنحوري يعلم بأن المويلحي من تلاميذ الأفغاني فيقول: «وفي خلال سنة ١٨٧٨م زاد مركزه خطراً وسما مقامه لأنه تدخل في السياسات وتولى

---

(١) جمال الدين الأسد آبادي ٧٣.

رئاسة جمعية (الماسون) العربية وصار له أصدقاء...» إلى أن يذكر المويلحي على أنه أحد أصدقاء الأفغاني[١].

وهذا التعرض لا يكفي، إذ الواجب عليه أن يعقد له فصلاً كاملاً لدراسة هذا القول، ويبين رأيه في الموضوع، وإلا فلا يعتبر مؤرخاً.

المؤولون دخوله في الماسونية:

وهناك فئة من المترجمين، اعترفوا وأقروا بماسونيته، ولكنهم راحوا يؤولون ويسوغون، وأنه في مصلحة المسلمين.

وهذا قول معظم تلاميذه والمعجبين به، فهم يذكرون دخوله على أنها حقيقة واقعة لا يمكن انكارها، وإنما يؤولون ذلك حتى لا يعاب اخلاصه وجهاده كما يدعون.

فبعضهم يعد دخوله في الماسونية نصراً عظيمًا لمصر، وأنه حقق في خلال وجوده في الماسونية إصلاحات عظيمة، ما كان يستطيع تحقيقها لولا دخوله هذا.

فهؤلاء يجعلون الماسونية وسيلة لا غاية وأنه لا شأن لهم بمعتقداتها ومبادئها، لذا نجد الشيخ محمد عبده ينسحب من الماسونية عندما ترك السياسة. بل أخذ يهاجمها لأنها تعمل بالسياسة ـ وسيأتي معنا في آخر هذه الرسالة نبذة عن حياة الشيخ محمد عبده ـ.

والموقف نفسه وقفه الشيخ رشيد رضا، فهو يذكر صراحة دخول الأفغاني الماسونية، ولكنه لا يعيب عليه ذلك، ويحاول تفسير ذلك على أنه عمل مرحلي، والسياسة تقتضي استعمال شتى الوسائل للقضاء على العدو، وليستطيع من خلال المحافل الاتصال بالأحرار والمفكرين ليجمع منهم قوة تقف بجانبه عند الشدائد.

وهكذا سائر تلاميذه ومحبيه.

---

(١) (جمال الدين الرافعي) ٤٠.

ومن الكتاب المعاصرين، الذين وقعوا في هذه الخطيئة الكاتب والأديب أنور الجندي، فعندما كان يتحدث عن الوسائل التي استعملها جمال الدين في دعوته، ذكر الكتابة والخطابة، وغيرهما، ثم عرج على الماسونية فجعلها وسيلة، ولكنه تدارك هذا الخطأ سريعاً، يقول الجندي: «أما الماسونية، فقد رأى فيها أداة لتجميع أنصار دعوته، فانضم إلى محفلها في القاهرة، غير أنه رآها لا تحقق مراده..» ثم يذكر كيف ترك المحفل الاسكتلندي وأسس المحفل الوطني التابع للشرق الفرنساوي»[١].

وكذا الدكتور عمارة، إذ يقول: «وبرز الطابع السياسي لنشاط الأفغاني وأدرك دور التنظيم وأهميته في حركة الاصلاح والتغيير، وكانت الحركة الماسونية على ذلك العهد، ذات سمعة حسنة إلى حد كبير...»[٢] فعلى رأي الدكتور عمارة أن دخول جمال الدين في الماسونية كان سياسياً ولغاية تنظيمية، رغم وجود العناصر المشبوهة والمعروفة لدى الناس جميعاً.

ثم يزيد على ذلك فيدعي بأن سبب هذه السمعة الحسنة هي أنها ترفع مبادىء الثورة الفرنسية فيقول: «فهي ترفع شعارات الثورة الفرنسية (الحرية ـ الاخاء ـ المساواة) وتواصل النضال الذي بدأته منذ العصور الوسطى ضد الكهنوتية والسلطة الرجعية[٣].

ونريد أن نعرف رأيه في الثورة الفرنسية، هل كانت ثورة شعبية لنصرة الحق على الباطل؟

لقد أصبح معروفاً لدى الناس جميعاً أنها حركة يهودية ماسونية، افتعلت هذه الثورة لتخليص الفئة اليهودية المضطهدة بسبب جشعها وتكالبها على الدنيا ومن أراد الاستزادة من ذلك فليقرأ بروتوكولات صهيون.

---

(١) أعلام وأصحاب أقلام. (١٠٧).
(٢) الأعمال الكاملة للأفغاني ٣٤.
(٣) الأعمال الكاملة ٣٤.

ثم نريد أن نسأل الدكتور عمارة، أين الكهنوت وأين السلطة الدينية الرجعية في مصر وبلاد الاسلام؟ وهل دخل جمال الدين في الماسونية لتخليص البلاد من شر الكهنوت ورجال السلطة الدينية؟ وهل حال البلاد الاسلامية يشبه أوروبا من هذه الناحية؟

ثم يعترف بأن الماسونية تهدف إلى فصل الدين عن الدنيا وعن السياسة فيقول: «وتسعى لفصل السلطة الزمنية عن السلطة الدينية كي تضعف من سلطان الأباطرة والملوك والسلاطين»[1].

أين الأباطرة يا دكتور عمارة في بلاد الاسلام؟ أما الملوك والسلاطين فموجودون في بلاد الاسلام منهم السلطان عبد الحميد، فهل مقصود الأفغاني في دخوله الماسونية اضعافه والتقليل من شأنه؟

فأنا في هذه النقطة مع الدكتور عمارة، فقد عمل الأفغاني مدة وجوده في تركيا على الغمز من قيمة السلطان عبد الحميد واضعاف شأنه، وكان يرى وجوب انتقال الخلافة إلى العرب، وكان يرشح لها الشريف حسين أمير مكة مرة وعباس حلمي خديوي مصر مرة أخرى، وكان يرى أن السلطان عبد الحميد لا يصلح لهذا المنصب، وهو بذلك يوافق الدول الأجنبية التي كانت تقف للخلافة العثمانية بالمرصاد لتقسيم أملاك الرجل المريض.

وبعد هذا يحاول الدكتور عمارة أن يخدعنا فيدعي أن الماسوني رجل من خيرة الناس ولو كان يهودياً أو صليبياً فيقول: «كما كانت ـ أي الماسونية ـ تضم صفوة المجتمع بصرف النظر عن الجنس والدين...[2]». أي أن الأفغاني نفسه خدع بهؤلاء الصفوة، ولو يعلم أن فيها مفسدين لما انتسب إلى محافلهم ولما اجتمع معهم لأنه رجل مصلح ويبحث عن المصلحين. ثم يعترف الدكتور عمارة بأن الأفغاني كان يعلم أن فيها يهوداً ولكن هؤلاء اليهود أناس طيبون في الظاهر حيث أن الحركة الصهيونية لم تكن ظاهرة رغم أنها موجودة بشكل

---

(١) الأعمال الكاملة ٣٤.

(٢) الأعمال ٣٤. (الأعمال الكاملة).

خفي، ولو علم أن هؤلاء اليهود من الصهاينة لحاربهم من أول وهلة، فلنسمع إليه في هذا الصدد: «ولم تكن في العقد الثامن من القرن الماضي، قد ظهرت مخاطر الحركة الصهيونية الحديثة، الأمر الذي لم يجعل من وجود نفر من اليهود بالمحافل الماسونية أمراً يستريب منه الوطنيون والمصلحون العرب في أمر الحركة الماسونية، كما هو الحال بعد تلك الحقبة من التاريخ(١)».

والعجيب أن الدكتور عمارة يعترف بأن الأفغاني أطلع على تآمر الماسونية بالاشتراك مع الاستعمار والصهيونية على الأمم الضعيفة، ويعتبر هذا الاطلاع سبباً في ترك جمال الدين الحركة الماسونية التابعة لبريطانيا، فماذا كان بعد ذلك؟ هل ترك الماسونية كلها وراح يهاجمها؟ وأين ذهب قوله بأن الماسونية تجمع صفوة الأمة؟ يقول الدكتور عمارة: «ولكنه ـ أي الأفغاني ـ اكتشف الخيوط التي تربط قيادة المحفل الماسوني بالاستعمار، ومهادنتها للسلطة المستبدة(٢)».، ماذا فعل الأفغاني بعد هذا الانسحاب والاكتشاف الخطير؟ لقد بقي طول حياته ـ كما يقولون ـ يقارع الاستعمار، والآن اكتشف أن الماسونية متصلة بالاستعمار، فما هو موقفه من الماسونية؟

يقول الدكتور عمارة: «وبعد هذا التمرد الذي قاده الأفغاني في المحفل الماسوني الغربي، التابع للمحفل البريطاني، وبعد هذه الثورة التي أعلنها في اجتماع ضم أميراً انجليزياً حضر ضيفاً في الاجتماع، أحدث جمال الدين انشقاقاً في الحركة الماسونية بمصر، وخرج بخيرة عناصر المحفل الوطنيين، فأسس بهم محفلاً وطنياً شرقياً علاقاته مع المحفل الفرنسي»(٣).

خرج الأفغاني من تبعية إلى تبعية، ولم يخرج من تبعية إلى استقلال رغم أنه يريد ايهام القارىء بأن هذا المحفل تابع لمصر بقوله (محفلاً

---

(١) الأعمال ٣٤. (الأعمال الكاملة).
(٢) الأعمال... ٣٤.
(٣) الأعمال... ٣٥.

شرقياً)، والتكلف ظاهر، فهل كان المحفل السابق ليس بشرقي؟ فهو يقول عن السابق بأنه (محفلاً غربياً) ليظن القارىء أن الأول فيه عمالة والثاني منزه عنها.

ثم يعلل هذه التبعية الجديدة بعلل بعيدة جداً عن المنطق والواقع، إذ يقول: «وأغلب الظن، أن لذلك بعض الصلة بمناوأة الفرنسيين لمطامع الانجليز في احتلال مصر في ذلك التاريخ»(٢).

فكأنه يقول بأن جمال الدين ترك التبعية لبريطانيا، لأنها تطمع في مصر والتحق بفرنسا لأنها لا تطمع في مصر، بل هي مع مصر ضد بريطانيا، ونسي نابليون بونابرت واحتلاله مصر، وأن المنافسة على استعمار مصر لا زالت قائمة.

٣ ـ المثبتون دخول جمال الدين في الماسونية:

الذين نقدوا جمال الدين، من هذه الناحية كثيرون، من هؤلاء من هو معاصر لجمال الدين، كالشيخ مصطفى صبري، ومنهم من هو في عصرنا الحاضر، بل إن المتأخرين كانوا أشد نقداً وأكثر موضوعية، خاصة بعد نشر وثائقه ورسائله.

وبحث الماسونية الآتي يدور حول هذه الفئة، وذلك لأن أدلتهم أقوى حجة، وأشد مضاء، وأقرب إلى الحقيقة.

ولذا يدور البحث حول الوثائق التي تثبت دخول جمال الدين في الماسونية وكيف يتنقل من محفل إلى آخر إلى أن استقر به المطاف في ماسونية فرنسا. ثم كيف تدرج في المراتب الماسونية إلى أن أصبح رئيساً وأستاذاً أعظم فيها. ويدور البحث أيضاً حول الماسونية وخطرها وعمالتها وكفرها وما إلى ذلك ثم تذكير الناس بمخاطرها.

---

(٢) الأعمال الكاملة ٣٤.

■تنقل جمال الدين في المحافل العالمية، وسبب هذا التنقل:

١ ـ المحفل الماسوني الاسكتلندي؛ أكثر الروايات تقول بأن جمال الدين دخل في البداية في هذا المحفل، ويقول جمال الدين: «أول ما شوقني للعمل في بناية الأحرار عنوان كبير خطير (حرية ـ مساواة ـ اخاء) وأن غرضها منفعة الانسان ـ سعي وراء دك صروح الظلم ـ تشييد معالم العدل المطلق»[١]. فهذه اللافتة الكبيرة، اجتذبت جمال الدين، فانتسب إلى المحفل. ولكن ماذا وجد جمال الدين؟ وماذا كان يهدف؟ يقول الدكتور أحمد أمين: «انضم إلى المحفل الماسوني الاسكتلندي لأنه يضم كثيراً من علية القوم، لعله بذلك يتمكن من ايصال أفكاره اليهم، ويضم كثيراً من المصريين والأجانب، فلعل حرية القول فيه تكون أتم»[٢] من هذا الكلام نعلم أن جمال الدين دخل الماسونية ليتكلم بحرية تامة، فهو خارج المحفل الماسوني لا يستطيع الكلام بحرية، فماذا يريد أن يتكلم؟ وأي سر لا يستطيع البوح فيه على الملأ؟ نحن في ديننا الاسلامي لا يوجد شيء يكتم على الناس ولا على الحكام، فإذا كان يحارب الاستعمار، فهل يخاف الحكام في كشف مؤامراتهم. ثم إن المحفل يضم مصريين وأجانب ويهوداً ونصارى وفساقاً ففيهم الانجليزي والروسي والفرنسي، فماذا يكون اتجاه هذا الخليط من الأديان والأجناس؟

ولكن هل حصل جمال الدين على بغيته التي دخل الماسونية من أجلها وهي الحرية والمساواة والاخاء؟ لقد حصلت المساواة والاخاء فعلاً إذ يتساوى المسلم مع النصراني واليهودي في خدمة اليهودية العالمية، وتتحقق الاخوة بمساعدة الأخ لأخيه ولو كان من غير ملته ما دام ماسونياً.

والشيء الذي توصل إليه فيها الحرية التي يتشوق إليها. ومقصود الحرية التي حصل عليها هو نقد الحكام ومهاجمتهم، فهو محظور على

---

(١) زعماء الاصلاح ـ ٧٣. خاطرات ـ ١٨.

(٢) زعماء الاصلاح ٧٣.

الناس جميعاً قولاً وكتابة وخطابة، ولما كانت المحافل الماسونية لا تخاف الدولة لأنها مدعومة من دول أجنبية ولذا كان يأمل أن يتكلم بحرية ولكنه فوجىء بمنع الكلام في السياسة، ولديه مخطط يجب تنفيذه فقد خرج من ايران لأجله.

وهكذا نقدها لعدم تدخلها في السياسة ولتنازع أعضائها على الرئاسة[١]. ويظهر أن هذا المحفل كان في طور النشؤ ولم يكن فيه رئيساً وكان النزاع على الرئاسة حامياً، وقد يكون جمال الدين ممن كان يطمع لرئاسته، لذا انسحب من هذا المحفل وأنشأ محفلاً آخراً تابعاً للشرق الفرنساوي[٢]. وأصبح هو المؤسس وهو الرئيس لهذا المحفل وكانت كلماته حين عاب المحفل تدل على أنه كان يؤمل فيهم الشجاعة لنصرته ويعلم أنها حركة عالمية وجدت لسياسة الدنيا بأجمعها، ويعلم أيضاً أنها تنشر خرافات لافساد العقائد، ويعلم أنها تحوي رموزاً واشارات معقدة غير مفهومة لدى الناس. فهل يا ترى وجد في المحفل الفرنساوي ما يخالف ذلك؟ إنه قال لهم قبل أن ينسحب: «كنت أنتظر أن أسمع وأرى في مصر كل غريبة وعجيبة، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكن أن يدخل بين أسطوانتي المحافل الماسونية! إذا لم تدخل الماسونية في سياسة الكون، وفيها كل بناء حر، وإذا آلات البناء التي بيدها لم تستعمل لهدم القديم ولتشييد معالم حرية صحيحة واخاء ومساواة وتدك صروح الظلم والعتو والجور، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة ولاقامت لبنائهم زاوية قائمة، ماسونيتكم اليوم لا تتجاوز: كيس أعمال وقبول أخ، يتلى عليه من أساطير الأولين ما يمل ويخل في عقيدة الداخل. . . وهي رموز لا يفقه أكثرنا مغزاها ولا المراد من وضعها»[٣].

وقبل أن ينسب إليها كل هذه المخازي، رفعها إلى مقام التنزيه والعلو الذي لا يصل إليه إلا الاسلام، وذلك عندما قال: «دعوني أكون عاملاً ماسونياً نزيهاً متجنباً للرذائل، إذا لم يكن حرصاً على شرف

---

(١) زعماء الاصلاح ٧٣.

(٢) زعماء الاصلاح في العصر الحديث ٧٣.

(٣) الأعمال الكاملة للأفغاني ٣٥. ـ خاطرات / جمال الدين ٢٠.

شخصيتي، تخوفاً من أن تعاب الماسونية بي فيتخذني الأغيار سهمًا للطعن بها وهي براء منه، وما ذنب الماسونية إلا أنها قبلتني بين أفرادها، دون اختيار صحيح، وأبقت علي من غير تبصر»[1].

لقد ترك جمال الدين المحفل البريطاني وانتقل إلى محفل آخر تابع لفرنسا، فهل وجد جمال الدين بغيته فيه؟

وقبل الانتقال إلى الفقرة الثانية، لا بد لي من التعليق على بعض النصوص، يقول الكاتب الماسوني خيرالدين الحلبي: «وفي سنة ١٨٤٥ أنشىء في الاسكندرية (محفل القاهرة) تحت رعاية الشرق الأعظم الافرنسي. والتحق به عدد عظيم من كبار العظماء ورجال البلاد الممتازين على اختلاف مهنهم ومناصبهم. وكان بين أعضائه البرنس حليم، والأمير عبدالقادر الجزائري، وحسين فخري باشا، والأستاذ الامام محمد عبده، وغيرهم من ذوي الشخصيات الجهيرة[2]». والإشكال هنا، هو أن المحفل الاسكتلندي كان أسبق من المحفل الفرنسي، والمعروف أن جمال الدين هو المؤسس للمحفل الفرنسي ـ كما سيأتي ـ والذي يزيد الأمر تعقيداً أن يكون الشيخ محمد عبده من أعضائه، فأين جمال الدين الأفغاني؟

وأغرب من هذا عبارة الحلبي التالية إذ يقول: «أنشىء المحفل الأكبر الوطني المصري، على الطريقة الاسكتلندية، وكان تكريسه في ٨ تشرين الأول ١٨٧٨ بحضور ممثلي المحافل الأجنبية العظمى. ثم انتقل المحفل إلى العاصمة في ٥ أيار ١٨٧٨، وكان المغفور لهُ الخديوي توفيق باشا رئيساً أعظم له، وكانت له عناية عملية كبرى بالمحفل وبالماسونية عامة»[3].

إذ يوافق تاريخ انتقاله إلى القاهرة على حسب الرواية السالفة، تاريخ تأسيس المحفل الماسوني الوطني التابع لفرنسا، ومع ذلك لم يذكر

---

(١) خاطرات ١٩.

(٢) عشر سنوات حول العالم ١٣٧ / ١.

(٣) المرجع نفسه ١٣٧ / ١.

الكاتب جمال الدين كمؤسس له ولا كعضو فيه، فلا أدري مدى صحة هذه الرواية؟

٢ ــ المحفل الماسوني الفرنسي:

مر بنا أن جمال الدين سخط على المحفل الاسكتلندي، وخرج منه ليؤسس محفلاً وطنياً تابعاً للشرق الفرنسي ما لبث أن صار عدد أعضائه ثلاثمائة عضو أو يزيدون، ويقال بأنهم من نخبة أهل الفكر والأدب والعلم، ثم أخذ بتنظيم المحفل على أحدث الطرق فقسم إلى شعب، بحيث يصبح لكل وزارة شعبة مختصة بشؤونها[1].

ويقال بأن ممن انتمى لهذا المحفل الأمير توفيق ولي العهد، وكان جمال الدين يأمل فيه خيراً، ولكنه بعد أن أصبح حاكمًا انقلب عليه وشعر بخطره ثم طرده من مصر.

وبين أيدينا صورة فوتوغرافية بخط يد جمال الدين الأفغاني، يطلب فيها الانتساب إلى المحفل الماسوني وهذا نصه:

«يقول مدرس العلوم بمصر المحروسة جمال الدين الكابلي الذي مضى من عمره سبعة وثلاثون سنة، بأني أرجو من اخوان الصفا، واستدعي من خلان الوفا، أعني أرباب المجمع المقدس الماسون، الذي هو عن الخلل والزلل مصون، أن يمنوا علي ويتفضلوا إلي بقبولي في ذلك المجمع المطهر، وبادخالي في سلك المنخرطين في ذلك المنتدى المفتخر، ولكم الفضل.

الخميس ٢٣ ربيع الثاني ١٢٩٢

التوقيع
جمال الدين الكابلي

---

(١) خاطرات ــ ٢٠. زعماء الاصلاح ــ ٧٤.

هذا، وقد نشرت صورته الفوتوغرافية في كتاب مذكرات السلطان عبد الحميد ص٢٠٦، ويقول الناشرون إن هذه الصورة موجـودة في كتاب: (سيد جمال الدين مشهور به أفغاني) ـ تأليف (أصغر مهدوي) و(ايرج أفشار).

وقد نشرت بعد هذا الطلب صورة فوتوغرافية، لكتاب موجه إلى جمـال الدين الأفغـاني من المحفل الماسوني الفـرنسي المسمى (كوكب الشرق)، يدعوه إلى حفلة انتخابه رئيساً للمحفل، وتاريخه يوافق التاريخ الذي ذكره الحلبي ونص الخطاب ما يلي:

لوج كوكب الشرق

نمرة ١٢٥٥

في القاهرة بمصر و٧ جنايو سنة $\frac{١٨٧٨}{٥٨٧٨}$

إلى الأخ جمال الدين المحترم

إنه لمعلوم لديكم بأن في جلسة ٢٨ الماضي، وبأغلبية الآراء صار انتخابكم رئيس محترم لهذا اللوج، لهذا العام، ولذا قد نهنيك، ونهني ذواتنا على هذا الحظ العظيم، وعن أمر الرئيس محترم الحالي، أدعو اخوتكم للحضور يوم الجمعة القادم ١١ الجاري الساعة ٢ عربي بعد الغروب، إلى محفل هذا اللوج، لأجل استلامكم لقادوم، بعد اتمام ما يجب من التكريز الاعتيادي ثم سيصير يوم الخميس ١٠ الجاري الساعة ٦ أفرنجي مساء تكريز رئيس محترم لوج كونكورديه. فالرجاء حضوركم في اليوم المذكور، للاشتراك في الأشغال، وفي الحالتين ملابسكم تكون سوداء ورباطة الرقبة، والكفوف بيضاء.

واقبلوا منا العناق الأخوي.

كاتب سر

نقولا سكروج[١]

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد ص٢٠٨ نقلاً عن كتاب سيد جمال الدين مشهور به أفغاني ــ المار ذكره ــ.

يقول الدكتور علي الوردي: «عثر في طهران على الكثير من أوراق الأفغاني ورسائله، وقد حفظت في جناح خاص في مكتبة البرلمان الايراني، وفي عام ١٩٦٣ نشرت جامعة طهران كتاباً يحتوي على تصنيف لتلك الأوراق وصور زنكوغرافية لبعضها، وهو كتاب مهم جداً يستطيع القارىء أن يستنتج منه الكثير من القرائن التي تؤيد كون الأفغاني ايرانيا وليس أفغانياً»[1].

قبل المضي إلى فقرة جديدة علينا أن نلاحظ أموراً في هاتين الوثيقتين:

١ ــ إضفاء الصفات الجليلة على المحفل الماسوني مثل (اخوان الصفا ــ خلان الوفا ــ المجمع المقدس ــ الذي هو عن الزلل مصون ــ المجمع المطهر ــ المنتدى المفتخر)، وهذا يعني تعظيمه لهذه المؤسسة، حتى جعلها في مصاف الشرائع المنزلة المعصومة عن الخطأ والزلل.

٢ ــ فيها إشارة إلى بعض الرموز والطقوس الماسونية مثل استلام القادوم ــ الملابس سوداء ورباطة العنق ــ الكفوف بيضاء ــ فهذه الطقوس غير معهودة إلا في محافلهم ولكن لماذا لم يشر الخطاب إلى غطاء الرأس؟ أيكون قبعة أم عمامة؟ وما دام اللباس أسود مع رباطة عنق والكفوف بيضاء، فالعمامة لا تناسب هذا اللباس، كما أنه لا يجوز أن يحضر حاسر الرأس، فهو غير معروف ولا معهود في ذاك الزمان.

٣ ــ يوجد في الوثيقة الثانية اشارات يهودية فتأريخها بالسنة العبرية والشهر العبري[2] يقول الدكتور عبد الرحمن عميرة: «وذكرت دائرة المعارف اليهودية طبعة ١٩٠٣ج ٥ ص٥٠٣: (إن اللغة الفنية والرموز والطقوس التي تمارسها الماسونية ملأى بالمثل والاصطلاحات اليهودية، ففي محفل اسكتلندا تجد التواريخ الموضوعة على المراسلات والوثائق الرسمية كلها بحسب تقويم العصر والأشهر اليهودية، وتستعمل كذلك

---

(١) لمحات اجتماعية في تاريخ العراق ٢٧٦ / ٣.

(٢) الاسلام والحضارة الغربية ص ٨٦٠

الأبجدية العبرية)»[1]. فشهر جنايو يقابله شهر يناير أو يونيو. أما السنة ٥٨٧٨ فهي سنة النور عند اليهود وتعني أربعين قرناً قبل المسيح[2].

٤ ــ ويلاحظ أنه وَقَّع في الوثيقة الأولى، وهي طلب الانتساب، باسم جمال الدين الكابلي وقد كان سابقاً يوقع باسم جمال الدين الحسيني، فلماذا غير اللقب، فهل يقصد من هذا أنه من كابل عاصمة الأفغاني أو أنه ينتسب إلى (الكابالا) وهي فرقة يهودية كانت تعتقد أفكاراً مزيجة من الفلسفة والتعاليم الروحية والسحر والشعوذة وهي معروفة عند اليهود منذ أقدم العصور»[3].

والماسونية هي الجديد لشريعة كابالا اليهودية ولكن بصورة مقنعة»[4].

٥ ــ والملاحظة الأخيرة هي كون أمين السر للمحفل نصراني، ويخاطب الأفغاني بقوله (واقبلوا منا العناق الأخوي) فقد تآخى معه في الانخراط في الماسونية.

تنقل جمال الدين في المراتب الماسونية:

إن المتتبع لسيرة جمال الدين يلاحظ بجلاء أنه تدرج في مراتب الماسونية وأنه دخلها عضواً عادياً ثم تنقل من درجة إلى أخرى حتى وصل إلى سدة الرئاسة كما مر بنا سابقاً.

ولكن متى بدأ أول خطوة؟ وأين بدأ؟ فهذا أمر يحتاج إلى البحث والتنقيب، ولكن قبل الخوض في مثل هذا الأمر المجهول علينا أن نعلم أنه وصل إلى سدة الرئاسة، وهذه الرئاسة لا تعطى في الماسونية اعتباطاً،

---

(١) المذاهب المعاصرة ٢٧.
(٢) حقيقة الماسونية ص ١٩٦.
(٣) أسرار الماسونية اتلخان ــ ١٥.
(٤) أسرار الحركة الماسونية ١٥.

فلا بد للوصول إليها من التدرج من مرتبة إلى أخرى حتى يصل إلى ما وصل.

كلنا يعلم أن جمال الدين تقدم بطلب الانتساب إلى المحفل الماسوني التابع لفرنسا (كوكب الشرق)، وقد عرضنا صورة طبق الأصل لهذا الطلب، مع أن جمال الدين تقدم بطلب مثله إلى المحفل الماسوني الاسكتلندي، ورغم هذا لا يوجد لدينا صورة عن الطلب، وكذا لا يوجد لدينا علم عن بداية دخوله في الماسونية، ونحن على يقين أنه قديم في الماسونية، ولا أذهب بعيداً إذا قلت أنه دخل الماسونية منذ أن كان في ايران أو بعيد ذلك بقليل، وذلك عندما أنهى دراسته في العتبات المقدسة.

ويوافق على هذا الرأي ـ وهو التدرج في المراتب ـ الدكتور محمود قاسم فيقول: «رأى ـ أي جمال الدين ـ أن يلتحق بالنظام الماسوني الذي يربط أعضاءه برباط متين، وقد انضم إلى الماسونية سنة ١٨٧٨ م، وتقدم في مراتبها المختلفة، تقدماً سريعاً، وجعل يقفز هذه المراتب قفزاً، نظراً لجودة استعداده، حتى أصبح من الرؤساء بعد وقت قصير»[١].

غير أن الدكتور قاسم لم يقف على دليل يدل على انتساب جمال الدين إلى الماسونية قبل هذا التاريخ، ولكن عبارته يفهم منها أنه قديم في الماسونية.

فقوله (وجعل يقفز هذه المراتب قفزاً نظراً لجودة استعداده) تشير إلى قدمه في الماسونية، إذ من أين جاءته هذه الجودة؟، لا بد إنها جاءته من الخبرة الطويلة والتمرس بأعمال الماسونية، ولذا نراه يصل بسرعة إلى الرئاسة.

ثم لم يكتف بهذا بل إن استعداده رفعه إلى مقام أن أصبح رئيس محافل البلاد العربية قاطبة، وأصبح محفله الرئيسي في بلاد العرب. وهذا ما أشار إليه الشيخ رشيد رضا، إذا يقول: «وفي خلال عام ١٨٧٨م زاد

---

(١) جمال الدين ـ د. القاسم ٤٠.

مركزه خطراً في البلاد، وسما مقامه، لأنه تداخل في السياسات وتولى رئاسة جمعية الماسون العربية[1].

ومما يدل على أنه تدرج في هذه المراتب، أن تلميذه الشيخ محمد عبده كان يلقب بالأستاذ، فلا بد أن يكون جمال الدين الأستاذ الأعظم، ولقب أستاذ يحوزه العضو في المرتبة الثانية من الماسونية، أما لقب استاذ أعظم فيحوز عليه العضو في الدرجة الثالثة من الماسونية، وكلها في الماسونية المبتدئة، أما الماسونية العليا فلا تكون إلا لليهودي أباً وأماً، يقول المؤلف عبد الرحمن سامي عصمت: «وللماسونية الرمزية ثلاث درجات: الدرجة الأولى، وهي درجة المبتدئين، ويسمى العضو فيها (الأخ)، والدرجة الثانية ويسمى العضو فيها (أستاذ)، والدرجة الثالثة ويسمى العضو فيها (الأستاذ الأعظم) ويكون قد حاز درجة الـ٣٣»[2].

ثم لا ندري هل ترقى بعد خروجه من مصر إلى مرتبة أعلى، وعادة لا ينقل العضو من الماسونية الرمزية إلى الماسونية المسماة (العقد الملوكي)، وهي التي تلي الماسونية الرمزية، إلا بعد أن يحصل العضو على لقب (أستاذ أعظم)، يقول عبد الرحمن سامي عصمت: «إذا صار ــ أي العضو ــ أستاذ أعظم، تأهل لأن يقبل في عضوية العقد الملوكي، بعد أن يتهود ويتصهين[3]». ومقصود المؤلف من قوله (يتهود ويتصهين) أي يناصر القضايا اليهودية والصهيونية.

لذا نجد محمد عبده بعد ثورة عرابي، وهجرته إلى لبنان يأخذ رتبة أعلى من رتبته التي كان عليها في مصر، ومع ذلك لم يصل إلى رتبة استاذه جمال الدين.

يقول الدكتور محمد محمد حسين: «وإلى جانب ذلك كله نجد اشارات صريحة في كتاب لأحد كبار رجال الماسونية في مصر ــ ومن المعروف إنها دعوة تخدم الصهيونية العالمية ــ تؤكد أن جمال الدين

(١) تاريخ الأستاذ الامام ٤٦ / ١.

(٢) الصهيونية والماسونية ٨٤.

(٣) الصهيونية والماسونية ٨٤.

الأفغاني كان رئيساً لِـ (محفل كوكب الشرق) الماسوني، كما تؤكد أن محمد عبده كان عضواً في هذا المحفل. إذ يقول: (وقد ظهرت الماسونية في سوريا بمظهر الاخلاص والمحبة أثناء الحوادث العرابية سنة ١٨٨٢ م، فاذ الاخوان المصريين والمهاجرين الذين جاءوا سوريا، قابلهم اخوانهم بالترحيب العظيم، ودعوهم إلى محافلهم ومنازلهم. وكان الأفاضل الشيخ محمد عبده وابراهيم بك اللقاني وحسن بك الشمسي، وجماعة المرحوم السيد جمال الدين الأفغاني، وغيرهم يحضرون معنا في محفل لبنان ويخطبون فيشنفون أسماع السوريين بخطبهم النفيسة وأحاديثهم الطلية.

ونال الأستاذ الشيخ محمد عبده رتبة (البلح والصدف) من المندوب الأمريكي الذي حضر إلى محفل لبنان[٢]».

وقد غاب عن الدكتور محمد علي الزعبي أن جمال الدين الأفغاني انسحب من محفل ليدخل محفلاً آخر، فظن أنه انسحب من المحفل الاسكتلندي، ولم يعد إلى الماسونية مطلقاً، وهذه غفلة كبيرة من الدكتور الزعبي، ألم يقرأ كتاب تاريخ الأستاذ الامام؟ يقول الدكتور الزعبي: «بين يدي كتاب ـ مذكرات الامام محمد عبده ـ للطاهر الطناجي ـ القاهرة ـ دار الهلال ص٥٢ ـ يرينا الأفغاني، أحسن الظن بلوحة المحافل الخارجية، فحاول استغلالها لخدمة العامة، ليقف مستعيناً بالمحفل، يطريق تعرفات الخديوي توفيق، وما أن أدرك خداع العنوان حتى فارق المحفل غير آسف». ثم يعقب على قوله السابق ـ شارحاً ما جاء في كتاب خاطرات جمال الدين عندما رأى جمال الدين لوحة الماسونية مكتوباً عليها (حرية، مساواة، اخاء) فدخل في الماسونية على أثر هذا الخداع ولكنه انفجر غاضباً عندما قيل له (لا تتدخل بالسياسة) فانسحب من المحفل ثم يقول الدكتور الزعبي: «انضم مغروراً وما أن عرف الدخائل حتى انكفأ مستغفراً، ولكن الماسون ـ كعادتهم ـ ذكروا الانضمام، وغضوا النظر عن الانسحاب، كما فعلوا تجاه محمد كرد علي، إذ دخل ليراها ثم فارقها وعاش بقية العمر يناهضها، ورغم هذا لا

---

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٣٣٩/١

يزالون يرونه من أبنائها[1]». لقد أخطأ الدكتور الزعبي ـ حفظه الله ـ إذ الراجح من خلال الأدلة أن جمال الدين لم يفارق الماسونية ثم ان محمد كرد علي لم يدخل الماسونية اطلاقاً فهو يقول عن نفسه في مذكراته: «منذ نحو ٤٥ سنة وأنا يعرض علي الدخول في الماسونية في مصر والشام، وتذكر لي المرغبات فيها، والغنائم المتوقعة لي منها، فكنت أقول أن هذه الجمعية أنشأها اليهود للقضاء على ظلم الكاثوليك، فما شأن المسلمين في الدخول فيها؟ وأنا من طبعي لا أدخل في مجهول، ولا أسير على غير هدى»[2].

من هم المقبولون في الماسونية:

الناس مراتب تختلف منازلهم ومكانتهم علواً وانخفاضاً، ولكل من هؤلاء منزلة ومكانة في الماسون، فمن كان عظيًا في قومه، يسعون لادخاله في محافلهم ليستفيدوا من مكانته ومركزه الذي يحتله، ومن كان وضيعاً يستفيدون منه في تنفيذ مخططاتهم العضلية، لتصفية عضو، أو اغتيال عدو، أو احداث شغب وفتنة.

ولذا فان العظماء يخوضون اختبارات وامتحانات كثيرة ـ كما حصل لجمال الدين لتبتلى عزائمهم ويعرف اخلاصهم، ثم تسند اليهم المناصب العالية، ويؤازرونهم في المحافل الدولية، ويرفعون من شأنهم عند العامة.

أما العظماء الذين يخشون منهم ومن بطشهم، ومع ذلك يرغبون ادخالهم في الماسونية لترويج مبادئهم، فيقبلونهم ويعظمونهم ويسندون اليهم عضوية الشرف ولكن لا يطلعونهم على الأسرار.

جاء في كتاب اسرار الحركة الماسونية: «إن بعض الملوك وبعض

(١) الماسونية في العراء ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢) المذكرات ـ محمد كرد علي: ٢/٤٠٩.

رؤساء الجمهوريات ورؤساء الوزارات والأمراء والأغنياء، بعضهم رؤساء شرف أو أعضاء شرف لبعض المحافل.

وهل يدخل مثل هؤلاء إلى الغرفة السوداء أيضاً. والجواب طبعاً: لا»[1].

وقد نجد بعض الشرفاء يدخلون المحفل الماسوني، وأمثال هؤلاء كذلك لا يطلعونهم على أسرار الحركة، يقول مؤلفو كتاب (أسرار الحركة الماسونية): «يقول الأستاذ أنور أحمد ــ مدير منطقة القاهرة للشؤون الاجتماعية ــ وهو الرجل الذي أمر بحل الجمعيات الماسونية: (إن كثيراً من أعضاء هؤلاء الجمعيات مواطنون صالحون شرفاء، إلا أنهم لا يدركون الخطورة التي قد تعود على الدولة من جمعياتهم، إذ أن السرية التامة التي تفرضها الجمعيات الماسونية على نشاطها، تكون فرصة مواتية لتسلل العناصر المعادية للدولة)»[2].

وقد ورد، كذلك أن هناك بعض الشخصيات التي لا يشك باخلاصها، دخلت الماسونية ولكنها لم تتدرج، ولم تصل إلى ما وصل إليه جمال الدين الأفغاني، وقد أخطأ الدكتور محمد يوسف نجم إذ جمل هذه الشخصيات أو بعضها مع جمال الدين إذ يقول: «ونحن نعلم أن عدداً من مصلحي الشرق في القرن الماضي منهم جمال الدين الأفغاني وتلاميذه، ومنهم محمد عبده وعبد السلام المويلحي ويعقوب صنوع، وشريف باشا، وسليمان أباظة، وسعد زغلول، وعبد القادر الجزائري وخير الدين باشا التونسي، كانوا أعضاء في المحافل الماسونية التي كانت منتشرة في بلدان الشرق العربي انذاك»[3] ولكن معظم من يدخل في الماسونية هم أصحاب أهواء أو مطامع، يقول صاحب كتاب أسرار الحركة الماسونية: «والذي ينخرط في سلك الجمعيات هم عادة من ذوي المطامع وشذاذ الآفاق...»[4].

---

(١) أسرار الحركة الماسونية ــ ٢٢.

(٢) أسرار الحركة الماسونية ــ ٣٣.

(٣) الفكر العربي في مائة سنة ــ ٧٣.

(٤) أسرار الحركة الماسونية ١٢. وهو بند من مقررات مؤتمر بال الصهيوني عام ١٨٩٧.

وكان السلطان عبد الحميد يتأسف على دخول هؤلاء المخدوعين بالماسونية فيقول: «وأشد ما يؤلمني أن يقوم هؤلاء المضللون من الأتراك بالتعاون مع اليونانيين والبلغار في سبيل إزاحة المستبد عن الحكم»(١).

ويقصد بالمستبد نفسه، كما يسمونه هم.

وهذا يدل على أن خطر الماسونية معروف منذ ذلك الحين، حتى أن السلطان عبد الحميد كان يلاحقهم ويزج بهم في السجون.

فلا نلتفت بعد هذا إلى أقوال بعض المعجبين بجمال الدين، أنه كان يجهل ما في الماسونية، وسيأتي معنا الرد على هذه الشبهة.

ثم يجب التنبه إلى أن الأمير عبد القادر الجزائري، دخل الماسونية وبقي مبتدئاً إلى آخر حياته.

فلا تستغرب بعد هذا أن يأتي أنور الجندي فيضع لجمال الدين الحجج والبراهين على أنه أنشأ المحفل وهو لا يدري ما فيه من ضلالات وانما دخل على ظن الاصلاح، ولما لم يجده كذلك تركه فهو يقول: «والقول بأن جمال الدين بهذا النحو كان ماسونياً في حاجة إلى أناة وبعد نظر وتجرد من الاسراف في تحميل الأمور ما لا تحتمل عن الاسراف، فهو قد ظن في الماسونية ما كان يظنه الكثيرون أنها مؤسسة عدل فلما التمس ذلك لديها خيبت ظنه فأنشأ محفله الخاص الذي لم يطل به المدى(٢).

فالجندي يعتبر الأفغاني كباقي الناس المغفلين الذين دخلوا الماسونية وهم يظنون فيها خيراً، وغاب عن الجندي أن الأفغاني يعلم كل شيء عنها ولم يكن دخوله فيها كدخول المغفلين العميان، ودليلنا على ذلك أنه أسس محفلاً جديداً وترأسه وتكرس كما يتكرس أي ماسوني محترف.

ثم إن الجندي يقول إنه لم يطل المكث بالمحفل الوطني، وقد يفهم السامع أن المحفل أغلق فور خروجه ووقوع الخصومة بينه وبين الخديوي

---

(١) المذكرات السياسية ــ ٧٤. للسلطة عبد الحميد.
(٢) أعلام وأصحاب أقلام ــ ١٠٨.

بوفيق ولكن الحقيقة أن هذا المحفل بقي يعمل حتى عام ١٩٦٤ م حيث أغلق بقرار رسمي بعد إدانته بالخيانة العظمى والعمل لصالح اسرائيل.

على أن الملاحظ أن حله كان بعد حل فرنسا لمحافلها وتبع ذلك جميع المحافل المرتبطة بها. يقول محمد كرد علي: «يوم انهزمت فرنسا أمام جيوش الألمان في حزيران عام ١٩٤٠ واحتل الألمان باريس يوم ١٣ منه انحلت الجمهورية الثالثة واستلم زمام الحكم المارشال بيتان رئيساً للدولة... فحل جميع الأوضاع الديموقراطية والأحزاب السياسية والجمعيات السرية ومنها المحافل الماسونية»(١). ويحدثنا الأستاذ محمد كرد علي بعد ذلك عما وجد في هذه المحافل من مخلفات عجيبة فيقول: «وقد قرأت في جريدة «كانديد» الصادرة يوم ١٧ آب ١٩٤٠ أنه افتتح في باريس معرض ماسوني، عرضت فيه تركة «محفل الشرق الأعظم» و«المحفل الأعظم» الماسونيين في باريس منها مسارج وسيوف من قصدير، ومطارق وصناديق نيطت بها كرات سوداء، ومآزر عملت من جلد خنزير ومسجات البنائين و«بطارش» مطرزة رسم وسطها مثلث يلمع فيه نجم «صهيون» وما إلى ذلك من متاع كان يستخدمه أبناء الأرملة(٢) عند ادخاله شخص جديد، ومنها مفروشات الغرفة السوداء التي يدخل فيها المنضم إليهم حديثاً معصوب العينين مع جمجمة انسان. وردهة الزعماء التي يقررون فيها السلم والحرب، وان النية حمل هذه التركة الغريبة في القطار والسير بها إلى جميع ارجاء فرنسا حتى يراها سكان أقصى الأرياف ويتجلى بها ما في الماسونية من أمور(٣)». لم يكن جمال الدين من هؤلاء الذين لم يطلعوا على أسرار الماسونية، فقد ورد كما ذكرنا في ترجمته ــ أنه اجتمع في الأستانة مع ماسوني الاتحاد والترقي، وأطلعوه على نياتهم وأسرارهم، وقد أعجب بهم ومدحهم.

ومر بنا أيضاً ــ في قبوله ــ أنه دعي إلى حفلة تكريس لاستلام

---

(١) المذكرات ــ محمد كرد علي جـ٢ ص ٤٠٩ تحت عنوان حل الماسونية).

(٢) ابن الأرملة: تعني كل ماسوني، وهي تذكاراً لحيرام، لأن أمه يهودية أرملة (الماسونية في العراء ٤٨).

(٣) المذكرات محمد كرد علي ٤٠٨ / ٢.

القادوم، وهو قادوم الرئاسة، وهي عبارة عن مطرقة ـ كما مر في مذكرات محمد كرد علي ـ.

فالمعروف أن جمال الدين الأفغاني لم يكن هامشياً، ولا عضواً هيناً، ولا واحداً من المغفلين الذين يدخلون في الماسونية للبركة، وإنما كان عالماً عاملاً.

التكريس: علمنا مما سبق أن جمال الدين دعي إلى المحفل الفرنسي لاستلام الرئاسة، وذلك بعد اتمام ما يجب من التكريس، فما هو التكريس، وماذا يحصل فيها؟

حفلة التكريس هذه يحصل فيها من الأمور العجيبة الغريبة ما ينكره الشرع والعقل، وتدل دلالة قاطعة إن من يمر بها لا بد أن يكون قد انسلخ من دينه ومروأته، وهذه هي صورة التكريس كما في كتب الماسون: «حفلة التكريس يتقدم العضو بطلب الانضمام للماسونية بعد تزكية من عضوين... فإذا وجدت الماسونية فيه خدمة طيبة للتعاون معها استدعته لحفلة التكريس... تعصب عيناه بعصابة سوداء... وبوضع حبل المشنقة في رقبته... ويصحبه عضوان أشداء إلى غرفة سوداء.. ثم يخرج.. ثم يقسم على التوراة أو الانجيل أو القرآن، كل حسب دينه ـ على أن لا يفشي أي سر من أسرار الماسونية حتى الموت... وعلى أن ينفذ كل تعاليمها حتى الموت، ثم يذهب العضو إلى بار الجمعية ليغرق في الويسكي أو الشمبانيا»(١).

هذا هو التكريس ذكرناه مختصراً لنعلم مدى انغماس جمال الدين في الماسونية وهو يعلم ما فيها.

وفي كتب أخرى ماسونية توضح أكثر من ذلك، وهو أن طالب الانتساب في الماسونية يدخل في اختبارات أشد من هذا وأقسى ويمر على غرف متعددة وكل غرفة لها من الأعمال والأقوال والأقسام ما تختلف عن الأخرى خطورة وعمقاً.

---

(١) أسرار الحركة الماسونية ٢٢.

منها أن طالب الانتساب يدخل الحجرة المقدسة، المؤلفة من ثلاث حجر، ففي الحجرة الأولى المسماة **حجرة المعرفة** يجرد من ثيابه تماماً، وفي الحجرة الثانية وهي **حجرة التكريس** يوضع رأسه في عصابة سوداء كبيرة وتربط عنقه، ويؤمر الطالب النوم في تابوت ويوضع على صدره جمجمة ثم يدخل في فرن صغير مرعب حيث انه منار من الداخل بأنوار حمراء، ثم يدخل حجرة ثالثة تسمى **قاعة المحفل الماسوني** فلا يسمح له بدخولها إلا وهو مجرد من الثياب تماماً ويأخذه مرشدان إلى الرئيس الجالس على العرش الماسوني ويؤمر الطالب بالركوع للرئيس، ثم يؤمر بارتداء ملابسه فيعود إلى الرئيس ليركع له ثانية[1].

ففي حفلة التكريس هذه التي دعي إليها جمال الدين منكرات لا يقرها شرع ولا عقل، منها القسم الذي لم يذكر هنا نصه، ونسوق نصه فيما يلي ليعلم ما فيه من مخالفات شرعية، إذ يقسم طالب الانتساب في حفلة التكريس باليمين الآتي: «أقسم بمهندس الكون الأعظم، إنني لا أفشي أسرار الماسونية وإشاراتها أو أقوالها أو تعاليمها وعاداتها، وأتعهد بأن أحفظها في صدري مكتوبة إلى الأبد. وأقسم بمهندس الكون الأعظم أن لا أخون ميثاق الجمعية وأسرارها لا بالاشارة ولا بالكلام ولا بالحركات وأن لا أكتب شيئاً منها، ولا أنشره بالطبع أو الحفر أو التصوير»[2].

وهذا اليمين للمبتدئين، وعندما يتقدم في الماسونية يقسم باليمين الآتي: «أقسم على أن أقطع كل الروابط التي تربطني بأي انسان سواء أكان أباً أو أخاً أو أختاً أو زوجاً أو قريباً، أو صديقاً، أو ملكاً أو رئيساً، أو أي شخص أقسمت له يمين الطاعة والاخلاص»[3].

فالقسم الأول بمهندس الكون الأعظم قد يقصد به الله سبحانه وتعالى وهذا لا محظور فيه، لكن هذا التعبير غير شرعي، فالمقسم به لا

---

(١) أسرار الحركة الماسونية ٣٤ ــ ٣٥. مختصراً عن مجلة آخر ساعة تاريخ ٣/٦/١٩٦٤م»

(٢) أسرار الحركة الماسونية ــ ١٦.

(٣) أسرار الحركة الماسونية ــ ١٦.

يدري مقصودهم منه. أما القسم الثاني، وهو واحد من أقسام كثيرة، إذ لكل درجة قسم خاص ففيه الطامات حيث يلزم المقسم بـه بتقديم اليهودي على المسلم ما دام هذا اليهودي أخاه في الماسونية. ثم فيه ترك طاعة أولي الأمر ولو كان على الحق والعدل، كما أن فيه عقوقاً للوالدين، كما أن فيه ترك نصرة الأخ المسلم فيما أمر الشرع. فهل بعد هذا منكر أكبر منه.

ولو استعرضنا باقي الأقسام لوجدنا بعضها يصرح بطاعة رؤسائه الشرعيين من الماسون ولو كلفه ذلك حياته، وبعضها يقسم على أن يقطع الروابط والصلات مع الأقارب والأنساب والأرحام وقادة الدين والدنيا إلا من كان ماسونياً ولو كانوا كفاراً(١).

لننتقل إلى ناحية أخرى من التكريس لنرى ما فيها من منكرات، فقد ورد أنه بعد القسم يذهب العضو إلى البار ليشرب الويسكي أو الشمبانيا، وكلنا يعرف حكم شرب المسكر شرعاً، وقد مر في ترجمته عن سليم عنحوري أنه كان يشرب أحياناً الويسكي واعترض رشيد رضا على هذا الكلام، والآن وجدنا الجواب على شرب المسكر أنه منذ دخوله الماسونية أصبح الويسكي لا شيء فيه ما دام الماسون يشربونه.

ومن منكرات التكريس التعري فأكثر الروايات أنه يتعرى تماماً من ثيابه، وبعضها تقول بأنه يتعرى حتى وسطه كما في كتاب الماسونية في العراء للزعبي، فعلى الرواية الأولى إن ثبتت فهذا منكر لا شك فيه فقد حرم الاسلام كشف العورة التي هي ما بين السرة إلى الركبة. عند الجمهور وإن كان بعضهم يفرق بين العورة المغلظة والمخففة كما عند الامام أحمد إلا أنهم متفقون على تحريم كشف السوأتين.

ومن منكرات التكريس الركوع للرئيس أولاً وثانياً وهذا شرك في العبادة ينقض عرى الاسلام، لأن من عبد غير الله أو صرف شيئاً من العبادة لغير الله فقد كفر أو أشرك، وهذا العمل ينافي التوحيد.

---

(١) عن الماسونية في العراء للزعبي ٨٧ ــ ٩٠.

هذه هي حفلة التكريس التي لا بد لكل من ينخرط في سلك الماسونية أن يجتازها وهو باتفاق المؤلفين في أسرار الماسونية المطلعين على دخائلها.

الكتمان: من المعروف والمشهور أن الماسونية تكتم أسرارها، بل انها تصفي بالموت كل من فضح أسرارها، وفي القَسَم الذي ذكرناه ـ الحض على الكتمان الشديد ـ.

ولا بد أن يكون جمال الدين قد أقسم القسم الماسوني المعروف، فعندما أقسم ألم يتذكر قوله تعالى: «إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون». فإن كان في الماسونية خير فالخير لها عدم الكتمان، وكتمانه خطر عظيم، وإن كان في الماسونية شر فيجب اظهاره للناس وبيانه والتحذير منه، وكتمانه خطر عظيم، فكيف أقسم جمال الدين هذا القسم.

ثم إن الكتمان هو ركن دعوتهم، وعليها مدار العمل، نشرت مجلة آخر ساعة تاريخ ٣/١/١٩٦٤ ما يأتي: «والسرية المطبقة، حتى داخل الجمعيات الماسونية، فالعضو في الدرجة الأولى لا تكشف له سوى أسرار الدرجة الأولى، وعندما يرقى إلى الدرجة الثانية، تكشف له أسرارها، ولكنه يقسم ألا يكشفها حتى لمن هم في الدرجة، وإلا استحق الموت»(١).

العمالة: وذكرنا أن الذين ينخرطون في سلك الماسونية هم من ذوي المطامع وشذاذ الآفاق، فهل كان جمال الدين الأفغاني منهم؟

تكلمت سابقاً عن صلته بالانجليز أحياناً وبالروس أحياناً أخرى، عدا عن أتباعه لفرنسا في محفله الذي أسسه، فهو لا يخلو من أحد

---

(١) أسرار الحركة الماسونية ٣٤.

أمرين، إما أن يكون طامعاً في شيء، أو أنه منحرف العقيدة زائغ الفكر، حيث أن الماسونية عميلة، ثبتت عمالتها بالأدلة القاطعة.

ولذا نجد السلطان عبد الحميد يكشف عمالتهم في الوقت الذي كان جمال الدين يعيش في قصوره، وينعم بالعيش بجانبه، يقول السلطان عبد الحميد: «الشيء الوحيد الذي استطاعوا تحقيقه ـ أي الماسونية ـ هو بذر الشقاق والعصيان في البلاد وفي صفوف الجيش، دون أن يدروا أنهم يعملون لحساب انجلترا التي تذرعت بنشر الأفكار التحررية في أمبراطوريتنا، بغية اضعاف قدرتنا»(١).

وقد ذكرت سابقاً أن الانجليز الذين دفعوا جمال الدين الأفغاني للعمل على تقويض الحكم التركي، كما ذكر ذلك السلطان عبد الحميد في مذكراته فعمالة الحركة الماسونية ثابتة بلا ريب.

كما أن الحركة الماسونية كانت وكراً للتجسس، تستقي اليهودية العالمية منها أخبار الأمم، ثم تخطط بموجبها المؤامرات لضرب من يخالف مبادئها يقول هرتزل: «وإلى أن نرقى إلى سدة الحكم ننشىء ونضاعف عدد المحافل الماسونية في أقطار المسكونة، ونجلب إليها كل كفء، لأن يكون عاملاً مفيداً، ونتخذها مقراً أساسياً لاستقاء المعلومات»(٢).

ولذا كانت المحافل تعمل جاهدة على ضرب الحركات الوطنية والتضييق على رؤسائها، حتى تبقى تابعة لتلك الدولة الاستعمارية التي تحرك هذه المحافل.

يقول الكاتب عوض خوري: «وعند قيام أية حركة تحررية في العراق، كان المحفل الانجليزي يوفر لأنصاره في العراق، بضرورة ضرب هذه الحركات، وعزل رؤسائها، وحرمانها من موارد رزقها، لتجثوا صاغرة أمام جبروت الماسونية»(٣).

---

(١) المذكرات السياسية (للسلطان عبد الحميد) ٧٣.

(٢) من مقررات مؤتمر بال ١٩٦٧م ـ أسرار الحركة الماسونية ١٢.

(٣) تبديد الظلام ٤.

وحتى الأموال التي يقبضونها، تأتيهم عن طريق الدولة التابعة لها، ولذا وجدنا جمال الدين يتنقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر بأموال تأتيه من المحافل التي يعمل لأجلها، إذ كان لا يعمل في مهنة وليس له مرتب، إلا ما كان يأخذه من الحكام عندما يكونون على وفاق معه، مع أن ما يأخذه لا يكفيه لحاجته الحاضرة، وقد تنبه لهذه النقطة السلطان عبد الحميد، وبينه في مذكراته، فقال: «المحافل وخاصة الفرنسية والايطالية ترسل إلى المنتسبين وعوائلهم إذا أخرجوا من البلاد النقود»[1].

وحتى الصحف والمجلات التي تصدر في ذلك الحين، كانت تمول بأموال مشبوهة، وهذا ما يجعلنا نقول بأن مجلة العروة الوثقى كانت تمول بأموال أجنبية، مثلها كمثل أي صحيفة أخرى تخدم الماسونية، يقول السلطان عبد الحميد: «إن الصحف التي صدرت في أوروبا ومصر بمختلف أسمائها، ورجال الجمعية الذين يتنزهون في هذه البلاد لم يخرجوا للبلاد كاتباً جاداً واحداً، ولكن محافل الماسون ـ رغم كل تعقبنا لهم ـ جعلت من هؤلاء المتسكعين أعلاماً... (إلى أن يقول السلطان عبد الحميد): لا بد للتاريخ يوماً أن يفصح عن ماهية الذين سموا أنفسهم (الأتراك الشباب) أو (تركيا الفتاة) وعن ماسونيتهم.

استطعت أن أعرف من تحقيقاتي أن كلهم تقريباً من الماسون وأنهم منتسبون إلى المحفل الماسوني الانجليزي، وكانوا يتلقون معونة مادية من هذا المحفل ولا بد للتاريخ أن يفصح عن هذه المعونات وهل كانت معونات انسانية أم سياسية»[2].

ومما يجب التنبه اليه، أن بعض الناس يظنون أن المحفل الذي أنشأه جمال الدين الأفغاني مستقل عن أي دولة، وإنما هو محفل وطني خاص بمصر، هذا الظن خاطىء تمام الخطأ، فقد كان جمال الدين تابعاً

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد ٦٠.
(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد ٤٩.

لفرنسا في تمويل المحفل، ويتلقى الأوامر من باريس، مع الارتباط الوثيق باليهودية العالمية التي كانت تسير جميع المحافل على اختلاف أنواعها»(١).

ثم يجب أن لا نخدع بالخلافات الشكلية بين المحافل، فعندما نسمع أن المحفل الانجليزي يهاجم المحفل الفرنسي، أو أن جمال الدين ترك المحفل الانجليزي، وألف محفلاً تابعاً لفرنسا، كل هذا لا يجعلنا ننسى أن المحافل لا تختلف في الغايات وإنما تختلف في الشكليات.

ولذا فإن العداوة المستحكمة بين المحفل البريطاني والمحفل الفرنسي تلاشت وذهبت أدراج الرياح عندما تحالفت انجلترا وفرنسا، لتثبت أن المحافل تعمل بأوامر هذه الدول المستعمرة.

يقول الأستاذ عبد الرحمن سامي عصمت: «من المضحكات أن المحفل الأكبر الوطني المصري والشرق الأعظم الوطني المصري، والمحافل التابعة لكل منهما في مصر، كانوا مقاطعين بعضهم البعض، ولا يعترف الفريق الأول بالثاني، ولا الفريق الثاني بالأول. ولكن لما تمت اتفاقية عام ١٩٠٤ بين انجلترا وفرنسا عاد أعضاء هذين المحفلين، بفضل هذه المعاهدة، اخواناً»(٢).

ويقول الدكتور الزعبي: «إذا علمنا هذا تحققنا أن جميع المحافل التي أسست في الشرق لا سيما بعد عام ١٧٤٠ سواء أكانت فرنسية... أو انجليزية... والشرق الاسكتلندي والشرق الأكبر الوطني المصري، جميعها مشمولة الرعاية الأجنبية والتبعية(٣).

عندما اختلف جمال الدين مع المحفل الاسكتلندي، كان بسبب السياسة، وموقفهم من اسماعيل باشا، فالمحفل الاسكتلندي لا يريد مهاجمة الخديوي، إذ أنهم كانوا حتى تلك اللحظة لم يتلقوا أوامر من لندن بمهاجمته، رغم أنهم يعترفون أن وجود الخديوي اسماعيل باشا في الحكم ليس من مصلحتهم، ولكنهم كانوا يرتبون الأمور، ولا يعملون

---

(١) أسرار الحركة الماسونية ٣٨.

(٢) الصهيونية والماسونية ٨٤.

(٣) الماسونية في العراء ٧٠.

عملاً قبل أوانه فتنكشف مخططاتهم، وإلا فإن انجلترا كانت حريصة على احتلال مصر منذ زمن بعيد، ولكن جمال الدين كان يريد التعجيل بالقضاء على اسماعيل باشا، ولو عن طريق الاغتيال، فلما وجد المحفل الاسكتلندي لا يرغب في ذلك، تركه وتوجه إلى المحفل الفرنسي لأنه كان يرى ضرورة التخلص من اسماعيل باشا. وعلى كل حال لم يخرج عن التبعية للصهيونية العالمية، وهذا ما عبر عنه جرجي زيدان إذ يقول: «فمحفل الشرق الأعظم الوطني المصري إذن، تابع لمحفل يهودي من محافل الصهيونية في فرنسا»(١).

الماسونية دعوة إلى المروق من الدين:

أول ما يلفت النظر في هذه الجمعية أنها تجمع مختلف الأديان تحت شعار الأخوة، وحتى المحفل الذي أسسه جمال الدين، كان يجمع فيه مختلف الأديان، يقول الدكتور توفيق طويل: «وقد أنشأ الأفغاني في مصر محفلاً ماسونياً يلتقي فيه أتباع الديانات المختلفة عند قضية الحرية»(٢).

وحتى تعاليم الماسونية المكتوبة، تدعو إلى الالحاد والكفر، رغم وجود أديان مختلفة فيها، ولا بد لمن تدرج فيها ووصل إلى مراتبها العليا، أن يكفر بالأديان جميعاً، يقول عوض الخوري: «الشعب العربي عرف أن الماسوني كافر لأنه يعتنق أفكاراً وافدة هدامة للدين والوطنية.

فالفرد الماسوني كان خارجاً على الملة ومرتداً يجب قتله... إن كتاب أسرار الماسونية قد فتح عيون المثقفين، ولكنهم كانوا لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً لأن كبار الشخصيات كانت قد اعتنقت الماسونية، فأصبحت أسيرة للمحافل الانجليزية والفرنسية...(٣)».

لذا كان خطر الماسونية عظيماً على الأمة الاسلامية وعلى كل من

---

(١) الصهيونية والماسونية ٨٩.
(٢) الفكر العربي في مائة سنة ٣٣٤.
(٣) تبديد الظلام ص ٤.

يدخلها، لأنه يصبح أسيراً لهم، يطيعهم طاعة عمياء، فهو يخاف بطشهم.

المبتدئون لا يعرفون من الماسونية إلا العمل الانساني، الذي تتظاهر به، ومتى أصبح أستاذاً أو أستاذاً أعظم، كما هو الحال بالنسبة للأفغاني ومحمد عبده، أطلعوه على أسرارها وخفاياها، فلو باح بها تعرض للموت، فليس أمامه إلا كتمانها، إن كان يريد الحياة.

وقد نشرت مجلة هدى الاسلام فتوى صادرة من المفتي العام للمملكة الأردنية، نذكر مقتطفات منها: «نقل عن كثير من أقطابها ـ أي الماسونية ـ ما يدل على الكفر والالحاد، والظاهر أن هذا ما ينتهي إليه الداخل فيها، أما في البداية فيبقى محجوباً عن هذه الغاية، وهذا هو السر في اننا نرى بعض المسلمين من المبتدئين فيها يحافظون على الصلاة.

والدليل على أن هذه الجمعية من بدع اليهود، ما فيها من شارات يهودية كمثل نجمة سليمان، وأن اليهود هم الذين يقومون عليها، لا يظهر دعاتها من أمرها، إلا ما يكون بمنزلة الطعم الذي يكون في الفخ للصيد وهو انها دعوة إنسانية، وفيها للداخل نفع كبير، وخير كثير، وأنه إن لم يكن موظفاً فسيوظف، وإن كان موظفاً فسيرفع إلى أعلى المراتب وأكبر المناصب وهلم جرا.

والذي نفتي فيه من مبادىء هذه الجمعية، ما نقطع به وهو تقديم الأخوة الماسونية على الأخوة الدينية، والأخوة القومية، وهذا في حقيقته ومآله هو تقديم للماسونية على الدين، وهذا عند التأمل كفر... وان مبدأ الماسونية، هذا الذي يقوم على تقديم الأخوة الماسونية، يضمن الموالاة للأخوة اليهودية...

وإذا استفتانا أحد أنه هل يجوز أن يدخل الماسونية فان فتوانا أنه لا يجوز»[1].

---

(١) أسرار الحركة الماسونية ٤٥ ـ ٥١، نقلاً عن مجلة هدى الاسلام الصادرة في شهر تشرين الأول ١٩٦١.

وهذه الأخوة الانسـانية هي التي شـوقت جمال الـدين الأفغاني وجعلته ينخرط في سلك الماسونية، كما ذكر هو عن نفسه، وتقدم ذكر ذلك فيما سبق، كما أنه أدخل في الماسونية أديب اسحق وهو نصراني صليبي، وأدخل كذلك يعقوب صنوع وهو يهودي من أب وأم، وهؤلاء يعتبرون اخوة لجمال الدين الأفغاني، لأن الماسونية تجمعهم، فهل بعد هذا نحسن الظن به ونقول بأنه دخل الماسونية لينشر الاسلام فيها.

ثم إن الماسونية لا تعترف بالأديان، فلا يغتر أحد بذكر الله في محافلهم، فهذا للمبتـدئين، فقـد ورد أنهم يقسمون بمهنـدس الكون الأعظم، ويقولون بأن شعارهم يتوسطه حرف (G) وهو أول حرف من لفظ الجلالة وهو (God) ومعناها (الله)»[١].

ولكن لماذا اختاروا اسم (مهندس الكون الأعـظم) ولم يختاروا غيره، إلا لأنه يوافق البناء الذي يشتق منه اسمهم وهو (الماسـون) ومعناها (البناؤ ون).

وفي كل محفل من محافلها يوضع لوحات يكتب عليها عبارات، وتعتبر هذه العبارات كدساتير يجب الالتزام بها، وفي اللوحة رقم ٣ مكتوب عليها العبارة الآتية: «إذا كنت تتمسك بالقيم الانسانية فاخرج، لأن هذه القيم لا وجود لها هنا»[٢].

وانكار الدين ليس بالأمر الجديد على الماسونية، فهو معروف قبل أن ينشىء جمال الدين محفله بـ١٥ سنة ففي مؤتمر الأقطاب الذي انعقد في سنة ١٨٦٥، في مدينة لييج خطب لامالاك في الطلاب الوافدين من ألمانيا واسبانيا وروسيا وانجلترا وفرنسا قائلاً: «يجب أن يتغلب الانسان على الاله، وأن يعلن الحرب عليه وأن يخرق السموات ويمزقها كالأوراق، وان الالحاد من عناوين المفاخر.. وسوف نعلنها حرباً شعواء على العدو الحقيقي الذي هو الدين... ويجب ألا ننسى بأننا نحن

(١) أسرار الحركة الماسونية ٣٨.
(٢) أسرار الحركة الماسونية ٥١.

الماسونيين أعداء الأديان، وعلينا أن لا نألوا جهدا في القضاء عليها، ومن ذلك سوف نتخذ الانسانية غاية من دون الله[1]».

ومدينة (ليبج) التي خطب فيها لامارك تقع في بلجيكا.

ويأتي الدكتور الزعبي بنصوص كثيرة عن الحاد المعتنقين للماسونية، ثم يقول: «ورغم الكتمان فان البعض صرح علناً بأن الماسونية تحارب الدين، فهذا جرجي زيدان يصرح بحرب الماسونية للأديان، وعبد الحليم الياس الخوري يقول بمعرض الرد: (لم يبق أحد يؤمن بالله والخلود والنفس إلا البلهاء والحمقى)[2]. علمًا بأن جرجي زيدان ترجم لجمال الدين الأفغاني وجعله من كبار المصلحين في العصر الحاضر، ويذكر بأنه من أعضاء الحركة الماسونية بل إنه مؤسس الماسونية في مصر.

ثم يذكر الدكتور الزعبي بعد تصريحات جرجي زيدان وعبد الحليم الخوري، خداع بعض الماسونيين وادعائهم بأن الماسونية لا علاقة لها بالأديان، وإنما هي حركة انسانية فيقول: «ومع كل هذا الهجوم السافر الذي تدعمه نصوص الماسونية الصريحة، لا سيما في الدرجتين ١٨ و٣٠ لا يزال حنا أبو راشد يكرر ما يردده العميان قائلاً: «الماسونية لا تتداخل بالأديان»[3] علمًا بأن الدرجة ١٨ , ٣٠ تعتبر من درجات الماسونية الابتدائية، وللوصول إلى مرتبة أستاذ أعظم كما هو الحال بالنسبة لجمال الدين، لا بد أن يجتاز الدرجة ٣٣ في الماسونية ويكون بذلك قد اجتاز الدرجة ١٨ , ٣٠ التي ذكرها الدكتور الزعبي.

فهذه النصوص تدل دلالة قاطعة على أن من دخل في الماسونية وتدرج في سلم الرقي فيها، لا بد أن ينبذ الأديان كلها، ولو تظاهر هو بالصلاة والصيام، ولو ادعى أنه مسلم موحد.

---

(١) أسرار الحركة الماسونية ٥٢.
(٢) الماسونية في العراء ٧٣.
(٣) الماسونية في العراء ٧٣.

وسيأتي معنا كيف أن خصومه كانوا يأخذون عليه مروقه من الدين وقوله بوحدة الوجود ونظرية دارون.

ولقد كانت جناية جمال الدين الأفغاني على مصر عظيمة جداً، وابتدع فيها بدعةٍ لا زالت آثارها باقية حتى اليوم وهي افساد الأزهر، وقد ترتب على ذلك افساد الشعب عامة. فهو الذي أدخل شيوخ الأزهر في الماسونية، وأصبح شيخ الاسلام وظيفة لا يصل إليها إلا الماسوني، والمفتي وظيفة لا يصل إليها إلا الماسوني»[1]

كما أنه أفسد رجالات السياسة والجيش، فالثورة العرابية قامت على أكتاف رجال الماسون، وكان هناك تعاون وتشاور بين المحفل الماسوني الذي أنشأه جمال الدين الأفغاني وبين الحزب الوطني الحر الذي يضم معظم رجالات السياسة[2].

يقول الدكتور محمد محمد حسين بما معناه «لعبت الحركة الماسونية مع الحزب الوطني الحر دوراً خطيراً في اشعال نار الثورة العرابية العشوائية ويقال بأن (بلنت) كان وراءها وجميع القادة كانوا من الحركة الماسونية»[3].

لذا كان مصطفى صبري يعيب على علماء مصر، بأنهم منقادون مع كل ناعق، في حين أن علماء تركيا كانوا على جانب عظيم من الفطنة فلم يستطع أي مخرب أو زائغ أن يلعب بعقولهم، اسمع إلى قوله: «وقد ساعد المؤامرة المختلطة الماسونية المعروفة بمبادئها ضد الدين، فكان لانتساب أقطاب الأزهر منذ عهد محمد عبده وجمال الدين الأفغاني مما لم يعهد مثله في علماء تركيا معناه»[4].

---

(١) الأعمال الكاملة ٣٥.

(٢) الأعمال الكاملة ٣٥.

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١٥٣ / ١.

(٤) موقف العقل والعلم والدين من رب العالمين ٣٤٢ / ١.

هل كان جمال الدين مخدوعاً أو جاهلاً بمبادىء الماسونية:

زعم بعض الناس أن جمال الدين كان مخدوعاً بعنوان الماسونية (حرية ــ مساواة ــ اخاء)، وانه كان يجهل صلتها بالصهيونية، لأن بروتوكولات حكماء صهيون، ومبادىء الصهيونية لم تنشر إلا في وقت متأخر، بعد وفاة جمال الدين الأفغاني.

هذا الزعم باطل من أساسه، لأن الماسونية كانت مكشوفة لدى الكثير من الصحف فقد تصدت لذلك جريدة البشير الجزويتية الصادرة في بيروت للماسونية فهاجمتها وكشفت أسرارها[1].

وقد تصدت لهذه الجريدة صحف مصرية ماسونية مثل: اللطائف، والمقتطف والبيان والفلاح والنصوح والمقطم، وكان جمال الدين آنذاك حياً.

كما صدر بعض الكتب المناهضة للماسونية، قبل وفاته، ككتاب (الحقيقة الاسرائيلية) عام ١٨٩١ وجاء فيه: «الروح الماسونية هي نفسها الروح اليهودية لا اختلاف في معتقداتها الأساسية، فآراؤها متماثلة»[2].

وصدر كتاب (شيعة الماسونيين) عام ١٨٨٤ و١٨٨٥.

ومن أراد التثبت من صحة ما تقدم فليرجع إلى هذه الصحف والكتب التي ذكرتها ليتحقق من ذلك.

---

(١) الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال.: ٣٠٩.

(٢) الماسونية ــ أحمد عبد الغفار عطار. ص ٦٠.

الباب الثاني

تحليل وتقويم دعوة
جمال الدين الأفغاني

وتشمل على الفصول التالية:

(١) الفصل الأول: أركان دعوته.
(٢) الفصل الثاني: تلاميذه ومن تأثر بدعوته، وخصومه.
(٣) الفصل الثالث: وسائله في نشر أفكاره.

الفصل الأول

أركان دعوة جمال الدين الأفغاني

تمهيد: اختلفت الأقوال في تحديد نوع دعوة جمال الدين الأفغاني، ويرجع سبب الاختلاف، الى نظرة المترجم، حباً أو كرهاً.

فتلاميذه والمعجبون به يرونه داعية اسلاميا في مصاف الأنبياء والمرسلين، وأعداؤه ومبغضوه يرونه زنديقاً مارقاً من الدين.

وعلى هذا يمكن تصنيفهم ــ باختصار ــ الى الفئات الآتية:

١ ــ فئة تصفه بأنه رجل السياسة، المتفرد في عصره، وقد أفردنا لهذا البحث فصلا مستقلا يمكن الرجوع اليه.

٢ ــ وفئة تراه داعية الى تجديد الشرق الاسلامي، والنهوض به الى مصاف الدول الأوروبية المتحضرة، ولذا نراهم يطلقون عليه اسم المجدد أحياناً، وباعث الشرق أحياناً أخرى، وغير ذلك. وأنه من دعاة توحيد الشرق.

٣ ــ وبعضهم يراه داعية اسلاميا، أفنى حياته من أجل الاسلام ورفعة مكانته.

٤ ــ وآخرون يدعون انه صاحب دعوة الى التحرر والانطلاق من كل قديم.

٥ ــ ووجد البعض، نصوصا تشير الى دعوته للاشتراكية، فقالوا بأنه داعية من دعاة الاشتراكية.

٦ ــ وأخيرا يرى بعضهم أنه كان صاحب دعوة وطنية أمثال مصطفى كامل في مصر، والكواكبي في سوريا، على أساس (الدين لله والوطن للجميع).

في وسط هذا الخضم الواسع من الدعاوي يصعب تحديد نوعية دعوته، في بحر من النصوص التي يستند عليها كل من هؤلاء، ولذا يتحتم علينا أن نعرض أقوال هؤلاء جميعا وأدلتهم، ثم نوازن بينها لنصل الى أرجح الأقوال وأصحها.

وقبل الخوض في هذا البحث يجب أن نعلم بعض الأمور التي تتعلق بشخص جمال الدين الأفغاني، ثم بعدها نضع كل دعوى في هذا الميزان، لما لهذه الصفات المتعلقة بجمال الدين من تأثير عظيم في دعوته، غفل عنها الكثيرون، فراحوا يتخبطون في تأويلات بعيدة وتفسيرات غامضة.

من هذه الصفات، أنه يدعو من خلال مخططات مرسومة من قبل الماسونية العالمية، فهو ماسوني قلبا وقالبا، ولا يتحرك الا بأمرها، ولهذا كانت ترجمات الكثيرين متعثرة وادعاءاتهم باطلة.

ومن الصفات التي كان لها الأثر الأكبر في تسهيل دعوته وانطلاق تحركاته، دعوى الأفغانية، وهو منها براء، ودعوى السيادة وهو عري عنها.

أما الصفة الأولى وهي الماسونية، فقد اشبعناها بحثا، وأثبتنا بالدليل القاطع والبيان الساطع أنه ماسوني عريق في ماسونيته، ولم يكن سطحيا أو هامشيا.

أما الصفة الثانية والثالثة وهي الأفغانية والسيادة، فقد ألمحت الى ذكرها سريعا، دون ذكر دليل على أصله، وها أنا ذا أعود الى بحث أصله ونسبه.

أصله: لم يختلف المترجمون في شيء من سيرة جمال الدين كاختلافهم في أصله ومذهبه، ولذا نجد كبار المترجمين يتيهون في بحر لا آخر له، ولا يخرجون بشيء مقنع، يضع الأمور في نصابها.

إن معرفة أصل جمال الدين، أمر مهم في تحديد دعوته، كما كان لادعائه الأفغانية صدى كبير في البلاد التي كان يتجول فيها، وزاد على ذلك ادعاؤه النسب الشريف، ومعروف لدى الناس جميعاً قيمة هذا النسب ورفعة منزلته في الدولة العثمانية خاصة، وفي العالم الاسلامي عامة.

وعلى هذا فلا بد من معرفة أصله ونسبه..

قلت ان المترجمين اختلفوا في أصله وموطنه اختلافاكبيرا، فمنهم من يقول بأن أصله من أفغانستان، ومنهم من يقول بأن أصله من ايران ويترتب عليه أنه سني أو شيعي.

بلاد الأفغان يقطنها شعب سني المذهب، وهم على المذهب الحنفي، وقد يوجد قلة قليلة جدا من الشيعة لأنها متاخمة لايران.
فعندما نقول فلان أفغاني، فيتبادر الى الذهن مباشرة أنه سني حنفي، ولا يحتاج الى أن يعرف بنفسه، خلافا لغيرها من البلاد، ففي بعض البلدان مذهبان متساويان كما هو الحال في اليمن، فالزيدية والشافعية، مذهبان متعادلان، فلا بد من تعريف الرجل عندما نقول هذا يمني، اذ قد يكون شافعيا وقد يكون زيديا. وهناك بعض البلدان تنتشر فيها عدة مذاهب، كما هو الحال في بلاد الشام والحجاز ومصر، والذي يهمنا من هذه المقدمة أن جمال الدين نسب الى أفغانستان ليفهم مباشرة انه سني حنفي.

أما ايران أو بلاد العجم، فكانت أقوى مركز للشيعة في العالم الاسلامي، ومنها يصدر كل شيعي، ورغم أن العراق مهد التشيع، ومبدأ انطلاقه، الا أنه أصبح في الدرجة الثانية بعد ايران.

ولذا فعندما يقال فلان ايراني، فأول ما يتبادر الى الذهن أنه شيعي، وأنه رجل خطير يجب الحذر منه، لا سيما في الدولة العثمانية.

هذه الفكرة كان يعلمها جمال الدين الأفغاني، خرج من بلده ايران وهو يحمل أفكاراً غريبة، درس في بلاده وفي العراق المذهب الشيعي حتى تأهل لأن يكون مجتهدا ـ وهذا باجماع المترجمين ـ فلو أفصح عن بلده الأصلي لعلم الناس أنه شيعي ولكان موقفهم منه موقفا لا يساعده على نشر أفكاره وبث مبادئه لذا بحث عن وصف ينتحله ليساعده على أداء مهمته، فكان اختياره للأفغانية.

هذا شيخ الشيعة، آغابزرك الطهراني، يعرف به تعريفا وافياً فيقول:

« السيد جمال الدين الهمذاني المشهور بالأفغاني (١٢٥٤ـ ١٣١٤):

هو السيد جمال الدين بن السيد صفدر بن السيد علي الميرزين الدين... »

(وفي الحاشية تعليق على كلمة المشهور بالأفغاني قال: «... وقد رأينا أن أصدق من كتب عنه ابن اخته الميرزا لطف الله الاسد آبادي الهمذاني تلميذه وخريج مدرسته، الذي كان بخدمته في أغلب جولاته في الشرق والغرب، فقد كتب في أحواله رسالة فارسية مفصلة عن طريق المعاشرة والمخالطة لا السماع وهي أصح ما كتب عنه...

وأما ما كتبه عنه تلميذه الثاني مفتي الديار المصرية وفيلسوفها الشيخ محمد عبده فليس فيه كذب وتمويه وانما هو كتب ما سمعه من أستاذه المترجم له، لكنه أعطاه من جراب الثورة (على اصطلاح المحدثين والرواة ») ثم يتابع الكاتب ترجمته فيقول: « ابن الامام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام» (حاشية «عند نهاية النسب»: « توجد في كوى اسيدان من توابع أسد آباد همذان شجرتان في نسب المترجم احداهما بخط السيد سيف الدين بن السيد عبد الوهاب بن سيف الله بن محمد علي. والأخرى بخط امام الجمعة السيد المير شفيع. وليس فيهما أي اختلاف أو تفاوت، وهذا النسب في غاية الصحة، وهو هناك كالشمس وضوحا وجلاءا، فان كاتبي الشجرتين من سادة أسد آباد الأجلاء المعاريف المجاورين لدار والد

السيد جمال الدين.»). [1].

ثم يعلق بعد ذكر هذا النسب بقوله: « من أعاظم الفلاسفة وكبار رجال الشيعة المصلحين». ثم يتكلم عن أصله وأسرته الشيعية فيقول:

« السيد جمال الدين من بيت علم وشرف ورياسة وجلالة في أسد آباد همذان، يعرف بطائفة شيخ الاسلام، لكونه منصب بعض اسلافه، وهو بيت قديم هناك فقد توفى بها جده الأعلى السيد عبدالله، المعاصر للامام زاده احمد في (٨٦٢) وتعاقب فيها أحفاده الى اليوم، ففي (كي سيدان) من أسد آباد، بجنب مرقد الامام زاده احمد المذكور، قبور مشيدة وألواح صخرية على قبور قدمائهم...

وبالجملة فكونه همذانيا أسد آبادياً مما لا يعتريه شك أو شبهة...

وأما ما طفحت به كتب الغربيين وبعض المصريين من نسبته الى الأفغان، فهو مما لا نصيب له من الصحة، على أن سبب اشتهاره بذلك كان على عمد منه، فقد نسب اليها نفسه في مصر وما والاها، تعمية للأمر، ورجاء بلوغ الهدف، وحصول الغاية. ولولا ذلك لما سمي بحكيم الاسلام، ولا لقب بفيلسوف الشرق، ولا كانت له هذه الشهرة الواسعة، ولا انزله الصدر الأعظم علي باشا في استنابول منزلة الكرامة والعزة، ولا عظمه ملوك عصره ووزرائه، ولا عين عضوا في مجلس المعارف ولا عينت له حكومة مصر الف قرش مصري شهريا، ولا عكف عليه طلاب مصر وفضلاؤها وأخذوا عنه، ولا اتخذوه مرشداً وموجهاً ودليلاً هادياً، بل لشنوا عليه الغارات وألصقوا به أنواع الشبهات، ونسبوا اليه الهفوات ووو.

وبالجملة فليس له في الأفغان أية علاقة اذ لم يولد بكنر، ولم ينتقل مع أبيه الى كابل، ولم ينفهما دوست محمد خان أمير الأفغان، ولا كانت لبني عمه سيادة على شيء من أراضيها، ولا يعرف عنهم الأفغانيون

---

(١) طبقات أعيان الشيعة جـ١ ص ٣١٠.

شيئا، فضلا عن أن يكون لهم منزلة في قلوبهم وحرمة لنسبهم، اذ لم يمتوا الى السيد علي المحدث الترمذي بصلة ولا رحم، وانما هذه أمور أملاها المترجم له على تلميذه الشيخ محمد عبده شارح (نهج البلاغة) مبالغة في تعمية الأمر واغراقا فيه، والا فالأمر أوضح من أن يخفى[1].

ويكفي الشيعة الامامية فخرا في اقبال مصر ورجالها أن يكون معلمها الأول ورئيس نهضتها الحديثة الشيخ محمد عبده تلميذا للمترجم له، فقد صرح غير مرة بأنه أخذ كلما عنده منه، واعترف ـ في مقدمته التي كتبها لرسالة المترجم له، في الرد على الدهريين، بالعجز عن تحديد منزلته العلمية ووصفها...»[2].

فمن كلام آغابرزك، المترجم الشيعي، يفهم أن جمال الدين هو الذي أملى على تلميذه محمد عبده انتسابه للأفغان، ومن محمد عبده

(١) ويؤيده في ذلك الإمام محسن الأمين في كتابه: السيد جمال الدين الأفغاني يقول في ص ٦ من الكتاب:

«كل ذلك لا نصيب له من الصحة بل يشبه قصص ألف ليلة وليلة، والظاهر أن جمال الدين كان يملي هذه القصص على تلميذه الشيخ محمد عبده مبالغة في تعمية الأمر واغراء في اثبات انه أفغاني.

فالرجل إيراني، أسد آبادي، همذاني لا أفغاني ولا كابلي ولا كنري، بل لم ير الأفغان ولا كابل في عمره، وعشيرته في أسد آباد حتى اليوم لم تكن لها سلطة على جزء من أرض الأفغان ولا دخل الأفغان واحد منها...» إلى أن يقول في ص ٧:

«وكل ما بني على كونه أفغانياً من دخوله في سلك رجال الحكومة الأفغانية وحضور بعض حروبها وميله إلى بعض أمرائها وحلوله عنده محل الوزير وإرادة بعضهم الغدر به وخروجه منها بحجة الحج؛ كله لا أصل له، أريد به تكميل القصة المخترعة تمهيداً لكيفية وصوله إلى مصر وغيرها، وبياناً لسببها المخترع، ولعله كان يجب أن يظهر أنه منفي من قبل شاه ايران أو كان يريد أن يبالغ في تحقيق أفغانيته والتي ألبس نفسه إياها ومذهبه شيعي كما هو مذهب ابائه وأجداده وعشيرته وأهل بلده، حنيفي جعفري لا حنفي، فأنظر إلى هذا الأمر الذي اشتهر وشاع بين الناس».

(٢) طبقات أعيان الشيعة ٣١٢/١.

انتشر هذا النسب وشاع، ولم يكن هناك مصدر آخر لدى المترجمين جميعا في معرفة أفغانيته أو عدمها، غير هذا المصدر. . .

يقول جمال الدين عن نفسه: « لقد جمعت ما تفرق من الفكر، ولمت شعث التصور، ونظرت الى الشرق وأهله، فاستوقفني الأفغان، وهي أول أرض لمس جسمي ترابها. »[١].

وأحياناً كان يصرح بأن بلاده أفغانستان لا غيرها فيقول: « اني اضطررت لترك بلادي الأفغان مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض»[٢].

وأحياناً كان يعمي نسبته، فيجعل نسبه الى الأمة الاسلامية، فقد اجتمع في الآستانة مع الشاعر التركي عبد الحق حامد بك وقال له: « نعم لقد برهن السلطان عبد الحميد على عظمة نفسه لما ابى أن يسلمني الى الحكومة الايرانية، التي زعمت مراراً أنني من رعاياها، فكان دائما يرد طلبها، وأنت تعلم أنني لست ايرانياً ولست من رعايا الدولة، وانما أنا واحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم»[٣].

لذا كان الرافعي يستهجن على كل من ينسبه الى ايران اذ يقول: « وقد زعم بعض المتشككين أو المغرضين أن جمال الدين ايراني لا أفغاني، وهو زعم مختلق يراد به التشكيك في افغانية السيد العظيم»[٤].

ورغم ان الرافعي مؤرخ كبير ــ كما يقولون ــ ولكنه أخطأ في هذا، كان عليه أن يستقصي الأخبار والحقائق ولا يقتصر على كلام الأفغاني.

ثم ان الرافعي ليس له دليل سوى كلام محمد عبده وعبد القادر المغربي ودليلهما كلام الأفغاني نفسه، ولم يعرف عن أحد منهما أنه ذهب

---

(١) جمال الدين ــ قاسم ٤. جمال الدين ــ رافعي ٥.

(٢) جمال الدين ـ الرافعي ٥ .

(٣) مجلة الزهراء المجلد الأول ص ٦٤٠.

(٤) جمال الدين ــ الرافعي ٥.

الى افغانستان فسأل عن صحة ذلك، ولا وقع في ايديهما شهادة ولادته، ولا طلبا هويته الشخصية ، فكيف عرفا أنه أفغاني؟

وحتى الأمير شكيب ارسلان وقع في الخطأ نفسه، وجزم بأنه أفغاني، ولم يمحص الأمور اذ يقول: « ولقد لقيت في المدينة المنورة قبل الحرب العامة بأشهر السيد حسينا - أحد ولاة أفغانستان، ومن سادات كنر المشار اليهم، ومن أفاضلهم - وعلمت منه أن السيد جمال الدين - رحمه الله - هو منهم. كما اني سمعت ذلك من جميع رجال الدولة الأفغانية وسفرائها الذين جمعتنا بهم المقادير في اوروبا بعد تأسيس سفاراتهم بها»(١). هو لم يقل هذا القول الا بعد أن شاع في الأوساط التركية والعربية، أن جمال الدين ايراني وليس أفغانيا، وهذا بعد مقتل شاه ايران وكذا بعد خلع السلطان عبد الحميد، وربما بعد اسقاط الخلافة الاسلامية على يد الكافر المرتد المدعو مصطفى كمال أتاتورك.

فبعد كل هذه الرحلة الطويلة، لم يستطع التحقق من صحة دعوى نسبه، ثم ان هؤلاء الذين سألهم كلهم من أفغانستان، لماذا لم يسأل الايرانيين عنه ؟ ولماذا لم يسأل هؤلاء الأفغانيين عن دليلهم أو بقايا أسرته أو قبور أجداده ؟

لذا أستطيع القول بأن هؤلاء الأفغانيين انما ينقلون أقوال الناس وما اشتهر على ألسنتهم، أما التحقيق العلمي السليم فلم يفعله الأمير شكيب ارسلان.

ومن هذا القبيل أيضاً تصريحات احد السفراء الأفغان، وقد يكون هو نفسه الذي عناه شكيب ارسلان، وهو صلاح الدين السلجوقي سفير افغانستان في الجمهورية العربية المتحدة، اذ يقول: « كان أجداد السيد من ملوك الطوائف، وكان لهم نفوذ كبير في سائر أرجاء الوطن الأفغاني، ولا يزال أفراد هذه العائلة يطلق عليهم لقب (باشا) وهو لقب خاص بهم دون غيرهم، وأصل كلمة باشا آرية معناها الملك، فهؤلاء

١) حاضر العالم الاسلامي جـ٢ ص ٢٨٩.

السادات كانوا ملوكاً من جهتين: الأولى لأنهم ملوك الطوائف. والثانية لأن أحفاد النبي عليه الصلاة والسلام هم ملوك في نظر الأفغانيين من حيث الرتبة والشرف»[1].

وهذا الكلام مردود عليه، اذ لم نسمع عن احد من المقربين انه قال بأن جمال الدين من سلالة ملوك الطوائف، ولم يذكر أحد أن أسرته لا زالت باقية في أفغانستان وأنهم من الباشاوات، انما كانوا يدعون أنه من سلالة المحدث علي الترمذي، كما ذكرت في ترجمته ، والثابت أنه لا يوجد له أصول ولا فروع في أفغانستان، وكذا لا يوجد محدث باسم علي الترمذي، فمن أين حصل على هذه المعلومات؟

في حين لو استعرضنا أقوال الفريق الآخر الذي يقول بايرانيته، نجد عندهم الأدلة المقنعة التي ترجح انه ايراني شيعي.

فلنأخذ شهادة ابن اخته الايراني وهو الميرزا لطف الله خان الذي كتب في الأفغاني يثبت أنه ايراني من أسد آباد نقتطف منها قوله: «من المحقق أن جد فيلسوف الاسلام الأعظم السيد جمال الدين ـ قدس الله سره ـ قد توطن في أسد آباد منذ سنة ٦٧٣ هـ . وقد عُرفت أسماء آبائه وأجداده خلفا بعد سلف، ونسلا بعد نسل، من بعض الكتابات الموجودة وخصوصا من ألواح قبور أجداده التي تقع بجوار قبر الامام زاده احمد، في حي سيدان (السادة) القريب من منزل أبي السيد وأجداده منذ سنة ٦٨٢ هـ الى يومنا هذا ـ أي ما يقرب من ٤٧٧ سنة..»[2] ثم ان لطف الله خان يرفق كلامه هذا بصورة شمسية لمجموعة من علماء الشيعة بعمائمهم ولباسهم الايراني وفي وسطهم جمال الدين الأفغاني وابن اخته صاحب الكتاب المذكور.

وعندما راح يحدثنا عن سبب عودة جمال الدين الى ايران زمن ناصر الدين شاه، واسناد رئاسة الوزارة اليه، تعرض لأصله الايراني فقال: « وكان السبب في مجيئه الى ايران هو أن ناصر الدين شاه أثناء

---

(١) جمال الدين ـ أبو ريه ١٦ حاشية.
(٢) جمال الدين الأسد آبادي ٥٥.

سفره الى أوروبا سمع كثيرا عن السيد جمال الدين وعن اشتهاره وبُعد صيته ونفوذ كلمته، فرأى أن دعوته تكون مدعاةً لفخر الايرانيين ومباهاتهم في الأوساط الأوروبية، ولكن ظن أن السيد أفغاني ولم يعرف أنه ايراني، بيد أن المرزا حسن خان ـ صنيع الدولة ـ برهن للشاه أن السيد ايراني أسد آبادي »[1].

وقد قام بعض الكتاب بالرد على الميرزا لطف‌الله خان، وشنعوا عليه ونسبوا اليه الكذب والزور، وانه ما أراد في كتابه هذا وجه الله، وانما أراد به جر هذه الشخصية الفذة الى ايران، لتفتخر به وتعتز.

وأشد هؤلاء تهجما على لطف‌الله خان الكاتب الزائغ المعروف بموقفه المعادي للسنة النبوية، محمود أبو ريه في كتابه صيحة جمال الدين، ثم يليه في الرد على لطف‌الله خان الاستاذ سعيد الأفغاني في كتابه نابغة الشرق السيد جمال الدين، وكذا الدكتور محمد عمارة في كتابة جمال الدين الأفغاني الأعمال الكاملة، وغير هؤلاء.

ولو رجعنا الى ردودهم لوجدناها بعيدة عن المنهج العلمي، ولا يزيد ردهم على مجموعة سباب واتهام لا يليق بالمقام.

وبعض هذه الردود لا تخرج عن كونها خبرا يحتمل الصدق والكذب، وبعضها تعليل باهت يرده ما ذكر لطف‌الله خان في كتابه.

وهذه هي الردود:

يقول الأستاذ سعيد الأفغاني: «ولكن السيد الذي كان رأس ماله الصدق والشجاعة والصراحة، بريء من هذه الصفات، التي يحاول الخونة أن ينسبوها الى السيد الصميم الصريح الشجاع.

يقول أمثال ميرزا لطف الله؛ (ان السيد جمال الدين الايراني الشيعي كان يلبس قناع الأفغاني والسني زورا وبهاتانا، كي يتمكن من أن يجعل من ايران مركزا رئيسيا للعالم الاسلامي»[2]. ثم أخذ يعدد مآثر

---

(١) جمال الدين الأسد آبادي ٦١.

(٢) جمال الدين: سعيد الأفغاني ــ ١١. (نابغة الشرق).

جمال الدين ويرفع من قدره حتى أوصله الثريا اذ يقول: « كان السيد جمال الدين ـــ رحمه الله ـــ زعيما كبيرا للعالم الاسلامي والشرق والغرب والعجم و أفغان وايران والترك والهند، الذين كلهم اخوانه، مع أنه كان أفغانيا، كما قال واعترف في مواضع عديدة»[١].

ثم يذكر افتراءاتهم ـــ على حد تعبيره ـــ على جمال الدين الأفغاني فيقول: ولكنهم يقولون: ان السيد أقر بهذا القول تقية ونفاقاً، وأن الزعيم المسلم الكبيركان مرائياً منافقاً كذاباً. . »[٢].

ثم أخذ بالرد على لطف الله خان بعد أن ادعى أن جمال الدين والكاتب ولدا في قرية واحدة، وراح يبوب اجوبته وردوده على النحو التالي:

الرد الأول: أن اسم صفدر ليس وقفا على الايرانيين ـــ كما يدعي ـ لطف الله خان، وأنه يوجد في أفغانستان مثل هذا الاسم، ويقول بأنه كان يعمل عنده رجل اسم صفدر، ويوجد شخص آخر من سادات كنر بالاسم نفسه.

لقد انفرد سعيد الأفغاني بهذا الخبر، اذ لم نسمع من أحد غيره قال بأنه يوجد فيمثل هذا الاسم، ولو وجد فهو من النادر الذي لا حكم له، أو أنه شيعي مثله، لأن لطف الله خان لم يقل أن هذا الاسم حكراً على الايرانيين وانما هو من أسماء الشيعة القاطنين في ايران.

الرد الثاني: يقول سعيد الأفغاني تعليقاً على قول لطف الله خان بأن جمال الدين خادمه يسمى «أبو تراب» وهذا من تسمية الايرانيين الشيعة، يقول: ان أبا تراب لقب علي بن أبي طالب، وليس وقفاً على الايرانيين، فالجميع يحبون علي ويتسمون باسمه.

أقول ردا على الأستاذ سعيد، اذا لم يكن هذا الاسم ايرانياً، فهو دليل على أن صاحبه من محبي علي أو من شيعته. فهو وحده لا يكفي

---

(١) المرجع السابق ـــ ١١.

(٢) المرجع السابق ص ١١.

دليلاً للانتهاء وانما هو يعضد الأدلة القائلة بذلك.

الرد الثالث: وفيه يرد على لطف الله خان بادعائه أن جمال الدين كان يتكلم اللغة الفارسية بطلاقة وبلهجة بلاد ايران. فيقول إن جمال الدين كان يتكلم بعدة لغات منها الفارسية، فليست هذه حجة على ايرانيته.

والجواب على هذا الرد هو أن جمال الدين تعلم اللغات ـ غير الفارسية ـ لحاجته اليها، فعندما ذهب الى فرنسا تعلم اللغة الفرنسية، وعندما ذهب الى روسيا تعلم اللغة الروسية وهكذا، فلماذا تعلم اللغة الفارسية؟ مع العلم أنه كان يتكلم الفارسية منذ أن كان في الهند، وقد ألف هناك كتابه في الرد على الدهريين باللغة الفارسية وقام بترجمته الى العربية تلميذه وخادمه أبوه تراب بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده.

وبعد ان انتهى من ردوده على الميرزا لطف الله خان وهي ، كما بينا، لا تصلح حجة لاثبات افغانيته، ولا تصلح لرد حجج الميرزا لطف الله خان ، والتي ستأتي قريبا، فبعد هذا يأتي بأدلته على أفغانية جمال الدين والشهود الذين يشهدون بأن جمال الدين أفغاني، فراح يعدد المترجمين الذين قالوا بقوله مثل المستشرق بلنت وجرجي زيدان وعبد الرحمن الرافعي وغيرهم، لينتهي الى القول بأن اجماع المترجمين على أن جمال الدين أفغاني الأصل.

ولو رجعنا الى جميع هؤلاء الذين ذكرهم لوجدنا أن مصدرهم واحد، وهو تصريح جمال الدين نفسه، وقد أجبنا عن هذا سابقاً ولا حاجة لاعادة الرد.

ويقول الأستاذ سعيد الأفغاني بأنه يوجد في أفغانستان بعض أولاد عمومة جمال الدين وهم حسين باشا وعباس باشا وبابا باشا، وأن رجلا حدثه عن والد جمال الدين وكيف انتقل الى كابل.

وكلها دعاوى لا تقوم بها حجة، فهؤلاء الرجال الذين ذكرهم، كلهم مجاهيل ، فمن هو حسين باشا وكذا عباس باشا وبابا باشا؟ ثم ان

الرجل الذي حدثه عن والد جمال الدين لم يقل من هو؟ فهو في كل ذلك يعتمد على أشخاص مجاهيل لا يعرفهم أحد.

ومن الذين أصروا على أفغانية جمال الدين، الكاتب غلام حسين الموسوي الأفغاني حيث كتب كتاباً صغيراً لا يتعدى ٧٠ صفحة يرد فيه على الدكتور علي الوردي الذي اثبت بالأدلة العقلية والنقلية ايرانية جمال الدين، وقد قام بالرد عليه متبعا الطرق العلمية ولذا نجده صنف الرد على الشكل الآتي:

١ ـ تصريحات السيد، أي جمال الدين، وجاء بأقواله التي ذكرتها فيما سبق في أدلة القائلين على أفغانيته. ثم يأتي بصورة لورقة مخطوطة بخط جمال الدين تفيد أنه من سادات كنر ليرد على الدكتور الوردي القائل: (عثر في طهران على الكثير من أوراق الأفغاني ورسائله.. وفي عام ١٩٦٣ نشرت جامعة طهران كتاباً يحتوي على تلك الأوراق وهو زنكوغرافية لبعضها، وهو كتاب مهم جدا يستطيع القاريء أن يستنتج منه الكثير، من القرائن التي تؤيد كون الأفغاني ايرانياً وليس افغانياً) [(١)].

٢ ـ المدارك والشواهد الأخرى: وتحت هذا العنوان كتب أموراً كثيرة منها:

أ ـ مقالة لجريدة (سنت تيروزبورك) التي تصدر في موسكو يعترف الكاتب فيها بأفغانية جمال الدين، ولم يذكر الكاتب من أين عرف ذلك.

ب ـ بريطانيا طلبت من شرطة فرنسا عندما كان جمال الدين في باريس يصدر العروة الوثقى تزويدها بأصله وهويته فكتبت لها بأنه أفغاني ولم تذكر كيف عرفت أنه أفغاني.

ج ـ اسماعيل جودت يكتب الى جمال الدين رسالة وفيها يذكر أن

---

(١) الرد على الوردي ١٠.

جمال أفغاني الأصل وله أقرباء ونفوذهم كبير، ولا يقول من أين جاء بهذه المعلومات.

د ـ شخص اسمه حسن يكتب رسالة الى جمال الدين ويعترف بأفغانيته، ولا يذكر لنا من هو هذا الرجل ولا كيف عرف ذلك.

ه ـ جمال الدين الأفغاني ألف كتابا سماه (تتمة البيان في تاريخ الأفغان)، وهذا أيضا لا يصلح دليلاً فقد كتب في ايران مدحا واجلالاً في كثير من المقالات

و ـ بعد مقتل الشاه ناصر الدين طلبت ايران من تركيا تسليم جمال الدين فرفضت تركيا بحجة أن جمال الدين أفغاني وليس ايرانياً. هذه الحجة التي احتجت بها تركيا لم أسمع بها قط، ولم أجد أحدا يؤيدها، بل المحقق أن السلطة التركية اقتنعت بحجتهم ولكن لم تسمله لأمور سياسية.

٣ ـ أقوال المؤرخين: وهنا ينقل عن كتاب يدعى انهم مؤرخون وجميعهم ينقلون عن تلاميذ الشيخ جمال الدين أو عن جمال الدين نفسه، وابتدأه بأول هؤلاء المؤرخين فكان تلميذ جمال الدين وهو الشيخ محمد عبده، وكلنا يعلم أن محمد عبده ينقل كلام أستاذه حرفياً، وكذلك الأمر فان رشيد رضا ينقل عن أستاذه محمد عبده فليس هناك شيء جديد ثم ينقل غلام حسين عن أديب أسحق وهو تلميذ جمال الدين مثله. ثم عن محمد باشا المخزومي وهو صاحب كتاب مذكرات جمال الدين المسمى بخاطرات ولا يتعدى أقوال شيخه وأستاذه ثم ينقل أقوال محمد فريد وجدى من كتابه (دائرة المعارف للقرن العشرين) وقد رجعت الى كتابه، فوجدت أقواله كلها عن تلاميذ جمال الدين، ومثله جرجي زيدان الذي استشهد بأقواله بعد ذلك ثم بأقوال عبد الرحمن الرافعي وهو ناقل أيضاً، ثم يأتي بأقوال شكيب أرسلان وقد أجبنا على أدلته فيما مضى وعرفنا أنه لم تصله في ذلك الزمن التحقيقات والوثائق التي نشرت بعده بزمن بعيد وهي التي وصلت الينا ولذا كانت أدلته غير واقعية ولا تعتمد على حقائق واضحة. ثم يأتي بأقوال المشككين في أصله الأفغاني ويستشهد بهم على أنها أقوال تدعم رأيه من

هؤلاء الكاتب المشهور (عباس محمود العقاد) اذ يقول : (القول المشهور أنه هو وآباؤه وأجداده من أبناء الأفغان . . » .

ومن يدري فقد يكون هذا القول المشهور مكذوبا على صاحبه، ومن المشككين أيضاً عمر أبو النصر اذ يقول: « ولد على الأرجح في قرية أسعد آباد . . » وكلمة أرجح تدل على أن هناك قولاً صحيحاً وفي نظره أن القول الأصح والأرجح هو ما قاله فهذا رأيه وليس عنده ما يدعمه بدليل حسي ، ثم ينقل عن محمد عمارة وأحمد أمين وعثمان أمين وعبد الوهاب سكر وهو من علماء حلب ، وحيدر بامات ومحمد عبد الفتاح ومحمود قاسم و . . . و . . الخ وكلهم ينقلون نقلاً ولم يتعبوا أنفسهم في البحث والتنقيب .

٤ ـ أقوال المستشرقين: يأتي بنماذج لبعض المؤرخين وكلهم ينقل عن التلاميذ أو عن الشيخ نفسه أمثال المستشرق جولد سيهر اذ يقول: « لقد ذكر هو نفسه أنه ولد في أسعد آباد . . والمستشرق تشارلز آدمس ينقل عن تلاميذ جمال الدين فلا يعتد بقوله ، « والمستشرق بلنت وهو الصديق الحميم لجمال الدين والجاسوس البريطاني ، وكذا المستشرق براون و . . . و . . . الخ وكلهم ينقل نقلاً ولا يأتي بدليل واحد .

٥ ـ أقوال المحققين الايرانيين: وهنا يستعرض أقوال بعض علماء ايران على ان جمال الدين أفغاني ومع أن أقوالهم معظمها لا تدل على الجزم، فأول هؤلاء العلماء محمد القزويني اذ يقول: « السيد جمال الدين المعروف بالأفغاني . . . » والعالم الثاني مرتضى المدرس الجهار وهو يسوق أدلة عقلية ونقلية ضعيفة ثم يعقب على ذلك بقوله: « فأقوى دليل على كذب المدعين، هو اعتراف السيد بأفغانيته»، فاذا كان أقوى دليل هو قول جمال الدين فمعنى ذلك أنه لو جاء محقق واستطاع نقض كلام جمال الدين لم يعد هناك دليل على أفغانيته وقد حصل ذلك. ويستشهد الكاتب بكاتب ايراني هو السيد ابراهيم الصفاني الذي يقول: « السيد جمال الدين . . ولد . . في أسد آباد كابل ويصل نسبه الشريف للسيد علي الترمذي الذي توطن في زمن (بابو) مؤسس السلسلة التيمورية الهندية في أسد آباد . . . »، فالكاتب يكرر كلمة (أسد آباد) مما يدل على

أنه متحقق من ذلك ومعروف أن أسد آباد في همذان وليست من أعمال كابل، ثم انه يأتي بهذه المعلومات دون أن يذكر موردها ولا أصلها. ثم ينقل الكاتب عن الشيخ عباس القمي وعن السيد محمد علي الآستاني وأنهما أقرا بأفغانية جمال الدين ولم يذكر دليلهم في ذلك.

وهكذا ينتهي من أدلته كلها وقد تبين لنا أنها لا تصلح للاحتجاج وحجته في أفغانية جمال الدين داحضة لا يعتد بها، فخلص لنا أن جمال الدين ايراني.

ثم يأتي بأدلة الأستاذ الوردي الدالة على أنه ايراني وينقدها نقداً ضعيفاً مما يجعل أدلة الأستاذ على الوردي قوية ومحكمة.

هذا وقد استحصلت على أدلة الدكتور الوردي كما ذكرها في كتابه لمحات وهي كما يلي:

هل هو ايراني: من أهم الأسرار التي تحيط بحياة الأفغاني هو فيما يتصل بأصله ومسقط رأسه، فقد انقسم المؤرخون في ذلك الى فريقين: احدهما يذهب الى القول بأن الأفغاني ليس أفغانياً بل هو ايراني وأنه ولد في قرية أسد آباد التي هي من قرى همذان، أما القسم الثاني فيقول عنه أنه أفغاني حقاً وقد ولد في قرية أسعد آباد التي هي من قرى كنر القريبة من كابل.

اني بعد الدراسة التي قمت بها في هذا الموضوع أميل الى الرأي الأول أي أن الأفغاني كان ايرانياً ولم يكن أفغانياً. وقد دفعني الى هذا الرأي قرائن شتى أذكر أهمها فيما يلي:

أولا: هناك في قرية أسد آباد الايرانية أشخاص كثيرون يدعون أنهم أقرباء جمال الدين وتعرف هذه القرية عند أهل القرى المجاورة بـ «قرية جمال الدين» ولا تزال الغرفة التي ولد فيها الأفغاني باقية على حالها حتى الآن.

وأعرف صديقاً كان قد زار قرية أسد آباد قبل الحرب العالمية الثانية واجتمع بأخت الأفغاني فيها. ويعيش في النجف اليوم رجل دين مسن اسمه السيد حسن الحسيني الهمذاني وهو يدعي أنه حفيد عم الأفغاني، وقد زرته في أيلول ١٩٦٩ في الدار التي قيل ان الأفغاني كان يسكنها عندما كان طالباً في النجف. وليس هناك ما يدل على أن هؤلاء جميعاً يكذبون.

ثانيا: صدر في برلين عام ١٩٢٦ كتاب بالفارسية في سيرة الأفغاني بقلم المرزا لطف الله خان ويدعي المؤلف انه ابن أخت الأفغاني وأنه اجتمع به في طهران عند ذهاب الأفغاني اليها عام ١٨٨٦ ويحتوي الكتاب على صور فوتوغرافية واضحة تجمع الأفغاني والمرزا لطف الله خان مع زمرة من رجال الدين الايرانيين، وقد ترجم الكتاب الى العربية في مصر عام ١٩٥٧ ومن يقرأ الكتاب يشعر أنه لا بد أن يحتوي على شيء من الحقيقة قليلاً أو كثيراً اذ من المستبعد أن يختلق المؤلف صلته القريبة بالأفغاني على هذه الصورة المكشوفة. واذا كان الأفغاني أفغانياً حقاً فلماذا لم يظهر أحد من أقربائه الأفغانيين حتى الآن فيكذب المؤلف أو يتحداه على وجه من الوجوه؟

ثالثاً : كان الأفغاني قد زار ايران مرتين بدعوة من الشاه وقد ألح الشاه عليه ذات مرة أن يتولى رئاسة الوزارة فأبى. وهنا يذكر الشيخ عبد القادر المغربي أنه عند حضوره مجلس الأفغاني في اسطنبول سأله حول هذا الموضوع قائلا: (كيف يدعوك الشاه لأن تكون رئيس وزرائه مع انك من أهل السنة؟) فكان جواب الأفغاني: (ان ذلك كان من الشاه هوسا وجنوناً). ويعلق المغربي على هذا الجواب قائلاً: (ان ذلك دليل على أن الأفغاني لم يكن ايرانياً ولا شيعياً) ولست أدري كيف استنتج المغربي هذا المعنى من جواب الأفغاني مع أن الأفغاني كان يقصد به التهرب من ذكر الحقيقة كما هو ظاهر من القرينة.

رابعا: عندما اشتد العداء أخيرا بين الشاه والأفغاني أخذ أعوان الشاه يشوهون سمعة الأفغاني فأشاعوا عنه انه بابي وأنه غير مختون، ولكنهم لم يشيعوا عنه أنـه سني أو أفغاني وكان من السهل عليهم أن يفعلوا ذلك لو كان الأفغاني أفغانياً حقا. ومما يلفت النظر في هذا الشأن أن خصوم الأفغاني في اسطنبول كانوا كثيراً ما يتهمونه بالايرانية والتشيع وكان من هؤلاء أبو الهدى الصيادي اذ كان يصف الأفغاني بـ «المتأفغن» ويقول عنه انه «مازندراني» من أجلاف الشيعة.

خامسا: المعروف عن الأفغاني انه كان أثناء تجواله في الأقطار المختلفة يتصل بالايرانيين وقد ينزل في ضيافتهم أحياناً، فهو عند مروره بقفقاسيا نزل في ضيافة محمد علي خان الكاشاني، وفي موسكو نزل في ضيافة القنصل الايراني نعمة الله الأصفهاني، وحينما جاء الى بغداد منفياً نزل في خان عبد الصمد الأصفهاني وهو خان خاص بالايرانيين، وعند ذهابه الى البصرة كان كثير التردد على السيد توفيق الهمذاني يزوره في داره الواقعة على نهر العشار ويأكل عنده الكليجة الايرانية.

سادسا : عندما نفي الأفغاني من مصر في عام ١٨٧٩ لم يأت لتوديعه في السويس سوى القنصل الايراني احمد النفاوي ونفر من التجار الايرانيين الساكنين في مصر، وقدموا له مائه جنيه يستعين بها في سفره غير أنه رفض قبولها. وهذا أمر يلفت النظر ويثير التساؤل: فما هو السبب الذي جعل أولئك الايرانيين يفعلون ذلك ان لم تكن لهم مع الأفغاني رابطة خاصة.

سابعا : ان والد الأفغاني اسمه (صفدر) وهذا الاسم فارسي مركب من كلمتين هما (صف) و (در) ومعناها ممزق الصفوف فيها. أضف الى ذلك أن الأفغاني كان له في مصر خادم يتقن الفارسية اسمه (عارف أبو تراب) وان اسم أبو تراب لا يوجد في غير ايران، وهو من

الأسماء التي يتسمى بها الايرانيون دون غيرهم.

ثامنا: كان الأفغاني واسع الالمام بالفلسفة الاسلامية كما يظهر من كتاباته أو أحاديثه التي كان يلقيها على تلاميذه ومريديه، وقد اعتبر البرت حوراني ذلك من القرآئن التي يمكن أن يستدل بها على إيرانية الأفغاني، فهو يقول عن الأفغاني: (ان كتاباته ومحاضراته أظهرت أنه كان على معرفة وثيقة بالتراث الفلسفي الأسلامي ولا سيما فلسفة ابن سينا وهذه المعرفة. كان من السهل الحصول عليها في المدارس الشيعية حيث لا يزال تراث ابن سيناء حيا فيها أكثر مما في المدارس السنية).

تاسعا: نجد في مقالات العروة الوثقى ذكرا لبعض القصص والأمثال الشعبية التي يتناقلها الناس في ايران والعراق، وهي تكاد تكون خاصة بهم، كقصص هيكل اصطخر، وقصة الزنجي والطفل.

وكذلك نجد في كتابات الشيخ محمد عبده أقوالاً لبعض علماء الشيعة من العهد الصفوي كالمير باقر الداماد فهذه الأقوال لا بد أن الشيخ استمدها من أستاذه الأفغاني، ولا بد أن الأفغاني استمدها من دراسته الشيعية القديمة.

عاشراً: مما اشتهر به الأفغاني في مصر أنه كان يحسن الخطابة باللغة العربية الفصحى، وقد وصفه جرجي زيدان بأنه (كان خطيباً مصقعاً لم يقم في الشرق أخطب منه). وذكر الدكتور شبلي شميل: (انه شهد خطبة له في الاسكندرية وكان قريب العهد بمصر فوقف ساعتين يتكلم بلسان عربي فصيح والقاء حسن الكلام مفيد حتى دهش الناس). وهنا نود أننسأل: هل يمكن لرجل نشأ في بلاد الأفغان وتلقى دروسه فيها ان تكون له مثل هذه المقدرة الخطابية باللغة العربية؟ ان هذه المقدرة الخطابية هي في ارجح الظن من جراء دراسة الأفغاني في النجف. وقد رأينا في النجف ــ وما زلنا نرى ــ ايرانيين يجيدون التكلم بالفصحى خيراً مما يجيده الكثير من العرب. ويجب أن لا ننسى في هذا

الصدد أن الأفغاني كان برغم من فصاحته العربية تظهر عليه أثناء الحديث لكنة أعجمية واضحة. فهو مثلا يدخل الألف واللام على بعض الأسماء التي لا يجوز في العربية ادخالها فيها كبغداد وأوروبا فهو يقول (البغداد) و (الأوروبا)»[١].

بعد أن قرأنا أدلة الدكتور علي الوردي، ألا يحق لنا أن نقول بأن الأستاذ غلام حسين الموسوي الأفغاني كان ذا حجة ضعيفة، ثم انه رد على كل هذه البنود العشرة.

وعندما ذكر أدلته ورد عليها حاول أن يحذف بعضها، كما حرف بعضها لتلائم أقواله.

وقد أيد الدكتور الوردي كاتب حديث وهو **قدري القلعه جي**، اذ يقول: «شك بعض الباحثين ـ وفي مقدمتهم الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ في نسبته الى الأفغان ، فقالوا انه فارسي الأصل أفغاني النشأة وقد قرأنا مقالين للكاتب العراقي الأستاذ عبد الكريم دجيلي نشر احدهما في مجلة الرسالة السنة ١١ ص ٤٦٠ والآخر في العدد الخاص الذي أصدرته جريدة الرأي العام العراقية بمناسبة نقل رفات جمال الدين الى الأفغان في شهر كانون الأول ١٩٤٤ أكد فيهما أن السيد جمال الدين من أصل ايراني ولا صلة له بالأفغان مطلقاً وأن ميرزا غلام حسين خان أستاذ اللغة الفارسية في الجامعة الأميركية في بيروت قد أثبت ذلك بجلاء في كتاب له مطبوع في سنة ١٩٢٩ بعنوان (مروان نامي شرق) ويخلص الأستاذ الدجيلي الى القول بأن السيد جمال الدين. . . ولد في قرية أسد آباد»[٢].

ويقول قدري قلعه جي أيضا: « وكذلك حدثنا صديقنا الشاعر العراقي الكبير الأستاذ احمد الصافي النجفي أنه لما لجأ الى طهران خلال الثورة العراقية الأولى التي انتهت بتتويج الملك فيصل على العراق سنة ١٩١٩ نزل في دار الحاج حسين آغا بن الحاج محمد حسن آغا الذي

---

(١) لمحات اجتماعية ـ الوردي ـ ٢٦٦ ـ ٢٧٠ / ٣.

(٢) جمال الدين ـ قدري قلعه جي ـ ٢٣.

كان يعرف بأمين الضرب ــ أي أمين صك النقود ــ والذي يعرف اليوم بعد الغاء الألقاب القديمة بالمهدوي، وكان بيته ملجأ للثوار العراقيين اللاجئين الى ايران ومنهم الميرزا محمد رضا ابن المجتهد الأكبر الميرزا احمدرضا الشيرازي الذي افتى بمحاربة الانجليز في الثورة العراقية الأولى. وقد أخبره مضيفه أن السيد جمال الدين كان قد أقام في ضيافة أبيه حين قدم الى ايران سنة ونصفاً وكان هو يومئذ شاباً فدرس عليه العربية، وهو ما يزال يحتفظ بالنصوص التي كان يترجمها له السيد من الفارسية الى العربية أو بالعكس، وقد أكد الحاج حسين آغا للأستاذ الصافي خلال ذلك الحديث أن السيد فارسي الأصل وهو من قرية أسد آباد وأسرته معروفة هناك»[٢].

وقد قام الكاتب المذكور نفسه برحلة الى بلاد فارس وتأكد من وجود هذه الأسرة في ايران فيقول: « وقد أردت أن أتحقق من هذا خلال رحلة قمت بها الى ايران في خريف ١٩٥١ فاذا الايرانيون مجمعون على أن السيد جمال الدين ايراني عريق واطلعت على كتاب فارسي عنه بعنوان « السيد جمال الدين الأسد آبادي المعروف بالأفغاني». وتعرفت في أسد آباد على اناس يؤكدون أنهم من اسرته ويسمى واحدهم «جمالي» نسبة الى السيد[٣].

زد على ذلك شهادة رجل ايراني هو **عبدالمهدي فلاح الأصفهاني**، فقد نشرت مجلة المقتطف نص رسالة أرسلها جمال الدين الأفغاني الى صديقه الحاج حسن مستان الداغستاني في ١٥ ديسمبر ١٨٨١، ولم تزل هذه الرسالة محفوظة عند صهر السيد الداغستاني العلامة الفارسي المرزاعبد المهدي فلاح الأصفهاني من الجالية الايرانية في الاسكندرية، وقد أوصاه جمال الدين بنشر الرسالة المذكورة بعد موته. وهذا نص الرسالة:

« . . . اننا نأسف لحال الايرانيين الذين ساقهم الظلم الى هجران وطنهم، وطلب وطن آخر فيه يرزقون . . .

---

(١) المرجع السابق ــ ٢٤.
(٢) جمال الدين ــ قدري قلعه جي ــ ٢٤.

يا صديقي المحترم ان ما ذكرته الآن في هذه الرسالة هو مثال لحال ايران العمومية الحاضرة وقيسوا عليه مالم يذكر، فيظهرلكم أن كل مصائب بلادنا الظلم لا سواه..

التوقيع: جمال الدين الأفغاني»

ثم يعلق العلامة عبد المهدي فلاح الأصفهاني المذكور آنفاً على هذه الرسالة المنشورة في المجلة فيقول: «ان مشاهير الأحرار الايرانيين اضطروا في عهد الشاه ناصر الدين وعماله الى هجر وطنهم والالتجاء الى البلاد الشرقية الاسلامية، هربا من الظلم، فلقب بعضهم ــ كالسيد جمال الدين ــ بالأفغاني، وهو في الحقيقة ايراني صميم من بلدة أسد آباد من ولاية همذان في ايران، كما أن صديقه الداغستاني من بلدة مراغة في ولاية تبريز بايران»(١).

فهذه الرسالة لم تنشر الا بعد وفاة جمال الدين، وهي من الأدلة على ايرانيته لأنه أوصى بعدم نشرها قبل وفاته، لئلا يفتضح أمره.

وقد نشر الرسالة العلامة الأصفهاني، تبياناً للحقيقة، واظهار لما يقع في بلاد ايران من المظالم، وقد دعا ذلك لانتحال الايرانيين اسماء مستعارة ستراً لحقيقتهم كما فعل الأفغاني والداغستاني المذكورين في الرسالة.

وبعد هذا فقد قام الدكتور **عبد المنعم محمد حسين**، بنشر كتاب (جمال الدين الأسد آبادي) وقدم له بمقدمة، عرف بها جمال الدين، ورغم أنه كان معجباً بجمال الدين ولكن كتب يقول:

« ثبت لي بعد قراءة ما نشر من رسائل هذا المصلح الكبير انه كان ايرانياً من أسد آباد بالقرب من همذان وكان شيعياً جعفري المذهب»(٢).

ثم انه يستغرب تسمية جمال الدين بالأفغاني وانتشار هذا الاسم

---

(١) المقتطف: ٦٦: ٤٩٦.
(٢) جمال الدين الأسد آبادي ٨ ــ ٩.

فيقول: « والعجيب أن تلقيب جمال الدين بالأفغاني قد راج حتى غطى على الحقيقة التي اثبتتها الدراسة والأدلة المادية الملموسة وهي أن جمال الدين ايراني صريح النسب وشيعي اثنا عشرى جعفري المذهب. وأحب قبل أن أكتشف هذا الجانب من جوانب شخصية جمال الدين، وأثبت ما أقرره بالأدلة التي لا تقبل شكا أن أقرر انني لا أهدف الا اثبات الحقيقة، لأن اثبات الحقيقة غاية الدارسين ـ كما ذكرت ـ ولا أرمي الا الى تصحيح خطأ شائع متعارف بين الناس، بلغ من الرواج درجة جعلته يطغي على الحقيقة، وأنا أحاول تصحيح هذا الخطأ خدمة للتاريخ ، ونشر الحقيقة»[٢]. ثم يقول: « وان الأدلة التي تثبت أن جمال الدين ايراني شيعي المذهب كثيرة وقاطعة وسأكتفي بذكر اهمها فيم يلي:

أولا: وجود عائلة جمال الدين في ايران وانعدام أي أثر لهذه العائلة في افغانستان ومن البديهي أن جمال الدين لو كان افغانيا كما هو معروف ومشهور لبقيت عائلته أو نفر منها. . . ان الزائر لقرية أسد آباد القريبة من همذان بايران يجد عائلة جمال الدين تسكن في حي «سيدان» وتعرف بالأسرة الجمالية. وقد تأكدت أنا شخصيا من هذا الأمر حينما زرت هذه القرية في خريف عام ١٩٥٠ وكان من أفراد عائلة جمال الدين المشهورين حينذاك السيد هادي روح القدس، وميرزا لطف الله وميرزا شريف خان، وعطا الله خان، وصفات الله، ونصرالله، وفتح الله، وسعدالله، وقد اشتهروا جميعا بلقب الجمالي نسبة الى جمال الدين. كما يجد الزائر مدرسة باسم المدرسة الجمالية انشأتها وزارة التربية والتعليم الايرانية في مسقط رأس جمال الدين وسمتها باسمه تخليدا لذكراه وتمجيدا له. .

ثانيا: اسم والد جمال الدين «صفدر» يدل على أنه ايراني شيعي. . . ولا يوجد لاسم صفدر مسمى في أفغانستان، كما لا يوجد له مسمى في أي بلد سني آخر. .

(٢) المرجع السابق ١٠.

ثالثا: نشأة جمال الدين وأسلوب تحصيله يرجحان أنه شيعي ايراني لا سني أفغاني.. حمله والده الى قزوين في عام ١٨٤٩ (١٢٦٤ هـ) حيث التحق بمدرستها وكان والده يعمل مدرسا بها فمكث فيها عامين ثم رحل في عام ١٨٥١ (١٢٦٦ هـ) الى طهران ليتتلمذ على آقاسيد صادق أكبر علماء الشيعة في طهران في ذلك الوقت، ثم انتقل جمال الدين بعد ذلك الى العراق ليدرس في النجف، وهو البلد الذي كان ولا يزال موطن العلم في نظر الشيعة يحج اليه كل من يريد التخصص في علوم الدين، وكل من يرغب في بلوغ مرتبة الاجتهاد ويقيم الدارس فيه ليتابع الدراسة على يد أحد المجتهدين من علماء الشيعة وحاملي لواء المذهب الشيعي.

وقد أقام جمال الدين في النجف أربع سنوات تتلمذ في اثنائها على الشيخ مرتضى الأنصاري أحد علماء الشيعة المعروفين...

رابعا: ومن الأدلة القوية على أصل جمال الدين ومذهبه الديني أن الأمير عناية الله خان عم أمان الله خان ملك الأفغان الأسبق اعترف بأن جمال الدين ايراني الأصل شيعي المذهب بعد أن اقتنع بصحة هذا الأمر وقد حرص هذا الأمير في أثناء سفره من طهران الى بغداد على النزول في قرية أسد آباد مسقط رأس جمال الدين، ومكث في هذه القرية بعض الوقت اجتمع في أثنائها بنفر من أفراد الأسرة الجمالية، وتحدث معهم ثم زار قبور أجداد جمال الدين والدار التي ولد فيها، ولم يغادر أسد آباد الا بعد التأكد من أن جمال الدين ايراني الأصل شيعي المذهب، وقد روى هذا عن الأمير الأفغاني بصورة تقطع بصدق ما حدث. وهو أمر لا ينكره الأفغانيون أنفسهم»..

خامسا: اهتمام جمال الدين بايران أكثر من اهتمامه بأي قطر اسلامي آخر. كان أكثر من يضمهم مجلسه في استانبول من الايرانيين.. مثل ميرزاحسن خان خبير الملك والشيخ احمد روحي،

وميرزا آقا خان الكرماني، وزين العابدين المراغي، والسيد توفيق الهمذاني، وحسين وانش الأصفهاني. . .

وحاول كثيراً أن يجعل من ايران مركزاً رئيسياً للجامعة الاسلامية غير انه لم يستطع السير بدعوته في ايران أو لعله يئس من تحقيق اهدافه فيها في الوقت الذي يريده، ووجد أن الظروف في ايران لا تمكنه من القيام بأي نشاط، وأن بلدته أسد آباد أضيق من أن يقيم فيها، فدفعه هذا كله الى حب الأسفار. .

وقد روى ابن اخته لطف الله خان هذا عنه فقال: « وفد علينا بأسد آباد السيد الخال الأجل بعد عودته من الحج وكان ينوي الذهاب الى خراسان لزيارة الامام علي الرضا بمشهد، فمكث عندنا ثلاثة أيام لتجديد العهد مع والده وأفراد أسرته فتعلقت به قلوب سكان البلدة وطلب منه والده الذي كان لا يزال حتى ذلك الحين ١٨٥٥ (١٢٧٠ هـ) على قيد الحياة ــ أن يغير عزمه ويبقى في أسد آباد، ويعيش معهم فيها، فاعتذر جمال الدين لوالده قائلاً له: (انني كصقر محلق يرى فضاء هذا العالم الفسيح لا يكفي ميدانا لطيرانه، وإني لأعجب من طلبكم اذ كيف تريدون حبسي في هذا القفص الضيق الصغير).

سادسا: تحدث جمال الدين الفارسية باللهجة الايرانية دليل على انه ايراني شيعي. . . فان اللهجة الايرانية تختلف في النطق والأسلوب عن اللهجة الأفغانية. . .

ويثبت هذا ما ورد في كتاب (مردان خود ساختة) أي (الرجال العصاميون) فقد ذكر تقي زاده في مقالة عن جمال الدين ما يلي: (وقد عاش السيد جمال الدين مدة من أوائل عمره في أفغانستان غير ان الروايات الدقيقة والأدلة الكافية تثبت ــ دون تعصب ــ انه كان ايرانياً، وقد قابلت أشخاصا عديدين من ملازمي جمال الدين الايرانيين، فذكروا لي انه كان يقول لهم بصراحة انه ايراني وكان يتحدث بالفارسية بلهجة ايرانية اصيلة. . . ومن الأشخاص الذين حدثوني عنه الكاتب القفقازي

الشهير محمد آقا شاه تختنكي، وقد قال لي أن السيد كان يتحدث اللغة التركية باللهجة الهمذانية، وبديهي أن انتشار هذه اللهجة في نواحي كابل من الأمور المستبعدة).

كما أن أسلوب كتابته بالفارسية كان أسلوبا ايرانيا خالصا يتضح هذا من المقالات العديدة التي كتبها. والذي يقرأ (رسالة نيجرية) أي (الرسالة الطبيعية) التي كتبها جمال الدين في الرد على الدهريين، أو المقالات الكثيرة التي كتبها بالفارسية ـ وقد نشر جزء كبير منها في كتاب «مقالات جمالية» يجد مصداق ذلك.

سابعا: ... ثبت أن السلطان العثماني عبد الحميد تأكد بنفسه من أن جمال الدين ايراني شيعي بعد أن وصلته عريضة من أهل أسد آباد بهمذان تقرر أن جمال الدين ايراني من بلدتهم وانه ينتهي الى احدى العائلات التي تسكن هذه البلدة. وقد قدمت هذه العريضة للسلطان بواسطة السفارة الايرانية في اسلامبول، فكانت كافية لتغيير رأي السلطان في جمال الدين بعد أن سأله فلم يستطع أن ينفي عن نفسه انه ايراني شيعي، ولو كان افغانيا حقيقة لسارع بتكذيب ما جاء في العريضة، ولأرسل الى موطنه افغانستان طالبا لشهادة تثبت أنه افغاني لتشفع له عند السلطان في وقت كان جمال الدين يدرك فيه أن اكتشاف أمره سيؤدي به الى التهلكة. ومن البديهي أن رجلا كجمال الدين لم يكن من السذاجة بحيث لا يتوقع انتقاما من ملك ايران (مظفر الدين شاه) بن ناصر الدين شاه الذي اتهم جمال الدين بالاشتراك في تدبير قتله، وكان الفخر الوحيد الذي يمكن أن يفخر منه وهو مقيم في كنف الدولة العثمانية هو اتهامة بأنه شيعي ايراني، وانه يكذب ويدعي انه سني افغاني، لأن هذا الاتهام وحده كاف لتغيير رأي السلطان العثماني فيه.. ودفع جمال الدين حياته ثمنا لاكتشاف أمره..

ثامنا: تمجيد جمال الدين للايرانيين واشادته بذكائهم... وكان

يصرح دائما بأنه لولا فساد الحالة السياسية في ايـران ما غـادرها طيلة حياته. . . »[1].

ومن العجيب بعد هذا، أن دائرة المعارف الاسلامية ، التي كتبها مجموعة من المستشرقين الحاقدين على الاسلام، تؤكد أن جمال الدين الأفغاني امضى معظم دراسته في أفغانستان وحتى الدراسات العليا كانت في أفغانستان اذ يقول ــ : « ومهما يكن من شيء فقد قضى جمال الدين السنين الأولى من طفولته وشبابه في أفغانستان، ودرس في كابل كافة العلوم الاسلامية العالية حتى بلغ الثانية عشرة»[2]. مع أن جميع الذين ترجموا لجمال الدين، من أصدقاء وأعداء، يقولون بأن جمال الدين درس معظم علومه حتى الدراسات العليا في ايران والعراق، وفي معاهد الشيعة على الاطلاق، فمن أين جاء المؤلفون بهذه المعلومات الخاطئة؟

على أن دائرة المعارف الاسلامية أهملت اهمالا كاملا دراسته في ايران وفي العتبات المقدسة كالنجف وكربلاء وغيرها، وكأن الأفغاني لم يمر بها في دراسته أبدا. وجعل خروجه من الأفغان فقط الى الهند والحجاز ثم عاد الى أفغانستان ليشترك في الحكم والسياسة فيها، مع أن المترجمين أجمعين، قالوا بأنه دخل ايران والعراق ودرس فيها. فمن أين جاء هذا الخلط؟

وقد جزم الشيخ مصطفى عبد الرازق في مقدمة العروة الوثقى أن الشيخ محمد عبده يعرف أن جمال الدين فارسي الأصل، فيقول: « ويرى ــ أي الشيخ محمد عبده ــ أن السيد جمال الدين ــ وان كان في الحقيقة فارسيا ــ قد انتسب الى الأفغان لأمرين:

١ـ أن يكون من السهل عليه الظهور بمظهر السني لا الشيعي.

٢ـ أن يستطيع الخلاص من رقابة الحكومة الايرانية لرعاياها في الخارج .[3].

(١) جمال الدين الأسد آبادي ــ من ١١ ــ ٢٨.
(٢) دائرة المعارف الاسلامية ــ ٩٥ ــ ٩٦ / ٧.
(٣) العروة الوثقى ــ ١٨.

وكذلك الأمر بالنسبة للشيخ رشيد رضا، فرغم أنه يجزم بأن جمال الدين من أفغانستان الا أنه صرح في مكان آخر، ان جمال الدين فارسي الأصل ، فقد وردت العبارة الآتية عند تشارلز: «يقول بلنت في مذكراته بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٨٨٣ : (ان أسرة جمال الدين عربية احتفظت دائما بلقبها، وكان يجيد الكلام بها اجادة تامة). وهذا يخالف ما ذكره محمد رشيد رضا، من أن جمال الدين بالرغم من طلاقته لم يستطع التخلص من آثار نسبه الفارسي في كلامه العربي»[١].

بعد أن سردت القولين المشهورين في أصل جمال الدين، أعود فأقول، ان هناك قولا ثالثاوسطاً بين القولين، وهذا القول هو أن جمال الدين فارسي الأصل، أفغاني المنشأ، حيث أن آباءه وأجداده ايرانيون ولكنه ولد في أفغانستان وترعرع فيها، وهذا القول منقول عن الشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ عبد القادر المغربي.

يقول عبد المحسن قصاب: «وقد ارتحت الى القول بأنأبا جمال الدين كان ضابطا ايرانيا، أرسلته حكومة بلاده الى أفغانستان لبعض الشئون، فتزوج أفغانية وولدت له جمال الدين، فنشأ أفغانيا»[٢].

أما أنا فلم أرتح لهذا القول، لأنه لا يستند الى حقيقة واقعة، فلم يذكر أحد أن أباه كان ضابطا، وانما ذكروا أن أباه كان مدرسا ــ كما مر بنا في ترجمة حياته ــ . ثم لماذا أرسلته ايران إلى بلاد الأفغان، مع أنه لم تقم في ذلك الحين حرب بين الدولتين. وعلى فرض أن أمه أفغانية، فلا عبرة في النسب الى أصل الأم، وانما العبرة الى أصل الأب، والأب على هذه الرواية ايراني، اذن جمال الدين ايراني.

ورغم ذلك فان الروايات الصحيحة تشير الى أن والدته ايرانية الأصل.

---

(١) تشارلز ــ ٧ هامش. (الاسلام والتجديد في مصر)

(٢) مجلة المجتمع العربي مجلد٢٠ ص ٣٧٠. نقلاً عن كتاب ذكرى الأفغاني في العراق: عبد المحسن قصاب.

يقول الدكتور عمارة :« أما والدته ــ أي جمال الدين ــ فهي السيدة سكينة بيكم بنت مير شرف الدين الحسيني، القاضي.. وهي تنتمي الى أسرة أبيه، فهي ابنة عمه، لأن والدها كان أخا لمير رضي الدين محمد الحسيني...»(١).

وأما عن منشئه ، فقد درس في أول حياته حتى العاشرة من عمره في بيت أبيه، وكان أستاذه اباه، وبعدها دخل مدرسة في قزوين الايرانية وكان أبوه مدرسا فيها، فدرس فيها حتى الثانية عشر من عمره، فانتقل الى طهران عاصمة ايران ليتابع بها دراسته ولكنه رحل عنها الى بلاد العراق الى مدارس الشيعة في النجف وكربلاء فدرس حتى السادسة عشر من عمره (٢).

فهذا الرأي ــ وهو الثالث ــ لا دليل عليه ولا يصلح للاحتجاج به، فترجح عندنا القول الذي يرى أن جمال الدين ايراني الأصل والمنشأ.

وبعد هذا يمكننا رفض رأي شكيب ارسلان وكذا صلاح الدين السلجوقي وكل من قال بأن جمال الدين أفغاني الأصل. ثم يأتي الرافعي فيدعي بأن حجة المشككين واهية، وهي التنافس على التقاط العظماء أمثال جمال الدين الأفغاني ولصقهم بدولهم، ليفخروا به ويرفعوا رؤوسهم بذكره، فيقول: «ولعل هذا الشك الذي أثاره بعض الايرانيين، راجع إلى التفاخر بالعظماء والتنازع بين الناس على نسبته إليهم»(٣).

وقد يعذر الرافعي، لأنه من المتقدمين، مثله لمثل شكيب ارسلان، ولم يطلع على الحقائق التي اكتشفت بعد، ولا الكتب التي نشرت، ولكنه اقتصر على تصريحات الأفغاني نفسه.

وقد سار على منوال الرافعي الدكتور محمود قاسم إذ يقول: بعضاً من كتاب الفرس الايرانيين ونفراً من علماء الاستشراق

---

(١) الأعمال الكاملة للأفغاني ــ ٢٨.
(٢) الأعمال الكاملة للأفغاني ــ ٢٩.
(٣) المرجع السابق ــ ٦.

يشككون في هذه الحقيقة، ويقولون: (إن جمال الدين فارسي ايراني...)» ثم أخذ يذكر حجج القائلين بايرانيته، ويرد عليها بحجج أوهى من خيط العنكبوت، ولو أردت سردها لطال الحديث، وأقول له باختصار سل الذين رأوه بالعيان وزاروا بلدته وشاهدوا قبور أجداده حتى يستبين لك وجه الحقيقة، ويرتفع الشك عنك.

دعوى النسب الشريف:

وكما وقع الخلاف في نشأته وأصله، وقع الخلاف أيضاً في نسبه.

أكثر الذين ترجموا له، ونسبوه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، مصدرهم الوحيد تصريحات جمال الدين الأفغاني، فهم متفقون على نسبه الشريف، وأنه من سبط النبي عليه الصلاة والسلام الحسين بن أبي طالب رضي الله عنه.

أما النافين، فلهم طريق آخر في الاستدلال وعلى رأس هؤلاء الشيخ أبو الهدى الصيادي.

لو رجعنا إلى تاريخ ايران نجد كثيرين الذين ادعوا النسب الشريف، وذلك لأن الشيعة يبالغون في تعظيم آل البيت، وان كان حب آل البيت شيئاً عظيماً ومطلوباً شرعاً، إلا أنه إذا خرج عن حده انقلب إلى ضده.

لذا نجد أن أشد الناس انحرافاً عن الدين الاسلامي يدعي انه من آل البيت ليجذب إليه المغفلين من الشيعة وغيرهم. فقد ذكروا أن الشيرازي مؤسس الدعوة البابية الملحدة، يدعي النسب الطاهر، يقول احسان الهي ظهير: «ففي مثل هذه البلاد، وهذه الظروف والبيئة والمعتقدات ولد مولود ـ وهو الشيرازي ـ بمدينة شيراز جنوب ايران في بيت يدعي انتسابه إلى أهل بيت النبي عليه السلام»[1].

---

(١) البابية ٤٩.

وبالمناسبة أقول بأن شكيب ارسلان، كما خدع بجمال الدين الأفغاني وظنه مصلحاً كبيراً، فقد خدع بالشيرازي وأتباعه ودعوته فظنها دعوة اصلاحية تعتمد على الأخلاق الكريمة والمبادىء السامية.

يقول احسان الهي ظهير: «ومن الذين خدعوا به الكاتب الاسلامي الكبير الأمير شكيب ارسلان، حيث أوهمه بأن البهائية فرقة اسلامية تدعو لتقوية المبادىء الأخلاقية ولم تكن كتبهم متداولة أو مطبوعة، كي يطلع عليها فيعرف منها حقيقتهم»(١).

ومن استقراء الأدلة تبين أن جمال الدين كان يدعي السيادة، وهو منها براء، وأن هذه الدعوى قديمة، يرجع تاريخها إلى الزمن الذي كان فيه في أفغانستان، يروي الدكتور علي الوردي حادثة جرت مع جمال الدين وهو في أفغانستان فيقول: «وعند وصول الأفغاني إلى أفغانستان، كان هناك نزاع عنيف بين أميرين من أمرائها. . .، تزيا الأفغاني بزي سيد من رجال الدين وادعى أنه من أشراف بلدة كنر.

ويروي الشيخ آغا بزرك الطهراني في كتابه (طبقات أعلام الشيعة) نقلاً عن أحد وزراء الأفغان في تلك الفترة ـ وهو السردار محمد خان القزلباشي ـ أنه رأى ذات يوم في مجلس الأمير عبد الرحمن خان سيداً من رجال الدين يسمى «السيد جمال الدين» ويزعم أنه من عائلة أفغانية معروفة، فاستنكر السردار ذلك وقال له متحدياً أنه يعرف أكثر الأسر والبيوت المعروفة في الأفغان، فمن أي أسرة هو؟ فتمتم السيد، وأجاب بجواب مغلق مفتعل تظهر عليه الحيلة واللباقة ثم انصرف من عند الامير خجلاً، ولم يعد إليه بعد ذلك»(٢).

والذي يظهر لي من نسبه أنه في دعوى النسب الشريف شك، رغم أنه معروف في ايران بهذه النسبة، كما وجد له مشجرة تثبت نسبه الشريف، كما قال الدكتور الوردي، ولكن دعوى النسب أمر سهل في

---

(١) حقيقة البابية ٢٢٨.

(٢) لمحات اجتماعية ٣/٢٧٢، وعبارة آغا بزرك منقولة من كتاب طبقات أعلام الشيعة ـ طبع في نجف ١٩٥٦ جـ١ ص٦٩٦.

ايران، وكذلك الأمر في صنع أمثال هذه المشجرات.

وإذا أردنا أن نحسن الظن فنقول كل هذا صحيح، وأنه حقيقة شريف، ولكن ما فائدة هذا؟

فالذي يهمنا من جمال الدين عمله واعتقاده، لا نسبه وشرفه.

تحديد نوع دعوته:

بعد أن عرفنا أصل جمال الدين ونسبه، يمكننا أن نحدد نوع دعوته.

اختلفت الآراء في تحديد نوعية هذه الدعوة، وفي كل نوع من هذه الدعوات التي نسبت إليه، أركان ودعائم:

١ ـ دعوة سياسية: وصف جمال الدين الأفغاني بأنه رجل السياسة، وأنه صاحب دعوة سياسية، أركانها ودعائمها مقارعة الحكام بالخطب والعمل السري والجهري والاتصال بالهيئات الشعبية.

وقد مر ذلك، ويكفي أن نذكر شهادة البعض على أن دعوته كانت سياسية.

يقول أديب اسحق، وهو أحد تلاميذه المقربين: «كان ـ أي الأفغاني ـ كثير التطلع إلى السياسة، شديد الميل إلى الحرية...[1]».

ويرى الدكتور عثمان أمين أن جمال الدين كان يعطي معظم أوقاته للعمل السياسي فيقول: «أهم مظهر لنشاط جمال الدين هو السياسي»[2].

أما الدكتور محمود قاسم فيرى أن جمال الدين كان يستغل علومه الدينية والفلسفة للتأثير على سامعيه فيوجههم سياسياً. يقول الدكتور محمود قاسم: «هرع اليه التلاميذ فقرأ عليهم كتباً مختلفة في الدين والفلسفة والتصوف، لكن تأثيره فيهم من الناحية السياسية كان

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ١/٤٠.
(٢) الرد على الدهريين ١٠.

أعظم»[1]. ورأي الدكتور محمود قاسم جاء متقارباً مع رأي المستشرق ا. ج براون، إذ يقول: «كان فيلسوفاً وكاتباً وخطيباً وصحافياً، لكنه فوق ذلك سياسياً، وكان في نظر المعجبين به وطنياً، أما خصومه فكانوا يعدونه مشاغباً خطراً» .

فالسياسة ــ كما تقدم ــ إحدى أركان دعوته، وهذا تفسير حي عملي لمقاصده ومراميه، وحتى أنه ترك الانتماء للماسونية الاسكتلندية لأنها لم توافقه على عمله السياسي، وزج بنفسه في ماسونية ثانية تتفق مع مقاصده السياسية.

٢ ــ دعوة إلى التفرنج باسم التجديد: مما يلاحظ في دعوته، أنه كان يلح ويكرر على محاولة تجديد الشرق الاسلامي ــ ويقصد من الشرق الاسلامي العالم الاسلامي ــ وجعله يسير متلائماً مع العصر المتمثل باتباع الدول الغربية المتحضرة مادياً، ولذا كان يعتبره الدكتور أحمد أمين أحد زعماء التجديد في العصر الحديث، وقد ألف كتاباً سماه (زعماء الاصلاح في العصر الحديث) ضم فيه عدداً كبيراً من المتفرنجين والمشدوهين في بادية الحضارة الأوروبية، وذكر منهم جمال الدين الأفغاني.

وبنفس المنوال سار الكاتب عبد المتعال الصعيدي في كتابه (المجددون في الاسلام) فذكر جمال الدين في جملة المجددين في العالم الاسلامي والعاملين على نقله إلى مصاف الدول الأوروبية، وقبل هذا وذاك كتب الموضوع نفسه المستشرق تشارلز آدمز في كتابه المعروف باسم (الاسلام والتجديد في مصر) وكل هؤلاء على ما يظهر، يستقون من معين واحد. ودليلهم في ذلك معارضته علماء المسلمين، ومحاربة كل قديم وأهله، والتمسك بكل جديد وأهله، ولو كان في ذلك خروج عن الدين وعن نصوص الكتاب والسنة، وسيأتي معنا بعض ذلك عندما ندرس شطحاته في التفسير.

---

(١) جمال الدين ــ محمود قاسم ٤.
(٢) الاسلام والتجديد في مصر

وذهب الشيخ مصطفى صبري إلى أبعد من ذلك، فهو يرى أن جمال الدين جاء ليغير الدين، ولينشىء مذهباً جديداً في الاسلام، ينقض المذاهب الاسلامية المعروفة، يتمشى مع روح العصر ومتطلبات التطور، مثاله في ذلك مثال لوثر وكالفن، بعد ثورتهما على الكنيسة المتمثلة بالقديم البائد، الواقفة حجر عثرة في وجه التقدم والرقي.

يقول الشيخ مصطفى صبري: «فلعله ــ أي الشيخ محمد عبده ــ وصديقه جمال الدين، أرادا أن يلعبا في الاسلام دور (لوثر) و(كالفن) زعيمي البروتستانت في المسيحية، فلم يتسن لهما الأمر لتأسيس دين حديث للمسلمين، وإنما اقتصر سعيهما على مساعدة الالحاد المقنع بالنهوض والتجديد... فأراد المتزعمان للتجديد فيه، أن يضعا أئمة الفقه المجتهدين ــ مثل الامام أبي حنيفة واخوانه، في درجة الاجتهاد، رضي الله عنهم، وحاشاهم ــ في موضع اللاعبين الأولين في الاسلام، وتشجعا لفتح الباب إلى هدم ما قاموا به، كما هدم لوثر ومساعده الكثلكة والآرثوذكس، فأسسا البروتستانت. ولكن خان القياس للشيخين أي خيانة فأبان ما في محاولتهما من الجناية»(1).

ومما يؤكد ما ذهب إليه الشيخ مصطفى صبري، ما صرح به جمال الدين نفسه للشيخ عبد القادر المغربي إذ يقول: «إنه لا بد للمسلمين من حركة تجديد ديني، لأننا إذا نظرنا إلى النهضة الأوروبية، وجدنا من أهم أسبابها حركة الاصلاح الديني البروتستنتي منذ عصر لوثر»(2).

وكان أعظم ركن في دعوته إلى التجديد، هو الأزهر الشريف، فلا تجديد ولا تقدم في الاسلام إلا بعد تطوير الأزهر، ولذا ركز عليه، وجند طلابه ومريديه لنشر أفكاره التحرريه في الأزهر وحصل الصدام المشهور بينه وبين علمائه ومشايخه، ولكنه استطاع أن يلعب بعقول الكثير منهم، فأدخل بعضهم في الماسونية، وأفسد الآخرين بفلسفته العصرية. وقد بين ذلك بشكل واضح الشيخ مصطفى صبري، إذ يقول: «يدل على رجحان

---

(1) موقف العقل والعلم والعالم ــ ١٤٤ / ١.

(2) الرد على الدهريين ــ ٩.

استانبول، بعلمائها فيها، الراسخون في مبادئهم العلمية، أمران:

الأول: أن الشيخ جمال الدين الأفغاني لم يستطع أن يسحرهم برسالته التي أنجحها في مصر، فخرّج من بين علمائها من يشد أزره، ويشترك في أمره ثم يلعب دوراً هاماً في هدم الأزهر بزحزحته عن منهجه القديم القويم.

والأمر الثاني: أن وباء الماسونية لم يجد بيئة صالحة للانتشار بين رجال الدين في الآستانة، كما وجدها بين أقطاب الأزهر»[1].

٣ ـ دعوة ظاهرها الاسلام وباطنها الزندقة:

يرى المعجبون به أنه داعية من دعاة الاسلام، ومنقذ له من الضلال والانحراف فهو لا يترك فرصة تمر دون أن يتكلم بالاسلام، يخطب للاسلام، ويكتب في الصحف والمجلات في الاشادة بـالاسلام، وفي مجالسه العامة والخاصة يشيد بالاسلام. ونسي هؤلاء المعجبون انتهاءه وأعماله، وتمسكوا بأقواله وكتاباتـه، ولذا راحـوا يتخبطون في تحـديد أهدافه.

مع أن جمال الدين وقع في كثير من الزلات في خطبه التي كان يتستر وراءها، منها خطبته التي ألقاها في الآستانة وجعل النبوة صنعة كباقي الصنعات، فقامت عليه الدنيا وقعدت، ورمي بالكفر والالحاد.

ولو استعرضنا أقواله وكتاباته لوجدنا فيها الشيء الكثير، ومع ذلك لم نجد فيها دعوة إلى حركة اسلامية، كما فعل الامام الشهيد حسن البنا ـ رحمه الله ـ أو الداعية والمفكر الاسلامي أبو الاعلى المودودي، ولم يطلق على دعوته اسم الاسلام، كدعوة الاخوان المسلمين مثلاً، ولم أجد أحداً كتب كتاباً واحداً في جمال الدين سماه داعية اسلامياً، وغالب الكتاب يضعونه في عداد المجددين أو الفلاسفة أو المفكرين أو غير ذلك.

وقد وصفه بعضهم بأنه صاحب دعوة دينية سياسية تقابل دعوة

---

(١) موقف العقل والعلم والعالم ـ ١٤٤/١.

الاستعمار النصرانية ــ وقد أخطأوا أيضاً في هذا ــ رغم أن هذه الدعوة تقوم على العصبية فقط.

يقول الدكتور توفيق طويل: «بدأ الاستعمار الغربي عند جمال الدين الأفغاني، وجمهرة معاصريه حركة نصرانية تستهدف اجتياح الشرق وتقويض أركان الاسلام، ومن أجل هذا أخذ يعبىء جمهور المسلمين لمقاومة سيطرة الأجنبي غير المسلم، وزاد فحارب طغيان الظلمة والمستبدين من الحكام ولو كانوا على دينه. ومدار الأمر عنده على كتاب الله وسنة رسوله، ومن أجل هذا قيل إن دعوته سياسية وكانت تقوم على أساس ديني اسلامي»(١).

فهذا عجيب من الدكتور الطويل، فهل نسي أن من بين تلاميذ جمال الدين من كان يدين بالنصرانية أو اليهودية؟ منهم أديب اسحق المسيحي، ويعقوب صنوع اليهودي.

وغالب الذين يدعون أنه صاحب دعوة اسلامية، يقيدون هذه الدعوة بعبارة الاصلاح أو النهوض أو الايقاظ، وهذا يعني أن الاسلام نائم أو معوج فجاء ليعدل فيه أو ليوقظه، وأكثر اعتمادهم على كتاباته في العروة الوثقى، مع أنها جريدة سياسية، تخاطب المسلمين بصورة خاصة على اعتبار أن عددهم أكثر من غيرهم في البلاد الاسلامية، يقول محمود أبو ريه: «العروة الوثقى كانت تعمل للشرقيين عامة، لا للمسلمين خاصة»(٢). وقد جعل هذا الكلام عنواناً لمقال طويل يقول فيه: «كان قد اشتبه على بعض الناس، أمر اللهجة الاسلامية في العروة الوثقى، وظنوا أنها خاصة بالمسلمين، فأزالت الجريدة هذه الشبهة بعبارة واضحة نشرت في العدد الثامن الذي صدر فيها في ١٥ مايو سنة ١٨٨٤ وهذا نصها: «لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحياناً ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم

---

(١) الفكر العربي في مائة سنة ــ ٢٩٥.

(٢) جمال الدين ــ أبو ريه: ٤٧.

ويتفق معهم في مصالح بلادهم، ويشاركهم في المنافع من أجيال طويلة، فليس هذا من شأننا، ولا مما نميل إليه، ولا يبيحه ديننا، ولا تسمح به شريعتنا، ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً من تطاول الأجانب عليهم والافساد في بلادهم، وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب في الأقطار التي غدر بها الأجنبيون، وأذلوها أجمعين، واستأثروا بجميع خيراتها. . .[1]».

والذي يهمنا من هذه المقالة أن نعلم أن العروة الوثقى ليست صحيفة اسلامية أما الدعوى لمحاربة الأجنبي ـ كما يظهر من المقال ـ فهي موجهة إلى الانجليز خاصة دون سائر المستعمرين الأجانب.

٤ ـ دعوة إلى التحرر والانحلال من القيود الشرعية:

الدعوة إلى الحرية، في القرن التاسع عشر، معناها الخروج على حدود الشرع، والعمل بوحي العقل. وعلى هذا الأساس يقوم البعض دعوته، فينسب اليه الالحاد والمروق. مع أن تلاميذه عندما يصفونه بالحرية إنما يريدون بذلك المدح والثناء وأنه ليس ذاك الرجل المتحجر أو الرجعي، فمثلاً يقول أديب اسحق ـ كما أسلفنا ـ: «كان شديد الميل إلى الحرية» ـ[2]. وهو يقول عن نفسه ـ عند دخوله في الماسونية ـ: «أول ما شوقني للدخول في الماسونية عنوان كبير (حرية ـ مساواة ـ اخاء) وهو شعار الماسونية على اختلاف وجهاتها.

ولذا وصفته صحيفة المقطم ـ بعد نفيه من مصر ـ فقالت: «كان ـ أي جمال الدين ـ مناراً للحرية والعرفان. . . داعياً إلى الحرية يقتدى به في الدعوة إليها»[3].

أما معنى الحرية هذه فقد شرحها الدكتور محمد محمد حسين فقال: «والحرية والأحرار وأحرار الفكر. . . هي كلمات اصطلاحية يراد بها

---

(١) المرجع السابق ـ ٤٧.
(٢) تاريخ الأستاذ الامام ٤٠ / ١.
(٣) الاسلام والحضارة ٧١ ـ ٨٧.

اطلاق الفكر من كل قيد ومن العقائد الدينية على وجه الخصوص»[1]. والسبب الذي جعل الدكتور محمد محمد حسين يقول بأن الحرية معناها التفلت من الدين، أن الصحيفة التي وصفته بالحرية، وهي المقطم، كانت تمثل الاتجاه الماسوني لأن صاحبها فارس نمر كان من كبار الماسونيين في مصر[2].

ثم ان الفيلسوف الفرنسي رينان اجتمع بجمال الدين الأفغاني، وجرى بينهما نقاش حاد، وقد تأثر رينان بأفكار جمال الدين، ووزنه وزناً دقيقاً، وقال بعد ذلك: «وقد خيل إلي من حرية فكره ونبالة شيمه، وصراحته وأنا أتحدث إليه، إنني أرى وجهاً لوجه، أحد من عرفتهم من القدماء، وانني أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو أحد أولئك الملاحدة العظام الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الانسانية من الاسار»[3].

ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن جمال الدين وبلنت ورينان يدورون في فلك واحد، حيث أن رينان هذا كان قد أثر في بلنت بأفكاره التحررية، فكان لا يتقيد بدين ولا ايمان، ومعلوم لدينا أن بلنت كان صديقاً عزيزاً لجمال الدين، ولذا فلا يبعد أن يكون الثلاثة على مذهب واحد.

يقول الدكتور محمد محمد حسين: «بلنت كان من المتحررين الذين لا يؤمنون بالمسيحية... وكان واقعاً تحت تأثير بعض المفكرين الأوروبيين، أمثال رينان وتولستوي»[4].

٥ ـ دعوة إلى اتحاد فيدرالي باسم الجامعة الاسلامية:

كان السلطان عبد الحميد تواقاً إلى جامعة اسلامية ليقف في وجه الأطماع الأجنبية، ولذا طرق جميع السبل لتحقيق هذا الغرض، ومنها

---

(١) الاسلام والحضارة ٧١ ـ ٨٧.
(٢) الاسلام والحضارة ٧١ ـ ٨٧.
(٣) الرد على الدهريين ـ ٦.
(٤) الاسلام والحضارة ـ ٨٠ ـ ٩٥.

الاستعانة بجمال الدين الأفغاني[١]. كما وجد في مكتبة السلطان عبد الحميد خلاصات لاطلاعات قام بها جمال الدين الأفغاني لخصها وقدمها للسلطان عبد الحميد بشأن الجامعة الاسلامية[٢].

ويعتبر السلطان عبد الحميد أعظم من بنى بناء الجامعة الاسلامية، وشيد أركانها، وأضاف إليها كل مطمع بعيد، وغاية جليلة، والذي ظلت دعوته إليها تسير سيراً متوالياً مدة تقرب من ثلاثين سنة[٣].

لذا كان السلطان عبد الحميد يعلق آمالاً كبيرة على جمال الدين لما سمع عنه، وخاصة ما يكتبه في العروة الوثقى، من اندفاعه لمحاربة الاستعمار الانجليزي ــ ولما يحمله من مواهب نادرة في الخطابة والكتابة واستقطاب الأوساط الشعبية.

هذا وقد غلط بعض الكتاب، إذ يرون أن فكرة الجامعة الاسلامية من مبتكرات جمال الدين، وانه سبق السلطان عبد الحميد إليها، من هؤلاء الكتّاب ابن اخته ميرزا لطف الله خان صاحب كتاب (جمال الدين الأسد آبادي) إذ يقول: «وكانت صلات السيد بعبد الحميد قوية جداً في بادىء الأمر بحيث كان كل منهما يستظهر بصاحبه، وفي إحدى الاجتماعات الخاصة التي جرت بينهما فقط، خاطب السلطان السيد بقول: «إني ملتمس من حضرتك أن تبذل غاية الجهد حتى نستطيع ــ بتوحيد آرائنا ومساعدة حضرتكم ــ أن ننشىء، ونؤسس اتحاداً واتفاقاً قوياً، ثابت الأركان لا يقبل الخلل، بين الشعوب الاسلامية». ثم يعقب الكاتب على هذا الاجتماع بياناً وشرحاً على نيات جمال الدين وسره الدفين فيقول: «وأراد السيد جمال الدين، الذي كان من بدء حياته السياسية يعد هذا المقصود، غرضه الأسمى والغاية القصوى لأمانيه الاصلاحية... ومن أجل هذا الغرض ــ أي إرساء مباني الجامعة الاسلامية ــ حضر الآستانة من لندن بناء على دعوة السلطان اياه»[٤]. مع أن السلطان

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد ــ ٨.
(٢) المرجع السابق ــ ٨.
(٣) الأعمال الكاملة للأفغاني ــ ٩٥.
(٤) جمال الدين الأسد آبادي ــ ١١٤ ــ ١١٦.

عبد الحميد ــ كما هو معروف ــ استقدمه ليكف قلمه ولسانه عن الايذاء بالشاه حقيقة، وليساعده على تحقيق الجامعة الاسلامية.

وقد حدد الدكتور محمد عمارة عمل جمال الدين في الجامعة الاسلامية بمدة، ثم انه تركها وانتقل إلى دعوة أخرى فهو يقول: «وكان الأفغاني مرتبطاً ارتباطاً شديداً بالجامعة الاسلامية ولكن لفترة من حياته»(١).

والظاهر أنه كان يدعو إلى جامعة اسلامية مركزها ايران، وذلك بجعل رئاسة هذه الجامعة بيد الايرانيين، يقول الدكتور عبد المنعم محمد حسنين: «ويتمنى ــ أي الأفغاني ــ أن تتهيأ له الظروف التي تساعده على تشييد صرح الوحدة الاسلامية، واتخاذ ايران مركزاً لها. فلما يئس من تحقيق هذا الهدف الأسمى، سعى إلى ايجاد وحدة اسلامية تحت زعامة الدولة العثمانية»(٢).

ويؤيد هذا الرأي ما ورد على لسان جمال الدين إذ يقول: «إن ايران مركز الاسلام، وان لها حق السيادة طبعاً، على شرط أن لا يحكمها عنصر تركي»(٣). ويقول في الهامش: «يشير إلى أن حكام ايران ــ أي الأسرة القاجارية ــ في ذلك الوقت كانوا من أصل تركي». ولكن من يدري لعله يقصد الدولة العثمانية بالذات لأن العبارة التي بعدها هكذا: «وأن يكون حكمها بيد أبنائها»(٤). كيف تكون ايران مركزاً للاسلام وهم عجم؟ لماذا لم يقل (وأن يكون حكمها بيد العرب)؟ فهل يفهم من هذا انه كان يدعو إلى قومية فارسية؟ مع أنه ظهر فيما بعد أنه كان يدعو إلى جعل الخلافة في أشراف مكة، وهم عرب. فكيف نفسر هذا التناقض؟ ليس له عندي سوى تفسير واحد وهو أنه كان يتحرك ويقول كل ما يملى عليه، فليس في الكلام تناقض.

---

(١) الأعمال الكاملة ٦٤.

(٢) جمال الدين الأسد آبادي ــ ٣١.

(٣) المرجع السابق ــ ١٩٦.

(٤) المرجع السابق ١٩٦.

لو قرأنا العروة في أعدادها الثمانية عشر لوجدنا فيها العجب في تحدثه عن الاسلام والجامعة الاسلامية، وقد أفرد مقالاً بعنوان (الوحدة والسيادة) تكلم فيها باسهاب عن وحدة المسلمين، ووقوفهم صفاً واحداً في وجه الاستعمار. مما جعل المستشرق المجري (جولد سيهر) يرى أن جمال الدين الأفغاني ـ بقلمه ولسانه ـ كان أصدق ممثل لفكرة الجامعة الاسلامية .

وراح البعض إلى أبعد من ذلك فقالوا بأن جمال الدين عرض على السلطان عبد الحميد ضم جزء من ممتلكاته إلى ايران المستقلة، لقاء انضمام ايران إلى الجامعة الاسلامية.

يقول لطف الله خان: «ومما تم القول بشأنه مع عبد الحميد، أن الدولة الايرانية تفوق مصر والأفغان، ومراكش وغيرها، نظراً لتمتعها بالاستقلال التام الناجز فضلاً عن أن الخلاف بين السنة والشيعة، يرجع القسم الأعظم منه إلى أن ايران دولة شيعية، فيجب أن يتعهد السلطان عبد الحميد بأن ينتزع من الدولة العثمانية العتبات المقدسة، وجزءاً آخر من النهرين (أي العراق)، مما له صلة بالمشاهد المشرفة، التي تزورها الشيعة، ويضمها إلى ايران، إزاء ما تبذله حكومة وشعباً في تأييد الوحدة الاسلامية»[٢].

فإن صح هذا فمعنى ذلك أن جمال الدين كان يسعى سراً وجهراً من أجل ايران ومن أجل الشيعة.

ويظهر أن السلطان عبد الحميد شعر بأن هذه لعبة، وعرف سوء نية جمال الدين، فوقع النفور بينهما منذ ذلك الحين، لذا يقول لطف الله خان: «ثم تبين بعد ذلك أن غاية السلطان عبد الحميد هي أن يفرض نفسه زعيمًا لهذا المؤتمر، وأن يقرن الخلافة العامة بالخلافة الخاصة في آن واحد، وكانت هذه المسألة، إحدى المسائل التي ولدت الخلاف بعد ذلك بين

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية جـ٧ ص ٩٥.
(٢) جمال الدين الأسد آبادي ـ ١١٨.

السيد والسلطان عبد الحميد»(١). وأنا أرجح أن يكون سبب الخلاف بين السلطان عبد الحميد وجمال الدين الأفغاني، هو هذا.

بعد هذا كله لو رجعنا إلى كتابات جمال الدين لوجدنا أن دعوته إلى الجامعة الاسلامية، في حقيقتها دعوة إلى جامعة شرقية تضم العالم الاسلامي بما فيه من أديان مختلفة وجنسيات متنوعة، يقول الأستاذ عثمان أمين: «إن الجامعة التي كان ينشرها الأفغاني ومحمد عبده في أواخر القرن الماضي، ليست هي الجامعة الاسلامية، كما توهم بعض الكتاب الغربيين، وإنما هي في صميمها الجامعة الشرقية»(٢).

وإلى هذا الرأي ذهب الأخ فهد بن عبد الرحمن الرومي إذ يقول: «ومن أهم الآراء التي تنسب إلى الأفغاني، وكان يدعو إليها: الدعوة إلى الوحدة الاسلامية، وإقامة جامعة اسلامية تنضوي تحت لوائها دول العالم الاسلامي توحد كلمتها وأهدافها، وإنما قلت تنسب إليه لأني أرى في مقالاته ومقالات تلاميذه ما يدل على أنه لا يريد الجامعة الاسلامية، بل الجامعة الشرقية التي تجمع دول الشرق مسلمة وغير مسلمة»(٣).

ثم يأتي الأخ فهد بأقوال بعض تلاميذ الأفغاني مؤيداً كلامه، منها قول رشيد رضا الآتي: «وقد اشتبه على بعض الناس أمر الجامعة الاسلامية في جريدة العروة الوثقى، وظنوا أن خدمتها خاصة بالمسلمين فأزالا ــ أي الأفغاني ومحمد عبده ــ هذه الشبهة بعبارة نشرت في العدد الثامن»(٤).

وتأكيد لكلام الأخ فهد، فقد ورد في تاريخ الأستاذ الامام عند تعريفه بالعروة الوثقى ما يلي: «الجريدة منهجها: ستأتي في خدمة الشرقيين...»(٥).

---

(١) المرجع السابق ــ ١١٨.

(٢) مجلة العربي الكويتية عدد ٤٢ ص ٧٣.

(٣) رسالة ماجستير، قدمت في كلية أصول الدين التابعة لجامعة الأمام محمد بن مسعود الاسلامية بالرياض ــ قسم التفسير وعنوانها: «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ــ ص ٧٢.

(٤) الرسالة المذكور ص ٧٣.

(٥) تاريخ الأستاذ الامام ــ ٢٩٦ / ١.

وعند ذكر مقاصد العروة الوثقى قال: «مقاصد العروة الوثقى: الموضوعات التي تنحصر فيها مقاصد العروة الوثقى أربعة: الجامعة الاسلامية، الرابطة الشرقية، المسألة المصرية، المسألة السودانية. والرابطة الشرقية مرتبطة بالجامعة الاسلامية في مذهبها، فليس منها فصول خاصة بها، وقلما تخلو مقالة في الجامعة الاسلامية من ذكرها، ووجوب الجمع بينهما»(١).

على أن دعوته إلى الجامعة الاسلامية، يراها الدكتور محمد عمارة، أنها كانت مرحلة من المراحل وانها كانت قبل نضجه الفكري، وأن اكتمال نضجه الفكري كان في الدعوة إلى القومية بكل معناها، وخص منها بالذكر القومية العربية، وعلى هذا الفكر كانت نهاية حياته»(٢). وسيأتي معنا تفصيل دعوته إلى القومية العربية.

وقد تبين من جملة مقالاته أيضاً انه كان يدعو إلى اتحاد شرقي، وهو ما يسمى بالاتحاد الفيدرالي، وهو أن تحكم على شكل دويلات تتمتع بالحكم الذاتي، وكلها تتبع مركزاً واحداً. فقد ورد في العروة الوثقى في مقال بعنوان (الوحدة الاسلامية) ـ العدد التاسع تاريخ ٢٥ رجب، ما يأتي:

«من أدرنة إلى بيشاور دولاً اسلامية متصلة الأراضي متحدة العقيدة بجمعهم القرآن... أليس لهم أن يتفقوا على الذب والأقدام كما اتفق عليهم سائر الأمم. ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم فالاتفاق في أصول دينهم» ثم يمضي إلى القول: «لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً، فإن هذا ربما كان عسيراً، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه، يسعى بجهده لحفظ الآخرة ما استطاع، فإن حياته بحياته، وبقاء ببقائه ــ إلا أن هذا بعد كونه أساساً لدينهم، تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات»(٣).

(١) المرجع السابق ـ ٣٠٦/١.
(٢) الأعمال الكاملة ـ ٧٧.
(٣) الأعمال الكاملة ٧٥.

فهو في هذه العبارة يحدد معنى الجامعة، حسب فكره وفلسفته، فيجعلها جامعة دول اسلامية، وليس في كلامه ما يشير إلى نوع الحكومة ووجهتها، لأن الحكم بكتاب الله، كما يدعي، قال به السني والشيعي والخارجي وغيرهم.

كما أن قوله (أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن) فيها معنى عدم الالزام وإنما الأفضل أن يكون القرآن، وإلا فكان عليه أن يقول (ويجب أن يكون سلطان جميعهم القرآن)، والظاهر انه التفت إلى من حوله فوجد فيهم النصراني واليهودي، فقال ذلك.

ثم إن قوله (ووجهة وحدتهم الدين) معطوفة على ما قبلها أي (وأرجو أن يكون وجهة وحدتهم الدين) والجواب على هذا كالجواب على تلك، مع أن كلمة (دين) عامة تشمل النصرانية واليهودية فأي دين يعني؟

فهو ـ على حسب كلامه ـ يدعو إلى جامعة دول اسلامية، سياستهم الخارجية واحدة أما أنظمتهم الداخلية فمختلفة كل حسب ما يرى.

الرأي نفسه يراه الدكتور توفيق طويل، إذ يقول: «ومن أجل هذا تعين على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يتحدوا ويتكفلوا بالدفاع عن دينهم ووقايته من خطر الانهيار أمام أعدائه ـ هذه هي الجامعة الاسلامية في تصور جمال الدين الأفغاني ـ لم يكن معناها أن يكون على رأس العالم الاسلامي حكومة واحدة، بل هي دعوة إلى اتحاد حكومات الأمم الاسلامية، وكانت متنافرة متقاتلة بدسائس الأجنبي الدخيل لتنظم على وئام، وتتكفل برد المطامع والدسائس عن بلادها، والويل للمسلمين إذا ظلوا متحدين على الخلاف مختلفين على الاتحاد»[١].

---

(١) الفكر العربي في مائة سنة ـ ٢٩٦.

٦ ـ دعوة إلى توحيد الأديان الثلاثة:

يعتبر جمال الدين الأفغاني من أشهر الدعاة إلى توحيد الأديان في العصر الحاضر، وقد فتح الباب لمن بعده، لذا قام من بعده أقرب تلاميذه، ليتم ما بدأ به أستاذه، كما سيأتي معنا في الحديث عن الشيخ محمد عبده.

يوضح لنا هذه الفترة من حياة الأفغاني الدكتور عمارة فيقول:

«وموقف الأفغاني إزاء هذه القضية الكبرى، إنما يقدمه إلى البشرية والفكر الانساني الناضج، عملاقاً لا يدانيه إلا القليلون ممن عاصروه أو سبقوه أو لحقوه، فالمساواة عنده بين معتنقي الأديان المختلفة، وبالذات الاسلام والمسيحية والموسوية، لم تكن نابعة من اعتبارات سياسية عارضة، ولا وليدة لضرورات وطنية تمليها طبيعة المعركة المحتدة بين الشرقيين عموماً وبين الامبريالية والاستعمار، وإنما كانت الأسس التي بنى الرجل عليها فكره وموقفه، والأرضية التي أنبتت هذا الفكر وهذا النضال، والخلفية الفكرية والثقافية التي شع منها هذا التسامح، بل هذه المساواة الحقة الكريمة، هي ايمان الرجل بوحدة جوهر هذه الأديان ووحدة الغايات السامية التي تنشدها التعاليم الأساسية المبرأة من الزيف والتحريف التي اشتملت عليها المنابع الأولى النقية لهذه الأديان»[1].

ففي بداية كلام الدكتور عمارة عبر عما يدل على الدعوة إلى المساواة بين معتنقي الأديان في الحقوق والواجبات وهذا كلام سليم، دعت إليه الشريعة ضمن الحدود التي حددها الكتاب وبينتها السنة المطهرة من هذه الحقوق والواجبات.

ثم ذكر أن هذه المساواة نابعة من وحدة الجوهر أي الأساس الايماني، ومن وحدة الغايات السامية وهي الدعوة إلى مكارم الأخلاق والفضائل، وهذا أيضاً سليم لا غبار عليه، ولكنه بعد هذا ينقل رأي

---

(١) الأعمال الكاملة ٦٩.

الأفغاني في الدين عامة دون تخصيص دين معين، يقول الأفغاني: «اكسب ـ أي الدين ـ عقول البشرية ثلاث عقائد:

العقيدة الأولى: التصديق بأن الانسان مَلَك أرضي وهو أشرَف المخلوقات.

والثانية: يقين كل ذي دين بأن أمته أشرف الأمم، وكل مخالف له، فعلى ضلال وباطل.

والثالثة: جزمه بأن الانسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال العروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي»[1].

فعبارته الثانية المنقولة عن جمال الدين تناقض كلامه الأول وهو الدعوة إلى المساواة والتسامح ووحدة الجوهر والغاية، فالدين في نظر الأفغاني يولد الاستعلاء على الآخرين فكل يدعي أنه أشرف الأمم، والدين يولد الضغائن فكل يدعي أنه على الحق وغيره في ضلال وباطل، وعلى هذا الأساس لا بد من حصول المشاحنات والحروب وهذا هو الحاصل فعلاً، والدعوة إلى إزالة الفوارق وتقريب الشقة بين الأديان دعوة مستحيلة إذ أنها كلها على باطل إلا ديناً واحداً. والأديان الحاضرة هي مدعاة إلى الحروب لا إلى التنافس على الخير والبركة وقد أخطأ الدكتور محمد عمارة فجعل اختلاف الأديان خيراً وبركة وانه مدعاة إلى التنافس والرقي فيقول: «فالتنافس الذي يدعو له الدين، أي دين، إنما هو في سبيل الخير والتقدم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون[2]».

وقد جاء الدكتور بهذه المقدمة ليقول بأن الأفغاني عندما يدعو إلى وحدة الأديان فمقصوده العمل للنفع العام والأخوة العامة التي تدعو لها الماسونية ليكون المسلم أخ اليهودي والنصراني ولذا نجده يعلق على كلام الأفغاني في هذه الدعوة فيقول:

«فإذا انتقل الأفغاني إلى الحديث عن الأديان السماوية التي تصارعت

---

(١) الأعمال الكاملة ٦٩.

(٢) الأعمال الكاملة ـ ٦٩.

وتعايشت على أرض المشرق وفي قلوب أهله، فإنه يقطع بأنك (لا ترى في الأديان الثلاثة ما يخالف نفع المجموع البشري بل بالعكس تحض على أن يعمل الخير المطلق مع أخيه وقريبه، وتحظر عليه عمل الشر مع أي كان)[١]».

فقول الأفغاني أن الأديان تحظر على اتباعها عمل الشر مع أي كان غير صحيح لأن اليهودية المحرفة ترى لنفسها على البشرية كافة الميزة والفضل والكبرياء وتقول بأنهم هم شعب الله المختار وغيرهم عبيد لهم أو حيوانات مسخرة لبني اسرائيل، فأين الأخوة التي ذكرها وأين النفع للمجموع البشري؟

ثم يتابع الدكتور تعليلاته لفكرة جمال الدين في الدعوة إلى توحيد الأديان فيذكر سبب الخلاف بين الأديان فيقول: «ثم هو ــ أي الأفغاني ــ يمضي ليقدم لنا تفسيراً اجتماعياً وسياسياً متقدماً وناضجاً لأسرار هذه الاختلافات والصراعات والنزعات التي تشهدها الدنيا مسربلة بأزياء الأديان ومسوح المتدينين فيقول: (... أما... اختلاف أهل الأديان فليس هو من تعاليمها ولا أثر له في كتبها وانما هو صنع بعض رؤساء أولئك الأديان الذين يتجرون بالدين، ويشترون بآياته ثمناً قليلاً، ساء ما يفعلون)[٢]».

فقول الأفغاني أن الاختلاف ليس هو من تعاليم الأديان ولا من اختلاف الكتب وانما هو من صنع الرؤساء فهذا كلام غريب والقرآن الكريم والسنة المطهرة مملوءة بالاشارات إلى هذا الاختلاف ولو أردنا سردها لاحتاج الأمر إلى المجلدات ثم تعميمه للأديان يدخل في ذلك الدين الاسلامي» فأين رؤساء الدين الاسلامي؟ هل المقصود بهم مشايخ الأزهر أو المفتون أو ماذا؟

قد يقول قائل بأن مقصود الأفغاني أن أصل الأديان لا خلاف بينها وانما نشأ الخلاف من الرؤساء القائمين على شئون الدين.

---

(١) الأعمال الكاملة ــ ٦٩.

(٢) الأعمال الكاملة ــ ٦٩.

أقول لقد أثبت جمال الدين أنه يوجد خلاف وهو مقر بوجود هذا الاختلاف ولكنه لم يذكر ما إذا كان هذا الاختلاف في أصل الأديان أو في الوقت الحاضر؟ وما دام أصل الأديان قد نزل من مصدر واحد فلا يعقل أن يحصل فيها اختلاف فهو يتكلم عن الخلاف الحاضر وعن الكتب الحاضرة وإلا فأين التوراة التي نزلت على موسى وأين الانجيل الذي نزل على عيسى، وحتى لو وجدت هذه الكتب في هذا الزمان ونقلت الينا نقلاً صحيحاً كما نقل القرآن فلا يصح العمل بها لأن القرآن نسخ الجميع، فالاختلاف اليوم بين الأديان انما بسبب أمور جوهرية ولا يجوز ايجاد أي تقارب بين تعاليم هذه الأديان لأن الخلاف ليس في أمر دنيوي يتنازل كل عن جزء من حقه فيلتقي الطرفان، وإنما الخلاف على كفر أو ايمان، فاما أن نقول أن الله ثالث أو نقول أن الله واحد فليس هناك مجال للتقارب أو التنازل.

ثم يأتي الدكتور عمارة بايضاحات أكثر عن الأفغاني يعتبرها عبقرية من الأفغاني فيقول: «ثم يزيد هذا الأمر ايضاحاً، فيكشف لنا من خلال سطوره وكلماته، لا عن عبقرية فقط بل وعن روح ساخرة لاذعة، وعبارات مصورة مجسدة لهذه المأساة التي خلقها ورعاها هؤلاء الذين جعلوا التجارة بالأديان حرفتهم المفضلة لكسب الأموال وتدبير الأمم والشعوب فيقول جمال الدين: «إن الأديان الثلاثة الموسوية، والعيسوية، والمحمدية على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية وإذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق استكملته الثانية... وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير، أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثل ما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها، وأن بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطا نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة... ولكن لما علمت أن دون اتحاد أهل الأديان، تلك الهوات العميقة، وأولئك المرازبة الذين جعلوا كل فرقة بمنزلة «حانوت» وكل طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة، ورأس مال تلك التجارات، ما أحدثوه من الاختلافات الدينية، والطائفية، والمذهبية، على حد قول الشاعر:

قد يفتح المرء حانوتاً لمتجره   وقد فتحت لك الحانوت في الدين

صيرت دينك شاهيناً تصيد به   وليس يفلح أصحاب الشواهين

علمت أن أي رجل يجسر على مقاومة التفرقة ونبذ الاختلاف، وانارة أفكار الخلق بلزوم الائتلاف رجوعاً إلى أصول الدين الحق، فذلك الرجل، هو يكون عندهم قاطع أرزاق المتجرين في الدين، وهو في عرفهم: الكافر، الجاحد، المارق، المخردق، المهرتق، المفرق، . . . الخ . . . الخ . . . »)[1].

فوضع الأفغاني هنا يدل بما لا يدع مجالاً للبس أن دعوته إلى التوحيد بين معتنقي الأديان هي على أساس التخلي عن بعض المعتقدات الخلافية في كل دين للوصول إلى حل وسط ولذا يقول (وإذا نَقُصَ في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق استكملته الثانية. . .) فهو يقرر وجود نقص في كل دين على حدة وكمال هذا النقص موجود في دين آخر فعلينا البحث عنه لتصبح الأديان جميعها كاملة وهكذا يمكن الاتحاد ونبذ الخلاف بين الأفراد. وهذا كلام لا يقوله سليم العقل، فمتى يمكن الوصول إلى هذا الأمر ما دام هناك تناقض جذري بين الأديان، فالدين الذي يدعو إلى تأليه البشر يناقض تماماً الدين الذي ينزه الاله عن التجسيد، والدين الذي يدعي أن الله فقير يناقض الدين الذي يقول بأن الله غني ونحن فقراء، وهكذا هناك أمور كثيرة متناقضة فأين النقص الذي تحدث عنه جمال الدين في أوامر الخير المطلق ويراد استكماله في الأخرى. ثم هل وجد جمال الدين نقصاً في الدين الاسلامي في أوامره يمكن الحصول عليها في دين اخر لنعمل على استكماله. فهذه دعوة غريبة لم تعرف عند السلف ولا الخلف. وما رأيه في قوله تعالى:

«اليوم أكملت لكم دينكم. . . »

المائدة الآية ٣

ويوضح هذا المسار محمود أبو رية في التوحيد بين عقيدة النصارى والاسلام فيقول: «ويروى عن السيد أنه كان يحاول أن يحل مسألة الأقانيم

---

(١) الأعمال الكاملة ــ ٦٩ ــ ٧٠

الثلاثة عند المسيحية أعني الآب والابن وروح القدس بنظرية وحدة الوجود، بمعنى أن الثلاثة هي بمثابة مظاهر لحقيقة واحدة، كما كان سقراط يقول: إن الخير والحق والجمال، ثلاثة مظاهر للحقيقة، ومن هذا يظهر أن السيد كان يحاول أن تتسع الوحدة بين المسلمين والمسيحيين، الأمتين اللتين كان بينهما عطف وصلة وتعاون عريق منذ فجر الاسلام[1]».

فهذا كلام صريح بأن جمال الدين يريد وحدة حقيقية بين الأديان تزيل حواجز الخلاف في العقائد وفي كل شيء ولو كان على أساس الاعتراف بعقائدهم وصحتها وتأويل النصوص الثابتة لتوافق نصوصهم المحرفة.

وكان من نتيجة دعوة الأفغاني إلى التوحيد بين الأديان الثلاثة أن تأثر تلاميذه بهذه الدعوة وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده بل انه بايعاز من الأفغاني أخذ يتصل برجالات الدين النصراني ويتفاوض معهم وأخذت شكلاً عملياً بعد وفاة جمال الدين، يقول د. محمد محمد حسين:

«أما الدعوة إلى التوفيق بين المسيحية والاسلام فهي دعوة قديمة، نرى طلائعها في مذكرات بلنت إذ أثبت فيها بتاريخ ٣ ابريل سنة ١٩٠٤ حديثاً جرى بينه وبين الشيخ محمد عبده قال فيه الأخير: (وفي أثناء نفيي في دمشق سنة ١٨٨٣ كان أحد القسس في انجلترا يدعى (اسحق تيلور) يقوم بالدعوة إلى توحيد الاسلام والنصرانية، على أساس فكرة التوحيد الموجودة في الاسلام والموجودة عند الكنيسة الانجليكية وكان لي صديق فارسي اسمه (ميرزا باقر) يعتقد بامكان تحقيق هذه الفكرة، وقد تمكن هذا من اقناعي أنا وآخرين من علماء دمشق بكتابة رسالة إلى تيلور في الموضوع، وما أن وصلت هذه الرسالة الى القس تيلور حتى فرح بها ونشرها، مستعيناً بها على اثبات صحة دعواه، لكن لم ينشر أسماء الكاتبين، إلا أن السلطان عبد الحميد كلف سفيره في انجلترا معرفة تلك الأسماء، وكان سهلاً عليه، فقد عرفها من القس نفسه، فحاق بي وبهؤلاء العلماء اضطهاد عظيم)»[2].

(١) جمال الدين — أبو ريه ٥٦.
(٢) الاتجاهات الوطنية ٣١٩/٢.

وميرزا باقر هذا الذي ذكر بلنت رجل مذبذب كان يساعد الشيخ محمد عبده في تحرير صحيفة العروة الوثقى التي أنشأها جمال الدين الأفغاني وهو رجل مريب ومن ايران وكان قد تنصر وصار داعية إلى النصرانية هناك مع جمعية المبشرين ثم عاد إلى الاسلام ليشارك في تحرير الجريدة الداعية إلى الجامعة الاسلامية وأخذ يدعو إلى التأليف بين الاسلام والنصرانية»(١).

وقد ذكر الشيخ رشيد رضا رسالتين للشيخ محمد عبده في كتابه تاريخ الأستاذ الامام موجهة إلى القس الانجليزي اسحق تيلور للتقريب بين الاسلام والنصرانية وبين اشتراك اليهود فيها(٢).

وهذه الدعوة التي فتح جمال الدين الأفغاني بابها تدرجت إلى تلاميذه حتى صار القس يخطب على منبر الأزهر وشيوخ الأزهر تخطب في الكنائس.

يقول الدكتور توفيق طويل: «جاهر محمد عبده في (الاسلام والنصرانية) بأن الأصل السابع من أصول الاسلام الثمانية مودة المخالفين في العقيدة... توخى الامام أن يدافع في رده عن الاسلام دون أن يقدح في المسيحية وانتهى من رده إلى تنزيه الديانتين واثبات أن من يدين بإحداهما على حقيقتها لا يحمل لمن يدين بالأخرى عداء... وجرى على هذا في تفسير آيات الكتاب... بل صرح القس الانجليزي (اسحق تيلور) بأن تفسير الامام يمهد له الطريق لاثبات الوحدة بين الديانتين في وسط يلتقي فيه المؤمن بالقرآن والمؤمن بالانجيل... وسرت هذه الروح بعده حتى اشتعلت في مصر ثورة ١٩١٩ بقيادة صحبه وتلاميذه وفي مقدمتهم سعد زغلول ـ اتحد الصليب والهلال وخطب شيوخ الأزهر في الكنائس واعتلى القس منابر الأزهر(٣).

---

(١) المرجع السابق ٢/٣١٩ والاسلام والحضارة ٨٤ وتاريخ الأستاذ الامام ١/٨١٧.

(٢) الاسلام والحضارة ٨١ ـ ٩٨ وتاريخ (٥٦٨، ٥٨٢، ٥٨٥/٢) و(٨١٧ ـ ٢/٨٣٠).

(٣) الفكر العربي في مائة سنة ٣٣٥.

ثم لا ننسى أن سعد زغلول كان تلميذاً لجمال الدين الأفغاني قبل أن يكون تلميذاً لمحمد عبده ويؤثر عن الشيخ محمد عبده انه كان يقول: «إن أبي وهبني حياة يشاركني فيها عليٌّ ومحروس (وهما أخوان كانا مزارعين) والسيد جمال الدين وهبني حياة أشارك فيها محمداً وابراهيم وموسى وعيسى والأولياء والقديسين»[1]. وكأنه يشير بذلك إلى وحدة الأديان السماوية الثلاثة.

نستخلص من كل ما سبق أن جمال الدين الأفغاني كان من دعاة التوحيد والتوفيق بين الأديان السماوية الثلاثة وخاصة الاسلام والنصرانية وهما الدينان الأكثر انتشاراً في العالم، ومعظم الحروب كانت بسبب تطاحنهما، وما الحروب الصليبية عنا ببعيدة. أما الدين اليهودي فلم تكن له دولة ولا ظهور ولا كثرة منتشرة على الأرض، وان كان هو الذي يسير العالم في الخفاء بواسطة مؤسساته السرية والعلنية.

لذلك لم نسمع عن التقارب مع الدين اليهودي، وحتى لو أراد المسلمون ذلك، فلا يمكن لليهود أن يفعلوا ذلك، لأنهم شعب الله المختار، وغيرهم عبيد وأتباع لهم، كما يزعمون.

٧ ــ دعوة إلى وحدة الشرق بما فيه من ملل:

ذكرت في دعوته إلى الجامعة الاسلامية أنه كان يقصد بالجامعة الاسلامية جامعة الشرق الاسلامي، وتكاد تكون دعوته في كليهما واحدة.

لذا قيل بأن خلاصة مذهب جمال الدين السياسي الدعوة إلى وحدة شرقية عامة تكفل لأمم الشرق السيادة والسعادة»[2].

ودعوته إلى توحيد الشرق مرتبطة كذلك بتوحيد الأديان، فقد نقل عن جمال الدين أنه قال: «خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه (أي

---

(١) زعماء الاصلاح ٢٩٣.

(٢) الرد على الدهريين ــ ١٢.

الشرق)، وتحرى دوائه، فوجدت أقتل أدوائه انقسام أهله وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف، فعملت على توحيد كلمتهم، وتنبيههم للخطر الغربي المحدق بهم[1].

وقد أخطأ بعض الكتّاب فظنوا أن هذه الوحدة تقوم على الكتاب والسنة، وأنها دعوة إلى الاسلام بشكل مموه، لذا نجد الكاتب رشيد الذوّادي يقول: «إنها ـ أي الدعوة إلى وحدة شرقية ـ لون من ألوان التضامن والاتحاد بين أبناء أقطار المشرق الاسلامي، الذين ينبغي عليهم جميعاً أن يسيروا على هدي القرآن وتعاليمه المشرفة ومقاصده السامية»[2].
ونسي الكاتب أن دعوة الأفغاني إلى الجامعة الاسلامية، كانت دعوة إلى توحيد الصف لا توحيد الاتجاه، ولذا كانت دعوته موجهة إلى سائر الأديان والمذاهب، وكان من جملة ما كلف به التوسط بين ايران الشيعية وبين الدولة التركية للعمل على توحيد الصف لمواجهة الخطر الاوروبي المتكالب على العالم الاسلامي.

وكذلك عمل جمال الدين على التقارب بين الأديان، للوقوف صفاً واحداً أمام العدو الخارجي ـ كما يقولون ـ.

ثم أن الكاتب الذوّادي أخذ يفند آراءه ويضع لهذه الوحدة ركائز تبدو براقة ولكنها بعيدة عن الواقع كل البعد.

يقول الزوّادي: «وركائز هذه الجامعة تتمثل فيما يلي:

أ ـ مواجهة ألوان الاستعمار الغربي والوقوف ضد دسائسه وألاعيبه.
ب ـ منع التدخل الأوروبي في بقية أجزاء العالم الاسلامي، خاصة في فارس وأفغانستان.
ج ـ تحرير الأراضي الاسلامية المحتلة وفي مقدمتها أراضي مصر والهند.
د ـ ثروة المسلمين يجب أن تكون لهم لا سواهم»[3].

---

(١) جمال الدين: د. محمود قاسم ٤.
(٢) رواد الاصلاح ٧٤.
(٣) رواد الاصلاح ـ ٧٤.

فهو وان كان يتكلم عن جامعة شرقية ولكنه يقصد جامعة اسلامية وقد تقدم البحث عن هذه الجامعة.

والفرق بين الجامعة الاسلامية والجامعة الشرقية، هو أن الدعوة إلى الجامعة الاسلامية كانت تعني جمع كل البلاد الاسلامية تحت راية واحدة ولو كان الحكام متعددين ـ كما هو الحال في دعوة السلطان عبد الحميد ـ ومقصودها الوقوف صفاً واحداً أمام الدول الأجنبية الكافرة.

٨ ـ الدعوة إلى القومية:

يرى بعض الكتاب أن جمال الدين مر في دعوته بعدة مراحل وأطوار تقدم بعضها كالدعوة إلى جامعة اسلامية ووحدة شرقية.

ولكن هذه الدعوات كانت في طور الطفولة بالنسبة لفكر جمال الدين قبل النضج، أما دعوته التي كانت في زمن النضج الفكري، فهي الدعوة إلى القومية. ويعتمد صاحب هذا الرأي على ما ورد في كتاب خاطرات وكان ذلك في أخريات حياته، فتكون هذه الدعوة آخر ما وصل إليه فكره.

وممن يرى هذا الرأي الدكتور توفيق الطويل: «وبرغم دعوته للوحدة الاسلامية ـ على هذا النحو ـ قام بتشجيع الحركات القومية في الأمم الاسلامية دون أن يفطن إلى أن قيامها يفتت الوحدة الاسلامية، التي كان يبذل لتحقيقها جهوده»[(١)].

وأنا أقول للدكتور الطويل، إنها ليست غفلة من جمال الدين بل إنها هدفه وغايته، إذ كلنا يعلم أن المحافل الماسونية كانت تعمل ليل نهار، على تفتيت الوحدة الاسلامية والقضاء على الخلافة الاسلامية، وكان جمال الدين أحد أعضاء هذه المحافل، بل إنه مؤسس محفل ذي خطر في بلاد الشرق الاسلامي ـ كما كانوا يسمونها ـ.

---

(١) الفكر العربي ـ ٢٩٦.

وعلى رأس القائلين بأن جمال الدين كان يدعو إلى قومية الدكتور محمد عمارة، بل أنه يُشيد به ويرفع منزلته في هذه الدعوة.

فبعد أن قرر أن جمال الدين داعية من دعاة الاسلام والجامعة الاسلامية يراه داعية من دعاة القومية العربية، ولكنه يرى أن الجمع بينهما صعب، فلا بد من رفض واحدة منهما.

يقول الدكتور عمارة: «إننا نستطيع أن نقدر مدى الصعوبات التي لقيها فيلسوف ثائر كجمال الدين في هذا السبيل، وهي أضخم مما يتصوره البعض، واعقد مما يمكن أن يلقاه سواه، وذلك لأن الأفغاني كان مفكراً مسلمًا، يصدر في تفكيره وسلوكه عن تعاليم دين ذي طابع عالمي، وللوهلة الأولى تبدو تعاليمه على غير وفاق مع أية فكرة قومية»[١].

وبعد هذه المقدمة، يلفت الأنظار إلى أن الأفغاني كان في مرحلة سابقة لهذه المرحلة داعية إلى مبدأ عالمي، ولكنه تطور فكرياً في آخر حياته فيقول: «ومن ثم نستطيع أن نبصر أهمية هذا التطور الذي حدث لفكر الأفغاني في هذا الصدد، وأن نبرز كذلك، ذلك الازدواج والخلط، اللذين تحدثنا عنهما في الفصل السابق من هذه الدراسة، عندما لم يكن لفكر الرجل القدر الكافي من الحسم والوضوح في هذا الميدان»[٢].

وكأن الدكتور يريد أن يقول: إن جمال الدين، عندما كان يدعو إلى الجامعة الاسلامية، كان فكره لم يبلغ النضج والموازنة ليحسم هذا الاختلاف بشكل صحيح، ولكنه لما نضج فكرياً وعرف أن الدعوة إلى القومية هي الدعوة الصحيحة القوية التي تستطيع مقارعة الاستعمار، تحول عن دعوته السابقة وصار يدعو إلى القومية العربية.

ويظهر أن الدكتور عمارة لم ينتبه إلى سر هذا التحول، لذا راح يفكر في ايجاد العلل والأسباب التي دعته لتغيير فكره.

---

(١) الأعمال الكاملة ــ ٨٥.

(٢) الأعمال الكاملة ٨٥، ٥٦.

إن جمال الدين الأفغاني كان في مصر يدعو إلى وحدة الشرق والشرقيين لأنه وجد الناس يلهجون ويملئون الصحف في الكلام عنها، ثم انه التفت حوله فرأى فيهم اخلاطاً ما بين مسلم ونصراني ويهودي، فراح يدعو إلى قومية مصرية باسم (مصر للمصريين) وسيأتي معنا كيف أن أديب اسحق كان يدعو لها وهو نصراني معروف.

أما دعوته إلى الجامعة الاسلامية فبدأت في أوروبا عندما أخذ يصدر مجلته المعروفة بالعروة الوثقى التابعة لمنظمة سرية لها ارتباط وثيق بالمنظمات السرية الأخرى كالماسونية، وهو عضو فيها.

لذا نقول إن جمال الدين لم يخرج عن خطه الذي رسم له، وإنما كان يتكلم حسب المقام، ولكل مقام مقال.

وعلى كل حال فإن جمال الدين مر في مرحلة تأرجح بين الدعوتين ولكنه استقر أخيراً على الثانية بعد أن رأى بعض الدول الاسلامية أخذت تتمسك بقومياتها وأخذ الصراع يظهر بين القوميات، يقول الدكتور محمد عمارة: «وطبيعة هذا الازدواج في فكر الرجل، وذلك التعايش الذي استمر فترة طويلة من حياته الفكرية والنضالية بين الفكرتين والقطبين، لم يكن منبعثاً عن الفكر المجرد والأسس النظرية فقط، بقدر ما كان مبعثه أن الأفغاني قد عاش النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي الفترة التاريخية التي أخذت تصطدم فيها أرجاء العالم الاسلامي بالدعوات والأفكار التي تتجاذب الناس حول هذا الموقف أو ذاك...»[1].

ثم يشرح سبب هذا الازدواج فيقول بأن جمال الدين يعلم أن الدين الاسلامي ينبذ العصبية القومية ولكنه أصبح في عصر اشتد فيه ساعد القومية وأصبح أمل المسلمين ومصالحهم في الدعوة القومية فأصبح جمال الدين كما قيل عنه بحق وجدارة «أبو جميع ما في مصر اليوم من نهضة وطنية ويقظة جنسية»[2]. ويحدد بدء دعوته إلى القومية فيقول: «وكان لرفعه شعار (مصر للمصريين) الذي أصبح شعاراً للحزب الوطني السري

---

(١) الأعمال الكاملة ٨٦.

(٢) الأعمال الكاملة ٨٦. وحاضر العالم ٨٧ ـ ٨٩ / ٤.

الذي أقامه ورعاه دلالة عظمى على نمو بذور التفكير القومي الناضج لدى الرجل منذ ذلك التاريخ»[١].

لنقف قليلاً عند هذه العبارة لنرى التناقض حيث أنه جعل بدء دعوته إلى الجامعة الاسلامية كان منذ أن شكل جمعية العروة الوثقى وأصدر صحيفته التي كانت تنطق باسم الدعوة إلى الجامعة الاسلامية، ثم انه في آخر حياته كتب في خاطراته ما انتهى اليه فكره بالنسبة للدعوة القومية، وهناك يجعل دعوته إلى القومية قبل العروة الوثقى، فالتناقض هنا واضح، والذي أراه أن الرجل لم تكن دعوته إلى جامعة اسلامية ولا إلى قومية وإنما كان يدعو إلى الأخوة الانسانية التي تجمع بين المسلم وغير المسلم، والعربي وغير العربي.

ولذا نجد عبارات لغير الدكتور محمد عمارة تشير إلى الدعوة إلى القومية مع عدم تحديد الزمن والدكتور نفسه يستشهد بها فيقول: «ومن هنا فاننا نستطيع فهم وجهة النظر القائلة بأنه قد (ظهرت المنازع الجنسية الرامية إلى التضامن القائم على الاعتبارات العنصرية في تعاليم جمال الدين الأفغاني منطلقة من هذه التجربة العملية)»[٢].

ثم يعلل نهي الشرع عن العصبية الجنسية كما فهمه جمال الدين بأنه نهي عن الافراط في التعصب الممقوت «ومن ثم كان الأفغاني ــ زعيم تلك المدرسة التي زاوجت بين الفكر الاسلامي وبين الفكر القومي الذي حفلت به منذ ذلك العصر بلاد المسلمين والتي قررت أنه (ينبغي لكل أمة أن تتمسك بجامعتها القومية في صدور أبنائها، وأن ذلك لا ينافي الاسلام)»[٣].

وإذا تحدث جمال الدين عن المجالس النيابية ومؤهلات نوابها يصف النائب الذي يحق له تمثيل الشعب في المجالس النيابية بقوله: «هو من يعتز بالمقومات الأهلية القومية وليس من صفته احتقار القومية»[٤].

(١) الأعمال الكاملة ٨٦.
(٢) الأعمال الكاملة ــ ٨٦.
(٣) المرجع السابق ٨٦ ــ ٨٧.
(٤) المرجع السابق ــ ٨٧.

وعندما يتكلم عن القوميات يضع لها مقومات تقوم عليها كاللسان والتاريخ والآمال والآلام، لا على أساس العرق، ولذا فعندما تكلم عن القومية العربية جعل الأصل فيها اللسان العربي، وجعل السبيل إلى اجتماع العرب هو الجامعة اللغوية ووحدة اللسان.

فهو يقول: « لا جامع لقوم لا لسان لهم، ولا لسان لقوم لاآداب لهم، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم اذا لم يقم منهم أساطين تحمي وتحيي آثار رجال تاريخها فتعمل عملهم وتنسج على منوالهم »[1].

وقد اعطى الأفغاني اللغة أكثر مما تستحق في الجامعة القومية كما يقول الدكتور محمد عمارة: « أبصر الأفغاني طوق النجاة لهذه الأمم، في معركتها الكبرى، وحدد أن لسان هذه الأمم ولغاتها هو طوق النجاة في هذا الميدان الصعب.. »[2].

ثم ينقل كلام الأفغاني فيقول: « انه ـ أي تأثير اللسان ـ من أكبر الجوامع التي تجمع الشتات، وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر، فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير، فحافظت على لسانها محكومة، وترقبت الفرص، ونهضت بعد دهر فردت ملكها، وجمعت من ينطق بلسانها اليها، والعامل في ذلك انما هو اللسان قبل كل ما سواه، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ونسوا مجدهم وظلوا في الاستعباد ما شاء الله[3] ».

ولو دققنا النظر في هذه العبارة لرأينا أن فيها غلواً فمتى كان اللسان مقدما على العقيدة في الجهاد ومحاربة الاستعباد، ان الشواهد على دحض هذه الدعوة كثيرة نذكر منها قضية الجزائر، فقد استعبدت

---

(١) المرجع السابق ـ ٩٠.

(٢) الأعمال الكاملة ـ ٩١.

(٣) المرجع السابق ـ ٩٢.

(٤) الأعمال الكاملة ـ ٩٢ ـ ٩٣.

/ ١٣٠/ سنة تقريبا ونسي أهلها لغتهم العربية ونسوا تاريخهم ولم يعد يدرس في المدارس الا تاريخ فرنسا مع دراسة مشوهة لتاريخ العرب المسلمين، وأصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية في الدوائر والمدارس والأسواق، ثم انهم مع ذلك قاموا بالثورات والمعارك حتى حرروا وطنهم بعد أن اطمئن الفرنسيون بأن الجزائر أصبحت قطعة من فرنسا.

والغريب أن الدكتور محمد عمارة يدعي ــ تأييدا لجمال الدين ــ بأن الجزائر ما تحررت إلا لأنها احتفظت بلسانها، [١] وليس الجامع الأساسي الذي كان يجمع المجاهدين في جبال الجزائر ووديانها وصحاريها وسهولها الاسلام الى أن نالت استقلالها.

ويقول: « ان هذه اللغة العربية كانت دائما، وستظل أبدا، أعز الجامعات وأكبر المفاخر لدى العرب غير المسلمين»[٢].

نقول له، وهل يعتز القبطي بالقومية العربية أكثر من اعتزازه بدينه، أو هل يعتز النصراني في بلاد الشام بقوميته أكثر من دينه؟

ويزيد الطين بلة فيقول: « ان المعيار الذي تحدد به حدود الأمة العربية هو معيار العروبة لا الدين ــ أي دين ــ ولا المذهب ــ أي مذهب ــ »[٣].

وهو بذلك يفسر كلام الأفغاني الذي يقول: « الأمة العربية هي عرب قبل كل دين ومذهب وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان مالا يحتاج معه الى دليل أو برهان»[٤].

ثم ان الأفغاني لا يكتفي بدعوة العرب الى القومية العربية، بل انه تطاول على الأمة التركية وطلب منها ترك قوميتها والالتحاق بالأمة

(١) الأعمال الكاملة ــ ٩٢.
(٢) المرجع السابق ــ ٩٣.
(٣) المرجع السابق ــ ٩٣.
(٤) المرجع السابق ــ ٩٤.

العربية، يقول الأفغاني: عن الأمة التركية: « لو تعربت وانتقى من بين الأمتين النعرة القومية وزال داعي النفور والانقسام بالتركي والعربي، وصاروا أمة عربية، بكل ما في اللسان من معنى، وفي الدين الاسلامي من عدل، وفي سيرة أفاضل العرب من أخلاق وفي مكارمهم من عادات. . لكان اعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسورا»[1].

لا ندري لماذا كل هذا الحماس للقومية العربية حتى انه طلب من الأتراك الالتحاق بالقومية العربية لسانا. وتتبع سيرة العرب في الأخلاق والعادات، ولماذا لم يقل بسيرة المسلمين وأخلاقهم؟ ولماذا هذا النصح الحار للأتراك وليس للفرس أو الأفغان أو غيرهما؟

لا شك أن دعوته الى التعريب أو القومية العربية ليس مخلصا فيها، فلو كان مقصده تعلم اللغة العربية لكان هذا محمودا منه ولكنه جعل العربية هي القدوة ورجالات العرب هم القدوة ولم يترك لغيرهم فضلا على الاسلام، فهل نسي أن صلاح الدين كان كرديا أليس هو من الأفاضل الذين يقتدى بهم؟

وهل نسي سلاطين بني عثمان أمثال محمد الفاتح والسلطان سليم وباقي السلاطين الذين فتحوا اوروبا ونشروا فيها الاسلام؟ فهل هؤلاء لا يقتدى بهم وبسيرتهم وأخلاقهم؟

ثم يتابع جمال الدين مسيرته في التعريب فيقول: « لو أنصف الأتراك انفسهم، وأخذوا بالحزم، واستعربوا، وترأسوا ذلك الملك، وعدلوا في أهله، وجروا على سنن الرشيد، أو المأمون على الأقل، ولا نقول على سنن وسيرة الخلفاء الراشدين، فما كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة وأعز جانبا وأمنع حوزة»[2].

من أجل هذا كان الدكتور محمد عمارة يعده في قمة المفكرين

---

(١) الأعمال الكاملة ـ ٩٤.

(٢) الأعمال الكاملة ٩٥ ـ عن الخاطرات ٢٣٦.

القوميين فيقول: « لا نحسب الرجل الاعملاقا بلغ الذروة في هـذا الصدد»(١).

ويغالي الدكتور عمارة فيجعل الأفغاني ممن يعتز بالعرب قبل الاسلام لما فيهم من مكارم فيقول: « واعتزاز الأفغاني بالعنصر العربي وحضارته ومكارمه، لم يكن وليد ايمان هذا العنصر بالاسلام وتدينه بهذا الدين، وجهاده في سبيل نشر تعاليمه في مشارق الأرض ومغاربها، بل ان هذا الاعتزاز وذلك الاعزاز انما يمتد الى ما قبل هذا التاريخ، والى ما هو أبعد في السنين وأسبق من ظهور الاسلام»(٢).

وأنا لا أظن أن الأفغاني يستطيع أن يجهر بالقول بأن العرب قبل الاسلام كانوا على حضارة ومكارم أخلاق تفوق حضارة ما بعد ظهور الاسلام، وليس للدكتور عمارة دليل على هذا الادعاء سوى نصّ أورده بعد عدة سطور يفيد أن اللسان العربي في الجاهلية كان على مكانة عالية بين اللغات، كما أن حكماء العرب كالحارث بن كلدة كان يبهر الأفكار والعقول عند اجتماعه بملوك الفرس مع علو حضارتهم ومدنيتهم، وينقل العبارة من الخاطرات على أنها كانت آخر أفكار الأفغاني»(٣).

٩ ــ دعوة الى الاشتراكية: يرى البعض أيضا أن جمال الدين كان يؤيد الدعوة الاشتراكية ويرى فيها الخير ويتنبأ لها أن تعم المعمورة. وبعضهم يراه من دعاة الاقتصاد الفردي والنشاط الحر والفكر الرأسمالي، ويحاول الدكتور محمد عمارة تبرئته من الدعوة الى الرأسمالية ويرد على القائلين بذلك فيقول: « لقد حدث ذلك، بينما يحمل فكر الرجل ما يدحض هذا الاتهام، وتقدم آثاره أكثر من دليل على انحيازه الى جانب الناس الكادحين البسطاء وتحبيذه للفكر الاشتراكي دونما موارية أو خفاء»(٤).

---

(١) الأعمال ــ ٩٥.
(٢) الأعمال الكاملة ــ ٩٩.
(٣) الأعمال الكاملة ــ ١٠٠.
(٤) الأعمال الكاملة ــ ١٠٣.

ويرى الدكتور احمد امين ان اشتراكية الأفغاني مستقاة من أعمال وأقوال عمر وأبي ذر فيقول: « يرى أن اشتراكية الغرب بعث عليها جور الحكام وعوامل الحسد في العمال من أرباب الثراء، أما الاشتراكية التي كانت في الاسلام فملتحمة مع الدين، ملتصقة مع الخلق، باعث عليها حب الخير، كما في أعمال عمر وأبي ذر»(١).

يقول الدكتور أديب نصور: « أما الاشتراكية في الاسلام وقانون الاشتراكية المعقول، في نظر الأفغاني، يخرج من هذه الآيات ـ أي الآيات التي تدل على المشاركة ـ ومن سنة الرسول، وذلك الاخاء الذي عقده بين المهاجرين والأنصار، وهو أشرف عمل تجلى به قبول الاشتراكية قولا وعملا»(٢).

ومن يدقق النظر في كتاب (الرد على الدهريين) يجد فيه دعوة ظاهرة الى المذهب الرأسمالي غير أن هذا الكتاب ليس آخر كتاب لجمال الدين، فعلى هذا يمكن أن نفهم أن هذه الفكرة كانت مرحلةً من مراحل تطور فكره المستمر، ولكنه استقر أخيرا على الفكرة الاشتراكية، ونجد هذا واضحا في كتابه الأخير (خاطرات) وهو عبارة عن مذكراته أملاها على تلميذه محمد المخزومي.

وكذلك نجد في كتابه الأول ردا عنيفا على الاشتراكية ومهاجمته لها، وانها دعوة الى الالحاد والمعتنقون لها هم من كبار الملحدين.

ولكنه بعد عشرين سنة من تأليفه له، يدعو الى الاشتراكية ويدافع عنها وعن معتنقيها فما الذي جعله ينقلب هذا الانقلاب؟ بعد أن كان يقول عن الاشتراكية انها كفر والحاد، صار ينسب اليها الخير والبركة.

وقد لاحظ كثير من الكتاب هذا الانقلاب في أفكاره، وراح كل واحد يدلي دلوه، إما مدافعا وإما مهاجما. نذكر على سبيل المثال الكاتب التونسي رشيد الزوادي اذ يقول: « أما في خصوص موقفه من الاشتراكية والاشتراكيين فصحيح أنه هاجم الاشتراكية في فصل عنوانه (السوسياليزم

(١) زعماء الاصلاح ـ ١١٤.
(٢) الفكر العربي ـ ١٣٤.

والكومينست) ضمن كتابه (الرد على الدهريين) الذي ألفه في الهند عام ١٨٨١ م ضد مجموعة من الهنود والمسلمين، شاءوا أن ينحو في التعليم والثقافة منحى أوروبا، وانساقوا للاستعمار ، فحلل في هذا الفصل غاياتهم وأهدافهم البعيدة، وجميعها ترمي الى الالحاد والكفر وسفك الدماء»[١]. غير أن الكاتب المذكور، بعد قليل، يحاول توضيح سبب هذا التناقض فيقول: « ان موقف الأفغاني من الاشتراكية لم يكن موقفا عدائيا بالمرة، فحتى هذا الفصل الذي جاء في كتابه الرد على الدهريين، فقد كتبه في ظروف متعبة وقاسية »[٢]. ثم أخذ الكاتب يذكر بعض ما رآه جمال الدين كدليل على صحة الاشتراكية، فيجعل أبا ذر مؤسس الاشتراكية وعثمان هادمها.

يقول رشيد الذوّادي: « فرحلاته العديدة ــ أي الأفغاني ــ ، ومواقفه من الطبقية والاقطاع وآراؤه في المفهوم الرأسمالي، وفي التطبيق الاشتراكي، وتعاطفه مع الكادحين ومع رواد الاسلام الأول، الداعين الى العدالة الاجتماعية كأبي ذر الغفاري وغيره.. ، أليس في كل هذا ما يؤكد على اسهامات الأفغاني في تحديد الملامح الأساسية للفكرة الاشتراكية»[٣]. ثم بعد كلام يقول: « والدعوة الى الاشتراكية التي كان حدد ملامحها وأبعادها، فيلسوفنا الحر هذا، انما هي حصيلة فكر عربي اسلامي، وقد طبقت منذ ظهور الاسلام على يد الرسول عليه السلام، ثم تعرضت للنكسة في عهد عثمان»[٤].

وعلى كل حال، فان هذا التقلب والتناقض في أفكاره الاشتراكية، يرجع الى البيئة الي كان فيها ــ على ما يظهر ــ فلما كان في الهند، في وسط اسلامي كبير، كتب مقالته المشهورة تحت عنوان (مطلب في السوسيالست «الاجتماعيون» والنهيليست «العدميون» والكومونيست «الاشتراكية») قال فيها: « هذه الطوائف الثلاثة تتفق في سلوك هذه

(١) رواد الاصلاح ــ ٧٥.
(٢) وراد الاصلاح ــ ٧٦.
(٣) رواد الاصلاح ــ ٧٦ ــ ٧٧.
(٤) المرجع السابق ــ ٧٧.

الطريقة (أي العصرية الالحادية)، وزينوا ظواهرهم بدعوى أنهم سند الضعفاء والطالبون بحقوق المساكين والفقراء، وكل طائفة، وان لونت وجه مقصودهم بما يوهم مخالفته لمقصد أخروي، الا أن غايةما يطلبون انما هو رفع الامتيازات الانسانية، واباحة الكل، واشراك الكل في الكل»، ثم يذكر أعمالهم التخريبية فيقول: «كل ذلك سعيا في الوصول الى هذه المطالب الخبيثة» ويذكر بعد ذلك اباحيتهم والغاء الملكية عندهم فيقول: «وجميعهم على اتفاق، في أن جميع المشتهيات الموجودة على سطح الأرض منحة من الطبيعة

ثم يذكر الحادهم وكفرهم فيقول: «ومن مزاعمهم أن الدين والملك عقبتان عظيمتان وسدان منيعان، يعترضان بين أبناء الطبيعة ونشر شريعتها المقدسة ـ أي الالحاد والاشتراكية». ثم يتنبأ باحتمال قيام الاشتراكية في روسيا فيقول «وبهذا اكثرت احزابهم، ونمت شيعتهم في اقطار الممالك الاوروبية وخصوصا مملكة روسيا [1]. وهنا يعرض لنا سؤال وهو: كيف عرف أن الاشتراكية ستصل الى روسيا ووصلت فعلا الى روسيا. فهل نزل عليه وحي؟ أو أنها الماسونية التي كانت تدبر هذا الانقلاب باسم الشيوعية؟

في النص السابق يذكر ثلاث فئات من الدعوات المتقاربة اعتقادا ومنهجا ولدينا نص يخص به الاشتراكية والاشتراكيين بالهجوم فيقول: «وهذه الطائفة.. تسعى لتقرير الاشتراكي في المشتهيات ومحو حدود الامتيازات ودرس رسوم الاختصاص حتى لا يعلو أحد على أحد». ثم يذكر المساواة التي يدعون اليها في ازالة الفوارق بين الطبقات حتى تصبح طبقة واحدة وينقدها نقدا لاذعا فيقول: «ان لاق هذا التفكير الخبيث بعقول البشر، مالت النفوس الى الاخذ بالاسهل والافضل فلا نجد من يتجشم مشاق الاعمال الصعبة. ولا من يتعاطى الحرف الخسيسة طلبا للمساواة في الرفعة» ثم يدعو صراحة الى المبدأ الرأسمالي فيقول: «فان المبدأ الحقيقي لمزايا الانسان انما هو حب الاختصاص والرغبة في الامتياز فهما الحاملان على المنافسة..» [2].

(١) الأعمال الكاملة ١٠٥ والرد على الدهريين ٦٢ ـ ٦٣.
(٢) الأعمال ١٠٥ ـ ١٠٦ والرد على الدهريين ٤٥ ـ ٤٦.

من هذه النصوص وامثالها يرى دعاة الرأسمالية أن الرجل كان على مذهبهم وأنه في القمة من الدعاة الى مذهبهم، ولكن الذي يظهر للمدقق أن كان في أول حياته يرى ذلك وخاصة بعد قيام الثورة الاشتراكية في باريس عام ١٨٧١ وفشلها وما أحدثت من فساد في الأرض ونشر للألحاد، ولكنه بعد مضي مدة انتشر المذهب الاشتراكي في أوروبا بمساعي اليهود وتشجيعهم له وتغطية الجو الأوروبي بنشر محاسنه بواسطة اعلامهم حتى صار الناس جميعا يتكلمون عن الاشتراكية وكأنها الفردوس المفقود وهنا تغير الأفغاني وصار يدعو لها، هذا اذا احسنا الظن في دعوته، ولكن اذا أردنا أن نتعمق أكثر فأكثر نجد أن الماسونية العالمية تبنت الاشتراكية بايعاز من الصهيونية العالمية لتفتيت العالم والسيطرة على مقدراته، وكان الأفغاني في هذه الآونة يتلقى تعليماته منها ويعمل بما توحي اليه.

والدلائل تشير الى أن جمعية العروة الوثقى السرية تحالفت مع الاشتراكيين الأوروبيين وذلك عقب فشل ثورة عرابي (١).

وبعد ذلك أخذ يهاجم الأغنياء ويصفهم بأنهم سلاسل وأغلال في أعناق المسلمين فيقول: «ما أقعد الهمم عن النهوض الا أولئك المترفين، يحرصون على طيب في الطعم، ولين في المضجع وتطاول في البنيان... أولئك صاروا في أعناق المسلمين سلاسل وأغلالا»(٢).

ثم انه يقرر أن هؤلاء المترفين الذين يعيشون على حساب الشعب العامل لا بد من أن تأتي الاشتراكية لتعطي كل ذي حق حقه فيقول: «الاشتراكية... هي التي ستؤدي حما مهضوما لأكثرية من الشعب العامل»(٣).

ووصل الحد الى درجة أن الأفغاني يرى حتمية سيادة النظام الاشتراكي، وضرورة مرور المجتمع به وتطبيق مبادئه، فهو يقول عن

(١) الأعمال الكاملة ــ ١٠٧.
(٢) الأعمال الكاملة ــ ١٠٧ عن العروة الوثقى ١٣٨.
(٣) الأعمال الكاملة ــ ١٠٧ عن خاطرات ــ ١٨٩

الثورة الفرنسية البرجوازية وعن الثورة الاشتراكية المنتظرة وحتميتها: « والدعوة لطلب الحرية في فرنسا وهي دعوة ومطلب حق، وكم صادف أهلها من المحن، وكيف استحر فيها القتل وسالت الدماء واليوم فالعالم يقدرهم ولسوف يقتدي بهم، وهكذا دعوى الاشتراكية.. وان قل نصراؤها اليوم، فلا بد أن تسود في العالم يوم يعم فيه العلم الصحيح، ويعرف الانسان أنه وأخاه من طين واحد أو نسمة واحدة وأن التفاضل انما يكون بالأنفع في المسعى للمجموع»(١).

فهو يرى انها ستعم متى عم العلم الصحيح ، فما هو هذا العلم الذي يعنيه؟ هل يقصد العلم الصحيح بحقيقة الاشتراكية وعدالتها؟ فلقد علمنا أنها دعوة إلى الفساد وإلى تعالي فئة قليلة على فئة كثيرة، ولقد قضت الاشتراكية في روسيا على عشرين مليونا من البشر من أجل استقرارها وتحكم الفئة القليلة بالفئة الكثيرة.

ثم يقول بأن التفاضل انما يكن بالأنفع في المسعى للمجموع، فلعله يقصد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أحب الناس الى الله أنفعهم»(٢). فهل صحيح أن الاشتراكية هي أنفع للانسانية من أي مبدأ آخر؟ ولو كان المقام يساعد لأوضحنا ما افسدت الاشتراكية في الأرض، فأهلكت الحرث والنسل، وقضت على الاقتصاد الذي هو أساس مبدئها، ثم قضت على الأمن والاستقرار حتى صار الرجل لا يأمن على نفسه ولا ماله ولا ولده، وضاعت الانساب بانتشار الاباحية ولم يعد يعرف الولد أباه ولا أمه ولا أخته وأخاه! فهل هذا هو الأنفع للعباد؟

وبمثل هذا التنبؤ أصبحنا نسمع من قادة الشيوعية، وكذا أخذت تكتب مجلاتهم اليهودية. فقد نشرت مجلة (افريكان هيبرو) في عددها الصادر يوم ١٠ سبتمبر ١٩٢٠، وهي كبرى المجلات الصهيونية ما يلي: «ان الثورة الشيوعية في روسيا كانت من تصميم اليهود، وانها قامت نتيجة

---

(١) الأعمال الكاملة ١٠٨ وخاطرات ٢١١ ــ ٢١٢.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني عن ابن عمر (الفتح الكبير جـ١ ص٤٧).

لتدبير اليهود الذين يهدفون الى خلق نظام جديد للعالم، وان تحقق في روسيا سيكون الفضل للعقلية اليهودية التي خلقت الشيوعية في العالم، ونتيجة لتدبير اليهود سوف تعم العالم بسواعدها»(١).

ولوقارنا تنبؤ جمال الدين بسيطرة الشيوعية على العالم مع تنبئه القديم في كتابه (الرد على الدهريين) بأنها ستدمر كل شيء، نجد أن جمال الدين يناقض نفسه تمام المناقضة، اذ كيف يتنبأ لها السيطرة على العالم، وانها ستنقذ العالم من المظالم، وهي مبدأ مدمر، يقول جمال الدين في (الرد على الدهريين) « أصبح أمرهم في الاشتراكيةفوضى، ولسوف ينعكس أمرها. . . ولسوف يتفاقم الخطب، وتعم من جراء ذلك البلوى في الغرب ولا يسلم منها الشرق»(٢).

وقد صدق جمال الدين في هذا القول، فقد عمت البلوى في الغرب والشرق على السواء من جراء تطبيق هذا المبدأ اللعين.

وبعد قوله السابق في الاشتراكية كما ورد في الرد على الدهريين، نسوق كلامه في الطعن على الاشتراكيةوالاشتراكيين، اذ يقول: « ان ما تراه الاشتراكية في الغرب، وما تتوخاه من المنافع بذلك المذهب، في شكله الحاضر وأسسه، وتخبط واضعي مبادئه، كل ذلك يعكس نتائج الاشتراكية، ويجعلها محض ضرر بعد أن كان المنتظر منها كل نفع» (٣). فالكلام ــ على ظاهره ــ متناقض مع سابقه الذي في (خاطرات).

وخلاصة القول في هذا التذبذب ما بين التأييد والانكار، ان جمال الدين كان يرى الاشتراكية لا نفع فيها، ولكنه بعد مدة، وخاصة بعد أن نزل في أوروبا واتصل بالاشتراكيين وعرف أهدافهم، أخذ يثني عليها، لذا نجد الكاتب رشيد الذوّادي يقول: « اذن فالأفغاني رائد الاشتراكية دون ريب، ساهم بعمله وفكره في الدعوة الى تحقيق مجتمع الكفاية والعدل. . . وهكذا عاش جمال الدين الأفغاني محسنا للفقراء،

---

(١) مجلة المجتمع عدد ٤٩٧ تاريخ ٧ القعدة ١٤٠٠ و١٦ سبتمبر ١٩٨٠م.

(٢) الأعمال الكاملة ــ ١٠٩، والرد على الدهريين ــ ١٩٠ ــ ١٩٢.

(٣) الأعمال ١٠٩،، والرد على الدهريين ١٨٩.

مدافعا عن الفلاحين والعمال، وملهما قادة البلاد، بأن المجد الحقيقي في ايجاد وعي اشتراكي، يزيح الفروق، ويخفف من حرمان البشر»[١].

وعلى هذا يعتبر جمال الدين الأفغاني أول من حاول قلب النصوص والحقائق التاريخية، ليجعل الدين الاسلامي دينا اشتراكيا، وجاء من بعده أقوام ساروا على طريقته، وغالوا في ذلك وأخذوا يتلاعبون بالنصوص القطعية، ليجعلوا من الدين الاسلامي مطيةيرتقون بها الى الاشتراكية.

والأفغاني هو أول من طعن في عثمان بن عفان رضي الله عنه، وحمله مسؤولية النظام الاقطاعي ومساوئه والنظام الطبقي وخطره، وذلك باثراء ناس وافقار آخرين ، يقول جمال الدين: « وفي زمن قصير من خلافة عثمان تغيرت الحالة الروحية في الأمة تغيرا محسوسا، وأشد ما كان فيها ظهورا في سيرته، وسيرة العمال (الولاة) والأمراء وذوي القربى من الخليفة وارباب الثراء، بصورة صار يمكن معها الحس بوجود طبقة تدعي الأمراء، وطبقة اشراف، وأخرى أهل ثروة وثراء وبذخ. وانفصل عن تلك الطبقات طبقة العمال، وأبناء المجاهدين ومن كان على شاكلتهم. . . »[٢].

ثم انه يعتبر هذا التمييز بين الطبقات ناتجا عن الثراء، مع العلم أن أكثر العمال الذين تولوا امارات البلاد في عهده هم أنفسهم كانوا عمالا عند عمر بن الخطاب. والذين ارتكبوا مخالفات في عهد عثمان من الأمراء أقام عثمان عليهم الحد وعزلهم. ولميذكر أحد من المؤرخين أن الولاة في عهد عثمان نالوا ثراء من وجهة محرمة أو من سرقة أو خداع أو رشوة، وأكثر الذي نالوا حظا من المال، وهم أقرباؤه، كان يعطيهم عثمان من ماله الخاص تأليفا لقلوبهم، ودفعهم نحو خدمة الاسلام.

وبعد أن ألصق التهمة بعثمان يريد أن يقول إن الثوار الذين حاصروا عثمان هم من المستضعفين من المسلمين، ثم يشير الى أن أبا ذر

---

(١) رواد الاصلاح ـ ٧٨.

(٢) الأعمال الكاملة ١١١، والرد على الدهريين ٢٠٠ ـ ٢٠١.

كان أول هؤلاء المستضعفين الذين تنبهوا الى هذا الخطر فيقول: « فنتج عن مجموع تلك المظاهر التي احدثها وجود الطبقات المتميزة عن طبقة العاملين والمستضعفين في المسلمين، تَكَوَّن طبقة أخرى أخذت تتحسس بشيء من الظلم ، وتتحفز للمطالبة بحقهم المكتسب من مورد النصر، ومن سيرتي الخليفة الأول والثاني أبي بكر وعمر. وكان أول من تنبه لهذا الخطر الذي يتهدد الملك والجامعة الاسلامية الصحابي الجليل أبوذر الغفاري»[1]. فالجامعة الاسلامية هي الاشتراكية في نظره.

فأبوذر الغفاري في نظره هو زعيم المدرسة الاشتراكية في الاسلام وعلى منواله سار الاشتراكيون بعده. وأصبحنا اليوم نسمع من الاشتراكيين الملحدين تمجيدا لهذا الصحابي دون سواه تضليلا للبسطاء من الناس.

ثم يأتي الدكتور عمارة فيجعل الأحداث التي جرت في زمن عثمان وعلي ترجع الى هذا التأويل الذي قدمه الأفغاني، ويجعل عبدالله ابن سبأ شخصية اسطورية لا وجودلها، وانما اختلقت لإلهاء الناس عن المقصد الحقيقي للثورة على عثمان وعلي وهي ثورة اقتصادية واجتماعية وفكرية في آن واحد [2].

فلعله لم يقرأ التاريخ ليعلم من هو عبدالله بن سبأ وما يكتبه المستشرقون والمشككون بتاريخنا المجيد ، لذا لم يعرف السبب الحقيقي لهذه الفتن التي حصلت على زمن عثمان وعلي رضي الله عنهما.

وبعد هذا يقول الأفغاني: « كل اشتراكية تخالف في روحها وأساساتها اشتراكية الاسلام.. فلا تكون نتيجتها الا ملحمة كبرى»[3].

فما هي الأسس التي تقوم عليها الاشتراكية الاسلامية؟ فهل جعل الطبقات طبقة واحدة من الاسلام؟ أو هل أخذ أموال الأغنياء بدون حق

---

(١) الأعمال الكاملة ١١١ ــ ١١٢ والرد على الدهريين ٢٠٠ ــ ٢٠١.
(٢) الأعمال الكاملة ١١٢.
(٣) الأعمال الكاملة ١١٣ والرد على الدهريين ٢٠٣.

ولا ضرورة ليصبحوا فقراء هو من اشتراكية الاسلام؟ اذن ما هي أسس الاشتراكية الاسلامية التي يعنيها جمال الدين الأفغاني؟

فالأفغاني وضع هذه العبارة لايهام الرأي العام أن الاسلام اشتراكي واشتراكيته هي الاشتراكية الحقة ثم يذهب من طرف آخر ليطعن بالصحابة الأغنياء لأن الاشتراكية تحارب الأغنياء والرأسمالية، ويطعن بحكمة الله في خلقه حيث جعل الناس بعضهم فوق بعض درجات لأن الاشتراكية تحارب الطبقات. فأين الاشتراكية الاسلامية اذن؟ وبهذا نكون قد انتهينا من تقويم اشتراكية الأفغاني.

١٠ ــ **دعوة الى الوطنية:** بعض الكتاب يقول بأن جمال الدين الأفغاني تعرض في دعوته الى الوطنية وخاصة عند ما كان في مصر، وأكثر الكتاب على أنه لم يتعرض الى الوطنية بل انه كان لا وطن له لكثرة تنقله فلم يعرف الاستقرار في مكان ليعرف وطنه فيعمل من أجله.

فان قيل بأن وطنه الأصلي الأفغان وكان عليه أن يعمل من أجله، نقول لهم اذا أزلنا الخلاف عن أصل وطنه، فإنه لم يعمل من أجله لأنه كان صاحب دعوة عالمية أعم وأشمل منها.

فان قيل ان وطنه الأصلي ايران فهل عمل من أجله؟ نقول بأنه في الحقيقة لم ينسى ايران منذ نشأته الى أن توفاه الله ولكن لم يجعل همه ايران وانما كان يركز على دعوته العالمية التي ذكرناها سابقا، وأحيانا كان يدعو الى جامعة اسلامية مركزها طهران.

ولما كانت الوطنية غير واضحة عند الأفغاني قال الشيخ مصطفى عبد الرازق « لم يتعلق ببلد من البلاد على أنه وطن، ولم تدخل فكرة الوطنية بهذا المعنى في مذهبه الاجتماعي»[١].

ومع ذلك اذا تكلم جمال الدين عن الوطنية تكلم عنها من الناحية

---

(١) الأعمال ٨٩. والعروة ١٤. (الأعمال الكاملة والعروة الوثقى).

المثالية وهي وحدة عناصر الشعب على اختلاف مللهم ونحلهم، يقول عن الألمان: « كان الألمان يختلفون في الدين المسيحي على نحو ما يختلف الايرانيون مع الأفغانيين في مذاهب الديانة الاسلامية، فلما كان لهذا الاختلاف الفرعي أثر في الوحدة السياسية، ظهر الضعف في الأمة الألمانية، وكثرت عليها عاديات جيرانها، ولم يكن لها كلمة في سياسة أوروبا، وعندما رجعوا الى أنفسهم وأخذوا بالأصول الجوهرية، وراعوا الوحدة الوطنية في المصالح العامة ، ارجع الله اليهم من القوة والشوكة ما صاروا به حكام أوروبا، وبيدهم ميزان سياستها»[١].

وهو بهذا الكلام يدعو الايرانيين للاتحاد مع الأفغان لمقارعة الاستعمار، وهذه المقارنة بين وحدة الألمان الوطنية غير منطبقة على وحدة الأفغان مع الايرانيين، فالألمان شعب واحد ومن عرق واحد ودين واحد، أما الفرس والأفغان فشعبان مختلفان من جميع الوجوه ويمكن أن يتفقا في ناحية واحدة وهي الدين الاسلامي فشأنهم شأن باقي الدول الاسلامية، عليهم الدخول في الجامعة الاسلامية التي دعاهم اليها السلطان عبد الحميد، والأنضواء تحت سلطة الخلافة الاسلامية، أما أن يتحدوا فيما بينهم فليس هذا اتحاداً وطنياً اذ الأوطان مختلفة تمام الاختلاف.

ولما كان الأفغاني يدعو أحيانا الى الأخوة الانسانية وأحيانا الى الوطنية الضيقة، والدعوتان متناقضتان، راح الدكتور محمد عمارة يوضح هذا الالتباس فيقول: « ولهذا يجب أن نميز في فكر الأفغاني بين نوعين من الوطنية، الأول: وهو الذي رفضه ولم يعرفه ـ ذلك المعنى الضيق الذي يجعل صاحبه حبيس اقليم من الأقاليم، غير مستنير الأفق، غير محتضن لقضايا الأمم وآمال الشعوب أو متعصبا مفرط التعصب لأمة من الأمم دون سائر أبناء النوع الانساني على وجه العموم.

والثاني: وهو الذي آمن به الأفغاني ودعا له هو ذلك المفهوم الانساني للوطنية، والذي يجعل منها دائرة تسبق دائرة العقيدة الروحية

---

(١) الأعمال ٨٧ والعروة ١٩. (الأعمال الكاملة والعروة الوثقى).

التي تعقبها في الاتساع الدائرة الانسانية الشاملة لمجموع بني الانسان»[1].

ويذكر الدكتور عمارة دليلا على أن الأفغاني يقدم دائرة الوطنية على دائرة العقيدة فيقول: « وليس أصدق في الدلالة على ذلك من دعوته الى : (تعليم وطني بدايته الوطن ووسطه الوطن وغايته الوطن! ويجب أن يكون الوطن في مفهوم الشرقيين كقاعدة حسابية: اثنان فاثنان يعملان أربعة. فلا تستطيع المذاهب أو الطوائف أن تدعيها خاصة، ولا أن تحاول نقضها، هذا هو الوطن، وهكذا يجب أن يكون التعليم الوطني)»[2].

فدعوته الى التعليم الوطني دعوة الى التعليم العصري المجرد عن التعليم الديني بحيث يتعلم المسلم والنصراني واليهودي علوما واحدة تخدم الوطن وتدعو الى الوحدة الوطنية ونبذ الخلاف المذهبي والطائفي، وهذه الدعوة الى الوطنية نشأت في فكر جمال الدين منذ أن كان في مصر حيث كان يدعو الى مبدأ مصر للمصريين، وقد وجد أن الشعب المصري عنده من الوعي الوطني ما يفوق غيره من الشعوب في هذه الدعوة وكان الشعب المصري يقدم الوحدة الوطنية على رابطة الدين يقول الدكتور عمارة: « كان الأفغاني أثناء مقامه في مصر... قد اكتشف بعد دراسة الواقع الحضاري لمصر أن هذه البلاد، دون غيرها من بلاد الشرق، تملك مقومات القيادة للعرب والمسلمين... لأن مصر يومئذ كانت قد امتلكت... ميزة الوصول الى ساحة الوحدة الوطنية، بمعنى نمو القسمات الوطنية، على حين كانت أغلب شعوب الشرق لا تزال تعيش في ظل القبلية والعشائرية ولا تعرف من الروابط الا رابطة الدين»[3].

ولو صُح كلام الدكتور عمارة، وكانت شعوب الشرق لا تعرف الا رابطة الدين لكفاها ذلك من وحدة عن سائر الوحدات، ولكن للأسف الشديد، كانت هناك منازعات حول الزعامات، ومنازعات

(١) الأعمال الكاملة ٨٩.

(٢) الأعمال الكاملة ٨٩ ــ وخاطرات ١٤٠.

(٣) الأعمال الكاملة ١١٩.

طائفية. ولو كانت رابطة الدين تجمعهم حقا، لكان على مصر أن تلتحق بالخلافة العثمانية الاسلامية، ولما وقعت خلافات بين أسرة محمد علي باشا وبين سلاطين بني عثمان، كان جمال الدين يمتدح الحركة الانفصالية التي قام بها محمد علي باشا، ويعدها بركة ونعمة على مصر لما حققت من مكاسب، ونسي أن هذا الانفصال كان سببا في اضعاف الدولة العثمانية، وسببا في تدخل الدول الاستعمارية في شؤون البلاد، يقول الأفغاني: « طرقت مصر أبواب السعادة من كل وجه، فتقدمت فيها الزراعة تقدما غريبا، واتسعت دائرة التجارة، وعمرت معاهد العلم، وانتشرت في أرجائها مباديء المعارف الصحيحة، وتقاربت أنحاؤها، واتصلت أطرافها بما أنشيء فيها من سكك الحديد، وخطوط التلغراف، وتعارفت أهاليها، بعد أن كانوا لبعد الشقة، كأنهم أبناء أقطار مختلفة، وتواصلوا في المعاملات، وتشابكوا في المنافع، واعتدلت المآرب المذهبية»(١).

وأول من ألف حزبا وطنيا في مصر هو جمال الدين الأفغاني سماه (الحزب الوطني الحر)، وهذا دليل آخر على دعوته الى الوطنية، ويعتبر مصطفى كامل مؤسس الحركة الوطنية في مصر ولكنه كان على خلاف دائم مع جمال الدين، لاختلاف الوجهات والمقاصد، اذ أن مصطفى كامل كان يدافع عن مصر وطنية خالصة، أما جمال الدين فكان يدعي الوطنية وهو رجل ايراني ويعمل من وراء مخططات الماسونية.

واذا أردنا تقويم حركة جمال الدين الوطنية، فلا نرى لها أسسا ولا مقومات واركانا يستمد منها طاقته في هذه الدعوة، وانما كان يقولها ويدعو لها بدافع العدوى، حيث أن المحافل الماسونية تعمل بشكل لا تصدم المجتمع لئلا تحارب من قبلهم.

١١ ـ دعوة الى السفور:

يظن البعض أن السفور وما تبعه من تبرج وفجور، انما بدأ نشؤوه

---

(١) الأعمال الكاملة ١٢٠ وتاريخ الأستاذ الامام ٤٦ ـ ٤٧ / ١.

منذ نادى قاسم أمين بحرية المرأة، ولكن لو رجعنا الى الخلف قليلا لرأينا أول من دعا الى السفور قولا وفعلا انما هو جمال الدين الأفغاني.

كانت أوروبا في القرن التاسع عشر، محط أنظار العالم في الحضارة والرقي، وكان كل شعب متأخر يريد التقدم لا بد أن يقتدي بأوروبا.

كانت أوروبا رغم حضارتها المادية، تئن من مشكلات اجتماعية تنخر في أسس حضارتها وتكاد تودي بها، منها انطلاق المرأة من كل قيد، وحرية التصرف قولا وعملا لجميع فئات الشعب من غير قيد بحل أو حرمة، وحتى الدين لم يبق منه الا الاسم، وأصبحت الكنائس خاوية خالية من المصلين.

هذه الحضارة المتداعية كانت تفتن الضعفاء لما تحققه من انتصارات عسكرية أو مظاهر مدنية من نظافة شوارعهم وصدقهم في معاملاتهم وتقيدهم في مواعيدهم فكان الناس يتحدثون عنها من جانب ويدعون جانباً، ويرون التقدم باتباعها في كل شيء ولو كان مما يذم ويخالف الشرائع السماوية.

كان السفور أحد هذه المشكلات التي يدور حولها الجدال والصراع في البلاد الاسلامية، فكانت هذه الدول تريد التحضر للالتحاق بركب الدول الأوروبية، وترى أن السفور جزء من الحضارة التي لا بد من أخذه معها، وبدون سفور لا تكون حضارة.

جمال الدين الأفغاني كان في مجلس من المجالس، والناس يتحدثون عن الحضارة والسفور فأرادوا منه أن يعطي رأيه في السفور فقال: « وعندي أن لا مانع من السفور اذا لم يتخذ مطية للفجور»(1).

فهل صحيح أن السفور لا يمنع الاسلام منه، ولو لم يكن مؤديا الى الفجور. يقول شيخ الاسلام مصطفى صبري: « ان وباء السفور الذي أتى الشرق الاسلامي من الغرب بواسطة سماسرة مثل قاسم أمين، وجعل

---

(١) زعماء الاصلاح ١١٤ وخاطرات ٦٧.

النساء كاسيات عاريات كالغربيات، لا شك انه حرام بنص الكتاب والسنة واجماع الأمة.»(١).

وهل السفور لا يؤدي الى الفجور؟ فقد اثبتت الحوادث التي تلت هذه الصيحة من جمال الدين خروج المرأة سافرة ثم التبرج ثم الفجور، وأصبح تلاميذه دعاة الى السفور والى تحرير المرأة وانتشار الفساد.

لنسمع الى أنور الجندي يحدثنا عن تطور السفور ووقوع المرأة في الفجور:

« لما ألف الدوق (داركور) كتابه، وملأ صفحاته هجوما على مصر، وحمل فيه على نساء مصر، تصدى قاسم أمين للرد عليه مبينا فضائل المرأة المصرية ومكانة تقاليدها، واستنكر على تعبير (داود بركات) رئيس تحرير الأهرام خطة بعض السيدات المصريات اللائي يتشبهن بالأوروبيات، فاتخذها الخصوم فرصة ليوقعوا بين تلك الطائفة التي يجمعها صالون نازلي فاضل، وأخذوا يكتبون في احدى الصحف ضدهم. وذات ليلة والشيخ محمد عبده في دار الأميرة ــ قال لها أحدهم: (ان قاسم أمين، الذي يؤيده اخوانه، يعنيها هي وحدها بذم المصريات اللاتي يقلدن الافرنجيات)، فغضبت الأميرة واضطرم غضبها وقالت للشيخ محمد عبده قولا شديدا، كان من نتيجته أن وجه قاسم أمين الى تصحيح خطئه بكتاب ينشره، حتى لا يفقدوا تعضيد الأميرة. وهكذا نتجت عن الفصل الكبير النتيجة الكبرى حيث أخرج مؤلفه تحرير المرأة»(١).

فعلى هذا الكلام نستطيع أن نقول أن جمال الدين الأفغاني نادى بالسفور فتبعه تلميذه محمد عبده وهو الذي أوحى الى قاسم أمين بتحرير كتابه في تحرير المرأة الذي كان له الدور الكبير في خروج المرأة المصرية على الأحكام الشرعية والخروج الى الأسواق كاسية عارية.

هذا ما فعله تلميذ الأفغاني بعد اقتناعه بأن السفور لا شيء فيه وانه

---

(١) (موقف العقل والعلم والعالم ٢٨٢ / ١)

(٢) أعلام وأصحاب أقلام ٣٢٩ ــ ٣٣٠.

لا يوصل الى الفجور ثم هل كان تأثر تلاميذ الأفغاني بهذه الدعوة بنفس التأثر الذي تأثر به محمد عبده؟

فهذا سعد زغلول تلميذ الأفغاني يصبح وزيرا للمعارف فيما بعد، في وزارة مصطفى فهمي باشا، وتصبح زوجته داعية من دعاة تحرير المرأة، ومن دعاة التجمع النسائي، يقول الدكتور محمد محمد حسين: « وظهرت طلائع ذلك ــ أي تحرير المرأة ــ في التجمع النسائي المشهور الذي طاف شوارع القاهرة سنة ١٩١٩، في طريقه الى دار المعتمد البريطاني وكان عدده يربو على الثلاثمائة وعلى رأسهم صفية زغلول حرم سعد زغلول، زعيم الثورة، وهدى شعراوي حرم علي شعراوي باشا»(١).

والذي يوضح تأثر تلاميذ الأفغاني به، في قضية السفور، ما قالته هدى شعراوي في خطاب لها في ذكرى قاسم أمين: «إنه لما كتب قاسم رده على الدكتور (داركور) مدافعاً عن الحجاب، ساء ذلك نخبة من رجال ذلك العصر ممن تتلمذ على يد جمال الدين الأفغاني، وكان في مقدمتهم محمد عبده وسعد زغلول وابراهيم اللقاني ومحمد المويلحي، واستهجنوا ظهور تلك الروح الرجعية فيه، وأجمعوا كلمتهم على أن يتباروا في الرد عليه، ولكنهم فضلوا أن يقوم الدكتور فارس نمر بهذه المهمة على صفحات (المقطم)»(٢).

وقد مر بنا أن فارس نمر كان من كبار جمعية الماسون في مصر، ويظهر أنه كان هو الناطق بلسان تلاميذ الأفغاني في هذه القضية. ومما يزيد الأمر جلاء ووضوحا أن محمد عبده هو محرر كتاب تحرير المرأة الذي ألفه قاسم أمين، وأن سعد زغلول كان أكبر مؤيد حكومي له ، كما أن الشيخ علي يوسف وهو أحد تلاميذ الأفغاني المخلصين كان أول من نشر فصول هذا الكتاب في جريدته المؤيد. يقول الجندي :« ويتصل بهذا الأمر ما أذيع من أن قاسم أمين كتب كتابه الأول عن (تحرير المرأة) تحت اشراف الشيخ محمد عبده، حتى أن فقرات من الكتاب تنم عن أسلوب الشيخ

---

(١) مجلة الحديث ــ يناير ١٩٣٩.

(٢) أعلام وأصحاب أقلام ٣٣٠.

عبده نفسه. وأن قاسم أمين أهدى كتابه الثاني الى سعد زغلول ، وكان الثلاثة أبرز رواد صالون نازلي فاضل وأقربهم الى صداقة كرومر، ويبدو أن قاسم تعجل، ارضاء للأميرة ، فنشر بعض فصول كتابه في المؤيد، فأثار بنشرها ضجة»[١].

وقد قام رئيس الوزراء مصطفى فهمي باشا، المعروف بميله الى الانجليز، والذي كان من وزرائه سعد ، بتهنئة قاسم أمين على شجاعته. يقول الجندي: « ان مصطفى فهمي رئيس الوزراء، والمؤيد لسلطان كرومر كتب الى قاسم أمين يهنئه لشجاعته الأدبية، ويمتدح آراؤه في تحرير المرأة»[٢].

هذا ما كان من تطور نظرية السفور الى أن أصبحت فجورا، ولكن لنر هل كان جمال الدين الأفغاني يلقي الكلام جزافا دون أن يكون له رصيد عملي؟ لا. إن جمال الدين الأفغاني لم يكن قوالا، بل كان فعالا ففي تطبيقه لهذه النظرية كان أول الساعين لها بسلوكه. ويظهر أن جمال الدين كان يحب أن يرى النساء سافرات ليتمتع بالجمال، يقول الأستاذ محمد كرد علي في مذكراته تحت عنوان (مدرسة الجمال): « سمعت في مصر الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده في مجلس من مجالسه، الغاصة بالفوائد سنة ١٩٠١ وقد جرى ذكر رأس المصلحين في الاسلام السيد جمال الدين الأفغاني، أن الأستاذ الامام لاحظ يوم أن كانا في باريس أن صديقه وأستاذه يغيب عنه كل يوم ساعتين في وقت معين، وكانا من قبل متصاحبين ولا يفترقان فبحث عن سبب تغيبه فثبت عنده أن السيد يختلف الى بائعة زهور عليها مسحة من الجمال. قال فلم أجرؤ لمكان السيد من نفسي، أن أسأله عن سر هذه الزيارة المريبة، فقلت لعل الشيخ أخذ يتصابى، وهو الذي لم تعهد عليه صبوة، وما حفظ عنه الا الجد في كل أموره. قال: وما لبث هذا الشك، في سيرة الشيخ أن انقشع وأصبح بعد ثلاثة أشهر يتكلم الفرنسية بطلاقة، وتبين أن ذوق الأفغاني العالي هو

---

(١) أعلام وأصحاب أقلام ٣٣٢

(٢) أعلام وأصحاب أقلام ٣٣٠.

الذي ألهمه أن يتخذ معلمته سيدة بارعة الجمال، يحمل عنها لغتها بالعمل أمام اصص الزهر وطاقات الورد والجو العطر، وآثر جمال الدين أن يتصل بجمال الدنيا في أروح مدرسة للنفس، وطريقة جديدة في تلقف اللغات تنسي الدارس صعوبتها وتحفزه على جمع قواه بامتع حواسه. فعسى أن يجرب رجال التعليم في مصر والشام والعراق هذه الطريقة المبتكرة في تلقين اللغات، فيكون للمصلح الأفغاني الفضل على الشرق في حياته وبعد مماته »(١).

ودليل آخر عملي، من سيرة جمال الدين الأفغاني، تثبت أنه كان داعية الى تحرير المرأة بالقول والعمل، يقول الدكتور الوردي:

« وكان الأفغاني لا يتزمت في سلوكه على نحو ما يفعله اقرانه من أهل العمائم، فهو عند ما سكن في القاهرة ذهب مع أصحابه الى مشرب للبيرة في الأزبكية، وكان في المشرب ساقية أوروبية حسناء، فراهن أصحابه على أنه يستطيع أن يبكيها ويضحكها، ثم أخذ يتحدث اليها حتى أبكاها وأضحكها كما راهنهم عليه »(٢).

---

(١) مذكرات كرد علي جـ٣. (المذكرات: محمد كرد علي).

(٢) لمحات اجتماعية جـ٣ ص٣١٢. وترجمة الرسالة: من (كاتي) معشوقة جمال الدين الأفغاني إلى جمال الدين الأفغاني.

باريس في ٢٢ يوليو الساعة الثامنة والنصف.

عزيزي دين...

رجعت من المحطة وأنا في غاية الحزن والأسى بعد فراق عزيزي دين، وذلك لأنني أصبحت وحيدة في هذه البلدة الحزينة باريس.

عزيزي دين.

لقد كنت مرتبطة بكاتي، وكنت أحبك كما لم يكن أحد بالعالم يحبك مثلي، ولو كنت أعلم أن دين سيفارقني، لكنت قد رفضت الحياة تماماً، على أنني آمل أن يكون موعد لقائي قريباً أقابل فيه ثانية معبودي دين.

دين عزيزي يا من لي في الدنيا كل شيء، أتمنى أن تستطيع قراءة رسالتي كما أرفق لك صورتين فوتوغرافيتين، وآمل أن يكون كل شيء في لندن على ما يرام، وإن كاتي تستطيع قريباً أن تحضر إلى جانبك، وعندئذ سأكون سعيدة.

وحتى أن الدكتور الوردي يذهب الى أبعد من ذلك، فهو يرى أنه كان صاحب علاقات ودية مع بعض النساء وربما تكون أعمق من ذلك، فيقول:

« توجد في مخلفات الأفغاني رسائل تدل على أنه كان على اتصال ببعض الحسنوات الأوروبيات ولا سيما امرأة منهن اسمها (كاثي) وربما كان عاشقا لها أو هي كانت عاشقة له».

ويعلق على هذه الواقعة فيقول: « ولا ندري على فرض وجود هذا العشق بينهما ـ هل كان من قبيل الحب الأفلاطوني أم أعمق من ذلك»[1].

كما أنه كانت هناك مراسلات بينه وبين (غانا بلنت) وهي زوجة بلنت الانجليزي الذي نزل جمال الدين ضيفا عنده في لندن، وكانت توقع اليه بالعبارة الآتية (المخلصة المحبة: غانا بلنت).

هذه هي دعوته الى السفور من مبدئها الى منتهاها، كانت صيحة فأصبحت مشكلة مستعصية.

أركان دعوته ومراجعها:

هذه الدعوة الطويلة العريضة التي قام بها جمال الدين الأفغاني، والتي ملأ الدنيا بصيتها وذيوعها، التي تعددت جوانبها ومراميها كلها تقوم على أساس متين واحد وهو نشر الماسونية وتوسيع رقعتها في المشرق الاسلامي، ولذا كانت هي مرجعه الوحيد، وغيرها مؤيد لها أو داعم لمبادئها.

وإنني أدعو الله أن ييسر ذلك لي، وأرجو أن يتقبل دعائي.

إلى اللقاء يا عزيزي وألف قبلة لك يا دين من عزيزتك كاتي التي هي ملكك جسداً وروحاً.

التوقيع
كاترين كاتي

(١) لمحات اجتماعية ٣/٣١٣.

فعمله السياسي كان من وراء أجهزة سرية متعددة كلها تعمل بوحي الماسونية:

١ ـ فدعوته الى التفرنج والتغريب باسم التجديد كانت من أهداف الماسونية لاخراج المسلمين عن تبعتهم لكتابهم وشريعتهم وتقاليدهم.

٢ـ ودعوته الى التحرر والانطلاق من كل قديم انما هو أحد شعارات الماسونية وهي (حرية ـ مساواة ـ اخاء).

٣ـ ودعوته الى الاتحاد الفيدرالي المسمى بالجامعة الاسلامية، انما كان قصده بها الانفصال عن جسم الخلافة العثمانية، حتى تضعف وتنهار وتنتهي بالقضاء على الخلافة الاسلامية وهي احدى أهداف اليهود الذين يسيرون الماسونية وغيرها.

٤ـ ودعوته الى توحيد الاديان، وخاصة منها الاسلام والنصرانية، كانت من صنع اليهودوظاهرها ايجاد الأخوة بين هذه الأديان، رغم أن اليهود لا يتخلون عن دينهم، ولا النصاري، وانما الذين سيتخلون عن دينهم فهم المسلمون، ودعوى الاخاء من جمل شعارات الماسونية.

٥ـ ودعوى وحدة الشرق مرتبطة بالدعوة الى وحدة الأديان وتقاربها.

٦ـ ودعوته الى القومية غايتها تفريق الأمة الاسلامية الى أمم تقوم على العصبية الجاهلية، تقاتل بعضها بعضا وهي من صنع اليهود، والماسونية من وراء ذلك.

٧!ـ ودعوته الى الاشتراكية احدى مقاصد الصهيونية العالمية، وقد ورد ذكرها في بروتوكولات حكماء صهيون وانها من صنيعهم.

من هذا كله نقول: ان جمال الدين كان يعمل للماسونية ومرجعه مقرراتها.

هذه النتيجة هي التي يتوصل اليها الباحث من خلال المعلومات التي كتبت عن جمال الدين الأفغاني. والله تعالى أعلم.

الفصل الثاني
تلاميذ جمال الدين الأفغاني
وخصومه

المطلب الأول : تلاميذ جمال الدين.

تمهيد :

لا بد لكل داعية من تلاميذ تأثروا بدعوته، لا فرق بين أن تكون هذه الدعوة خيرا أو شرا، وأغلب الدعوات التي انتشرت في الأرض كانت بواسطة الأتباع.

ولمعرفة أهداف كل دعوة، والوقوف على حقيقتها، نأخذ أتباع هذه الدعوة وندرس حياتهم وأقوالهم وأفعالهم وسلوكهم وفكرهم، فنحكم من خلالها على المتبوع وعلى الدعوة، دون النظر الى من شذ منهم، وهذا نادر، والنادر لا حكم له، اذ ما من دعوة ظهرت الا وفيها مخالفون من اتباعها، ولو كانت دعوة خيرة، فهذا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان معه منافقون يؤذون النبي ودعوته، فهؤلاء مهما قيل بأنهم اتباع هذه الدعوة فلا يصدقهمُ أحد.

وشيء آخر يجب معرفته في التلاميذ والأتباع، وهو التمييز بين من هم أتباع وحملة دعوة وبين من هم أنصار ومحبون.

فمن كان تلميذا تابعا حاسبناه في كل شيء من أقواله واعماله وسلوكه وفكره، أما من كان من المحبين والمعجبين فلا نحاسبهم الا على

أقوالهم وتصريحاتهم أما سلوكهم واعمالهم فلا شأن لنا بها، فهو غير ملتزم بهذه الدعوة.

ثم ان هناك تلاميذ كانت لهم سابقة، قد تكون مخالفة سلوكيا أو فكريا من جميع الوجوه أو من بعضها لصاحب الدعوة، ثم بعد الالتزام والدخول في هذه الطريقة أو الدعوة لم يغيروا شيئا من سيرتهم، فنحكم على صاحب الدعوة أنه لم يستطع التأثير عليهم، أو أنه لم يستطع التغلب على عاداتهم السابقة.

كما أن هناك ظاهرة تحدث كثيرا في كل دعوة وهي أن ينقلب الأتباع أو بعضهم على الدعوة بعد وفاة صاحبها، ثم تقع منهم تصرفات تسيء الى الدعوة ان كانت دعوة خير، أو تكشف مساويء الدعوة ان كانت شرا.

في هذا كله كيف نميز ونقوم الدعوات من خلال دراسة التلاميذ؟

هناك قاعدة لا تختل ولا تخيب في دراسة التلاميذ وهي أن كل تلميذ كان في جاهليته على النقيض من بعد استجابته للدعوة، فاعلم انه دخل في هذه الدعوة. ثم ان هذا التلميذ أو الصاحب اذا استمر على ذلك بعد وفاة أستاذه فمعنى ذلك انه تأثر بالدعوة الى الأعماق، وقرر نشرها والدفاع عنها.

وهذا ما نراه واضحا في صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمعظمهم كانت لهم جاهلية جهلاء، من عبادة أصنام وشرب للخمور ولعب بالميسر... الخ، وبعد دخولهم في الدين الجديد، تركوا نهائيا ودون رجعة تلك الخلفية ثم أنهم لم يتخلوا عن هذا الالتزام بعد وفاة صاحب الدعوة.

فهل نفهم من هذا أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ هم الأصل في نجاح هذه الدعوة؟

بل اننا نفهم من هذا قوة تأثير صاحب الدعوة فيهم واخلاصه في دعوته وصدقه فيها، ثم علو هذه الدعوة حتى انهم ـ أي الصحابة ـ لم

يفكروا في يوم من أن ينقلبوا على هذه الدعوة أو يتخلوا عن جزء منها. فعرف من هذا أن صاحب الدعوة كان على مكانة عالية وأن الدعوة التي جاء بها كانت سامية.

أما المنافق فلم يدخل في الدعوة أصلا وانما تظاهر بذلك ليحصل على مكاسب الدعوة.

ولو وضعنا في هذا الميزان كل دعوة لوجدناه منضبطا، فهذا الامام حسن البنا، جاء بدعوة جديدة لاحياء الاسلام في نفوس المنهزمين، فربى أصحابه عليها واستمروا ملتزمين بها حتى بعد استشهاد امامهم، ألا يدل هذا على علو مكانة الامام حسن البنا وسمو دعوته؟

ان أقرب المقربين الذين دخلوا في دعوة جمال الدين وأظهروا تفانيا في سبيلها في حال حياته، نقضوا ما كانوا عليه بعد مماته، فأين تأثرهم به.

ومنهم من لم يغير من ماضيه شيئا وبقي على جاهليته، مع انه كان ملازما لجمال الدين. ومنهم من تغير كليا عن استاذه وشيخة. فهل يفهم من كل هذا أن صاحب الدعوة على مكانة مرموقة أو كانت دعوته ذات مفاهيم سامية؟

حتى ان جمال الدين رأى من بعضهم هذا التغير في حال حياته وكان يتألم له، فهذا محمود سامي البارودي، نقض العهد الذي قطعه لجمال الدين في مناصرته وانقلب عليه، يقول الرافعي: « ومن المؤسف حقا أن يتقرر نفي جمال الدين، ويصدر مثل هذا البلاغ من حكومة يرأسها الخديوي توفيق باشا وهو على ما نعلم من سابق تقديره للسيد، ومن وزرائها محمود باشا سامي البارودي ـ وزير الأوقاف وقتئذ ـ وقد كان أصدق مريديه وانصاره، فتأمل كيف تنكر الأنصار والأصدقاء لأستاذهم، والى أي حد يضيع الوفاء بين الناس.

ولا ندري كيف اساغ البارودي نفي السيد جمال الدين، واشترك في احتمال تبعته، واذا لم يكن موافقا على هذا العمل المنكر فلم لم يستقل من الوزارة احتجاجا واستنكارا؟

لا شك أن موقف البارودي في هذه الحادثة لا يمكن تسويغه أو الدفاع عنه بأي حال»[1].

وقد صرح الأفغاني لشكيب أرسلان بتأثره من هذا الموقف الذي وقفه البارودي اذ يقول: « لم يبق في الاسلام اخلاق، فهذا محمود سامي البارودي (الشاعر الكبير ورئيس الوزراء اثناء الحوادث العرابية) عاهدني ثم نكث معي، وهو أفضل من عرفت من المسلمين»[2].

فهل نعتبر صحبة البارودي للأفغاني كانت نفاقا، وقد صرح الأفغاني انه من افضل ما عرفت من المسلمين؟ ثم ماذا فعل البارودي في دعوة الأفغاني؟

لقد بقي البارودي محبا للأفغاني حتى آخر أيامه ولكنه لم يفعل شيئا يحمد عليه.

اما عن جنسيات تلاميذه فمختلفة، منهم العربي ومنهم العجمي ومنهم الهندي وغير ذلك. يقول الميرزا لطف الله خان: « وفي أثناء المدة التي مكثها السيد في الآستانة، كان يلتف حوله أكثر الوقت، الخواص من أصحابه وأصدقائه الحميمين، بينهم بعض العلماء، وقادة التحرير من الهنود والمصريين والجزائريين ونخبة مختارة من الايرانيين من أمثال: ميرزا آقا خان الكرماني، والشيخ أحمد روحي، والميرزا حبيب الأصفهاني، وطاهر مدير جريدة (اخترا)، وميرزا خبير الملك القنصل العام بالسفارة الايرانية»[3].

هذه الجنسيات المختلفة التي جمعها جمال الدين، كان معظمهم من الماسون، كما يتبين من دراسة اكثر هؤلاء، ولا نستغرب قول لطف الله خان بأنهم قادة التحرير، اذ لم يعهد عن واحد منهم انه تزعم حركة تحررية أو عملا ثوريا الا من وراء الحركة الماسونية، كما هو الحال في أحمد عرابي وسعد زغلول وغيرهما.

---

(١) جمال الدين ــ الرافعي ٤٦ ــ ٤٧.

(٢) جمال الدين ــ الرافعي: ١٧٩.

(٣) جمال الدين الأسد آبادي: ١٣٤ ــ ١٣٥.

وسنبدأ بدراسة ترجمة أشهر تلاميذه:

١ـ الشيخ محمد عبده

هو أشهر تلاميذه بلا منازع، وها نحن أولاء نكتب موجزا عن ترجمته من كتاب زعماء الاصلاح في العصر الحديث: « نشأ في قرية من قرى الريف أرسله أبوه الى الجامع الأحمدي بطنطا، واستمر فيه سنة ونصفا وكان عمره خمس عشرة سنة، ولم يتعلم شيئا لعقم المنهاج فأراد العودة الى الزراعة ولكن أباه أجبره على التعلم فهرب الى بلدة فيها أقاربه والتقى بشيخ صوفي هو الشيخ درويش خضر خال أبيه، فينقلب محمد عبده كأنه شخص آخر، وكانت عند محمد عبده عقدة نفسية من طريقة التعلم فحلها له الشيخ درويش بأن أعطاه كتابا سهلا في المواعظ والأخلاق ، وأعلمه أن الأساس العمل لا المال ولا الجاه، وكان الشيخ درويش متأثرا بتعليم السنوسية التي تتفق مع الوهابية وعاد الى الجامع الأحمدي ارضاء لوالده وارضاء لنفسه ثم بدأ الشيخ يلتف حوله زملاؤه ليشرح لهم الدرس، ثم اخذ يهتم بتفسير القرآن، ثم تحول الى الأزهر، والأزهر يومئذ يقوم على الفلسفة اللفظية ويعلم الطالب الدقة في الفهم والقدرة على الجدل.

وقد تأثر بثلاثة رجال وهم الشيخ درويش والشيخ حسن الطويل، والسيد جمال الدين الأفغاني، وأخيرا نال شهادة العالمية من الأزهر.

وتعرف على جمال الدين وكان أقربهم الى نفسه، واستفاد محمد عبده منه بصرا بالدنيا التي حجبها الأزهر، وتحول من تصوف خيالي الى تصوف فلسفي عملي، لذا كان يقول... والسيد جمال الدين وهبني حياة أشارك فيها محمد وابراهيم وموسى وعيسى والأولياء والقديسين». عين مدرسا للتاريخ في دار العلوم، وكتب في الصحف وخاصة الاهرام، اختار رياض باشا الشيخ محمد عبده لاصلاح الوقائع المصرية ومكث فيها ثماني عشرة شهراً. ولما دبّ الخلاف بين توفيق ورياض، كان محمد عبده على رأس

الوقائع المصرية وكان يهاجم الخديوي لأنه من أتباع رياض، حتى كانت الثورة العرابية.

وكان يكتب في صحيفتي أديب اسحق، وكان زعيم اديب اسحق وصحبه شريف باشا، وكان توفيق ينظر الى محمد عبده ورياض باشا أنهم حزب رجعي، فأغلق جريدته ونفاه فأعاده شريف باشا، وكان محمد عبده لا يؤمن بالحكم النيابي العاجل ـ وقد انضم إلى الثورة العرابية لأنه رأى جميع الأمة اشتركت فيها بما فيهم المسلم والنصراني واليهودي، وقد كان محمد عبده سببها البعيد ولما اشتدت كان سببها القريب فقبض عليه وسجن ونفي ثلاث سنين فأقام في بيروت، ثم يدعوه استاذه الأفغاني الى باريس فيذهب ويشتركان في اخراج مجلة العروة الوثقى. وتأثر في باريس بالشعب الفرنسي فأطال شعره ولبس الطربوش واحتفظ بالجبة والقفطان. ويلاحظ انه متى اتصل بالأفغاني فناري ثوري، واذا انفصل عنه عاد الى العقل والمنطق. سافر محمد عبده الى لندن بعد ثورة المهدي في السودان، وأخذ يطلب منهم الجلاء عن مصر، ثم عاد الى باريس يائسا فرأى العروة الوثقى مضيقا عليها ثم أوقفوها وذهب هو الى بيروت وسافر جمال الدين الى فارس، وعاد محمد عبده الى هدوئه وابتعاده عن السياسة، فدعى الى التدريس في المدرسة السلطانية فألف رسالة التوحيد وشرح البصائر وأخذ يكتب في جريدة ثمرات الفنون، ووضع لائحتين للاصلاح الديني الأولى رفعت الى السلطان والثانية الى والي بيروت.

ولما تولى الوزارة رياض باشا سعى جماعة عند الخديوي توفيق في العفو عنه منهم نازلي ومنهم سعد زغلول فقبل اللورد كرومر وساطة نازلي لما لها من مكانة عنده، ومن الشفعاء مختار باشا، فقبل الخديوي شفاعة كرومر، وقال اللورد كرومر في كتابه « مصر الحديثة»: « ان العفو صدر عن الشيخ محمد عبده بسبب الضغط البريطاني».

ويعلق على هذا صاحب الكتاب فيقول: « وهنا يصح أن نتساءل، ماذا كان وراء الستار؟ واللورد كرومر لا يقدم على هذا لمجرد رجاء الأميرة

نازلي ورجال ندوتها وهو يعلم ما كان من الشيخ محمد عبده. . .؟ (ثم يجيب) الذي يظهر لي أن أصدقاء الشيخ محمد عبده في مصر استوثقوا منه انه اذا عاد لا يشتغل بالسياسة العليا. . . وهذا لا يضر موقف الانجليز في مصر في شيء. ويظهر منتاريخ الشيخ انه لا يحب السياسة بل يلعنها ويلعن مشتقاتها، ولم يشتغل بالسياسة الا حين دفعه التيار في الثورة العرابية أو حين كان تحت تأثير أستاذه. . .

ان أهم غرض له كان اصلاح العقيدة والمؤسسات الاسلاميةولذا وضع في قرار نفسه مسالمة الخديوي والاستعانة بالانجليز فيما ينوي من اصلاح.

وقد ظل طوال حياته بعد عودته يسالم الانجليز ويتعاون معهم، وكان يحضر مجلس نازلي ولا يتكلم بالسياسة وهي لا تتكلم إلا بالسياسة. وكان هو ومصطفى كامل على طرفي نقيض فالثاني يرى أن لا أمل للاصلاح الا بالجلاء.

وقد أفتى محمد عبده بالفتوى الآتية: « قد قامت الأدلة من الكتاب والسنة وعمل السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين على ما فيه خير ومنفعة للمسلمين. . . »عين قاضيا أهليا في محكمة بنها ثم الزقازيق ثم عابدين ثم عين مستشارا في محكمة الاستئناف. وتعلم الفرنسية لأن القوانين المطبقة عندهم فرنسية رغم انه كان يتحرر من النصوص القانونية.

ولما تولى عباس واراد مناهضة الاحتلال بدأت انجلترا باحراجه. لكن الشيخ محمد عبده تقرب من عباس وكلفه باصلاح الأزهر ولكنه فشل وأخيرا عين مفتيا لمصر. وكان الشيخ محمد عبده الى هذا الحين يتفق ورأى الانجليز في ان الخديوي ليس له أن يستبد بتصريف الأمور، وان ليس من مصلحته ولا مصلحة مصر أن يحارب جماعة تركيا الفتاة خدمة لتركيا وفيهم قوم لم يرضهم حكم عبد الحميد.

وقد اختلف مع الخديوي بشأن كسوة التشريف فغضب عليه الخديوي. وكذا خالفه في مسألة أرض تابعة للأوقاف، أراد الخديوي

استبدالها وليس في ذلك مصلحة للأوقاف ، كما يرى الشيخ محمد عبده.

وكان في كل مرة يختلف مع الخديوي يلجأ إلى الانجليز، حتى هم بعزله من الافتاء، فرد اللورد كرومر العزل ولم يوافق عليه.

وكان محمد عبده موضع ثقة مجلس الشورى والحكومة الانجليزية.

وكان أشهر خصومه في ذلك الحين، شيوخ الأزهر، لأنه كان حرباً على قديمهم، ويطلع عليهم بجديد لم يألفوه، فكانوا يرمونه بالكفر والزندقة.

ومن خصومه الحزب الوطني بمن فيه وعلى رأسهم مصطفى كامل، وكان يرميه بالمروق عن الوطنية، وكانت الجرائد الهزلية تشهر به، وحتى الآستانة لم تعد راضية عنه.

وقد ثارت عليه ثائرة العامة عندما أفتى بحل ذبائح ضربت على رأسها ثم ذبحت بعد موتها، وأفتى كذلك بجواز لبس البرنيطة، وكتبت بذلك جريدتا الظاهر واللواء.

وكذلك وجدوا له بعض الصور مع نساء افرنجيات.

وكان كرومر، في كل ذلك، بجانبه وحبس خصومه وأصحاب الجرائد المشهرة به.

ومن جملة ما عابوا عليه، خلافه مع العباس، خديوي مصر، مع علمه أنه يناهض المحتلين وعابوا عليه مناهضته الوطنيين أمثال مصطفى كامل ورميهم بالتهور، كما ثبت ذلك في كتابين اثنين ارسلهما إلى صديقه بلنت.

وكان على رأيه، سعد زغلول وفتحي زغلول وحسن عاصم ومحمود سليمان، من رجال حزب الأمة.

ولما شغر منصب شيخ الأزهر، عين الشيخ عبدالرحمن الشربيني فيه، وهو ممن يتهمه الشيخ محمد عبده برجعيته، فاستقال، من أجل ذلك، الشيخ محمد عبده من منصبه، وسافر إلى أوروبا للاستشفاء من

مرض السرطان، ومات على أثره عام ١٩٠٥م»[1].

هذا موجز لحياة الشيخ محمد عبده كما رواه الدكتور احمد أمين، مع العلم أن الدكتور أحمد أمين من مدرسة الأفغاني وتلميذ محمد عبده ولذا فان المديح الذي كان يكيله لكل منهما يجعل الأمر فيه التباس، فمرة يصفهما بالنزاهة والشرف ومرة ينقل لنا أخباراً مريبة ولذا كان الدكتور محمد محمد حسين يرى في سيرتهما غموضاً فيقول: «وحقيقة الأمر في حركة الشيخ محمد عبده وأستاذه جمال الدين الأفغاني، الذي اقترن اسمه به في الشطر الأول من حياته، لا نزال نحتاج إلى مزيد من الوثائق التي توضح موقفهما، وتزيل ما يحيط به من غموض، فيما اجتمع حولهما من أخبار.

فبينما ينزله رشيد رضا ومعه كل أتباع الشيخ محمد عبده الذين ازداد عددهم على مر الأيام ـ منزلة الاجتهاد في الدين، ويرفعونه إلى أعلى درجات البطولة والاخلاص الذي لا تشوبه شائبة كان كثير من علماء الشريعة المعاصرين له، يتهمونه بالمروق من الدين، والانحراف به، وتسخيره لخدمة العدو[2]».

يلاحظ من كل ما تقدم من سيرة الشيخ محمد عبده انه كان ـ رغم ما قيل من الثناء عليه ـ على حالة لا يحمد عليها، ويمكن وضع النقاط التي يؤاخذ عليها من سيرته وهي:

(أ) ارتماؤه في أحضان الانجليز علناً وبكل وضوح، رغم أن شيخه جمال الدين كان يتظاهر بحربه لهم، وهذا دليل على أن جمال الدين فشل في التأثير على أخص تلاميذه، على قول من يقول بأن جمال الدين كان عدواً للانجليز، وهو دليل لخصومهما بأن خط السير واحد، ولم يخرج محمد عبده عن شيخه.

وعلينا أن نلاحظ عمق صلته بالانجليز، حتى لا يرتاب أحد في عمالته، إن نازلي التي توسطت لدى كرومر المعتمد البريطاني في مصر في

(١) زعماء الاصلاح من ص ٢٨٠ ـ ٣٣٧.
(٢) الاتجاهات ٣٢٨ / ١. (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر).

العفو عنه، كان قد استقدمها الانجليز إلى مصر بعد الاحتلال حيث توثقت صلتها باللورد كرومر، وفتحت ناديها لطائفة من نوابغ الأمة، وانضم إليه الشيخ محمد عبده وسعد زغلول ـ من تلاميذ الأفغاني ـ وغيرهما[1].

فما هي أهداف هذا النادي الذي باركته بريطانيا حتى ينضم إليه محمد عبده؟ وكلنا يعرف أن نازلي كانت داعية إلى التفرنج وتحرير المرأة وخروجها في الأسواق سافرة ـ كما مر ـ في بحث السفور الذي دعا إليه جمال الدين ـ.

وموقفه هذا من الانجليز دعاه لأن يناصب العداء للخديوي عباس الذي يعتبر خير من اعتلى عرش الخديوية في مصر، والذي كان ذا قوة تهابها بريطانيا. يقول الدكتور محمد محمد حسين: «كان عباس على كل ما كان فيه من عيوب، قوة لا يستهان بها، وقد وصفه كرومر بأنه قد اثبت على توالي الأيام ـ رغم ما آل اليه من فساد ـ قدرته على جمع الشعب المصري وتكتله. فعمل على اذلاله واسقاط هيبته، وتصويره في صورة العاجز الذي لا يملك من الأمر شيئاً، وأوجد من المصريين من ينبش عيوبه وينشر سيئاته، بعد أن أملى له فيها، وأرخى له العنان ليتورط في المزيد منها»[2].

(ب) ويلاحظ على الشيخ محمد عبده، انه تغيرت وجهة نظره نحو السياسة بعد فراق شيخه جمال الدين، حيث أصبح يكره السياسة والعمل بها وحتى الكلام فيها، ويتحسر على أيامه السابقة التي أضاعها في زمن شيخه.

بل تعدى ذلك، فأصبح ينتقد شيخه في انغماسه في السياسة، وهذا ما دعا بعض الكتاب لأن يعدوا هذا الاتجاه نقطة ضعف في الشيخ. يقول الدكتور توفيق طويل: «ولعل هذه الوجهة من النظر هي التي أغرته بالتخلف عن الكفاح السياسي مع أستاذه آخر أيامه. وقد

---

(١) أعلام وأصحاب أقلام ٣٢٩.

(٢) الاتجاهات الوطنية ١١٣ / ١.

عـدهـا مؤرخنـا الـرافعي (في الثـورة العـرابيـة) نقـطة ضعف في شخصيته»[1].

(ج) كما أخذ عليه تساهله في الفتيا ـ عندما كان مفتياً ـ وقد ذكر الدكتور أحمد أمين بعضها ـ كما أسلفنا ـ منها إباحة أكل لحم البقر وغيره المذبوح على الطريقة الأوروبية، وذلك بالصعق أو غيره، وهي طريقة غير مشروعة في الذبح، كما أباح لبس البرانيط، وهو زي الكفار في ذلك الحين، وعلامة من علاماتهم، وأباح الربا اليسير وهو محرم بنص الكتاب والسنة قليله وكثيره، كما ضبط لـه بعض الصور مـع نساء أوروبيات كاشفات، وهو بهذه الصفة يسير على خط شيخه جمال الدين، وقد أوضحنا ذلك من قبل.

(د) ويلاحظ عليه فوق هذا، أن في عقيدته خللاً، كما يروي أصدقاؤه وأعداؤه، فلم نجد في سيرته التي ذكرها أحمد أمين أنه حج بيت الله الحرام، مع أنه سافر إلى أوروبا وإلى بلاد الشام، عندما نفي من مصر فلم يخطر بباله الذهاب لأداء فريضة الحج، ولذا كان يصفه أقرب أصدقائه، وهو المستر بلنت فيقول: «وعبده لا يؤمن بنهاية سعيدة للجنس البشري، وأخشى أن أقول، أن محمد عبده بالرغم من انه المفتي الأعظم ليس له الثقة في الاسلام باكثر مما لي من الثقة في الكنيسة الكاثوليكية»[2].

وهذا غير مستغرب فقد كان رئيس المحفل الماسوني في مصر بعد جمال الدين[3]، كما انه عندما نزل بلاد الشام نزل ضيفاً على المحفل الماسوني، وقد مر ذلك في بحث الماسونية، فلا يستغرب أن ينسب إليه الزندقة والمروق[4].

(هـ) ومن استقراء المصادر الكثيرة عن حياة محمد عبده يبدو أنه بعد وفاة شيخه، انقلب عليه لا على مدرسته، لذا نراه يسير في خط

(١) الفكر في العربي في مائة سنة ـ ٣٠٤.
(٢) الاسلام والحضارة ـ ٨٠ ـ ٩٥.
(٣) موقف العقل والعلم والدين جـ١ ص٣٤٢.
(٤) الاتجاهات ـ ٣٢٩ / ١. (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر).

استاذه في أمور ويخالفه في أمور، وحتى انه أصبح يتحاشى ذكر اسم استاذه في المناسبات الضرورية التي يحتم عليه الوضع أن يتكلم عنه ولو بكلمة واحدة، وهذا ما يدلنا على أنه مج استاذه بعد مفارقته ورأى أنه غير الذي كان يصحبه في حياته، والذي اعتز به.

يقول الجندي: «توثقت صلة السيد محمد عبده بالمعتمد البريطاني كرومر، ومن أجل ذلك تحول عن كثير من آرائه في الاستعمار، وقطع صلته بالمحافل الماسونية، ورفض وسامهم المهدى إليه. ومما ذكر في هذا الصدد انه اعتذر أن يكتب عن جمال الدين في مجلة المقتطف، وعلق فرح أنطون على ذلك فقال: «إنه إنما فعل ذلك لتبدل في رأيه أكثر ما ارتآه فيها أو مجاملة لوسط سياسي»[1].

وهذا الرأي مطابق لرأي الدكتور أحمد أمين الذي ذكرناه في ترجمته.

(١) أعلام وأصحاب أقلام ٣٩٣.

٢ ـ سعد زغلول

نقتطف من كتاب الخطباء بعض ما جاء في سيرته وهي: «دخل سعد مكتب القرية، حيث حفظ القرآن ثم تردد على دسوق حيث درس لنحو والفقه ثم دخل الأزهر،... وتتلمذ على الامام الشيخ محمد بده، واتصل بجمال الدين الأفغاني واختلف إلى مجالسه. وعندما عهدت الحكومة إلى الشيخ محمد عبده بتحرير «الوقائع المصرية» وهي الجريدة الرسمية اختار سعد زغلول ليكون مساعداً له... كان يكتب في صحيفة للجمهور وينادي بالاصلاح ويدعو للحرية والشورى... ونقلته هذه الوظيفة من الأزهر إلى الحكومة ومن العمامة إلى الطربوش ومن دار العلوم الدينية إلى دار العلوم القانونية. ثم كانت الثورة العرابية، فألقى سعد زغلول نفسه في غمارها، فكوته بنارها، ولما انقشع غبارها كان قد خسر وظيفته فأقدم على احتراف المحاماه. ثم اختاروه قاضياً فمستشاراً فوزيراً، ثم انتخب عضواً في الجمعية التشريعية ثم أصبح وكيلاً منتخباً لها، وبعد الحرب العالمية الأولى أصبح الزعيم المنتظر بفضل خطبه الرنانة. ثم فاز في الانتخابات البرلمانية عام ١٩٢٣م وقبوله تشكيل الوزارة وكان سعد مريضاً وكانت له وصيفة المانية. وخطب يوم انتخابه وقال بأن الحكومة مستعدة للدخول مع الحكومة البريطانية في مفاوضات حرة من كل قيد لتحقيق الآمال القومية بالنسبة لمصر والسودان. وقال خصوم سعد أنه بعد توليه الحكم فترت حماسته، فلم يعد يذكر الاستقلال التام لمصر والسودان بصراحته المعهودة، وقد رد عليهم في خطاب العرش. ومن تأثيره بالشعب في خطبه انه رأى بعض الضباط المصريين يحملون العصي ويطاردون الناس في فناء بيته فصاح فيهم قائلاً «أقسم بالوطن وعزته لو تركتم وشأنكم لكنتم لنا لا علينا». فتراخت أيديهم وألقوا عصيهم»(١).

وزاد في معجم المؤلفين ما يأتي:

---

(١) الخطباء من ١٩٣ ـ ٢١٧

«اسمه الكامل: سعد بن ابراهيم زغلول، ولد في أبيانه، اتصل بجمال الدين ولازمه مدة، انتخب رئيساً للوفد المصري فنفاه الانجليز».

وفي الاعلام للزركلي بعض الزيادات نذكر منها: «بعد ثورة عرابي قبض عليه بتهمة الاشتراك في جمعية سرية قيل انها تسعى لقلب نظام الحكم. وهو أول سياسي مصري اسمع الغرب صوت الجامعة العربية».

وقد امتلأت الصحف بسرد ترجمته وكذا المجلات الدورية وأكثرها تركز على اصلاحاته وأعماله الجليلة وقليل منهم من تنبه إلى نقاط الضعف عنده وخاصة من الناحية الاسلامية ومن الذين تنبهوا لذلك الكاتب المشهور الأستاذ أنور الجندي، فقد كتب في مجلة المجتمع عدد ٤٩٤ السنة الحادية عشرة تاريخ ٢٢ شوال ١٤٠٠هـ الموافق ٢ سبتمبر ١٩٨٠م تحت عنوان (شوائب النهضة الأدبية): «مَن ذلك (أي الانحراف) الخرق الذي خرقه سعد زغلول حين فصل الأدب العربي عن الفكر الاسلامي» أي أن الأدب بدأ يسير وراء الفكر الغربي العلماني وتمجيد أنظمته وحياته الاجتماعية وسلوك معيشته وخاصة الأمة الانجليزية ولو تظاهر الأدباء بعدائهم لها، ولذا بعد هذه المقدمة يقول: «وكان أخطر مقاتل الحركة الأدبية التي نشأت في مجلس السياسة الحزبية هو انها حملت مفهوم الخلاف مع الانجليز في نفس الوقت الذي تبنت واحتضنت فيه مفاهيم الأدب الانجليزي وفصلته في مختلف مجالاته عن الأدب الفرنسي مع الاعجاب الخالص بالحضارة الغربية. كان هذا هو مفهوم الحركة الوطنة التي قادها سعد زغلول وثروت وعدلي كانت تحمل ظاهرياً طابع الخلاف ــ لا الخصومة مع الانجليز ــ مع الاعجاب بروح الحضارة الغربية واحتضانها في جميع مجالاتها»[1].

كما كتَب الأستاذ أنور الجندي في مجلة أخرى نبذاً من سيرة سعد زغلول وذلك في ندوة عقدت في مصر جاء فيها (أي المجلة): «كان من أهم الأسئلة في ندوة هذا الشهر ما قدمه عدد من الشباب استفساراً عن صحة ما نشر عن تاريخ سعد زغلول من فصول في إحدى الصحف

---

(١) المجتمع ص٤٢ ــ ٤٣.

اليوميه، ومدى تطابق هذا مع واقع التاريخ، ومن خلال نظرة اسلامية صحيحة» وبعد هذه المقدمة تقول المجلة: «ولا ريب أن شخصية سعد زغلول هي واحدة من أكبر شخصيات العمل الوطني في مصر بعد الحرب العالمية الأولى. ولا يمكن دراستها إلا بفهم الاطار السياسي الذي بدأ منذ أن احتلت بريطانيا مصر وواجهت الحركة الوطنية التي قاومت النفوذ الأجنبي بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد وعدد من المجاهدين الذي عملت القوة البريطانية على تصفيتهم واقصائهم وتقديم جيل جديد من أصحاب الولاء للنفوذ البريطاني، وفي مقدمة هؤلاء أحمد لطفي السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمي. هذه المرحلة السابقة لظهور هيبة الوفد المصري التي قادها سعد زغلول لها أهميتها في الكشف عن الدور الذي قام به سعد زغلول في معارضة الحركة الوطنية وكبح جماحها، وتقديم رجالها للمحاكمة كما فعل في محاكمة محمد فريد، وهو وزير الحقانية، وكذلك دوره في تجميد اللغة العربية، وهو وزير للمعارف، واتاحة الفرصة للغة الانجليزية وكذلك دوره في اعادة بعث قانون المطبوعات القديم الذي كان كرومر قد نفذه ثم أوقفه، وذلك لمحاكمة الكتاب والصحفيين الوطنيين بأقسى العقوبات. هذه الصفحة لسعد زغلول يجب أن تدرس قبل أن يقدم على المسرح كزعيم وطني بعد الحرب العالمية الأولى».

ثم أخذت الصحيفة تذكر أعداءه وأصحابه والمعجبين بآرائه، فقالت: «ولقد اختلفت حول سعد زغلول كتابات المؤرخين، فوضعه كتّاب الوفد وأصحاب الولاء لحزبه موضع القداسة (وفي مقدمة هؤلاء الأستاذ العقاد) وكشف عن حقيقته مؤرخو الحزب الوطني (وفي مقدمة هؤلاء الأستاذ الرافعي)، وجاءت كتابات كثيرة بعد ذلك لتضع سعد زغلول في حجمه الصحيح» ثم أخذت المجلة تذكر مستند هؤلاء الأخيرين في وضعه على حقيقته وهو مذكرات سعد زغلول بالذات، فتقول: «تكشف هذه المذكرات عن أشياء كثيرة:

أولاً: علاقة سعد بالانجليز: يقول عن اللورد كرومر: كان يجلس معي

الساعة والساعتين ويحدثني في مسائل شتى كي أتنور منها في حياتي السياسية». وقالت بعد هذا بقليل: «ولعل من الحقائق العلمية العجيبة، أن اللورد كرومر عام ١٩٠٧ أعلن أنه يترك مصر مستريحاً لأنه أقام فعلاً القاعدة الأساسية لاستدامة الاحتلال، وكان في هذا العام قد ألف حزب الأمة، وأصبح لطفي السيد هو حامل لواء (الجريدة)، وسعد زغلول ناظر المعارف. وقد سخر كرومر في خطبة الوداع الذي أقامها له رجال حزب الأمة من أولياء النفوذ الأجنبي من المصريين جميعاً، ولم يمدح في خطابه إلا رجلاً واحداً هو سعد زغلول «هذا موقف كرومر ورأيه في سعد، ولكن ما رأي سعد في كرومر تقول المجلة: «قال (أي سعد): أما أنا فكنت كمن تقع ضربة شديدة على رأسه أو كمن وخز بآلة حادة فلم يشعر بألمها لشدة هولها «قال هذا الكلام بعد مغادرة كرومر مصر، وهذه هي فاجعته الكبرى، وتقول المجلة «وكان سعد في مقدمة الداعين لاقامة حفل لتوديع اللورد كرومر وكتب في مذكراته يعلن ضيقه بالذين انتقدوا كرومر عقب استعفائه. وقال في صفاته: قد اتفق الكل على كمالها».

ثانياً - بعد أن انتهت المجلة من الكلام على الوجه الأول من حياته وهو علاقة سعد بالانجليز راحت تتكلم عن أخلاقه التي اقتبسها من أساتذته ومن دامت صحبته لهم، تقول المجلة: «ثانياً: أخلاقيات سعد: .
وأبرز هذه الجوانب علاقته بالقمار» ثم تذكر ما قاله عن نفسه في مذكراته فتقول: «فقال: (كنت أتردد بعد عودتي من أوروبا على الكلوب ــ أي نادي محمد علي ــ فملت إلى لعب الورق، ويظهر أن هذا الميل كان بداية المرض، فإني لم أقدر بعد ذلك أن أمنع نفسي من التردد على النادي ومن اللعب، وبعد أن كان بقليل أصبح بكثير من النقود وخسرت فيه مبلغاً طائلاً. «ثم مع من يلعب القمار يذكر ذلك في مذكراته، تقول المجلة: «وكتب خلال زيارته لأوروبا صيف ١٩٠٨: أفطر مع الست والباشا (أي مصطفى فهمي) وحسين (أي ابن محمود صدقي) في الساعة التاسعة، وبعد أن نتمشى مع الباشا قليلاً نعود إلى البيت لنلعب البوكر مع الست وحسين إلى الساعة الواحدة، ثم نتعشى فى الساعة ثمانية ونتمشى قليلاً ثم نعود لنلعب البوكر إلى الساعة ١١

مساء وقد أنفعلُ أثناء اللعب عند الخسارة، وصادف أن الزهـر كان يعاكس، وكان زهر حسين سعيد، ولكن مع ذلك كسبت ولم أخسر، غير أن خسارتي كانت من طريقين: طريقي وطريق الست» هذا هو مجلسه في اللعب، وهؤلاء هم جلاسه، وهو أحد النماذج الذين رباهم جمال الدين الأفغاني. ثم أن هذا القمار الذي تعلق به أتى على جميع أمواله تقول المجلة: «وهكذا أجهز القمار على كل ثروته التي كونها من المحاماة وكانت لا تقل عن ٤٠٠ فداناً و١٨ ألف جنيه، فضلاً عما ورثه من صهره (مصطفى فهمي) الذي كان يملك ٦٤٨ فداناً و٨٦٠٠ جنيه وألف اردب قمح وألفي جنيه مواشي، وكانت صفية زغلول التي اطلق عليها (أم المصريين) واحدة من ثلاث بنات خلفها مصطفى فهمي، جلاد شعب مصر ثلاثة عشر عاماً»[1].

بعد هذا كله لا أريد أن أعلق شيئاً على حياته وسيرته، سوى التذكير بأن سعد زغلول يعتبر الرجل الثاني في التلمذة على جمال الدين الأفغاني.

(١) مجلة الاعتصام العدد الثاني ــ السنة الثانية والأربعين. ذو الحجة ١٣٩٨ ــ نوفمبر ١٩٧٨م.

٣ ــ الميرزا محمد باقر

كتب الدكتور الوردي في ترجمته ما يغني عن اللجؤ إلى غيره وهذا ما جاء فيه:

«الواقع أن الميرزا باقر رجل غامض كل الغموض، ونحن لا نعرف شيئاً محققاً عن نشأته وبداية أمره. وقد اختلفت الأقوال والروايات في ذلك. ففي رواية المرزا لطف الله خان: (انه كان كبير علماء بوشهر وكان يلقب بـ(يوحنا زمانه) لما عرف به من علم وفضل، وقد تعرف بالأفغاني عندما مر هذا ببلدة بوشهر في عام ١٨٥٧ على أثر عودته من الهند، وأعجب بالأفغاني واعتقد بصحة آرائه واتبع نصائحه وإرشاداته.

وجاء في رواية أخرى رواها الشيخ عبد القادر المغربي: إن المرزا باقر كان في صغره قد تعلم في مدارس الهند البريطانية، وأعلن تنصره وسمى نفسه (مرزا يوحنا) ثم دخل في خدمة الجيش البريطاني عند احتلاله بوشهر حيث صار ترجماناً لقائد الجيش، وكان أثناء ذلك ينظم القصائد في هجاء النبي محمد، وصار الأهالي يضربونه ضرباً مبرحاً حتى أنهكوه وسال الدم من فمه ومنخره وهو يستغيث بالنبي والحسين.

وللسيد هبة الدين الشهرستاني رأي آخر في المرزا باقر، إذ قال عنه في مجلة العلم ما مفاده: إن المرزا باقر كان من كبار فلاسفة ايران الذين قذفتهم الحكومة الاستبدادية إلى الخارج، وكان من طبقة السيد جمال الدين الأفغاني وفي عصره.

ويروي الشهرستاني عمن يثق به أن المرزا باقر جمع القرآن على ترتيب أزمنة نزوله ابتداء من سورة العلق، حتى ينتهي إلى آخر سورة من القرآن وهي المائدة، ثم ترجم ذلك كله إلى اللغة الانجليزية، فعظم ذلك على أكثر علماء الدين في ايران وتكلموا عليه بما لا يليق به.

هذا هو ما قاله الرواة عن المرزا باقر في بداية أمره، ثم تمر عليه بعد ذلك فترة طويلة لا نعرف فيها عنه شيئاً، حتى إذا حل عام ١٨٧٠م نرى المرزا باقر في بغداد مشتبكاً في جدال مع الكاتب التركي

أحمد مدحت أفندي الذي كان محرراً لجريدة الزوراء، وكان هذا الكاتب في ذلك الوقت ملحداً فأخذ المرزا يحاوره ويناقشه حتى استطاع أن يرجعه إلى الايمان من جديد.

ورحل المرزا باقر بعدئذ إلى بيروت حيث تزوج فيها بامرأة من أسرة معروفة ـ هي اسرة آل الخطيب ـ فرزق منها بنتاً وولداً، ولا يزال الولد حياً يعيش في بيروت اسمه (محمد الباقر)...

وفي عام ١٨٨٣ سافر المرزا إلى باريس، وكان الأفغاني يومئذ فيها يصدر مجلة (العروة الوثقى) فذهب المرزا باقر إليه فعرض خدماته عليه وأخبره بأنه تاب وكفر عن ذنبه القديم وصار داعية للاسلام ومبشراً به. وقد كلفه الأفغاني بالذهاب إلى لندن ليكون مراسلاً للمجلة فيها يترجم لها من الصحف البريطانية.

صار المرزا باقر في لندن من أكبر الدعاة للاسلام وأشدهم حماساً، فكان يطبع نشرات في الدعوة للاسلام ويقف على أبواب الكنائس ليدس نشراته في أيدي الداخلين والخارجين.

واتخذ له مهراً مربع الشكل كتب فيه عبارة (انكسر الصليب) وعبارة (مات الخنزير) فكان هذا المهر بمثابة شعار له يطبعه على صدور رسائله.

وحين جاء الشيخ محمد عبده إلى لندن مبعوثاً من قبل الأفغاني لمفاوضة الحكومة البريطانية حول قضية مصر والسودان، كان المرزا باقر مترجماً للشيخ في مفاوضاته.

والغريب أن الميرزا باقر لم يترك التبشير بالاسلام حتى وقت المفاوضات فكان الشيخ يقول له: (ليس هذا وقته)، ويرجوه أن يؤجل التبشير إلى وقت آخر، ولكن المرزا باقر لم يكن يصغي للرجاء...

وحدث ذات يوم أن نظم أحد شعراء الهند قصيدة بليغة في مدح الملكة فكتوريا، فكلفوا المرزا باقر بترجمتها إلى اللغة الانجليزية وقد اتقن المرزا ترجمتها بحيث نالت اعجاب الملكة فأمرت بمنحه خمسمائة جنيه،

ولكن المرزا رد المبلغ وقال انه يطلب جائزة اخرى هي دخول الملكة فكتوريا في الاسلام.

كان المرزا باقر في لندن يسكن غرفة قذرة ضيقة وهو محاط بأكوام من الكتب يعلوها الغبار، وكان أكثر تلك الكتب باللغة الفارسية والعربية وفي مواضيع دينية، وكان بعضها باللغة العبرية والانجليزية.

وقد زاره المستشرق براون في غرفته هذه، وأعطانا وصفاً عجيباً إذ قال: (إنه لم يشهد في حياته رجلاً يعيش في عالم خيالي من صنعه مثل المرزا باقر، فهو لا يبالي بمصلحته الشخصية ولا براحته ولا يكترث للمال أو بالتقرب من أولي النفوذ، وكثيراً ما ينفر الناس منه لشدة ما يهاجمهم في أعز معتقداتهم، كما ينفر منه أصدقاؤه لكثرة كلامه الذي لا ينقطع، وهو قد تحول في عقيدته الدينية من التشيع إلى التصوف، ثم إلى المسيحية فالالحاد فاليهودية، وانتهى أخيراً إلى انشاء دين خاص به سماه (المسيحية الاسلامية). إنه كان جدلياً شديد الثرثرة بعيداً عن التعقل، وغير واقعي إلى أبعد الحدود ولكنه على الرغم من كل ذلك لا يستطيع الانسان إلا أن يحترمه).

وفي أواخر عام ١٨٨٤ عاد المرزا باقر إلى بيروت لابتلاء ابنته بالسل وهناك التقى بالشيخ عبده مرة ثانية، وكذلك التقى بخادم الأفغاني القديم عارف أبو تراب، فاتفق الثلاثة على انشاء جمعية باسم (جمعية التأليف والتقريب) هدفها التقريب بين الأديان السماوية الثلاثة أي الاسلام والنصرانية واليهودية، والدعوة إلى نبذ التعصب في الدين، وتأليف الكتب التي تصور الأديان الثلاثة بروح الانصاف والمحبة، والتعاون على إزالة الضغط الأوروبي على الشرق، وتعريف الافرنج بحقيقة الاسلام. وقد انتمى إلى هذه الجمعية عدد من المفكرين الايرانيين والأتراك والهنود والانجليز واليهود كالقس اسحق تيلر في لندن والوزير مؤيد الملك في طهران. وحسن خان مستشار السفارة الايرانية في اسطنبول، والمستر لينتر مفتش المدارس في الهند.

كان المرزا باقر والقس تيلر من أشد الأعضاء حماساً في العمل لهذه

الجمعية بالقول والكتابة، ويقال أن الشيخ محمد عبده أرسل هو وجماعة من علماء الشام رسالة إلى القس تيلر في موضوع التقريب الذي كان القس يعمل له في لندن، فلما علم السلطان عبد الحميد بالأمر كلف سفيره في لندن بالتحقيق فيه والتعرف على أسماء موقعي الرسالة. وعندما حصل السلطان على الأسماء أوعز بنفيهم.

مهما يكن الحال فقد تم ابعاد المرزا باقر فعلاً، وذهب إلى ايران حيث مات فيها في عام ١٨٩٠ أو بعده بقليل»(١).

من قراءة ما جاء عن الدكتور الوردي يتبين أن هذا الرجل اسمه الحقيقي الميرزا باقر وإن كان بعض الكتاب يقول بأن اسمه محمد باقر، لأن الميرزا باقر له ولد اسمه محمد باقر لم تعرف له صحبة مع جمال الدين الأفغاني، فإذا قالوا الميرزا محمد باقر وكان من أتباع جمال الدين فانما يقصدون الأب، إذ أن بعض الكتاب يضيفون اسم محمد بعد ميرزا على سبيل اضافة (محمد) للتبرك ويظهر أن أباه سماه بهذا الاسم، فلا نستغرب بعد هذا اختلاف الكتاب في اسمه.

هذا الرجل لا يطمئن إليه لكثرة تقلبه، فلا تعجب إذا سمعت أنه كان يدعو إلى الاسلام، أو أنه عرض الاسلام على ملكة بريطانيا، يقول الدكتور محمد محمد حسين: «والذي كان يساعده (أي الأفغاني) في تحرير صحيفة العروة الوثقى مع محمد عبده رجل مريب من ايران يدعي ميرزا باقر، وكان قد تنصر وصار داعية للنصرانية هناك مع جمعية المبشرين ثم عاد إلى الاسلام ليشارك في تحرير الجريدة الداعية إلى الجامعة الاسلامية»(٢).

ويقول الأستاذ سعيد الأفغاني: «وكان يعاون الأستاذ محمد عبده في تحرير جريدة العروة الوثقى بباريس رجل فارسي اسمه (ميرزا محمد باقر) كان يترجم للجريدة المقالات المهمة من الصحف الانجليزية، وميرزا باقر هذا كان ذا حظ كبير من الذكاء وسرعة الحفظ وقوة الذاكرة،

(١) لمحات اجتماعية: ٣١٨ ــ ٣٢١.
(٢) الاسلام والحضارة الغربية ٦٩ ــ ٨٤.

كان حافظاً للكتاب المقدس، مستحضراً لآيات القرآن، ملمًا بلغات كثيرة، وكان مسلمًا فمتنصراً، وصار داعية للنصرانية مع جماعة من المبشرين»[١].

ويظهر أنه كان كشيخه الأفغاني يميل إلى العمل السري وذلك لاشتراكهما في أصلهما الشيعي. يقول الأستاذ عثمان أمين: «الأستاذ (أي محمد عبده) كان متسامحاً يكرم أهل العلم والفضل مهما كانوا مخالفين له في العقيدة، فلا عجب أن نراه في بيروت يسعى إلى توكيد روابط الود بين أهل الأديان الثلاثة السائدة في الشرق العربي، وقد حانت الفرصة لذلك حين جاء إلى سوريا (ميرزا باقر) الفارسي، الذي كان قد عرفه الشيخ محمد عبده في باريس أثناء الاشتغال بتحرير العروة الوثقى، واتصل محمد عبده في بيروت ببعض الشخصيات المعروفة بالاهتمام بالشؤون العامة، فألف هو ومرزا باقر جمعية سرية سياسية دينية غرضها التأليف بين الاسلام والمسيحية واليهودية، وانضم إلى تلك الجمعية (مؤيد الملك) أحد وزراء ايران، و(حسن خان) مستشار السفارة الايرانية في الآستانة، كما انضم إليها بعض الانجليز واليهود، وكان من أعضاء الجمعية قس انجليزي اسمه (اسحق تيلر)...»[٣].

وقد كان هذا القس داعية في انجلترا إلى ما قام به الشيخ محمد عبده وكان يكتب مقالات في بعض الصحف الانجليزية وكان يترجمها إلى العربية ميرزا باقر وينشرها في مجلة ثمرات الفنون البيروتية[١].

مما تقدم يظهر بجلاء أن الميرزا باقر أو الميرزا محمد باقر كما يسميه البعض إنما كان تلميذاً باراً لشيخه ولكنه ـ كأستاذه ـ كان خطراً متلوناً ليس له قرار، يوماً لهم ويوماً عليهم.

---

(٢) جمال الدين ـ سعيد الأفغاني: ٥٧. (نابغة الشرق).

(٣) محمد عبده ـ عثمان امين: ١٠٤.

(١) المرجع السابق ١٠٤

٤ ــ ابراهيم المويلحي

ورد في الأعلام للزكلي ما يأتي مختصراً: «ابراهيم بن عبد الخالق بن ابراهيم بن أحمد المويلحي : كاتب مصري . . . اصله من مويلح الحجاز وأول من انتقل من أسلافه جده أحمد. ولد ابراهيم وتوفي في القاهرة، اشتغل بالتجارة ثم كان عضواً في مجلس الاستئناف، استقال فأنشأ مطبعة وعمل في الصحافة ودعاه الخديوي اسماعيل إلى ايطاليا واقام معه بضع سنوات واصدر في أوروبا جريدة (الاتحاد) وجريدة (الأنباء) وسافر إلى الآستانة سنة ١٣٠٣ هـ ، فجعل عضواً في مجلس المعارف وأقام نحو عشر سنوات وعاد إلى مصر فكتب كتابه (ما هنالك ــ ط) يصف به ما رآه في عاصمة العثمانيين، ونشره غفلا من اسمه، أنشأجريدة (مصباح الشرق) اسبوعية، وكان كثير التقلب في الأعمال، يصدر الجريدة ثم يغلقها، ويبدأ العمل ولا يلبث أن يتحول إلى سواه».

وفي كتاب أعلام الصحافة العربية وردت العبارات الآتية بالمعنى «قام ابراهيم المويلحي في زمن اسماعيل باصدار مجلة شعبية لم تحرص على الولاء للخديوي، وكانت من أوائل المحاولات لنشر الصحافة الشعبية في مصر، اسرة المويلحي واسعة الثراء، اصدر مجلة «نزهة الأفكار» بالاشتراك مع عثمان جلال القصاص، وكان الخديوي لا يقر التطرف الذي تضمنته المجلة فصودرت. ولم يؤثر عن صحفينا المويلحي خصومة بينه وبين الخديوي ولولا دعاة السوء لأذن اسماعيل بصدور صحيفته، أنشأ في نابلي صحيفة «الخلافة» مندداً فيها بالسلطان عبد الحميد لأنه وافق الدول الأوروبية في خلع اسماعيل ثم أنشأ في باريس جريدة الاتحاد والأنباء والرجاء وكلها تدعو لاسماعيل وتمجد فيه، وهناك اتصل بالأفغاني وساهم في العروة الوثقى»[١].

وجاء في كتاب تاريخ آداب اللغة العربية للكاتب جرجي زيدان ما يأتي مختصراً: «يرجع نسبه إلى عائلة وجيهة خدمت في زمن محمد علي . . . تردد على الآستانة مراراً وله شؤون مع رجال حكومتها ورجال

---

(١) أعلام الصحافة العربية: ٩٩ ــ ١٠٦.

ما نبيها يطول ذكرها . . .»[1]. يقول طرّازي: «وكان للمويلحي جريدة تصدر في نابلي باسم الخلافة يذيع على صفحاتها أن مقام الخلافة عند المسلمين يتسلسل من أصل عربي وانه انتقل بلا حق إلى آل عثمان سلاطين الأتراك، وكان يقول أن خديوي مصر هو أولى من سواه بهذه الكرامة الدينية لأن مصر كانت مقراً للخلفاء في سالف الزمان»[2]. وهذا الرأي مطابق لرأي جمال الدين الأفغاني بشأن الخلافة غير أن جمال الدين كان مخلصاً في دعوته لمبدئه الذي التزم به وسائراً عليه طيلة حياته، أما المويلحي فلم يكن كذلك وانما قال قولته تلك لارضاء اسماعيل المخلوع، ولذا فان الحكومة العثمانية اشترته بالمال لاسكاته فلم يصدر من جريدته هذه الا عددان ثم توقفت نهائياً .

يقول تشارلز: «كان من تلاميذ جمال وآزره في نشر صحيفة العروة الوثقى وكان من أصدقاء محمد عبده ولكنه انقلب عليه، مرة على الأقل، وذلك حينما حمل عليه حملة شديدة في «فتوى الترنسفال». وكان المويلحي أحد الكتاب الذين اصطنعهم الخديوي عباس الثاني الى شيعته من الشيوخ المحافظين لمحاربة محمد عبده. كان المويلحي من أسرة غنية، لكنه أضاع ثروته في المضاربات. . . وأسس حوالي سنة ١٨٦٧ جمعية سماها «المعارف» لتعمل على نشر الكتب العربية القديمة»[3].

---

(١) تاريخ الأدب ٤/٢٥١. (تاريخ آداب اللغة العربية).
(٢) تاريخ الصحافة العربية ٢/٢٦٤.
(٣) الاسلام والتجديد في مصر ص : ٢٠٢.

٥ ــ علي يوسف

يعتبر علي يوسف من تلاميذ جمال الدين وان كانت صحبته قليلة، وها نحن نختصر ترجمته من كتاب تراجم الأعلام المعاصرين للكاتب أنور الجندي: «كانت حياته قصيرة، كان صحفيا بارعا بل يعتبر مؤسس الصحافة المصرية بعد الاحتلال، أنشأ جريدة «المؤيد» رداً على المقطم لسان حال الانجليز. وكان في صراع مع المقطم في البداية، ثم مع اللواء ذات المنهج الوطني الحماسي الثائر، ثم تصدر (الجريدة) فيبدأ صراع آخر معها رغم انها وطنية. ثم يترك الصحافة ليصبح شيخ السادة الوفائية، ويتوفى وهو في الخمسين من عمره عام ١٨٨٩ / ١٩١٣.

درس في الأزهر وهو في التاسعة عشر من العمر وكان محباً للشعر وله ديوان اسمه «نسمة السحر». وقد أصدر جريدة «الآداب» دامت سنتين اشترك مع زميله أحمد ماضي في اصدار المؤيد وكان زميله الممول لها، ولكنه اختلف معه وانفصل عنه، وكانت المؤيد لسان حال مدرسة الأفغاني وكان أعلامها أمثال: محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وعبد الكريم سليمان وتوفيق البكري وفتحي زغلول وابراهيم اللقاني وابراهيم المويلحي، وكان لها تلاميذ اشهرهم: حافظ عوض ومحمد مسعود ومحب الدين الخطيب وسيد كامل وعباس العقاد والمنفلوطي. وتعتبر المؤيد امتداداً للعروة الوثقى، ولما تم الاتفاق بين الانجليز والفرنسيين واصبح الخديوي ظاهر الاستسلام للانجليز اختار علي يوسف المضي مع الخديوي بعد أن تحول عن وطنيته، حفاظاً على صحيفته بعد أن ذاع صيتها فبلغ الهند وتركيا.

زار لندن عام ١٩٠٣ وأعلن «ان لندن هي كعبة المصريين السياسية»[١]. ويرى الكثيرون أن صلته بالشيخ محمد عبده كانت من العوامل التي خففت من خصومته للانجليز.

يقول جورجي زيدان بأن علي يوسف انتقل من فقير أزهري إلى

---

(١) في الاعلام ١٣١: «ان لندرة يجب ان تكن كعبة المصريين السياسية».

كبير من كبار الأمة، تقرب من الخديوي فأصبح يزار من الوزراء والأمراء وحصل على رتب وأوسمة من الدولة العثمانية.

ويقول أحمد شفيق في مذكراته بأن صداقة عباس مع علي يوسف نمت حتى أصبح مستشاره وحافظ اسراره.

وقد وقف في الجمعية العمومية ضد سعد زغلول في تعليم اللغة العربية في جميع المراحل وانتصر عليه. وكان من أوائل المطالبين بالدستور. ونشر في صحيفته مقتطفات من طبائع الاستبداد للكواكبي ومن كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين.

ورغم كونه صديق الخديوي والمقرب اليه كان صديقا للشيخ محمد عبده الذي هو خصم الخديوي، وكان قادراً على الحفاظ على التوازن في هذا الأمر حتى أطلق على حزبه اسم (الاصلاح). فهو اذن اتخذ موقفاً وسطاً بين الامام والخديوي، وقد وصفه رشيد رضا بقوله: «إن علي يوسف كان أخلص للخديوي من مصطفى كامل ولكنه كان موالياً وافياً للشيخ محمد عبده ورجال حزبه».

وقد حصلت خصومة بينه وبين جريدة مصباح الشرق لصاحبها ابراهيم المويلحي وابنه محمد المويلحي بسبب خصومة مع رجل اسمه محمد نشأت وكانت خصومته مع صاحب مصباح الشرق شديدة ثم ان علي يوسف تقدم بخطوبة ابنة الشيخ عبد الخالق السادات وعقد العقد عليها بغياب أهلها فأقيمت عليه الدعوى وفسخ العقد فقام المويلحي باغتنام هذه الفرصة في الطعن فيه والرد عليه.

ومن مواقفه الضعيفة مطالبته بالعقوبة والسجن للشيخ علي الغاياتي اثر اصدار ديوانه (وطنيتي) وكان الشيخ قد ذهب إلى ادارة المؤيد واهدى نسخة لصاحبها ظناً منه انه سيكتب عنها تقريظاً وإذا بعلي يوسف يجد في الديوان قصائد عنيفة كانت قد نشرت في جريدة مصطفى كامل وحزبه، وهنا يندد علي يوسف بالديوان ويعده تحريضاً على الثورة فتحاول الحكومة محاكمة الغاياتي فيهاجر إلى تركيا والمانيا ولا يعود إلا بعد ربع قرن .

ومن مواقفه انه نشر (تلغراف) سري اعطاه اياه عامل (التلغراف) توفيق كيرلس عن عمليات حربية في السودان ولكن التلغراف لم يسلم إلى نظارة الحربية وكانت النتيجة أن فصل العامل وبقي علي يوسف يدفع له مرتباته من جيبه الخاص حتى وفاته.

ولم يكن مبدؤه (الغاية تبرر الواسطة) تماما ولكن اعماله كانت تبدو للغريب كأنها مستوحاة من تلك القاعدة الذهبية. وقد تزوج ابنة السادات المذكور وخلفه على مشيخة السجادة الوفائية. ولكن هذا الزواج لم يكن ميمونا فقد كانت الزوجة تتكبر عليه وتتخاصم معه وكانت تشغله عن ادارة المؤيد.

وكذلك اثرى من وراء الصحيفة ولكنه اضاعها في اقحامه في مضاربات عقارية لبيع الأراضي فكان حزنه شديدا على ضياع ماله وعلى صلف زوجته وسوء معاملتها له، فمرض وترك العمل وودع الصحافة بحفلة كبيرة، ومات بعد أشهر من تركة العمل». اهـ. وهكذا اعاد ذكرى سعد زغلول ومغامراته.

ومن الاعلام للزركلي نقتطف ما يلي: اسمه: علي بن أحمد بن يوسف البلصفوري الحسيني، نشأ يتيما، نشر ديوانا صغيرا سماه (نسمة السحر ــ ط).

يقول الدكتور ابراهيم عبده: «هو (أي علي يوسف) تلميذ الشيخ جمال الدين الأفغاني في الصحافة ايام اسماعيل، وصدر حكم توفيق، صاحبه أياما ونشر بعض المقالات في صحافة ذلك العهد فهو تلميذ نشيط»(١).

ثم يتعرض لموقفه من الانجليز فيقول: «وصحفينا يقيم خطته في أول الأمر على الدفاع عن الشرق والاسلام وبخاصة الانجليز، اما عن الأولى فقد أيدها تاريخه فيها وصدق عاطفته الشرقية وحرارة ايمانه باسلامه، واما عن الثانية فقد ارتد عنها مؤمنا بصداقة الانجليز مؤثراً

---

(١) اعلام الصحافة ١٣٠

هذه الصداقة لمصر على صداقة السلطان وحكومته»[1].

وحتى حرارته للاسلام تجاوزت حد الاعتدال واصبحت مكان ريبة واثارة فتن بين المسلمين والمسيحيين، يقول الدكتور ابراهيم عبده: « وقد غلا غلوا خطيرا في النظر الى الأمور الدينية حتى خلق في البيئة المصرية خلافا بين المسلمين والمسيحيين سواء كانوا من المواطنين المصريين أو النزلاء الأجنبيين ، وكان الايطاليون أكثر الشعوب محلا بخصومة الشيخ . . . »[2] .

ورغم خصومته للطليان فانه ينظر الى الانجليز نظر اكبار : « يرى الرجل ان صداقته للانجليز واجبة لأنهم يضعون ما يختلفون عليه محل النظر والاعتبار ولا يتعصبون لجنس أو دين »[3] .

ويقول طرّازي في صدد الحديث على جريدة المؤيد ما يأتي: « وللوزير رياض باشا اليد الطولى في معاونة صاحبي هذه الجريدة الوطنية على اصدارها لتكون على مذهبه ورأيه »[4].

ومعروف لدى الناس ان رياض باشا كان ميالا للانجليز خاصة وللغرب عامة ويرى فيهم القدوة الحسنة في الحضارة بجميع جوانبها، ولا يبعد أن يكون اليهود وراءه لأنه من اصل يهودي »[5].

هذا احد النماذج التي تربت على يد جمال الدين الأفغاني، فهو ملتزم بخطته، يسير على خطاه، ولا يبعد عن اهدافه، ولم يكن مخلصا لوطن ولا دين، يعمل للربح ولكنه يغامر فيخسر، يوالي الانجليز لأن مصلحته معهم.

---

(١) أعلام الصحافة ــ ١٣١.
(٢) المرجع نفسه ــ ١٣١.
المرجع نفسه ــ ١٣١.
(٤) تاريخ الصحافة العربية: ٣/٣٧.
(٥) تطور. الجندي ــ ٣٤. (تطور الصحافة)

٦ـ عبد الله النديم

نقتطف ما جاء في كتاب الخطباء: «كان سيد المنابر في عصره، عرف له رجال الثورة العرابية خطره فحشروه في زمرتهم... حفظ القرآن وأتمه وهو في التاسعة من عمره، وكانت للصبي ذاكرة عجيبة وقدرة نادرة على الحفظ، فأدخله أبوه في معهد الجامع الأنور ... لدراسة علوم الدين واللغة على نمط الدراسة بالأزهر..

لم يلبث ان ضاق بهذا اللون من الدراسة الجافة فهرب منها... واخذ يغشى مجالس الأدباء... فانصرف عبد الله من حلقات العلم بالجامع الأنور الى دكاكين التجار المحبين للأدب، ويتطارح معهم الشعر، ... وكان من بين اساتذته... الشيخ محمد العشرى وكان يتعشق الأدب... فأخذ يشجعه ويصحبه الى ندوات الأدباء... وتفتحت مواهب الأديب الناشيء.... علم أبوه بأمره فخيره بين العودة الى دروس الجامع والانتظام في طلب العلم أو الذهاب عنه الى حيث يكسب رزقه بنفسه واختار عبد الله الطريق الثاني.... فبحث عن سبيل للكسب... تعلم فن الاشارات (التلغرافية).. ثم نقل الى مكتب (تلغراف) القصر العالي حيث كانت تقيم والدة الخديوي اسماعيل... عاوده الحنين الى الأدب ومجالسه فكان يحضر أوقات فراغه في الأزهر لحضور الدروس التي يلقيها بعض كبار العلماء ثم اتصل بكثير من الأدباء والشعراء مثل محمود سامي البارودي وعبد الله فكري والساعاتي...

وجاء جمال الدين الأفغاني الى مصر.. واتصل به النديم... وأصبح من تلاميذه المقربين... وأعجب به الأفغاني... واخذ يلقنه الآراء والمبادىء التي يؤمن بها ويدعو اليها. وكان لاتصال النديم بالأفغاني اكبر الأثر في حياته بعد ذلك... غضب عليه خليل آغا كبير اغوات القصر العالي، وكان صاحب نفوذ كبير، فأمر بجلده بالسياط وطرده من عمله بالقصر... اتخذ دكانا لبيع الخردوات في طنطا جعله ندوة للأدباء والشعراء فانتهى أمره الى الافلاس.. سمع بأمره شاهين كنج باشا مفتش الوجه البحرى فاستدعاه واعجب به واكرمه واتخذه نديما.

وفي طنطا برزت مواهبه، ففي مجلس شاهين باشا ظهر تفوقه على من كان يحضرها من الأدباء والشعراء.... وفي مجلس شاهين باشا تعرف النديم على تتونجي بك وكان من الحاشية الخديوية، فأعجب به وعينه وكيلا لدائرته فهيأت له هذه الوظيفة التردد على القاهرة وهو آمن من اذى خليل أغا.

وفي القاهرة عاد الى مجلس أستاذه جمال الدين الأفغاني فوجده أكثر ثورية في احاديثه... وانضم الى المحفل الماسوني الذي أنشأه السيد جمال الدين. ووجهه الأفغاني الى الاسكندرية ليكون رسول دعوته بها وليساعده في تحرير الصحف التي يصدرها المحفل في الثغر... ومنذ ذلك التاريخ بدأ الكفاح الحقيقي لعبد الله النديم وترك خلف ظهره حياته الماضية... **فانضم الى جمعية مصر الفتاة السرية**... واتصل بأديب اسحق محرر جريدة التجارة وأخذ ينشر المقالات فيها وفي جريدة مصر. وحاول النديم اقناع اعضاء جمعية مصر الفتاة بتحويلها الى جمعية علنية تعمل للاصلاح في وضح النهار... فلما فشل في محاولته انفصل عنها وكون أول جمعية مصرية في ابريل ١٨٧٩ وهي الجمعية الخيرية الاسلامية التي انشأت مدرسة للتعليم... وعين النديم مديرا لها... وبعد شهرين من انشاء الجمعية الخيرية الاسلامية أجبر الخديوي اسماعيل على التنازل لابنه توفيق، وظن النديم كما اعتقد الناس ان الخديوي توفيق سوف يفي بالوعود.. ولكنه لم يلبث أن تنكر لوعوده.

وقع النزاع بين الخديوي توفيق ورئيس وزرائه رياض باشا على السلطة، وتسابقا في التقرب الى السلطة الأجنبية... واستغل النديم الفرصة ليحتمي بالخديوي من بطش رياض... فأصدر صحيفة سماها «التبكيت والتنكيت»... ثم أخذ النديم يتطرق في مقالاته الى السياسة... بل اخذ يتنقل في البلاد ويخطب في المساجد... وفي خلال ذلك كان احمد عرابي يمهد للثورة... فاتصلوا به... وضموه سرا اليهم... ليصبح أول عضو مدني ينضم الى منظمة الجيش... وانطلق

عبد الله النديم ينقد في صراحة وجرأة تصرفات حكومة رياض وتصرفات الخديوي. وبتوجيه من عبد الله النديم كتب عرابي منشورا يعلن فيه ان رجال الجيش يطالبون باسقاط وزارة رياض....

ثم كانت مظاهرة عرابي العسكرية في ميدان عابدين، وكان عبد الله النديم هو المدني الوحيد الذي اشترك في الزحف... وأذعن الخديوي... عاد رجال الجيش الثائرون الى معسكراتهم... ورافق النديم عرابي في سفره... وحسبنا أن نذكر ان الثورة فشلت وانتهت بالهزيمة والاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢ وكان النديم خلال تلك الحرب حركة لا تهدأ... وهزمت جيوش عرابي ... فحاول كثيرون من زعماء الحركة التنصل من تبعاتها... ولكن عبد الله النديم لم يستسلم وآثر الاختفاء... وطال اختفاؤه عشر سنوات... ولكن هذا الاختفاء كان نعمة عليه، فقد أتيح له فراغ كبير فشغل نفسه بالكتابة والتأليف...

وعندما دب الخلاف بين زعماء الثورة في المنفى... وتراشقوا بالتهم، وعلمت بأمره صحف الاستعمار أخذت تهاجمهم وتتهمهم بأنهم لم يستهدفوا بثورتهم مصلحة الوطن وانما ارادوا تحقيق اطماعهم الشخصية، انزعج النديم واستولى عليه الحزن... قبض على النديم... ونقل الى السلطة... وانتهى الأمر بالعفو عنه مع نفيه من مصر.

توفي الخديوي توفيق ليخلفه ابنه عباس فعفا عنه وسمح له بالعودة الى مصر عام ١٨٩٢... وكانت عودته مشروطة بعدم اشتغاله بالسياسة، فاتجه الى الشباب.. ثم أصدر النديم مجلة الأستاذ... حتى اصبحت منافساً خطرا لجريدة المقطم التي كانت تحظى برعاية السلطات الانجليزية والمصرية... ثم اخذ ينقد السياسة البريطانية في مصر والهند بصراحة وجرأة، فطلب اللورد كرومر نفيه من البلاد فأجيب طلبه، و... وخرج النديم الى يافا... ثم الى الآستانة حيث أمر السلطان عبد الحميد بتعيينه مفتشا للمطبوعات بالباب العالي... ودخل القفص الذهبي مع أستاذه القديم... ولكن هذه الحياة لم تطل فقد أصيب

بالسل ومات ١٨٩٦ »[١].

ومن كتاب زعماء الاصلاح في العصر الحديث نقتطف ما يلي: «رأى جمعية سرية تسمى مصر الفتاة فدخل فيها، واشتغل في الصحافة مع أديب اسحق وسليم نقاش، وقد غلط مرة فعاقبه خليل آغا بالجلد، . . . وساعده على نجاحه في الاستخفاء من السلطة أمور منها: . . . استعان برجل من الفرنسيين يعرفه ويثق به، فأشاع أن النديم هرب إلى ليفورنو في ايطاليا. . . خاصم أبا الهدى الصيادي وألف فيه كتاباً سماه (المسامير) وهو كتاب لا يشرف الصيادي ولا عبد الله النديم، لأنه استعمل فيه أسلوباً وضيعاً، وبلغ أبو الهدى أمر هذا الكتاب المخطوط، فأبلغ السلطان عبد الحميد أن فيه أيضاً هجاء له فبحث عنه واستطاع (جورج كوتش) الذي كان متصلاً بالسيد جمال الدين والنديم أن يخفيه ويفر به إلى مصر»[٢].

ونضيف المعلومات الآتية من كتاب الأعلام للزركلي: «اسمه الكامل: عبد الله بن مصباح بن ابراهيم الادريسي الحسني، يتصل نسبه بالحسن السبط، كتب مقالات في جريدتي (المحروسة) و(العصر الجديد)، أصدر جريدة الطائف بدلاً من التبكيت والتنكيت. نسب إليه كتاب (المسامير ـ ط) في هجاء أبي الهدى الصيادي».

وفي أعلام الصحافة: «وكانت صحيفته (وهي التبكيت والتنكيت) على ود متصل بصحيفة الجنان لبطرس البستاني وأيد الصفيان هذا الود في تبادل المقالات بين الصحيفتين»[٣].

ويقول طرّازي معرفاً بصحيفة (التبكيت والتنكيت): إنها كانت مع رصيفاتها (المفيد) و(الفسطاط) و(الطائف) ينبوع الفتنة الأهلية ومصدر الثورة العسكّرية بشهادة كثيرين من عقلاء الأمة المصرية»[٤].

---

(١) الخطباء للجندي. من: ١٣١ ـ ١٥٦).

(٢) زعماء الاصلاح في العصر الحديث ص: ٢٠٢ ـ ٢٤٩.

(٣) اعلام الصحافة : ابراهيم عبده ١٢٦.

(٤) طرازي ٣/٩٢. (تاريخ الصحافة العربية).

٧ ـ سليم عنحوري (١٢٧٢ ـ ١٣٥٢ هـ و١٨٥٦ ـ ١٩٣٣ م):

من كتاب الأعلام للزركلي ننقل ترجمة سليم في ما يأتي: «سليم بن روفائيل بن جرجس عنحوري: أديب، من الشعراء. من أعضاء المجمع العلمي العربي، مولده ووفاته في دمشق. تقلد بعض الوظائف في صباه وزار مصر سنة ١٨٧٨ م فتعرف إلى السيد جمال الدين الأفغاني، واتصل بالخديوي اسماعيل، وأنشأ مطبعة الاتحاد وصحيفة (مرآة الشرق) ولم يلبث أن أقفلها. وعاد إلى دمشق فتولى أعمالاً كتابية وأكثر من مطالعة كتب الحقوق، واحترف المحاماة حوالي سنة ١٨٩٠ ثم كان يقضي فصل الشتاء من أكثر الأعوام في القاهرة، وأصدر فيها مجلة (الشتاء) وكان كثير النظم قليل النوم ، أخبرني بدمشق سنة ١٩١٢ أنه منذ أكثر من ثلاثين عاماً لم ينم أكثر من ثلاث ساعات في اليوم ، تتناوب بناته السهر معه ، يخدمنه ويكتبن ما يملي من نظم وغيره ، له كتب ودواوين . . . » . وفي رواد النهضة الحديثة ١٢٧ كلمة موجزة عنه) . وورد في معجم المؤلفين : « أنشأ مجلة الشفاء بالقاهرة ومرآة الأخلاق ، وآخر منصب تولاه الادعاء العام لدى محكمة التمييز السورية .

وقال الجندي: «كان واحداً من أولياء جمال الدين الأفغاني، ثم أصبح من أولياء الحكومة التي جاءت بعد ثورة ١٨٨٢ م، ونظم قصيدة في مدح بريطانيا»(١).

يقول سركيس في معجمه: «سحر هاروت: مجموعة أدبية من الشعر في الغزل والنسب والتشبيب والأوصاف. . .». ص: ١٣٨٩.

فهو على كل حال نصراني صحافي شاعر من النوع السفيف المتدني، كما انه حليف الانجليز وكان موالياً لهم.

ومع ذلك لم تخل كتاباته من ذكر حقائق عن الأفغاني لم يذكرها غيره منها أن الأفغاني كان يتعاطى نوعاً من المسكر، وقد أنكر عليه محمد عبده ذكر ذلك ولكنه اعتذر بأنه استبق الحوادث وقال شيئاً قبل أوانه ولكن لم يتنصل من قوله.

---

(١) تطور الصحافة للجندي ٣٣٢.

٨ ـ سليم النقاش (. . . ـ ١٣٠١ هـ و . . . ـ ١٨٨٤ م) :

ورد في معجم المؤلفين : «سليم بن خليل النقاش، البيروتي. كاتب مؤرخ، صحافي، سكن الاسكندرية وأنشأ بها جريدة (المحروسة). من آثاره : مصر للمصريين أرخ فيه الحوادث العرابية في تسع مجلدات.

وفي تاريخ أدب اللغة ورد ما يأتي مختصراً : «هو صديق أديب اسحق ورفيقه وابن أخي مارون نقاش ناقل فن التمثيل العربي، وآل النقاش بيت علم وأدب وصحافة، كان سليم كاتباً أديباً اشترك مع أديب في تحرير الجرائد التي أنشأها بمصر والاسكندرية، لا سيما (العصر الجديد والمحروسة والتجارة) وكان يصح وضعه مع رجال الصحافة ولكننا وضعناه بين المؤرخين لكتابه النفيس (مصر للمصريين) أرخ فيه الأحداث العرابية في تسعة مجلدات. . . والكتاب كله يدخل في نحو ٣٠٠٠ صفحة لم يصدر فيه إلا الأجزاء الستة الأخيرة من الرابع حتى التاسع عام ١٨٨٤ أما الثلاثة الأولى فبعد أن شرع في طبعها أوقفته الحكومة لأنها وجدت في ترجمة محمد علي واسماعيل ما يجب حذفه، ولا نعلم أين هي الأجزاء المذكورة. . . »[١].

أما اتجاه جريدة المحروسة فيحدثنا طرازي عن ذلك فيقول : «وقد اشتهرت (أي المحروسة) حينئذ بمناظراتها مع صحيفة الأهرام لأن المحروسة كان شعارها (مصر للمصريين) وكانت الأهرام تدافع عن مصر ومحاسن الحكومة الفرنسية»[٢].

وورد في معجم المطبوعات : «سليم نقاش شقيق مارون ونقولا نقاش ثم يذكر الأخوان إلى أن قال : «مارون بن الياس مؤسس فن التمثيل في اللغة العربية» (ص ١٨٦٧).

فسليم نقاش إن لم يكن تلميذاً للأفغاني فهو صديقه ووليه، يقول الشيخ رشيد رضا : «وصار له ـ أي الأفغاني ـ أصدقاء وأولياء» ثم أخذ

---

(١) تاريخ الآداب للزيدان ٤/٢٥٩. (جرجي زيدان).

(٢) تاريخ الصحافة العربية ٣/٥٧.

يعدد هؤلاء إلى أن يذكر سليم نقاش وأديب اسحق والنديم وغيرهم»[١].

وشكيب ارسلان يعده من تلاميذه، فبعد ذكر التفاف الناس حوله واتخاذ تلاميذ له يقول: «اشتهر منهم الشيخ محمد عبده و. . . و. . .» ثم أخذ يعددهم إلى أن قال «وأديب اسحق وسليم نقاش وسعيد البستاني»[٢]. وكلهم نصارى.

ولكن سليم نقاش ورفاقه الصحافيين السوريين أمثال سليم عنحوري وأديب اسحق تحولوا بعد جمال الدين من التبعية الفرنسية إلى التبعية الانجليزية.

يقول الأستاذ أنور الجندي: «وكان حول جمال الدين مجموعة من الصحفيين السوريين: أمثال أديب اسحاق وسليم عنحوري وسليم نقاش. . . وأغلب هؤلاء قد تحول من بعده وانضوى تحت لواء النفوذ الاستعماري»[٣].

وكان سليم نقاش من أعضاء جمعية مصر الفتاة التي أنشأها جمال الدين الأفغاني في الاسكندرية، والتي كان أغلب أعضائها من شبان اليهود، بل ويعتبر سليم نقاش من المحرضين على ثورة عرابي الفاشلة، وكان للماسونية الدور الكبير في هذه الجمعية وفي هذه الثورة»[٤].

٩ ــ حنين نعمة الله الخوري المتوفي عام ١٨٨٩: وقد ترجم كتاباً تاريخياً هو «تاريخ تمدن الممالك الأوروبية» للسياسي الفرنسي جيزو. وحنين هذا هو أحد أعضاء الجمعية العلمية السورية ومن كتاب مجلتي «الجنان» و«المقتطف»، ويعتبر من تلاميذ جمال الدين المقربين وكان محمد عبده الذي قرظ الكتاب المذكور وأورد رأي جمال الدين الأفغاني فيه، يقرأه مع تلاميذه من الأزهريين الذين كانوا يجتمعون به في بيته، ولعل دراسة

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ١/٤٦.
(٢) حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٩١.
(٣) تطور الصحافة للجندي ص ٢٣.
(٤) الفكر العربي في مائة سنة ٧٣.

هذا الكتاب تكشف عن ملمح من ملامح الفكر السياسي الذي كان يبشر به جمال الدين وبطانته»[1].

ولعل الجمعية العلمية السورية هي نواة الجمعيات القومية التي نشأت في عهد عبد الحميد وفيها تدرب حنين الخوري الذي لجأ إلى مصر وانضم إلى حركة جمال الدين، وترجم باشارة منه كتاب «تاريخ تمدن الممالك الأوروبية» لجيزو[2].

١٠ ــ **ابراهيم الهلباوي**: يقول تشارلز آدمز:

«كان نقيباً للمحامين في مصر، وهو خطيب مفوه، أبدى من المقدرة أيام كان تلميذاً لجمال ما جعل محمد عبده يختاره ليعاونه في تحرير الوقائع المصرية التي كان يحرر فيها سعد زغلول فكان حينئذ مجاوراً صغير السن.

وأخذ الهلباوي بعد ذلك يعمل بنشاط كبير في الجمعية الخيرية الاسلامية. وكان الهلباوي صديقاً لقاسم بك أمين، ولما نشر هذا كتبه التي جعلته يعد نصير المرأة المدافع عن حقوقها، كان الهلباوي من تلك الفئة القليلة التي آزرته في الدفاع عن تلك القضية التي لم يعهدها المصريون من قبل، وواصل الهلباوي كفاحه في هذا السبيل حتى رأى بعينه أن الرأي العام قد تغير في هذه المسألة[3].

١١ ــ ومن تلاميذه المخلصين ابن اخته **الميرزا لطف الله خان** صاحب كتاب (جمال الدين الأسد آبادي) الذي ألفه بالفارسية ثم نشره من بعده ولده صفات الله بالفارسية أيضاً إلى أن قيض الله لهذا الكتاب القيم الأستاذ الدكتور عبد المنعم محمد حسنين فترجمه إلى العربية وعلق عليه وهو خير كتاب نشر حتى الآن في اثبات ايرانية جمال الدين الأفغاني.

---

(١) الفكر العربي في مائة سنة ٥٧.

(٢) المرجع السابق ٧٤.

(٣) الاسلام والتجديد ــ تشارلز ٢٠٢.

وقد بين صفات الله في مقدمة الكتاب أن والده كان تلميذاً ملازماً لجمال الدين إذ يقول: «وكان المرحوم ميرزا لطف الله خان يعد من زمرة الأحرار المثقفين، وكانت مقالاته القيمة التي تحمل أدبه الرفيع تنشر في جرائد العاصمة، وكان من الذين استقوا من فيض فيلسوف المشرق حضرة السيد جمال الدين الأسد آبادي المعروف بالأفغاني وكان ملازماً له في أثناء زيارته لعاصمة ايران، فاستفاد من فيوضاته المعنوية ومكارم أخلاقه الذاتية وكان يلازمه ملازمة الظل حتى يغادر ايران.

وهو الذي كان ينسخ مقالات السيد التي كتبها بالفارسية وفضلاً عن كونه ابن أخته، فقد كانت تربطه بالسيد صلة معنوية أخرى، وتشهد بذلك القصائد والمثنويات التي نظمها في حقه، كما كان السيد يحب المرحوم والدي حباً خاصاً، فكان كثيراً ما يظهر عطفه عليه أمام الرفيع والوضيع»[1].

وبعد هذه المقدمة نشر نص رسالة مرسلة من جمال الدين من باريس إلى ميرزا لطف الله مخاطباً اياه بقوله (قرة عيني ميرزا لطف الله...) ويقول في آخرها: (وقد ذكرتَ أنك تريد السفر إلى باريس لزيارتي وان كنت تريد زيارتي فعليك بطاعتي، وليس الوقت الآن مناسباً للسفر، وسوف أفكر في دعوتك في الوقت المناسب، فإذا خالفت أمري، وأتيت إلى هنا فإني أقسم بالله إنك لن تراني في باريس»[2].

ثم إن جمال الدين بقي على اتصال به حتى وفاته ويدل على ذلك ما كتبه تقي زادة في مجلة (كاوه) التي تطبع في برلين العدد الثالث في الصفحة العاشرة ما يلي: «يروي أحد المعارف الذي كان مقيماً مع السيد في أثناء وجوده في طهران، وممن اتصلوا به عدة مرات في روسيا، أن شاباً ايرانياً عرف فيما بعد أنه ابن اخته كان معه في أثناء سفره الأول إلى طهران، وكان مع السيد بعض صناديق بها كتب عربية، فأرسلها بواسطة هذا الشاب إلى همذان[3]»، ويعقب صاحب مطبعة ايران شهر كاظم زادة

(١) جمال الدين الأسد آبادي ٤٦

(٢) جمال الدين الأسد آبادي ــ ٤٧.

(٣) جمال الدين الأسد آبادي ــ ٤٩.

ايرانشهر على هذا فيقول: «وهذا الشاب هو ـ بلا شك ـ ميرزا لطف الله خان بالذات، لأنه هو نفسه يذكر في هذا الكتاب أن السيد ترك كتبه في بضعة صناديق بواسطته أمانة في دار الحاج أمين الضرب»[١].

ويظهر من المقدمة التي كتبها في تعريف الكتاب انه نشر هذا الكتاب بناء على طلب ولده صفات الله واحياء وتخليداً لمجد ايران»[٢].

أما ميرزا لطف الله خان فيحدثنا عن مقابلته الأولى لجمال الدين فيقول: «ولما علم العبد الفقير كاتب هذه السطور بدعوته ـ أي دعوة جمال الدين ـ إلى ايران عن طريق اصفهان وشيراز، عزمت على زيارته في تلك السنة وعلمت بوصوله إلى أصفهان فاستدعاني ظل السلطان واستفسر مني عن بعض المعلومات ثم سافرت من اصفهان بعد ستة أيام إلى طهران للتشرف بزيارته، واتفق إن كان الشاه ناصر الدين قد استدعى ذلك الفيلسوف الأعظم للاسلام يوم قدومي إلى طهران، فحظيت في عصر ذلك اليوم بزيارته وقبلت يده، وكنت أستفيد من حضرته دائماً حتى اليوم الذي سافرت فيه إلى أوروبا»[٣].

١٢ ـ **محمد المخزومي**: أورد ترجمته الزركلي في الأعلام وهي كما يلي: «محمد باشا بن حسن سلطان المخزومي: كاتب من أعيان بيروت، تعلم بها وبمصر، وأنشأ في القاهرة مجلة (الرياض المصرية) نصف شهرية (سنة ١٨٨٨) مشاركاً لخاله عبد الرحمن الحوت، وكان المخزومي يكتب أكثر مقالاتها، وعاشت نيفاً وسنة، وسافر إلى أوروبا ثم أقام في الآستانة، فكان من أعضاء مجلس المعارف ومن مدرسي المكتب الشاهاني (المدرسة الملكية) وأصدر فيها جريدة (البيان) مدة قصيرة، وعطلتها الحكومة، وثلاثة أعداد من جريدة (المساواة) بعد اعلان الدستور العثماني، وعين مفتشاً ملكياً مدة يسيرة. وتوفي فيها. له (خاطرات جمال الدين) جمع فيه طائفة حسنة من آراء السيد جمال الدين وأقواله».

---

(١) جمال الدين الأسد آبادي ـ ٤٩

(٢) المرجع السابق ـ ٥٠.

(٣) جمال الدين الأسد آبادي ـ ٩٢

وقال الأستاذ الجندي: «وقد رافق جمال الدين خمسة أعوام منذ عام ١٨٩٢ ـ ١٨٩٧ م»[1].

١٣ ـ **برهان الدين البلخي**: وكان من جملة تلاميذ جمال الدين في الآستانة ويعطينا صورة عن ترجمته الكاتب حسين خان دانش فيقول: «برهان الدين البلخي هذا يعد من تقاة الدراويش ومن نبلاء السادة الجديرين بالتكريم»[2]. ثم يصف صحبته لجمال الدين فيقول: «وكان السيد برهان الدين يتردد على الشيخ جمال الدين كباقي زواره ـ بمنزله في دار ضيافة السلطان عبد الحميد..»[3] ثم يصف اتجاهاته وميوله فيقول: «البلخي لم يكن سوى درويش شرقي السيرة وشاعر رقيق التعبير، لم يتتبع العلوم والسياسات الغربية، فإن مقالات السيد جمال الدين العلمية أو خطبه السياسية أو كلماته الحماسية الثورية لم يكن لها من التأثير فيه والنفوذ عليه، أكثر مما يكون للخطب الدينية التي يلقيها مرشد متصوف زاهد عارف معتكف في زاوية من سماطة للغني والفقير...». إلى أن يقول: (والشيخ برهان الدين هذا هو نجل السيد سليمان البلخي مؤلف كتاب «ينابيع المودة». وهذا الكتاب يبحث في حقيقته مذهب التشيع وأحقيته، مستدلاً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وقد طبع في الآستانة»[4].

ومما يثبت تلمذته على جمال الدين قول الميرزا لطف الله خان: «ومن جملة الأشخاص الذين يحضرون دوماً مجالس السيد بالآستانة... السيد برهان الدين البلخي»[5].

---

(١) أعلام واصحاب اقلام ـ ١٢٤.
(٢) جمال الدين الأسد آبادي ـ ٢٠١.
(٣) المرجع السابق ـ ٢٠١.
(٤) المرجع السابق ٢٠١ ـ ٢٠٣.
(٥) جمال الدين الأسد آبادي ١٥٤.

(المطلب الثاني) :

خصوم جمال الدين الأفغاني

تمهيد :

لقد امضى جمال الدين شطرا من حياته السياسية، في صراع مع الحكام والعلماء، كما انه عاصر فئة من المخلصين الغيورين على دينهم، لذا كان له اعداء من كل منهما، كان اشد خصومه هؤلاء العلماء المخلصين.

أما الحكام والسلاطين، فكانت عداوتهم له سياسية محضة، وقد استعرضت معظم هؤلاء الحكام وسبب خصومتهم له.

بقي علينا أن نعرف من هم خصومه من علماء المسلمين، ثم ما هي أسباب العداء الذي لم ينته حتى بعد ممات جمال الدين الأفغاني؟

بعد أن عرفنا تلاميذه على سبيل الاجمال، وعرفنا سيرتهم في حياته وبعد وفاته، لا بد أننا لاحظنا أن تلاميذه كانوا من جملة الأسباب الكثيرة التي فتحت باب الهجوم والنقد على جمال الدين. لأن هؤلاء التلاميذ كانوا صورة سيئة، في معظم تصرفاتهم، لدعوة جمال الدين الأفغاني، بل ان بعضهم فضح خفايا جمال الدين وأهدافه القريبة والبعيدة.

لذا سأخصص هذا المطلب لدراسة ترجمة خصومه، ومعرفة مالهم وما عليهم، بما ورد عن الثقات المعاصرين ومن جاء بعدهم وعرف مكانتهم، فنحكم من خلال هذه الدراسة على دعوة جمال الدين وعلى مكانته في الاسلام.

١ــ أبو الهدى الصيادي :

كان أبو الهدى الصيادي من أشد الخصوم وطأة على جمال الدين الأفغاني، ومن أكثرهم نقدا.

وكان تلاميذ الأفغاني، يصفون أبا الهدى بأقذع الصفات وينسبون اليه أقبح الأعمال، وما ذاك الا لأنه أعلن العداء على شيخهم.

وأول ما أبدأ به هو ان أنقل ما جاء في كتاب الأعلام للزركلي اذ يقول: « محمدبن حسن وادي بن علي بن خزام الصيادي الرفاعي الحسيني. أبو الهدى أشهر علماء الدين في عصره. ولد في خان شيخون (من أعمال المعرة) وتعلم بحلب، وولي نقابة الأشراف ، ثم سكن الآستانة واتصل بالسلطان عبد الحميد الثاني العثماني، فقلده مشيخة المشايخ.

وحظي عنده فكان من كبار ثقاته. واستمر في خدمته زهاء ثلاثين سنة ولما خلع عبد الحميد نفي ابو الهدى الىجزيرة الأمراء في (رنكيبو) فمات هناك.

كان من أذكى الناس، وله المام بالعلوم الاسلامية، ومعرفة بالأدب وظرف وتصوف، صنف كتبا كثيرة أشك في نسبتها اليه فلعله يشير بالبحث أو يملي جانبا منه فيكتب له أحد العلماء ممن كانوا لا يفارقون مجلسه، وكانت له الكلمة العليا عند عبد الحميد في نصب القضاة والمفتين.

فمن كتبه: (ضوء الشمس في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : بني الاسلام على خمس).

وله شعر ربما كان بعضه أو أكثر منه لغيره، جمع في ديوانين مطبوعين. ولشعراء عصره أماديح كثيرة فيه، وهجاه بعضهم».

وجاء في كتاب حلية البشر : « هو قطب مدار الفضائل، ومجمع اثنى الشمائل، مصباح ذوي العرفان الحسيب والنسيب..» ويستمر المؤلف على هذا المنوال في المدح والثناء ثم يقول: « هذا واني بحمد الله لد اجتمعت بهذا المترجم الفريد حينما تشرفت به دمشق الشام».

ثم يذكر فراقه وتمني اللقاء به ثانية الى أن يقول: « واني لأرجو من واهب العطية أن يمتع بصري برؤية حضرته على أحسن حال قبل حلول المنية».

ثم يبدأ بترجمته من منشئه الى وفاته فيقول: « تشرف بلبس الخرقة والخلافة الرفاعية عن يد والده.. ، وله اجازتان أيضا بطريقتهم... ، الأولى من شيخه وابن عمه الشيخ علي خير الله الرفاعي الصيادي، شيخ المشايخ بحلب الشهباء، والثانية من حضرة شيخه الشيخ محمد بهاء الدين مهدي الشيوخي الصيادي الرواس ببغداد... ، وعاد منها ليصبح نقيب أشراف جسر الشغور ثم نقابة الأشراف بحلب الشهباء»(١).

والمقصود من الخرقة التي وردت في هذه الترجمة المبايعة بمشيخة الطريقة، حيث ان الصيادي كان من كبار الصوفية، وكانت الصوفية في ذلك العهد على صفائها ونقائها.

أما ما ورد في معجم المؤلفين لكحالة ، فنأتي ببعضه، مع التنبيه الى أن ما ترك انما ترك لوروده في كتاب الزركلي:

يقول : « أبو الهدى صوفي من أهل الطرق، مشارك في العلوم الاسلامية والأدبية» ثم أتم ترجمته الى أن قال: « ومن تصانيفه ... (الحقيقة الباهرة في أسرار الشريعة الطاهرة) و(روض البسام في أشهر البطون القرشية بالشام)، فهذه الكتب ذكرها بالاضافة الى الكتب التي ذكرها الزركلي.

وعلاوة على ذلك يقول الدكتور محمد عمارة في وصفه: « أما الرجل، فهو خير عربي صحب السلطان، وقد درأ شرًا، واستدر ما استطاع من الخير لقومه.

وفي الرجل هزة هاشمية، وخلق كريم، وهمم وشمم، لا ينبغي أن يناله طعن الطاعنين، ولا أدل على فضل الرجل من قياسه مع غيره

(١) حلية البشر ١/٧٢.

من العرب الذين انسلوا الى السلطان، ودخلوا في خدمته، وبضدها تتميز الأشياء...»[1].

وهذا التقديم من الدكتور محمد عمارة يعتبر غريبـا، لأنه من مدرسة الأفغاني والمداحين له.

ثم ان السلطان عبد الحميد ما وضعه في هذا المنصب الا لأنه يعرف مكانته في قلوب العرب، ومن سياسته التقرب لهم وللمسلمين عامة لأن حكمه لا يقوم ساعة واحدة اذا أغضب جمهور المسلمين، وقد ثبت ذلك في مذكراته فقال عنه: « الصيادي الحلبي، الذي كان يلقي الاحترام في كل البلاد العربية»[2].

ويقول في موضع آخر: « الرجل الذي أثق به»[3]. فهل يثق السلطان عبد الحميد في رجل زائغ أو منحرف؟ وما ذاك الا لمكانته عند عموم المسلمين.

أما بدء الخلاف بين الأفغاني وأبي الهدى، فيرجع تاريخه الى ذلك اللقاء الذي حصل بين خديوي مصر عباس حلمي وجمال الدين الأفغاني في حديقة من حدائق القصر الذي كان ينزل فيه جمال الدين، ونقل عنه أنه يسعى لاقامة الخديوي خليفة بدلا من السلطان عبد الحميد»[4].

هذا رأي الدكتور احمد امين ولكن ربما يكون هناك حوادث أخرى سبقت ذلك، سببت هذا النزاع والخصام، ويظهر أن تغير أبو الهدى بدأ منذ أن رأى وسمع من الأفغاني أشياء مريبة، كتساهله في عباراته التي يشتم منها رائحة المروق، أو تسرعه في القاء الأحكام على أمـور لا يرضاها الشرع قد تودي بقائلها الى الهاوية. لذا يروي الشيخ عبد القادر المغربي واقعة وهي: « سمعت شيخنا حسن الطرابلسي مؤلف (الرسالة الحميدية) يقول: (انه كان في مجلس الشيخ أبي الهدى بالآستانة، فحدث

(١) الأعمال الكاملة ٥٣٨.

(٢) مذكرت ــ ٦٨. (مذكرات السلطان عبد الحميد).

(٣) مذكرات ــ ٦٩. (مذكرات السلطان عبد الحميد)

(٣) مذكرات ــ ٦٩ . (مذكرات السلطان عبد الحميد).

(٤) زعماء الاصلاح ١١٠.

أحد الجلساء عن بعض علماء أوروبا المستشرقين وقال: « ان هذا المستشرق عمد الى القرآن فرتب آياته بحسب معانيها وموضوعاتها فصولا لصولا، فجمع في فصل الآيات المتعلقة باليهود مثلا، وفي فصل آخر الآيات المتعلقة بالنصارى، وفي فصل آيات الطلاق، آيات الميراث، آيات الجنة، آيات النار، . . . وهكذا. وروى المحدث هذا الخبر عن لسان السيد جمال الدين الأفغاني، قال وقد استحسن الأفغاني هذا الصنيع من المستشرق ولم ينكره. قال شيخنا الجسر (وهو حسين الجسر من شيوخ لبنان) فغضب أبو الهدى الصيادي عند سماع هذا الحديث عن جمال الدين وقال: ان العمل كفر والرضى به كفر. وجعل يشنع على جمال الدين»(١).

ويبدو أن هذا الحادث ليس الأول من نوعه، أو أنه لم يرد على حقيقته والا فالمستشرق لم يصنع شيئا مستهجنا، وجمال الدين لم يكفر في موافقته على ذلك، ما دام الأمر لا يتعدى البحث والدراسة، ولو أن المستشرق ادعى أن القرآن هكذا يجب أن يكون لكان موافقته كفراً صريحاً، وأنا لم أعثر على حقيقة هذه الواقعة، وأظن أن الجسر الذي رواها نقلها نقلا خاطئا، علما بأن الجسر كان من المعجبين بجمال الدين الأفغاني.

وربما يكون الجواب على بدء الخلاف عند الدكتور عبد المنعم حسنين. اذ يقول: « ان خصوم جمال الدين حينما اخذوا يناوئونه ويدسون له ، لم يجدوا شيئايغمزونه منه إلا كونه ايرانيا شيعيا وأنه يكذب ويدعي أنه أفغاني سني، حتى يجد له طريقا في تركيا والأقطار الاسلامية السنية وهذا ما فعله شيخ الاسلام أبو الهدى في اسلامبول، فقد غمزه من هذه الناحية واستطاع تغيير رأي السلطان فيه»(٢) .

أما قوله بأن خصوم جمال الدين لم يجدوا شيئا يغمزونه منه الا ادعاء الايرانية، فهو خطأ فسيأتي معنا مجموع الشبهات التي تدور حول جمال الدين والتي كانوا يتمسكون بها علاوة على ادعائه الايرانية.

---

(١) جمال الدين ــ المغربي ـ ٣٨ من سلسلة اقرأ .

(٢) جمال الدين الأسد آبادي ١٩ .

وبعد أن انقلب أبو الهدى على جمال الدين لما رأى منه. بـدأ التراشق بينهمابالتهم . يقول الأستاذ ابراهيم أحمد العدوي: «زاد مركز هذا المصلح الكبير سوءاً (أي جمال الدين) حين انقلب عليه أبو الهدى الصيادي وأخذ يدس له عند السلطان، وتطور الأمر بينهما الى الغمز واللمز، فأبو الهدى الصيادي يصف جمال الدين بالمازندراني، للنيل من شهرته، وأنه ليس من أصل عربي وجمال الدين يصف أبا الهدى بالبغل المزركش»[٢].

والتحيز واضح من قبل الأستاذ العدوي الى جمال الدين، اذ أن أبا الهدى لم يطعن بجمال الدين لأنه ليس عربياً، وحتى جمال الدين لم يدع أنه من أصل عربي.

هذا هو أبو الهدى الصيادي وهذه هي سيرته، فما علينا الا أن نقارن سيرته بسيرة تلاميذ الأفغاني لنرى الفرق شاسعا واسعا.

(٢) رشيد رضا الامام المجاهد ٩٧ . والبغل المزركش هو المزين بالودع وغيرها.

٢ــ الشيخ عليش:

جاء في الأعلام للزركلي ما يلي:

الشيخ عليش ١٢١٧-١٢٩٩هـ: محمد بن احمد بن محمد عليش أبو عبد الله فقيه، من أعيان المالكية. مغربي الأصل، من أهل طرابلس الغرب، ولد بالقاهرة وتعلم بالأزهر وولي مشيخة المالكية فيه. ولما كانت ثورة عرابي باشا اتهم بموالاتها. فأخذ من داره، وهو مريض، محمولا لاحراك به، وألقي في سجن المستشفى، فتوفي فيه بالقاهرة.

من تصانيفه (فتح العلي المالك في الفتوى عى مذهب الامام مالك) جزآن، وهو مجموع فتاويه. و (فتح الجليل على مختصر خليل) أربعة أجزاء في فقه المالكية، و(هداية السالك) حاشية على الشرح الصغير للدردير، جزآن، فقه. و(حاشية على رسالة الصبان) في البلاغة و(تدريب المبتدي وتذكرة المنتهي) في الفرائض. و(القول المنجي) حاشية على مولد البرزنجي. و(شرح العقائد الكبرى للسنوسي). و(موصل الطلاب) في النحو».

وفي معجم المؤلفين: «محمد بن احمد عليش المالكي، الأزهري، (أبو عبد الله) فقيه، متكلم نحوي صوفي، بياني، فرضي، منطقي، أصله من طرابلس الغرب وولد بالقاهرة في رجب، وتعلم في الأزهر، وولي مشيخة المالكية فيه، واتهم بموالاة ثورة عرابي، فأخذ من داره وهو مريض، وألقي في سجن المستشفى، فتوفى فيه بالقاهرة في ٩ ذي الحجة.

من تصانيفة: حاشية على شرح شيخ الاسلام علي ايساغوجي في المنطق هداية السالك في فروع الفقه المالكي، تذكرة المنتهى في فرائض المذاهب الأربعة، حاشية علي رسالة الصبان البيانية في البلاغة، وهداية المريد لعقيدة أهل التوحيد».

وورد في كتاب مرآة العصر ما يأتي:

(الشيخ محمد عليش شيخ السادة المالكية: . . . أخذ العلم عن

العلماء والأساتذة المشاهير كالشيخ محمد الأمير الصغير، والشيخ عبد الجواد الشباسي . . .

نبغ على يديه الكثيرون من العلماء الأجلاء، منهم الشيخ الانبابي شيخ الجامع الأزهر سابقا، والشيخ الشربيني وغيرهما.

وكان في معظم أيام حياته، مواظبا على قراءة الحديث لمن في الحلقة من تلاميذه في المسجد الحسيني.

وكثيرا ما أنكر من الأمور باطلها، وشدد النكير على من يقربها أو يشارك فيها، حتى أنه صرح بالتفنيد والتنديد على العلماء الذين يحضرون ليالي الأفراح، ويشيعون الجنائز لما يكون في تلك المشاهد من الأمور المحظورة في حكم الشرع الشريف.

ودرسه في الجامع كان يجمع مالم يجمعه درس شيخ غيره، فكان عدد من يداوم الحضور في حلقته يبلغ المائتين من الطالبين، عدا عن الذين يأتون لالتقاط درر فوائده مدة بعد مدة»[١].

وكان الدكتور محمد محمد حسين يصفه بشدة تمسكه بدينه وغيرته عليه فيقول: «الشيخ عُليش : عالم من علماء الأزهر، مغربي الأصل مشهور بتدينه، وشدة غيرته على الاسلام»[٢].

أما الشيخ عبدالقادر المغربي فيذكر سبب خصومته لجمال الدين واتباعه وانه كان لا يرضى أن يدنس الأزهر عابث، فكان يستعمل يده في ازالة المنكر.

يقول الشيخ عبد القادر المغربي: «والشيخ عليش هذا، شيخ مغربي من علماء الأزهر ، اشتهر بالتقوى والصلاح والتشدد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وله حكايات جمة في شدته على السيد الأفغاني وتلاميذه، وخاصة على الشيخ حسن الطويل (أحد علماء الأزهر المتخصصين في الفلسفة وتعليمها) فكان الشيخ عليش يهرول الى مكانهم

---

(١) مرآة العصر ١/١٩٦.

(٢) الاسلام والحضارة ٨٩ .

في زوايا الأزهر، ولا يدعهم يلوثون بقاع الأزهر الطاهر بالكفر والزندقة»[١].

أما الدكتور احمد امين فقد جعل ذلك سوء فهم من الشيخ عليش، فهو يفهم الألفاظ على ظاهرها ولا يتعمق في المعنى فيتهم الناس بالكفر من أجل ذلك، يقول الدكتور احمد امين: «كان الشيخ عليش يسمع بأقواله (أي جمال الدين) التي ظاهرها الالحاد والمروق، فكان يتهمه بالالحاد من أجل ذلك»[٢].

ويقول في موضع آخر: «ان الشيخ عليش كان من أصل مغربي وكانت شهرته في تدينه وتعصبه ورميه الناس بالكفر لأوهى الأسباب. كذلك كان ضيق الأفق شديد الغيرة على الدين»[٣].

أما الأستاذ رشيد الدّواوي فانه يستهجن من الشيخ عليش تهجمه على الأفغاني، وأن هذا العمل من الشيخ عليش من باب الحسد للأفغاني لما له من مكانة يقول الأستاذ رشيد الدّواوي: «فان قرأت في كتب التاريخ أن ابن عرفة قد حسد ابن خلدون على اعجاب الناس به، واقبال الطلاب على دروسه، فاعلم أيضا أن الأفغاني نفسه لحقته من الشيخ عليش اهانات كثيرة»[٤].

على ما يظهر أن الأستاذ الدّواوي لا يعرف شيئا عن ورع وزهد الشيخ عليش، ثم علام يحسده وهو أعلم منه في كل شيء حتى في المنطق؟ وأغلب الظن أن الدوّادي وأمثاله سمعوا قصة الأساطين عن الشيخ عليش فراحوا يبنون عليها أحكامهم، ويزنون من خلالها أعماله؟ وقصة الأساطين يرويها الأستاذ أنور الجندي فيقول: «كتب ــ أي الشيخ محمد عبده ــ مرة مقالا في جريدة جاء فيها: (الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وأبنائه أساطين الأولين والآخرين) فوشى به

(١) المغربي ٦٧ . عن مجلة اقرأ . (جمال الدين الأفغاني للمغربي).
(٢) زعماء الاصلاح ١١٠.
(٣) المرجع نفسه ٢٨٨ .
(٤) رواد الاصلاح ــ ٧٩ .

أحدهم الى الشيخ عليش الذي كان عالما تقيا ورعا، وفسر كلمته (أساطين) بغير معناها، فقال انها جمع اسطوانة، وأن هذا كفر بالأنبياء، فغضب الشيخ عليش على محمد عبده، وقال :(اعطوني سكينا أذبح هذا الكافر). فتدخل بعضهم بالشفاعة له، فعفا عنه بعد حلق رأسه»[1].

فان صحت هذه القصة، فانها تدل على شدة غيرته على أنبياء ربه وأنه لا يرضى لأحد ان يمسهم بسوء، من قريب أو بعيد.

وخلاصة القول في الشيخ عليش، فان أصدقاءه وأعداءه شهدوا له جميعا بعلمه وصلاحه، ولم نسمع أحدا رماه بالزندقة أو الفسوق أو الضلال، فهذا نموذج من نماذج خصوم جمال الدين الأفغاني.

(١) تطور الصحافة للجندي ٣٩٦ .

٣ـ حسن فهمي افندي:

تقدم في ترجمة جمال الدين الأفغاني أنه عندما زار الآستانة لأول مرة ، وقبل دخوله مصر، تعرف على شيخ الاسلام حسن فهمي افندي، ولكن سرعان ما نشب الخلاف بينهما لما رأى من انحرافه وخروجه عن جادة الصواب.

البعض ينسب هذا الخلاف الى أمور دنيويةوالشيخ حسن بعيد عنها وبعضهم ينسب هذا الخلاف الى الحسد، وكلا الفريقين على خطأ.

يقول الشيخ رشيد رضا ان شيخ الاسلام تأثرت موارده المالية وانقطع بعض أرزاقه نتيجة أعمال واقتراحات جمال الدين التي قام بها عندما عين عضوا في المجلس الأعلى للمعارف ووضع مخططات وطرقاً اصلاحية، ومن تلك الطرق ما احفظ عليه قلب شيخ الاسلام»(١).

ويظهر أن أول من ادعى أن سبب الخلافمس رزق شيخ الاسلام هو جورجي زيدان، اذ يقول: « ان ما أشار به جمال لتعمير المعارف أساء الى شيخ الاسلام لأن بعض آرائه كانت تمس شيئا من رزقه»(٢).

غير أن أكثر المترجمين يعزون سبب الخلاف الى الخطبة التي ألقاها جمال الدين في دار الفنون عن الصناعة حيث جعل النبوة صنعة كباقي الصناعات، وقد تقدم ذكر هذه القصة في ترجمته، أما الأستاذ احمد حسن الزيات فيرجع الخلاف الى المسألتين معا فيقول: «وفي الآستانة استقبله الصدر الأعظم استقبال التجلة، وأحله اعيان الدولة محل الكرامة، ثم عين عضوا في مجلس المعارف. فرأى في التعليم رأيا، وخطب في الصناعة خطبة، أحفظا عليه أعوان الجهل ورجال العلم واخوان الضلال من شيوخ الدين، وتولى قيادة الارجاف شيخ الاسلام لحاجة في نفسه، فافترى على الرجل الأباطيل، وبث حواليه النمائم»(٣).

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ١/٣٠ .
(٢) تشارلز ــ الاسلام والتجديد ــ هامش ٩ .
(٣) وحي الرسالة ــ للزيات ٣/٦٠ .

ومن عادة جمال الدين الأفغاني ان لا يترك أحدا يهاجمه دون أن ينال منه فعندما نشب الخلاف بينه وبين أبو الهدى رماه بأقبح الألقاب فكان يلقبه بالبغل المزركش، أما الشيخ حسن فهمي افندي فكان ينسب اليه الخيانة العظمى وذلك ردا عليه عندما باداه العداء.

يقول الشيخ عبد القادر المغربي: « هذا ما كان من السيد الأفغاني مع شيخ الاسلام التركي (حسن فهمي افندي): فان شيخ الاسلام هذا كان قاوم السيد الأفغاني في الآستانة.. فليم ينس جمال الدين هذا من عمل حسن فهمي، فقال فيه كلمة عرض فيها بخيانته لوطنه تعريضا محضا.

وقد جاء ذلك في رسالة للسيد جمال الدين بعنوان (الحكومة الاستبدادية)»[1].

ثم ان المغربي يأتي بعبارة الأفغاني التي احتج بها على شيخ الاسلام في خيانته العظمى فيقول: «كان يقول (أي حسن فهمي) لعدو وطنه الجنرال أغناتيف، سفير روسيا فيها (أي في الآستانة): (انك عيني اليمنى وان حيدراً ابني عيني اليسرى)»[2].

هذه هي العبارة التي احتج بها جمال الدين الأفغاني، والتكلف والأفتراء فيها واضح ولو صح ذلك لكانت الخيانة للحكومة التركية التي سكتت عنه أولى وهي تعلم عداء روسيا للدولة ومع ذلك فان جمال الدين أخرج من تركيا وبقي الشيخ حسن فهمي، وهذا أكبر دليل على أن هذه العبارة مفتراة، وأن الرجل بريء الساحة من هذه التهمة.

---

(١) جمال الدين ــ المغربي ٦٨ . ومن سلسلة اقرأ

(٢) المرجع السابق ٦٩ . من سلسلة اقرأ.

٤ـ مصطفى صبري: ومن الأعلام الكبار الذي تنبهوا لخطره الشيخ مصطفى صبري، وقد كتب الزركلي في أعلامه:

« مصطفى صبري (١٢٧٧- ١٣٧٣ هـ / ١٨٦٠- ١٩٥٤ م).

مصطفى صبري افندي عابدين الحنفي: فقيه باحث، تركي الأصل والمولد والمنشأ، ولد في (توقاد) وتعلم بقيصرية (في الأناضول) وعين مدرسا في جامع محمد الفاتح، باستانبول وهو في الثانية والعشرين من عمره. ثم تولى مشيخة الاسلام في الدولة العثمانية. وقاوم الحركة الكمالية، بعد الحرب العالمية الأولى، وهاجر الى مصر باسرته وأولاده (سنة ١٩٢٢) فألف كتبا بالعربية ، منها (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين) أربع مجلدات، قال في مقدمته مخاطبا روح أبيه: « لو رأيتني وأنا أكافح سياسة الظلم والهدم والفسوق والمروق في مجلس النواب وفي الصحف والمجلات قبل عهد المشيخة والنيابة وبعدها ، وأدافع عن دين الأمة وآدابها وسائر مشتقاتها ، وأقضي ثلث قرن في حياة الكفاح ، معانياً في خلاله ألوان الشدائد والمصائب ، ومغادراً المال والوطن مرتين في سبيل عدم مغادرة المبادىء مع اعتقال فيها وقع بين الهجرتين ، غير محس يوماً بالندامة على ما ضحيت به في هذه السبيل من حظوظ الدنيا ومرافقها - لأوليتني اعجابك ورضاك ».

ومن كتبه بالعربية أيضا (موقف البشر تحت سلطان القدر)و(مسألة ترجمة القرآن) و(القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون) وفاته بالقاهرة»[1].

وقد أضاف الزركلي بعض المعلومات في كتابه الملحق المسمى بالمستدرك ما يلي : « يزاد في أسماء كتبه: (النكير على منكري النعمة في الدين والخلافة والأمة»[2].

---

(١) الاعلام جـ ٨ ص ١٣٧ .
(٢) الاعلام جـ ٨ ص ٢٣٨ .

وزاد الأستاذ عمر كحالة بعض الكتب التي ألفها الشيخ مصطفى صبري... توفي بالقاهرة في ٨ رجب... من مؤلفاته (قولي في المرأة ومقارنته بأقوال مقلدة الغرب)...»[١].

وقد كتب هذا الكتاب بعد انتشار السفور على اثر الدعوة التي قام بها أنصار حركة تحرير المرأة. وقد كتبت مجلة لواء الاسلام ترجمة له فقالت:

« في صبيحة السبت الثامن من شهر رجب سنة ١٣٧٣، ١٣ من مارس سنة ١٩٥٤ م نعي الى المسلمين علم من أعلام الاسلام المجاهدين، وامام من أئمة العاملين، هو المرحوم الشيخ مصطفى صبري افندي شيخ الاسلام في الدولة العثمانية، فخسرت الدوائر العلمية بفقده عالما فحلاً، وخسر المسلمون فيه سيدا عظيما.

كان ــ رحمه الله ــ شجاع القلب، قوي النفس، بعيد الهمة، صلبا في الحق، غيورا على الدين، لم تثنه المكاره عن الدفاع عن الحق، ومناضلة المبتدعين، بعلمه الغزير، وقلمه البليغ، فكتب وألف، وروي وحدث، وكان في كل ذلك الحجة الثبت، والامام الصدوق، رحمه الله رحمة واسعة، وأجزل له المثوبة والأجر العظيم »[٢].

ومن أقواله: « أما النهضة الاصلاحية المنسوبة الى الشيخ محمد عبده، فخلاصته انه زعزع الأزهر عن جموده على الدين، فقرب كثيرا من الأزهريين الى اللادينيين خطوات، ولم يقرب اللادينيين الى الدين خطوة. وهو الذي ادخل الماسونية في الأزهر بواسطة شيخه جمال الدين الأفغاني، كما انه هو الذي شجع قاسم امين على ترويج السفور في مصر»[٣].

ويقول معرضا بالشيخ محمد عبده: « فلعله وصديقه أو شيخه جمال الدين الأفغاني أرادا أن يلعبا في الاسلام دور (لوثر وكلفين) زعيمي

---

(١) معجم المؤلفين جـ ١٢ ص ٢٥٨ .

(٢) لواء الاسلام عدد شعبان ١٣٧٣ وابرايل ١٩٥٤ ص ٧٥٩ .

(٣) موقف العقل والعلم ١/١٣٤ .

البروتيستانت في المسيحية، فلم يتسن لهما الأمر لتأسيس دين حديث للمسلمين، وانما اقتصر تأثيرهما وسعيهما على مساعدة الالحاد المقنع بالنهوض والتجديد.

وكان مؤسسو البروتستانت لم يريدوا هدم المسيحية، وانما أرادوا هدم اللاعبين الأولين بها، وقد اعانهم كون المنابع الأصلية للدين المسيحي لم يحتفظ بها سليمة كما احتفظ بها في الاسلام، فأراد المتزعمان للتجديد فيه أن يضعا أئمة الفقه المجتهدين مثل الامام أبي حنيفة واخوانه في درجة الاجتهاد رضي الله عنهم وحاشاهم، موضع اللاعبين الأولين في الاسلام وتشجعا لفتح الباب إلى هدم ما قاموا به كما هدم لوثر ومساعده الكثلكة والأرثوذكس، فأسسا البروتستانت، ولكن خان القياس للشيخين أي خيانة، فأبان ما في محاولتهما من الجناية»[1].

ويعلق على انتشار صيت علي عبد الرازق صاحب كتاب (الاسلام وأصول الحكم) فيقول: «أما أستاذه ومجدده جمال الدين الأفغاني فحدث عن مركزه بمصر ولا حرج. وأنا لا أدري أحدا من النازلين بها اشتهر ودامت شهرته في ألسنة المتعلمين وأقلامهم قبل جمال الدين، حتى ان الامام الشافعي لا يعدله في التذكار ان لم يكن في الاكبار، كما أن فرعون أشهر في مصر الحاضرة من سيدناموسى وأدعى منه الى الفخر للمصريين المجددين»[2].

ويعلق على قول عبد القادر المغربي في كتابه (جمال الدين الأفغاني) مترجما عن رأيه في القرآن وهو (القرآن وحده سبب الهداية والعمدة في الدعاية. اما ما تراكم عليه وتجمع حوله من آراء الرجال واستنباطهم ونظرياتهم، فينبغي أن لا نعول عليها كوحي):

«أما قول جمال الدين (ان القرآن وحده..) فنحن نرى آراء الرجال المجددين الذين التفوا حول مدرسة هذا الزعيم الأفغاني مثل الشيخ محمد عبده وتلامذته.. نرى آراءهم التي لا تتجمع حول القرآن

(١) المرجع السابق ١/١٤٤.
(٢) المرجع السابق ١/١٥٦.

ولا تصلح أن تنضم اليه، بل تناقض نصوصه مثل افكار المعجزات والملائكة والشيطان وعدم الاعتراف بصحة قصصه كما وردت. . . أليس هي أكثر مخالفة لقضية المحافظة على وحدة القرآن مما تراكم عليه وتجمع حوله من آراء العلماء المتقدمين؟»[1].

ويقول أيضا: «ان الدين والعلم القديم، الذي يقوم الدين عليه، والعلماء القدماء الذين يحرسونه، قدأبيد كلهم من زمان بمؤامرة فتحت الحصن من الداخل، باتفاق من شذ فيهم مع المؤامرتين ليحصل على مكانة عظيمة عندهم يحتفظون بسمعته ويسبحون بحمده على مر الزمان.

وقد ساعدت المؤامرة المختلطة الماسونيةبمبادئها ضد الدين، فكان لانتساب أقطاب الأزهر اليها منذ عهد محمد عبده وجمال الدين الأفغاني مما لم يعهد مثله في علماء تركيا معناه»[2].

والخلاصة:

هؤلاء بعض ممن نقب عن عيوب الأفغاني من معاصريه، وقد جاء بعدهم كثيرون، توصلوا الى حقائق كانت خفية وقد تعرضت الى ذكر بعضهم منهم الدكتور علي الوردي العراقي، والدكتور محمد محمد حسين المصري.

وليست العبرة بكثرة الأتباع، ولا بقلة الأعداء، وانما العبرة بالحق، فمتى عرفنا الحق توصلنا الى أهله، ومتى عرفنا الباطل وقعنا على أهله.

---

(١) المرجع السابق ١/٢٨٢ .

(٢) المرجع السابق ١/٣٤٢ .

المطلب الثالث

الأمور التي أخذها الخصوم على جمال الدين

تمهيد: بعد أن استعرضنا خصومه وجب علينا معرفة سبب هذه الخصومة وأهم الأمور التي أخذت على جمال الدين الأفغاني.

ان هذه المآخذ ليست هي الكل، وانما ذكرت ههنا بعضها، وتقدم البعض الآخر عندما ناقشت دخوله في الماسونية وكذا عندما تكلمت على دعوته وما أخذ عليه فيها.

وكذا لم أذكر المآخذ موزعة على خصومه، وانما هي مجملة قالها خصومه الذين ذكرتهم والذين لم أذكرهم، وقالها معاصروه وغيرهم.

ولقد حاول الدكتور محمود قاسم اجمال هذه المآخذ فجاءت مبتورة، اذ يقول: « ولقد أخذ عليه _ أي جمال الدين _ من العلماء الرسميين عدة أمور: منها أنه يقرأ الفلسفة. وكذلك عابوا عليه أنه جاء يريد تطهير الاسلام من بعض العادات العملية والعقلية الغريبة عنه، وكذلك أخذوا عليه في نهاية الأمر أن بعض تلاميذه لم يكونوا متدينين»[1].

هذه النقاط الثلاث التي ذكرها الدكتور قاسم ليست الكل، ثم ليست مآخذ على حسب ظاهرها، اذ الأمر أعمق من ذلك بكثير، ويظهر من خلال عرضها تحيزه له، ولذا انقل رد الشيخ رشيد رضا على آخر نقطة ليدل على أن هذه المآخذ ضعيفة ولا تصلح مستندا لاعلان الخصام على جمال الدين.

يقول الدكتو رمحمود قاسم: « وقد دافع عنه محمد رشيد رضا فقال: « ان هؤلاء التلاميذ الذين يرمي اليهم خصوم جمال الدين لم يكونوا متدينين قبل اتصالهم بأستاذهم على اننانزيد من جانبنا شيئا فنقول (انه ما كان ليسأل عن تدين تلاميذه أو عدم تدينهم، اذ ليست هذه التهمة، لو قامت على أساس صحيح، وفقاً عليه وحده)»[1].

وأنا أقول: ان هذا مطعن قوي على جمال الدين، وأقول أيضا ردا على الشيخ رشيد رضا، انهم لم يكونوا قبل ولا بعد متدينين، بل ان فيهم أعداء للدين.

فلو فرضنا ـ كما يدعون ـ انه داعية اسلامي، فكيف يجوز له أن يتخذ من أعداء الدين تلامذة وأعوانا. فنحن نعرف الدعاة الى الله وكيف ينتقون تلاميذهم.

خذ مثالا على ذلك الامام الشهيد حسن البنا، فقد كون حوله فئة ممتازة مدة لا تزيد عن المدة التي عاشها جمال الدين، انها أقل بكثير من المدة التي أمضاها في دعوته، ومع ذلك انشأ جيلا من المسلمين الدعاة والمجاهدين الشجعان بقي هذا الجيل يدعو بدعوة البنا بعد وفاته، كما كانوا يدعون اليها في حياته، نقلهم من الحضيض الى المعالي بين عشية وضحاها. ولم يكن يرضى أن يصحبه عدو لله واحد، ولا اتخذه بطانة له، ولا يقبل أحدا في جماعته حتى يستتيبه ويضع نفسه في خدمة الاسلام ودعوته.

أما جمال الدين، فقد صحبه من لا خلاق له في الآخرة منهم النصراني ومنهم اليهودي ومنهم الشيعي ومنهم البابي وهكذا.

لذا كان الدكتور محمد محمد حسين يقول: « ما هذا الخليط من اليهود والنصارى الذي يجتمع حول الرجل الذي كان صوته أعلى الأصوات في الدعوة الى الجامعة الاسلامية، والتنديد بفساد المجتمع الاسلامي والدعوة الى اصلاحه؟

---

(١) جمال الدين ـ د. قاسم ٣٦ . (د. محمود قاسم).

سليم نقاش صاحب الكتاب الذي يحمل عنواناً غريبا في ابان الدعوة الى الجامعة الاسلامية وهو (مصر للمصريين) شامي نصراني.

وأديب اسحق من نصارى الشام أيضا، وكان اذا ذكر موته في مجلس الأفغاني جاشت نفسه بالحزن وهو يقول: (انا لله وانـا اليه راجعون).

وطبيبه الخاص يهودي يدعى هارون، وقد كان هوونصراني يدعى جورج كونجي اللذين شهدا احتضاره وحدهما»[1].

اتهامه بالالحاد:

ان جمال الدين اتهم في ايمانه وعقيدته، فهؤلاء العلماء المشهود لهم بالعلم والصلاح، يتهمونه بالكفر والالحاد.

فقد رأينا كيف اتهمه شيخ الاسلام حسن فهمي افندي بالالحاد، لأنه جعل النبوة صنعة مكتسبة ثم انه لما نزل مصر اتهمه شيخ الأزهر، الشيخ عليش، وبعض العلماء بالالحاد أيضا. وعندما حل في استانبول، مركز الخلافة ، رماه بالالحاد شيخ مشايخ السلطان عبد الحميد. وحتى أصدقاؤه والمقربون اليه نسبوا اليه الالحاد، منهم الكاتب والصحافي سليم عنحوري يقول الدكتور احمد امين: « لما ترجم سليم بك عنحوري للسيد جمال الدين في كتابه (سحر هاروت) رمي السيد بالالحاد فقال: (انه برز في علم الأديان حتى أفضى به الى الالحاد والقول بقدم العالم، زاعما أن الجراثيم الحية المنتشرة في الفضاء ترقى وتتحور الى ما نراه من أجرام، وان القول بوجود محرك أولي حكيم وهم نشأ عن ترقي الانسان في تعظيم المعبود على حسب ترقيه في المعقولات»[2].

وحاول الدكتور احمد امين نفي هذه التهمة عنه فقال: «وقد قام الشيخ محمد عبده برد هذه التهمة الأخيرة ، فتراجع سليم بك وادعى

---

(١) المرجع السابق ــ ٣٦ .

(١) الاسلام والحضارة الغربية ٦٩ ٨٤ .

(٢) زعماء الاصلاح ١١٠ وتاريخ الأستاذ الامام ١/٤٣ .

بأنه تسارع في اذاعة هذا الكلام»[1]. وما فائدة هذا الرد ما دامت التهمة لازالت موجودة في كتابه المذكور، ثم ان تسارعه في اذاعة هذا الكلام ليس معناه نفي التهمة، وانما معناه أن هذا الوقت ليس أوان نشر مثل هذه التهمة.

أما الدكتور محمد محمد حسين فيشرح لنا سبب قذف سليم عنحوري الشيخ جمال الدين بالالحاد فيقول: « وصفه سليم عنحوري حين ترجم له في شرح ديوان سحر هاروت، فقال: (انه سافر الى الهند وهناك أخذ من علماء البراهمة والاسلام أجل العلوم الشرقية والتاريخ، وتبحر في لغة السنسكريت أم لغات الشرق، وبرز في علم الأديان حتى افضى به ذلك الى الالحاد والقول بقدمية العالم)»[2].

والذي يظهر لي أن جمال الدين لما اشتغل بالفلسفة وجالس الفلاسفة وأخذ عنهم بدت على لسانه كلمات اتهم بسببها بالالحاد والزندقة، لا يبعد أن تكون كما اتهم.

يقول الدكتور الوردي: « لم يطل الأمر بالأفغاني حتى ظهر تجاهه خصوم من بين شيوخ الأزهر ورجال الدين، كان على رأسهم الشيخ عليش، فأخذ هؤلاء يشنون عليه الحملات الشعواء، ويزعمون ــ على حد تعبير الوردي ــ أن الأفكار الجديدة التي يدعو اليها، تفضي الى زعزعة العقائد الصحيحة، وتؤدي الى حرمان النفس من خير الدنيا والآخرة. »[3].

ثم ينقل الدكتور الوردي كلام شاهد عيان لاجماع العلماء على الحاد جمال الدين فيقول: «سجل ابراهيم الهلباوي ذكرياته عن تلك الفترة ــ أي التي قضاها مع جمال الدين ــ فقال: (كنت طالبا في الأزهر الشريف لم اتجاوز العام السادس عشر حين نزل السيد جمال الدين مصر، واقبل عليه الأدباء والمتنورون يستمعون الى أحاديثه العلمية،

---

(١) المرجع السابق ١١١ .

(٢) الاسلام والحضارة ٧١ ٨٦ .

(٣) لمحات اجتماعية ٣/٢٧٥.

ويحضرون في مجالسه ودروسه، وكان الشيخ محمد عبده من هؤلاء الذين أعجبوا بالسيد وتشيعوا له ، فحقدت عليه وصرت أتربص به وباخوانه الدوائر لأني كنت اعتقد كما يعتقد أشياخي الذين تأثرت بهم، بأن جمال الدين رجل ملحد، ونزل مصر ليضل الناس ويجمع حوله شيعة ينشرون الحاده وضلاله. . .)»[1]. ثم يذكرالهلباوي كيف انه التقى بالأفغاني وجالسه وأعجب به وأصبح من تلاميذه.

وكانت بعض الصحف تنسب له الإلحاد، فكانت تكتب عن ذلك على سبيل المدح والثناء وعلى أنه رجل متنور ليس كرجال الأزهر. يقول الدكتور محمد محمد حسين: « قالت صحيفة المقطم في نسبه :(انه كان منارا للحرية والعرفان. . . وداعيا الى الحرية يقتدى به في الدعوة اليها) والحرية والأحرار وأحرار الفكر هي كلمات اصطلاحية يراد بها اطلاق الفكر من كل قيد، ومن العقائد الدينية على وجه الخصوص»[2].

ثم يقول في الهامش: « مع ملاحظة أن فارس نمر باشا صاحب المقطم كان من كبار الماسون وبنفس الأوصاف وصفه فيلسوف فرنسا: « قد خيل الي من حرية فكره ونبالة شيمه، وصراحته وأنا أتحدث اليه انني أرى وجها لوجه أحد من عرفتهم من القدماء، وانني أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو أحد أولئك الملاحدة العظام الذين ظلوا خمسة قرون يعلمون على تحرير الانسانية من الاسار»[3].

وتفلته من الدين وتحرره منه جعله يلعب بالنصوص الشرعية، فيأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء، وسار على منواله تلاميذه، كل هذا صادر عن تزعمه لفلسفة جديدة يريد نشرها في مصر وغيرها. يقول شيخ الاسلام مصطفى صبري: « ان قول جمال الدين الأفغاني: (ان القرآن وحده سبب الهداية، من غير ما تراكم عليه وتجمع حوله من آراء الرجال) فنحن نرى اراء الرجال المجددين الذين التفوا حول مدرسة هذا

---

(١) المرجع السابق ٣/٢٧٥ .

(٢) الاسلام والحضارة ٧١ ٨٦ .

(٣) الرد على الدهريين ٦ .

الزعيم الأفغاني مثل محمد عبده وتلاميذه. . . لا تصح أن تنضم إليه بل تناقض نصوصه، مثل انكار المعجزات والملائكة والشيطان، وعدم الاعتراف بصحة قصصه كما وردت. . . أليس هي أكبر مخالفة لقضية المحافظة على وحدة القرآن مما تراكم عليه وتجمع حوله من آراء العلماء المتقدمين»[1].

ولما أراد الأفغاني الأخذ بالقرآن فقط دون غيره، كما صرح سابقا، وقع في مخالفات صريحة للنصوص القطعية الثابتة بالسنة والاجماع، وهو القائل

«فالتواتر والاجماع وأعمال النبي المتواترة الى اليوم هي السنة الصحيحة التي تدخل في مفهوم القرآن وحده والدعوة الى القرآن وحده»[2].

وهو القائل: « فاذا لم نر في القرآن ما يوافق صريح العلم والكليات اكتفينا بما جاء فيه من الاشارة ، ورجعنا الى التأويل»[3].

فبناء على هاتين النظريتين راح يفسر القرآن تفسيرا عقليا فوقع فيما لم يحمد عقباه، يقول الأخ فهد الرومي في رسالته لنيل الماجستير: « وكان يشطح في تفسيره ، فيفسر الربا المحرم في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة)»[4] بجواز الربا المعقول الذي لا يثقل كاهل المدين ولا يتجاوز في برهة من الزمن رأس المال ويصير أضعافا مضاعفة.

ويفسر (جد) في قوله تعالى: (وانه تعالى جد ربنا) أن جد معرب من (كد) ومعناه العرش بالفارسية أو الهندية.

ويفسّر (فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) بأنه قيد من (خاف ألا يعدل) بالمرأة الواحدة وترك لمن يخشى أن لا يعدل حتى مع الواحدة عدم

---

(١) موقف العقل ١/٢٨٢ .(مصطفى صبري).
(٢) جمال الدين ــ المغربي : ٦٨.
(٣) خاطرات ٩٩ .
(٤) سورة آل عمران ١٣٠ .

الزواج بالمرأة الواحدة وترك لمن يخشى أن لا يعدل حتى مع الواحدة عدم الزواج وهذا ما يستنتجه العقل ما دام يحمله العاقل، يقول به الحق والعدل.

ويفسر الأمور الغيبية من غير نص فيقول: (وترى الأرض بارزة) أي خارجة عن محورها غير راضخة للنظام الشمسي واذا ما حصل ذلك، فلا شك يختلف ما عرف من الجهات اليوم فيصير الغرب شرقا والجنوب شمالا، وبذلك الخروج عن النظام الشمسي، وما يحدثه في الزلزال العظيم ــ لا شك تتبعثر أجزاء الأرض لبعدها عن المركز وتنسف الجبال نسفا وتتحول براكين هائلة، وبالنتيجة تخرب الكرة الارضية، ويعمها الفناء، بما فيها من حيوان وتقوم القيامة والله أعلم (١).

أضف الى ذلك ما خرج من قلبه على لسانه من العبارات المكفرة، وكذا عن تلاميذه في مخاطبة شيخهم، ولم نسمع منه انكاراً، بل انه سابق لهم في هذا المضمار، وقد ذكرت بعضها، مثل قول الشيخ محمد عبده يخاطب أستاذه الأفغاني «أوتيت من لدنك حكمة اقلب بها القلوب وأعقل العقول. . .»(٢).

فهذا الكلام فيه محاكاة لكلام الله تعالى في المنة على عباده في قوله تعالى: « كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير»(٣).

وفي قوله تعالى: « ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً»(٤) فالعلم اللدني والحكمة اللدنية هي من الله تعالى فقط ولا يمكن لأحد أن يمنحها لأحد، فكان عليه أن يقول، (تعلمت منك الحكمة)، فعبارته هذه مريبة.

أما تقليب القلوب وتصريفها، فهي كذلك بيد الله تعالى فليس

---

(١) رسالة ماجستير ٧١ .

(٢) تاريخ الأستاذ الامام ١/٨٠ .

(٤) سورة هود ــ ١ .

(١) سورة الكهف ١٠ .

لأحد أن يتصرف بقلب أحد، وحتى الشيطان لم يدعيها اذ يقول الله تعالى: « وقال الشيطان لما قضي الأمر، ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان الا أن وعدتكم فاستجبتم لي» الآية[1].

وكان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام يقول: « يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك» ـ ابن ماجه والحاكم ـ (كما في الفتح الكبير)»[2].

فهل يجوز أن نقول: « يا شيخ محمد عبده ثبت قلبي على دينك»؟

وأظهر من ذلك الكتاب الذي بعثه محمد عبده من بيروت الى شيخه جمال الدين الأفغاني اذ يقول: « ليتني كنت أعلم ماذا اكتب اليك وأنت تعلم ما في نفسي كما تعلم ما في نفسك، صنعتنا بيديك، وأفضت على مرادنا صورها الكمالية، وأنشأتنا في احسن تقويم، فيك عرفنا أنفسنا، وبك عرفناك، وبك عرفنا العالم أجمعين، فعلمك بنا، كما لا

---

(١) سورة ابراهيم ٢٢ .

(٢) وروى من طرق أخرى منها:

١ـ عن عبد الله أنه قال : « كانت يمين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ومقلب القلوب » رواه البخارى في كتاب الايمان ـ باب كيف كانت يمين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جـ ٧ ص ٢١٧ .

٢ـ وعن سالم عن عبد الله أنه قال : « اكثر ما كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحلف : لا ومقلب القلوب » . . . رواه البخارى في كتاب التوحيد ـ باب مقلب القلوب ج ٨ ص ١٦٩ . ٢ـ وعن سالم عن عبد الله عن ابيه قال : « كثيرا ما كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحلف بهذه اليمين : لا ومقلب القلوب» . . رواه الترمذي في كتاب النذور ـ باب ما جاء كيف كان يمني النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جـ ٤ ص ١١٣ . . . ورواه البخارى في كتاب القدر باب يحول بين المرء وقلبه عن ابن عمر موقوفا . ٤ـ وعن انس انه قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكثر أن يقول : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » . . رواه الترمذي في كتاب القدر ـ باب ما جاء أن القلوب بين اصبعي الرحمن جـ ٧ ص ٤٤٨ .

يخفاك أعلم من طريق الموجب. وهو علمك بذاتك، وثقتك بقدرتك وارادتك، فعنك صدرنا، واليك اليك المآب»[1].

وفيه يقول أيضا: « فاني على بينة من أمر مولاي، وان كان في قوة بيانه ما يشكك الملائكة في معبودهم ، والأنبياء في وحيهم»[2].

فماذا أبقى الشيخ محمد عبده لربه؟

ثم ان باقي تلاميذ الأفغاني كانوا على مثل هذا الموقف من الخطاب، فمن أراد الاستزادة فليرجع إلى تاريخ الأستاذ الامام ــ الجزء الأول من صفحة ٨٠ وما بعدها فيجد فيها الطامات الكبرى.

ثم ها هو جمال الدين يكتب الى رئيس مجتهدي الشيعة، يهيجه على شاه ايران ناصر الدين، ولا تختلف عباراته عن تلاميذه الموحية بالالحاد والزندقة.

يقول الأفغاني: « بسم الله الرحمن الرحيم. حقا أقول: ان هذا الكتاب خطاب الى روح الشريعة المحمدية، اينما وجدت وحيث ما حلت. . . حبر الأمة، وبارق أنوار الأئمة، دعامة عرش الدين، واللسان الناطق عن الشرع المبين جناب الحاج ميرزا محمدحسن الشيرازي. صان الله به حوزة الاسلام. . .

لقد خصك الله بالنيابة العظمى عن الحجة الكبرى، واختارك من العصابة الحق، وأنت وارث الأنبياء. . .

وان الأمة قاصيها ودانيها، وحاضرها وباديها، ووضيعها وعاليها، قد اذعنت لك بالرئاسة السامية الربانية، وجاثية على الركب، خارة على الأذقان تطمع نفوسها اليك في كل حادثة تعروها، ونجاتها بك، وان أمنها وأمانيها فيك. . »[3].

---

(١) الاسلام والحضارة الغربية ٧٢ ٨٧ .
(٢) المرجع نفسه ٧٣ ٨٨ .
(٣) تاريخ الأستاذ الامام ١/٥٦.

فقد جعل جمال الدين مخاطبه في مرتبة الألوهية ، فالأمة جاثية على الركب في صلاة له، وخارة على الأذقان في سجود له.

ثم لا يكتفي بذلك بل يجعل النجاة والأمن والأمان كله الى جناب الحاج ميرزا محمدحسن الشيرازي. فماذا أبقى لربه؟

والملاحظ أن عبارات جمال الدين وتلاميذه مأخوذة من القرآن الكريم ومحمولة من صفات الاله الى العبيد لرفعهم الى مصاف الأرباب.

كل هذه العبارات جاءت على سبيل التلميح، ولم يبق بينها وبين التصريح الا اسم الرب سبحانه وتعالى.

جمال الدين وفكرة وحدة الوجود:

من أجل هذه العبارات التي سردنا بعضها نسب اليه الدعوة الى وحدة الوجود ويرجع هذا الى أن الأفغاني كان شيعيا من غلاة الشيعة الذين يدينون بوحدة الوجود التي قالها الفلاسفة، ومعناها أن المخلوقات الموجودة من شمس وقمر ونجوم وأرض وبشر وحيوان... الخ هي أزلية وانما هي الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

يقول الدكتور احمد امين: «كان السيد كما يحكي عنه الشيخ محمد عبده وبعض خاصته متصوفا، يدين بعقيدة المتصوفة، وهي مبهمة غامضة تنتهي بوحدة الوجود، والتعبير عنها قد يلتبس، الا على الخاصة، بالالحاد ومن أجل هذا رمي محي الدين بن عربي وأمثاله بالكفر لعدم الدقة في وزن الأقوال»[1].

وقد قام بعض المنحرفين الذين تبرأ الدين منهم، في الدفاع عن الأفغاني في هذه النسبة وهو الشيخ محمود أبو ريه، اذ يقول: «كان المحيط العلمي الذي يتمثل في خرسان (أفغانستان) ونختونستان وشمال الهند، من القرن السابع عشر حتى أيام السيد، أكثر ازدحاما وازدهارا

---

(١) زعماء الاصلاح ١١٢.

بالعلم والحكمة والفلسفة من أي قطر آخر من الممالك الاسلامية، ولا سيما في المنطق والفلسفة وعلم الكلام.

وحدث تطور كبير في المناهج المدرسيةفي تلك القرون الثلاثة الأخيرة، وكان علم الكلام محشوا بالفلسفة، والفلسفة مشوبة بالتصوف (الوحدة الوجودية)، ووحدة الوجود ملفقة بالأدب..»[١].

ثم يذكر الكاتب الأساتذة المتقدمين على جمال الدين الأفغاني والذين يؤمنون بوحدة الوجود، ويقول بأن جمال الدين في بدء شبابه كان من هذا القبيل في اعتناقه هذه الفكرة، وكأنه يريد أن يقول ان جمال الدين كان يؤمن بهذه اللوثة ولكنه عندما نضج فكره تركها، مع اننا لو دققنا النظر في عبارته لرأيناها متناقضة مع الواقع، فجمال الدين لم يدرس في أفغانستان مطلقا باتفاق آراء المترجمين، وانما كانت دراسته في معاهد الشيعة وهذا جهل من أبي ريه بالحقائق المسلمة.

ثم ان أبا ريه يريد أن يحول انظارنا عن الأفغاني وأن نغفر له خوضه في وحدة الوجود مع أن كبار تلاميذ الأفغاني أقروا واعترفوا بهذا الأمر، وآمنوا بمثل ما آمن به شيخهم.

وكان الأفغاني أكثر الكتب التي يقرأها على تلاميذه في المنطق والفلسفة والتصوف والهيئة، مثل كتاب (الزوراء للدواني في التصوف)، وكان الشيخ يستند الى هذه الكتب في شرح آرائه وأفكاره والتبسط في مناحي فكره والتطبيق على الحياة الواقعة ونظرته الى الحياة كواقعة، والى العالم كوحدة[٢].

وصاحب كتاب الزوراء (جلال الدين الدواني) من الفلاسفة والكلاميين والصوفية والأدباء، وكان يقول بوحدة الوجود[٣].

ثم يفسر أبو ريه وحدة الوجود تفسيرا طريفا فيقول: « فالصوفي بطريقة وحدة الوجود ــ التي كان السيد يسلكها ــ يرى الوجود الحقيقي

(١) جمال الدين ــ أبو ريه ٥٤ــ ٥٥.
(٢) زعماء الاصلاح ٦٤.
(٣) جمال الدين ــ أبو ريه ٥٥.

في الله سبحانه وتعالى، ويرى في المادة والقوة والشعور في صفاته، ويرى أن الكون مرآة الوجود »[1].

ويرى أبو ريه أن وحدة الوجود خطوة نحو وحدة الأديان فيقول: « ويروى عن السيد انه كان يحاول أن يحل مسألة الأقانيم الثلاثة عند المسيحيين أعني (الآب والابن وروح القدس) بنظرية وحدة الوجود، بمعنى أن الثلاثة هي بمثابة ثلاثة مظاهر لحقيقة واحدة، كما كان سقراط يقول: (ان الخير والحق والجمال، ثلاثة مظاهر للحقيقة)، ومن هذا يظهر أن السيد كان يحاول أن تتسع الوحدة بين المسلمين والمسيحيين الأمتين اللتين كان بينهما عطف وصلة، وتعاون عريق منذ فجر الاسلام»[2].

أما الشيخ رشيد رضا فانه يرى ان فكرة وحدة الوجود أخذها جمال الدين عن فلاسفة الافرنج فيقول: « مذهب فلاسفة الافرنج في الوجود قريب جدا من مذهب الصوفية القائلين بالوحدة، وكان السيد يميل الى هذا المذهب كما أشار اليه الاستاذ الامام في ترجمته »[3].

وحتى تلميذه أديب اسحق النصراني، الذي ترجم لجمال الدين ، يؤيد اعتناق جمال الدين فكرة وحدة الوجود القائمة على الفلسفة فيقول: « تبحر — أي الأفغاني — في المنقول والمعقول وغلبت عليه مذاهب قدماء الحكماء، فداخله في ذلك، بداءة بدء، شيء من التصوف، فانقطع حينا بمنزله، يطلب الخلوة لكشف الطريقة وادراك الحقيقة. . ثم خرج من خلوته مستقر الرأي على حكم العقل وأصول الفلسفة القياسية»[4].

وجمال الدين يلتقي مع البهائيين في فكرة وحدة الوجود، وهذا ليس غريبا، فقد عاصرهم وجاورهم، والبهائية فرع عن البابية.

---

(١) جمال الدين — أبو ريه — ٥٦.
(٢) المرجع السابق ٥٧ .
(٣) تاريخ الأستاذ الامام ١/٧٩ .
(٤) المرجع السابق ١/٣٩ .

ورد في كتاب حقيقة البهائية: « ان البهائيين يزعمون أن الأديان بأوضاعها الحاضرة سبب البغضاء والشحناء، ثم هم يعالجون هذا، بالخروج على الأديان جميعا، والايمان بطاغيتهم، الميرزا حسين، تلك الأفكار التي سلخها من كتابات شيوخ الصوفية.. هذه الأفكار - كما سبق في هذا الكتاب - نابعة من نظرية وحدة الوجود»[1].

رأيه في نظرية دارون:

ومما ينسب الى جمال الدين، قوله في نظرية النشوء والإرتقاء التي نادى بها دارون، في كتابه المشهور (أصل الأنواع).

يقول الدكتور محمد محمد حسين: « كلامه في النشوء والترقي، يشتبه بكلام دارون»[2].

ويؤيد هذا الكلام الدكتور عمارة فيقول: « فاذا أضفنا الى ذلك موقف الأفغاني من نظرية التطور والنشوء والارتقاء، وحديثه عن تشارلز دارون، وكيف تحدث باعتزاز عن سبق العلماء العرب الى هذه النظرية، بل وتفوقهم على الأوروبيين المحدثين فيها، حيث جعلوها شاملة للكائنات العضوية وغير العضوية...»[3].

فالأفغاني يمتدح العرب لأنهم سبقوا الافرنج في اكتشاف هذه النظرية بل انهم فاقوا عليهم بأن جعلوها في الأحياء وغير الأحياء.

والظاهر أن جمال الدين يؤمن بنظرية التطور في المحسوس وغير المحسوس.

مما يروى أنّ الأفغاني التقى بشبلي شميل (وهو معروف بالالحاد) وجرى بينهما حديث ذكر بعضه في مذكراته فقال: « لما تعارفنا، أخذنا ننتقل من حديث الى حديث، الى أن ابتدأته بالسؤال الآتي: (ما قول

---

(١) حقيقة البهائية ٢١٠.
(٢) الاسلام والحضارة ٨٧.
(٣) الأعمال الكاملة ١٠٠ .

سيدي الشيخ في المعبود الأول الذي اتخذه الانسان من بين أشياء هذا الوجود؟) وكأني لحظت أنه أخذ بهذا السؤال على غرة، كأنه لم يخطر له ببال من قبل. فتقلقل قليلا كأنه يريد أن يتمكن في مجلسه، ولم يطل به ذلك حتى دخل في مقدمة مستفيضة أغنته عن التزام الصمت الطويل، واعانته على تصوير الحكم بما أفسحت له من الوقت. ولا أذكر شيئا من هذه المقدمة، وانما أذكر أنه انتهى الى القول: « ان المعبود الأول للانسان الأول كان يقتضي أن يكن في ثنايا الغيوم المتلبدة أو هي نفسها»(١).

من أجل هذه الأفكار دارت الخصومة على أشدها مع من عاصره من العلماء والشيوخ، حتى كان الشيخ عليش يفتش عنه ويقرعه بعصاه، مما جعله يترك الأزهر ويسكن في بيت في حارة اليهود.

هذا وان هناك أمورا كثيرة كانت السبب في الخصومة لم تذكر هنا لأنها ذكرت سابقا كالماسونية مثلا واختلافه مع شيخ الاسلام حسن فهمي افندي بجعل النبوة صنعة كباقي الصناعات.

ومنها اباحة الربا اليسير.

ومنها فتح الباب لدعاة تحرير المرأة باباحة السفور الذي أدى الى الفجور.

ومنها التستر على العباد بدعوى الأفغانية ليسهل سير دعوته.

---

(١) أعلام وأصحاب أقلام ١٩١.

المطلب الرابع

الغلو في مدحه

بعد أن استعرضنا قسماً من تلاميذه الذين صحبوه وحملوا فكره لا بد أن نقول إن هناك رجالاً جاءوا بعدهم يحملون أفكاره ويسيرون على أفكاره، منهم تلاميذ مدرسته التي رسمها ولا نستطيع أن نذكرهم على سبيل الحصر ولكن نذكر بعضهم من خلال ذكر أقوالهم. والملاحظ أن تلاميذه المعاصرين أو الذين جاءوا بعده ويحملون أفكاره يكيلون له المديح إلى درجة يصبح نابياً أو ممقوتاً.

فمثلاً الكاتب رشيد الذوّادي: «لا تلمني أخي القارىء الكريم إن لم أجد لهذه الشخصية من يضاهيها في تاريخنا الاسلامي سوى عبقري واحد ولد بتونس سنة ٣٣٢هـ وتوفي بمصر عام ٤٠٦هـ وهو الرائد عبد الرحمن بن خلدون»[١].

ثم يعقب على قوله هذا بأنه لم يكن يرجم بالغيب وإنما توصل اليه نتيجة بحث واستقصاء فيقول: «أجل إني بحثت كثيراً في موسوعات الحضارة الاسلامية والعربية فلم أعثر إلا عن رائد وحيد تتقارب آراؤه واتجاهاته الاصلاحية وظروف حياته مع أبو الثورات جمال الدين الأفغاني»[٢].

والمؤرخ عبد الرحمن الرافعي يؤلف كتاباً في جمال الدين يسميه

---

(١) رواد الاصلاح ٧٩.

(٢) المرجع السابق ٧٩ .

(باعث نهضة الشرق) ويقول في مقدمة كتابه: «إذا ذكر الزعماء والمصلحون في الشرق كان هو رائدهم وكان في طليعتهم»[1].

ثم يذكر أعماله وجهاده وأن الناس كانوا نياماً قبله ثم يقول «فكانت دعوته التي عاش عليها ومات من أجلها بداية النهضات التي شملت أقطاراً عديدة جابها»[2].

فلو استعرضنا الدول التي جابها لرأينا العكس من ذلك فقد مر بمصر وجلس فيها سنوات نتج عن ذلك تأسيس الحركة الماسونية ثم دخول الانجليز اليها وبدء الفساد في صفوف الشباب والنساء فأين الاصلاح والنهضة.

ومر الأفغاني بايران فماذا فعل فيها من نهضة، مع أنه لم يلبث فيها حتى أخذ يتآمر على رئيسها انتقاماً لشخصه.

واستقر أخيراً في الآستانة وكان ما كان من الخلاف بينه وبين السلطان العادل وأخذ يؤلب الناس ضده ويصفه بأقبح الصفات، فما هي النهضة التي أحدثها في تركيا.

ثم إن الرافعي يبالغ في الحكم على بلاد الشرق فيصفها بالجمود والانحطاط ليرفع من شأن جمال الدين فيقول: «ظل الشرق قروناً وأجيالاً رازحاً تحت نير الجمود الفكري والتأخر العلمي والاستعباد السياسي، وبقي في سبات عميق إلى أن قيض الله له الحكيم الأفغاني»[3].

هل صحيح أن الشرق كله كان في جمود؟ ثم إن كلمة (قروناً وأجيالاً) توحي بأن الاسلام لم يحكم أرض الشرق ولم يسمع له بنهضة فأين الأمويون وأين العباسيون وأين الدولة العثمانية وفتوحاتها في أوروبا ونشر الاسلام فيها؟

أما الجمود الفكري والتأخر العلمي فكلنا يعرفه ومتى بدأ؟ لقد بدأ

---

(١) جمال الدين للرافعي ـ ٣ .

(٢) المرجع السابق ـ .

(٣) المرجع السابق ـ ٣ .

بعد الحروب الصليبية، وقبله كان المسلمون قادة الدنيا في العلم والفكر ثم أخذ الغرب ينهض بعد أن مرت العصور الوسطى القاتمة التي كان الشرق فيها قبلتهم، أخذ الغرب ينهض، والشرق يتقهقر. ثم إن الرافعي يعد من حسناته على تركيا أن أيقظ الحرية فيهم فقام مدحت باشا على إثره.

فهل يصدق أن جمال الدين هو الذي أيقظهم؟ وما هي أسس دعوته في هذه النهضة أو اليقظة التي أيقظ فيها تركيا؟

ومن العجيب أن نجد أن الأستاذ الرافعي يقرن الأفغاني في الاصلاح الديني بمارتن لوثر النصراني محاكياً بذلك مصطفى صبري غير أن مصطفى صبري كان يشبهه بمارتن لوثر على أنه هدم النصرانية المتمثلة بالكثلكة، أما الأستاذ الرافعي فجعلها رفعة ومدحاً للأفغاني والفرق بين المشبهين كبير جداً.

ويختم الرافعي كتابه بقوله: «فهو أول زعيم للحركة في الشرق، وأول باعث لنهضته الحديثة، ولئن لم يشاهد ثمار دعوته وجهوده، فحسبه أنه غرس البذرة الأولى للحركات القومية التي ظهرت في الشرق منذ نحو تسعين سنة إلى اليوم»[1].

فالرافعي هنا يعتبر الدعوة إلى القوميات شيئاً محموداً وأن أول داعية لهذا هو جمال الدين الأفغاني.

ولو رجعنا إلى أقوال المستشرقين ورجال الغرب في الثناء على جمال الدين الأفغاني لوجدنا أقوالهم مطابقة للمداحين المسلمين الذين وضعوه في مقام الأنبياء والصديقين.

يقول المستشرق الألماني كارل بروكلمان في كتابه (تاريخ الشعوب الاسلامية) تحت عنوان: (حركة التجديد الديني ــ جمال الدين الأفغاني) الجزء الرابع، ص١٠٢ ــ ١٠٣ ما يلي: «مهما يكن من أمر فقد كان الاسلام ــ ولا يزال ــ هو المهيمن على الحياة الدينية في مصر ــ وإنما يرجع

(١) جمال الدين للرافعي ١٧٨.

الفضل في ذلك ـ في المحل الأول ـ إلى تأثير جمال الدين»[1].

فهل صحيح أن بقاء الدين مهيمناً على الحياة في مصر يرجع الفضل فيه إلى جمال الدين؟

وقال الكاتب الكندي وليام مكلوري في كتابه «حركات التنوير في الشرق الأوسط» «وكانت أقوى مشاعل حركة التنوير القومي والفكري في الشرق هي التي حملها جمال الدين الأفغاني الذي تخرج على يديه ومن مجالسه الكثيرون من أبناء مصر والبلاد العربية»[2].

فهذا المستشرق ذكر الأفغاني مادحاً له على أنه من مشاعل القومية وليس من مشاعل الاسلام وقد صدق في ذلك.

ثم إن الدكتور عبد المنعم محمد حسنين يأتي بمثابة أدلة تثبت أن جمال الدين لم يكن أفغانياً ولا حنفي المذهب بل هو ايراني الجنسية شيعي المذهب ثم راح يمدحه وبذا أصبح مدحه قدحاً لأنه بذلك يرد على الأفغاني في ادعائه الأفغانية وفي مذهبه الحنفي بل إنه أصبح يشك في توحيد الأفغاني وصحة عقيدته بانتمائه إلى الشيعة الرافضة ولكنه يسوغ موقفه هذا بأن ما يقدمه للقراء إنما هو لاظهار الحقيقة التاريخية والأمانة العلمية فيقول: «وقد شجعتني ترجمة هذا الكتاب على كشف جانب من شخصية جمال الدين يتصل بأصله ونسبه ومذهبه، لأضيف بذلك حلقة جديدة إلى سلسلة الدراسات التي تمت حوله، حتى تكون فكرة الناس عن جمال الدين صحيحة وكاملة. ويكون حكمهم على أعماله منصفاً ودقيقاً»[3].

وبذلك يكون الدكتور المترجم قد برأ ذمته ووضع الحقيقة أمام القراء ليحكموا عليه حكمًا قائمًا على البيئة. ثم يقول بعد ذلك: «وما ثبت لي تغايُر ما اشتهر من أمر جمال الدين، فهو معروف بانتسابه إلى بلاد الأفغان وبأنه سني المذهب، وقد كان هو نفسه يحرص على تلقيب نفسه بالأفغاني وعلى الظهور في صورة عالم من علماء أهل السنة في البلاد

(١) جمال الدين ـ أبو ريه : ٤٩.
(٢) المرجع نفسه ٥٠ .
(٣) جمال الدين الأسد آبادي ـ ٨ ـ ٩

الاسلامية التي زارها غير وطنه ايران، وكان حرصه هذا نتيجة لدوافع تتعلق بدعوته»[1]).

ورغم نقض دعوى الأفغاني بأصله ومذهبه يعتذر عنه ويبقى على رأيه فيه بأنه مصلح كبير فيقول: «أما شخصية جمال الدين فانها ملك للأمم الشرقية والاسلامية جميعاً، فسواء أكان أفغانياً سنياً أم ايرانياً شيعياً، فانه مصلح شرقي اسلامي وبطل من أبطال تحرير الشرق والمسلمين ويزهو به كل شرقي ويعتز به كل مسلم أياً كان موطنه»[2].

ثم أن الأستاذ سعيد الأفغاني يقول في مقدمة كتابه: «السبب الذي بعثني أن أكتب عن السيد جمال الدين الأفغاني كلمة هو أن السيد الأفغاني كان قد وقف حياته لخدمة الاسلام والبشر»[3].

ثم أخذ يكتب عنه كأحد الفلاسفة والسياسيين ولم يذكر انجازاته الاسلامية إلى أن ختم كتابه بعنوان يقول فيه: «مجمل أهم خدمات السيد جمال الدين الأفغاني للشرق والاسلام والانسانية جمعاء»[4]. وكنت أتوقع أن يذكر تحت هذا العنوان الأعداد الهائلة من الناس الذين أسلموا على يديه أو المؤلفات الضخمة التي أفنى حياته في تحريرها أو المبرات الاسلامية التي أنشأها، ولكن خاب ظني وإذا به يذكر حياته السياسية في أفغانستان ثم انتقاله إلى البلاد والأمصار الأخرى وتأسيسه لصحف ولمحافل الماسونية والجمعيات السرية، ولم يذكر له من أعمال اسلامية سوى الصاق فكرة العمل لمناصرة الجامعة الاسلامية بجمال الدين مع أن الداعي لها في الحقيقة هو السلطان عبد الحميد.

ومن الذين وقعوا في داء المدح في غير محله الكاتب والأديب المشهور أحمد حسن الزيات فوقع فيما لم يصل إليه غيره من الغلو في المدح فجعل جمال الدين في مصاف الصحابة وكبار الأولياء فقال: «كان رضي الله عنه

---

(١) جمال الدين الأسد آبادي ٩ .
(٢) المرجع السابق ١٠ .
(٣) جمال الدين سعيد الأفغاني ٣ .
(٤) المرجع السابق ١٢٤ .

متواضع النفس لأنه عظيم، جريء الصدر لأنه حر، ندي الراحة لأنه زاهد، ذرب اللسان لأنه قرشي، أبي الضيم لأنه أمير، حاد الطبع لأنه مرهف صريح القول لأنه رجل»[1]. وعندما أراد أن يتكلم عن نشر جمال الدين دعوته أضفى عليه القداسة والاحترام وكأنها دعوة ربانية فقال: «وأوقد بالزيت المقدس شعلته الوهاجة في البيت والقهوة...»[2]. فجعل هذا الزيت المقدس شعلة في القهوة بجانب الدخان والنرجيلة والصياح والضجيج واللغو، فأضاع معنى القداسة، ولم يكتف بهذه الزراية لهذا الزيت بل جعل قدسيته تصل إلى محافل الماسون فقال: «ثم اتخذ من المحفل الماسوني الذي أنشأه منارة لهذه الشعلة...»[3] فمتى كانت جمعية الماسون التي تضم اليهود والملحدين منارة للفضيلة تضارع منابر المساجد، وإذا كانت الماسونية منارة فلا شك أن مسجدها مسجد ضرار. فإن كان هذا ما يعنيه فقد صدق.

ثم يختتم حديثه عنه ملخصاً حياته الجهادية فيقول: «وهكذا كانت حياة جمال الدين كلها جهاداً مضنياً في سبيل الله والعلم والحرية والشورى... طيب الله ذكرى هذا الامام العظيم...»[4].

فنحن بدورنا لا نشك أن الزيات خدع بمدح المادحين وظن الوهم حقيقة فراح يكتب ما تجود به قريحته، وما عرف انه زاد الطين بلة وأوقع الحيرة في صدور الجاهلين بجمال الدين، لثقتهم بالزيات.

وقد أعجبت بتعليق الدكتور علي الوردي على هؤلاء المغالين حيث يقول: «والملاحظ بوجه عام أن الأفغاني يعد من رجال التاريخ الذين يكتنفهم الغموض فتفاصيل نشأته وكثير من أعماله وجولاته تحتوي على بعض الأسرار. ومما يزيد في غموض الأفغاني أن معظم الذين كتبوا في سيرته اتخذوا الأسلوب الخطابي فهم في كتاباتهم يصورونه كأنه مخلوق من طينة تختلف عن طينة البشر إذ هو في رأيهم رجل مثالي لا تهمه مصلحته

(١) وحي الرسالة للزيات ٣/٥٩ .
(٢) المرجع السابق ٣/٦١ .
(٣) المرجع السابق ٣/٦١.
(٤) المرجع السابق ٣/٦٢.

الخاصة وليس له في الدنيا من هدف سوى ايقاظ الشعوب ومقاومة الطغيان، ولا حاجة بنا إلى القول إن هذا الأسلوب ذهب زمانه ولم يعد يلائم المنهج العلمي الحديث»(1).

وقد وصل الحد بهؤلاء المغالين، أن جمعوا كل نهضة ظهرت بعده هو منشئها وكل ثورة هو نافخها، وكل تجديد هو بانيه.

حتى صار المطلع على هذا لا يكاد يصدق أقوال الناقدين والمجرحين، فكل هذه الاحاطة جاءت من الماسونية واليهودية التي سخرت وسائل الاعلام للاشادة به وبكل من ساروا وراءه، حيث أن الاعلام كان في ذلك الزمن في يد اليهود بصورة عامة، وحتى الصحف والمجلات التي لا يمتلكونها كانت تخاف بطشهم ومحاربتهم.

انظر إلى حادثة فشل شركة الريجي التي احتكرت بيع التبغ والتنباك في ايران، الكل مجمعون أن سببها الأول هو كتاب جمال الدين الأفغاني الذي أرسله إلى رئيس المجتهدين في ايران الميرزا الشيرازي.

لنسمع إلى الدكتور الوردي يحدثنا عن حقيقة هذا الكتاب، ومدى فعاليته:

«أعتقد أكثر الذين كتبوا في سيرة الأفغاني أن رسالته تلك إلى الميرزا الشيرازي هي السبب في اصدار الميرزا لفتواه المشهورة في تحريم التنباك. وهذا رأي لا يخلو من مبالغة، فالواقع أن الميرزا الشيرازي كان قد وصلت إليه علاوة على رسالة الأفغاني رسائل كثيرة من مختلف انحاء ايران وهي كلها تضج بالشكوى من اتفاقية التنباك.

يقول السيد محسن الأمين في هذا الصدد ما نصه: (ولكن الحقيقة أن الميرزا الشيرازي افتى بتحريم تدخين التنباك حينما بلغه اعطاء الامتياز إلى الدولة البريطانية قبل أن يرسل له السيد جمال الدين هذا الكتاب، ولم يكن افتاؤه بتأثير كتاب جمال الدين، ولو لم يكن له مؤثر ديني من نفسه عظيم لم يؤثر فيه كتاب جمال الدين ولكن الناس اعتادوا إذا مالوا إلى

---

(1) لمحات اجتماعية ٢٦٦/٣.

شخص أن يسندوا كل وقائع العالم إليه))»[1].

وفي الختام لا نستطيع إلا أن نقف في صف العلماء الذين قالوا الحقيقة في جمال الدين الأفغاني بناء على النصوص المتقدمة التي أجمع على صدقها وصحتها القاصي والداني.

---

(١) لمحات اجتماعية جـ ٢٩٩٣ .

الفصل الثالث
وسائله في نشر أفكاره

تمهيد: لا بد لكل داعية أو صاحب دعوة أن تكون له وسائل لتحقيق أهدافه ومراميه دون النظر إلى نوع هذه الدعوة، خيراً كانت أو شراً، سامية أو دنيئة.

وجمال الدين صاحب دعوة سياسية تلبس لباس دعوة فكرية تجديدية وقد أقام الدنيا وأقعدها وصار له أتباع في مشارق الأرض ومغاربها، وخاصة في الدولة التي حل فيها وعمل على نشر أفكاره فيها.

لذا يجب معرفة الوسائل التي امتطاها للوصول إلى هذه الدعوة العريضة ولتحقيق مقاصده وغاياته[1].

ومن استقرائي لتاريخ حياته من خلال ما كتب عنه الناس على اختلاف أنواعهم واتجاهاتهم تبين لي أن جمال الدين الأفغاني لم يترك وسيلة ممكنة توصله إلى غايته إلا استعملها وأستطيع أن أحصر هذه الوسائل في الأمور الآتية وهي:

١ ـ الصّحافة.
٢ ـ العمل السري.
٣ ـ تأليف الأحزاب.

(١) يرى الأستاذ أنور الجندي أن الأفغاني لم يترك وسيلة توصله إلى غايته إلا استعملها. يقول: اتخذ جمال الدين لدعوته وسائل الكتابة والخطابة وتكوين الجماعات السرية والمحافل ومقابلة الملوك والأمراء والسلاطين» أعلام وأصحاب أقلام ١٠٦.

٤ ــ الخطابة.
٥ ــ الثورة والخروج على الحكام.
٦ ــ تدبير المؤامرات والاغتيالات للتخلص من الخصوم.

هذه هي معظم الوسائل الأساسية في دعوته السياسية وقد يكون هناك وسائل ثانوية لمحاولة استغلال الطبقات الشعبية في مجالسه الخاصة في المقاهي والمنتزهات العامة وأماكن استراحة المرضى والترويح عنهم، وقد عدها البعض منقصة وأنها تؤخذ عليه. غير أن الأكثر عدوها من المباحات التي لا بأس من الأخذ بها على سبيل التفريج عن الهموم والترويح عن النفس.

غير أن الشيء الذي أجمع المترجمون على أن جمال الدين لم يتخذه وسيلة لنشر دعوته هو المسجد أو فتح المراكز لتجمع المسلمين.

وهذا ما دعا الكثير لأن يحكم عليه بأن دعوته سياسية محضة تعتمد على فكر فلسفي يخرج عن تعاليم الاسلام ومبادئه.

ولذا أقول أنه استعاض عن المساجد بمجالسه الخاصة التي يستطيع بواسطتها الاتصال بالناس على مختلف طبقاتهم ونزعاتهم وانتسابهم إلى أديان سماوية. كان من أتباعه الأغنياء والفقراء، الحكام والمحكومون، والمسلمون والنصارى واليهود، السنيون والشيعة... الخ. من أجل هذا لم يستطع جعل مركز دعوته المسجد، خلافاً للدعوات الاسلامية المعروفة التي انطلقت من المساجد والزوايا والرباطات، والمستعرض للدعوات التي ظهرت في عهده أو قريباً من عهده والتي تبنت الاسلام تنطلق من المساجد، كالدعوة السنوسية والدعوة المهدية في السودان، كلها انطلقت من المساجد، ولم تفارق المساجد طيلة دعوتها من منشئها إلى نضجها إلى اكتمالها حتى نهايتها.

أما جمال الدين فقد اتخذ المقهى والمنتزه في بداية أمره ثم أخذ بتأسيس الجمعيات السرية ثم تدرج إلى تأسيس الأحزاب العلنية مع الاحتفاظ بالجمعيات السرية وبمجالسه الشعبية ليكسب مختلف الطبقات إلى دعوته:

وكان في كل مجلس يقصده ينشر أفكاره الفلسفية وحججه لاقناع السامعين بدعوته من المريدين أو الحكام المؤيدين والمخاصمين، فإذا جلس في المقهى كان هو الصدر للحديث وكان يأخذ ألباب السامعين في حججه وبيانه وبلاغته. وإذا قابل الحكام اقنعهم بكلامه ومنهاجه، وإذا اصطدم بحكام معاندين مخاصمين، وقف في وجههم بحدة وقسوة، وثار عليهم.

وهكذا كان يعمل في دعوته، فهو ينشر مبادئه بهدوء، حتى إذا غلب وقهر دبر المؤامرات للتخلص من الخصوم.

وفي التخلص من خصمه يستعمل العنف، إما باغتيال أو تحريض أو ثورة، وقد يتصل بأعداء خصمه للتخلص منه، ولو كانوا من الكافرين، كما سيأتي معنا في خلع الخديوي اسماعيل، وقد بينت الكثير سابقاً.

فهو لا يقف مكتوف الأيدي أمام خصمه، كما لا يصفح ولا يعفو، وهذا ما جر عليه البلاء والمحن، وجعله كثير التنقل من قطر إلى قطر، فلا يكاد يستقر في قطر حتى يحتدم الخلاف بينه وبين خصومه، ثم يخرج عنوة وقهراً، أو مختاراً وراغباً للبحث عن قطر آخر يجد فيه آذاناً تسمع، وأفئدة تفتح، وعقولاً تؤمن بمبدئه، هذا ما يظهر للناس.

ويجب أن نتذكر دائماً، أنه مؤسس الماسونية في مصر، وقد نشأ في الماسونية وترعرع فيها، ومات وهو يؤمن بها، وهو لا يفتح عيناً ولا يغمضها إلا من خلال مبادئها وإشاراتها.

وكل من ظن أنه مختار كل الاختيار في تحركاته وتنقلاته فهو مخطىء وما عرف جمال الدين، وما عرف الماسونية وتسلطها على رقاب العباد.

١ ـ الصحافة:

كان أضخم عمل له في نشر دعوته، تأسيس الصحف والمجلات، أو التشجيع على ذلك.

والحقيقة أن الصحافة على جانب كبير من الخطورة في نشر المبادىء، وأول من تنبه لخطورتها اليهود.

جاء في كتاب الخطر اليهودي ـ بروتوكولات حكماء صهيون ـ ما يلي:

«يجب أن توضع تحت أيدي اليهود ـ لأنهم المحتكرون للذهب ـ كل وسائل الطبع والنشر والصحافة والمدارس والجامعات والمسارح وشركات السينما ودورها والعلوم والقوانين والمضاربات وغيرها»(١).

ويقول في مكان آخر (البروتوكول الثاني):

«إن الصحافة التي في أيدي الحكومة القائمة هي القوة العظيمة التي بها نحصل على توجيه الناس، إن الصحافة تبين المطالب الحيوية للجمهور، وتعلن شكاوى الشاكين، وتولد الضجر أحياناً بين الغوغاء. وإن تحقيق حرية الكلام قد ولد في الصحافة، غير أن الحكومات لم تعرف كيف تستعمل هذه القوة بالطريقة الصحيحة، فسقطت في أيدينا، ومن خلال الصحافة أحرزنا نفوذاً، وبقينا نحن وراء الستار، وبفضل الصحافة كدسنا الذهب، ولو أن ذلك كلفنا أنهاراً من الدم. . .»(٢).

ويقول أيضاً: «الأدب والصحافة هما أعظم قوتين تعليميتين خطيرتين. ولهذا السبب ستشتري حكوماتنا العدد الأكبر من الدوريات»(٣).

ويقول في البروتوكول الثاني عشر: «يقوم الآن في الصحافة الفرنسية نهج الفهم الماسوني (أي تكوين الجماعة سرياً، والتفاهم بين أعضائها بطريقة لا يفهمها غيرهم) لاعطاء شارات الضمان، فكل أعضاء الصحافة مرتبطون بأسرار مهنية متبادلة على أسلوب النبوءات القديمة، ولا أحد من الأعضاء سيفشي معرفته بالسر، على حين أن مثل هذا السر غير مأمور بتعميمه. ولن تكون لناشر بمفرده الشجاعة على إفشاء السر الذي

(١) الخطر اليهودي ص. ٤.

(٢) الخطر اليهودي ص ١٦٢ .

(٣) الخطر اليهودي ص ٢١٤ .

عهد به، والسبب هو أنه لا أحد منهم يؤذن له بالدخول في عالم الأدب ما لم يكن يحمل سمات بعض الأعمال المخزية في حياته الماضية. وليس عليه أن يظهر إلا أدنى علامات العصيان حتى تكشف فوراً سماته المخزية...»[1].

الماسونية من بدع اليهود، والصحافة من وسائل الصهيونية، ومع ذلك لا نستطيع أن نقول أن كل صحافة تابعة لهم وتسير في ركبهم، وإنما علينا دراسة كل صحيفة ومعرفة مدى ارتباطها بالصهيونية، لنحكم عليها وعلى القائمين عليها.

لندرس أهم الصحف التي أنشأها الأفغاني أو أسهم في انشائها:

أ ـ العروة الوثقى:

أنشأ جمال الدين هذه الجريدة في باريس بالعربية، فكانت الأفكار له، والصياغة والتحرير لمحمد عبده، وتعريب المقالات من اللغات الأجنبية لميرزا محمد باقر»[2].

كانت العروة الوثقى تابعة لمنظمة سرية جمال الدين رئيسها، وهي منظمة ضخمة لها فروع في معظم بلاد الاسلام، وقد صدر منها ١٨ عدداً ثم توقفت»[3].

وكانت المنظمة على اتصال وثيق بالمنظمات السرية الاجتماعية والثورية المنتشرة في باريس»[4].

وبالطبع يدخل في هذه المنظمات السرية الحركة الماسونية، كما يدخل في المنظمات الثورية جمعية الاتحاد والترقي.

وكانت الصحيفة ترسل مجاناً إلى الأعضاء، وتغطي نفقاتها من تبرعات الجمعية»[5].

---

(١) الخطر اليهودي ٢١٨ .

(٢) زعماء الاصلاح ــ ٨١ .

(٣) الأعمال الكاملة ٣٩ وأعلام وأصحاب أقلام ١٠٧ .

(٤) الأعمال الكاملة ٣٩

(٥) زعماء الاصلاح ٨٢ .

ومما يدل أن هذه الجمعية مرتبطة بالماسونية، أن لها يميناً يشبه اليمين الذي يقسم به الداخل في الماسونية»[١].

ولم تكن الصحيفة صوت الاسلام، وإن كانت مقالاتها تقطر حماساً اسلامياً وذلك لأنها موجهة إلى العالم الاسلامي الذي يضم في صفوفه أدياناً أخرى. يقول الدكتور توفيق الطويل: «وكانت العروة الوثقى التي أنشأها الأفغاني مع محمد عبده ـ وهي في حرب مع الاستعمار الأوروبي ـ تحرص على أن تعبىء جهود الأمم الاسلامية لمكافحتهم وتضم صفوف أبنائها من المسلمين وغير المسلمين للدفاع عن حريتهم»[٢].

فهي صحيفة سياسية محضة، ظاهرها محاربة الاستعمار الا. .لميزي، وحقيقتها خدمة الماسونية في التهجم على الخلافة الاسلامية وعلى الملوك والأمراء باسم الاسلام، والدليل على ذلك انه لم يترك الماسونية بعد أن خرج من مصر ودخل فرنسا بل إنه عاد وجدد انتسابه إلى الماسونية مرة ثانية في باريس.

ولذا كان السلطان عبد الحميد يشك في الأموال التي تصل إلى جمعية الاتحاد والترقي وهي إحدى الجمعيات المرتبطة بالماسونية، ويقول بأن الأموال تنفق على هؤلاء ليتسكعوا في أوروبا وغيرها وينشروا الفساد في البلاد الاسلامية عن طريق الصحافة الرخيصة والكتابة المتهافتة، ومع ذلك لم تنتج الماسونية كُتّاباً فطاحلاً يخدمون الأدب والعلم.

يقول السلطان عبد الحميد: «إن الصحف التي صدرت في أوروبا ومصر بمختلف أسمائها، ورجال الجمعية، الذين يتنزهون في البلاد، لم يخرجوا للبلاد كاتباً جاداً واحداً، لكن محافل الماسونيين ـ رغم كل تعقبنا لهم ـ جعّلت من هؤلاء المتسكعين أعلاماً»[٣].

ويظهر من اتجاه هذه الصحيفة الاسلامية، كأن جمال الدين أراد تعديل سمعته التي انهارت في تركيا وفي مصر بعد أن اتهم بالالحاد

---

(١) المرجع السابق ٨١ .

(٢) الفكر العربي ي مائة سنة ٣٣٩ .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد ٦٠ .

والزندقة، وصار الناس ينظرون إليه بريبة، وكاد أن ينكشف أمره، فكان ظهور هذه الصحيفة بهذا الثوب كدليل على عودته إلى جادة الصواب.

يقول رشيد رضا: «ومنذ ذلك الحين احتجبت عن المؤلف أخباره حتى ظهرت في باريس صحيفة العروة الوثقى مرسومة باسمه موشاة بقلم دهقان جاله الشيخ محمد عبده فعرف من نزعها أنه عاود الاستمساك بالدين الحنيف، وجنح إلى نهج خطة جديدة تكسبه ميل العالم الاسلامي ورضاءه عنه»[1].

ب ـ جريدة مصر:

أنشأ أديب اسحق هذه الجريدة بتشجيع من جمال الدين، وكان جمال الدين يرسم له الخطة، ويكتب فيها باسم مستعار (مظهر بن وضاح) وكان يستكتب لها الشيخ محمد عبده وابراهيم اللقاني، إلى أن أغلقها رياض باشا[2].

أما اتجاه هذه الجريدة، فيعرفنا به الأستاذ أنور الجندي إذ يقول: «جريدة مصر: قبطية بمعنى الكلمة، واحتلالية بأوسع من ذلك...

وقد أنشأت، هي وجريدة الوطن، السفارة... في انجلترا بمساعدة القسس البروتستانت»[3].

ومن العجيب أن تمول هذه الصحيفة من قبل القسس البروتستانت بينما الكاتب كاثوليكي أرمني، ورغم هذا يقال بأن جمال الدين ينشر آراءه الدينية فيها[4]».

وكان غلادستون ـ رئيس وزراء بريطانيا ـ المشهور بحقده على الاسلام ـ معجباً بمقالات جمال الدين التي يكتبها في هذه الصحيفة، يقول طرازي: «ولجمال الدين الأفغاني في جريدة مصر مقالتان مشهورتان سمى

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ١/٤٨ .
(٢) زعماء الاصلاح ٦٩ .
(٣) تطور الصحافة للجندي ٦٣ .
(٤) الفكر العربي في مائة سنة ٣٣٤ .

إحديها (الحكومة الشرقية وأنواعها) وأخرى (روح البيان في الانجليز والأفغان) ترنحت لها أعطاف العلماء طرباً، وكان لها تأثير عظيم على أذهان أرباب السياسة الأوروبيـة حتى أن غلادستـون ــ رئيس وزراء انجلترا ــ أثبت في بعض الجرائد مقالة تشهد لجمال الدين أنه من أئمة علماء الشرق حالة كونه من ألد أعداء الانجليز»[1]. ويقول أيضاً: «وهي الجريدة الأولى التي وردت فيها كلمة (مصر الفتاة) ثم درجت بالاستعمال عند أرباب النهضة المصرية»[2]. وهذا يدل على ارتباط الصحيفة بالماسونية المؤسسة لأمثال هذه الجمعيات.

جـ ــ جريدة التجارة:

أنشـأ هذه الجـريدة أديب اسحق في الاسكنـدرية بـاشـارة من جمال الدين الأفغاني وقد حل بها ما حل بأختها جريدة مصر»[3]. وهي جريدة يومية احتفظت بصيغتها التجارية ثم مالت إلى السياسة»[4]. يقول طرازي:

«كان السيد جمال الدين الأفغاني يواصلها بشذرات من قلمه البديع، وخطرات من فكره حتى كان سبب شهرتها، كما كانت بتعظيمها له في النعوت والألقاب من مثل (مهبط أسرار الحكمة واسطرلاب فلك العلوم) إلى غير ذلك مما اعتادت أن تصفـه بـه، سبب نمـاء شهرتـه وانتشار صيته»[5].

٤ ــ مجلة أبو نضارة أو نظارة زرقاء:

صاحبها يهودي نكتي هو (يعقوب صنوع)، وقد أنشأها بايعاز من جمال الدين الأفغاني لينتقد سياسة اسماعيل باشا، وكان اسماعيل باشا

---

(١) تاريخ الصحافة ٣/١٣.

(٢) تاريخ الصحافة طرازي ٣/١٣ .

(٣) زعماء وأصحاب أقلام ١١٨ .

(٥) تاريخ الصحافة طرازي ٣/٥٥ .

يشجع نقد الأجنبي، ويرفض نقده، وكان يسره مقالات الوقائع المصرية ومصر والتجارة، ولا تسره مجلة أبو نظارة.[1].

وهي أول مجلة من نوعها، من حيث التعبير الفكاهي عن المقاصد والغايات لا في مصر وحدها، بل في بلاد الشرق جميعاً[2].

ويعقوب صنوع يلتقي مع أديب اسحق في فكرة (مصر للمصريين) الذي كان ينادي بها جمال الدين[3].

ويعتبر يعقوب صنوع من دعاة تفضيل العامية في الصحف على العربية الفصحى، فكانت صحيفته أول صحيفة تكتب بالعامية[4].

وقد تقلب كثيرا في تسمية مجلته وشعارها فسماها في البداية (أبو نظارة زرقاء) ثم غير الاسم والشعار الى (أبو نظارة) فقط وكتب تحت الشعار (مصر للمصريين)، ثم رجع الى القديم فسماها (أبو نضارة زرقاء) لسان حال الأمة المصرية الحرة، وبقي محتفظا بهذا الاسم الى نهايتها.[5].

ويظهر انه كان مرتبطا بالمؤسسات اليهودية، وكانت تزوده بالمعلومات، فقد روى أن اسماعيل باشا مر بعربته أمام حشد من الناس ومعهم يعقوب وكان على أهبة الخروج من مصر منفيا فصاح بعضهم وقال: (انظر يا أبا النضارة الزرقاء كيف جاء شيخ الحارة ليشتفي منك ويراك بعينه منفيا من بلاده).

فأجابه (بعد سنة ينفي هو مثلي من مصر) وبالفعل نفي بعد سنة بعد خلعه [6]

فلا غرابة فهو من أبوين يهوديين، اتقن منذ الصغر التوراة حتى أصبح لاويا ثم درس الانجيل والقرآن، انشأ عام ١٨٧٢ جمعيتين علميتين

---

(١) زعماء الاصلاح ٧٠ .
(٢) أعلام الصحافة ٥١ .
(٣) أعلام الصحافة ٥٢ .
(٤) أعلام الصحافة ٥٨ وتاريخ الصحافة لطرازي ٢/٢٨٣ وتطور الصحافة للجندي ٣٨
(٥) أعلام الصحافة ٦٥ .
(٦) طرازي ــ تاريخ الصحافة ٢/٢٨٤ .

في الظاهر: احداهما «محفل التقدم» والأخرى «جمعية محيي العلم » ومن اسمها يدل على مقصدهما، وكان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده متحدين معه في الفكر وتوثقت بينهم عرى المحبة.[1].

وقد يشكل علينا سبب عداوته لاسماعيل الذي سبب كارثة الاحتلال، هل كانت عداوته وطنية أم ماذا؟ يقول الأستاذ أنور الجندي «لم تكن خصومته لاسماعيل ولاء لمصر، ولكن كان يعمل على ولاء واضح لفرنسا»[2].

وفكرته هذه تلتقي مع جمال الدين في عدم محاربة فرنسا وكذا أديب اسحق كما مر سابقا، فهم يسيرون في خط واحد، بل يأتمرون بأمر واحد.

أما عداوته للخلافة العثمانية فواضحة تمام الوضوح تتمشى مع يهوديته واليهود الذين يعملون على هدم الخلافة لانشاء الوطن القومي لهم، وكانت الخلافة العثمانية الحجر العثرة في وجه أحلامهم، يقول طرازي: « بعد اعلان الدستور في السلطنة العثمانية بثلاثة أيام سافر الى الآستانة للاشتراك مع العثمانيين في افراحهم الوطنية، ثم عاد مشيعا بالاكرام الى باريس، ومن ذاك الحين أخذ نور عينيه يضعف حتى كف بصره[3].

وكان الرجل ذكيا وأعد اعدادا جيدا في ايطاليا حتى إنه أصدر في مصر جريدة سماها (الثرثارة المصرية) أو (البافار الجبتيان) بثمان لغات عالمية وهي أول جريدة في العالم صدرت بهذا العدد الكبير من اللغات [4].

ولكن كيف اتصل هذا الرجل بجمال الدين الأفغاني؟

يقولون انه ولد في مصر ثم ذهب الى ايطاليا على نفقة احمد باشا

---

(١) تاريخ الصحافة . طرازي ٢/٢٨٣ واعلام الصحافة ٥٠

(٢) تطور الصحافة ــ الجندي ٣٦ .

(٣) تاريخ الصحافة . طرازي ٢/٢٨٤ .

(٤) تاريخ الصحافة . طرازي ٢/٢٨٤

يكن سبط محمد علي الكبيز ثم عاد بعدها مشغوفا بالحياة الأوروبية وحضارتها. [(١)].

ويظهر انه بدأ حياته معلما للرقص في قصر عابدين ثم طرده الخديوي [(٢)] فأنشأ أول مسرح عربي في القاهرة [(٣)] ثم انه وجد في مصر رأيا عاما يوافقه بدأ يتطور تطورا سريعا فاتصل بزعامة هذا الرأي العام الجديد فاذا هو جمال الدين الأفغاني فاشتدت صلته به وبتلميذه محمد عبده عن طريق تعليمهما اللغة الفرنسية، وكان جمال الدين في مصر يقود حركة فكرية [(٤)] وقد عاشت مجلته **٣٤** سنة ثم ماتت بموته عام **١٩١٢** ، وكان اسلوبه فيها يبلغ أحيانا درجة الفحش التي تتعفف أقسى الأقلام عن تدوينه في جريدة سيارة [(٥)]. وكانت له جريدة تصدر في لندن يقال لها (مرآة الأحوال) [(٦)].

بعد كل هذا لا يسعنا الا أن نقول ان هذه الصداقة تلفت الانتباه ووضع اشارة الاستفهام عليها.

هـ صحيفة ضياء الخافقين: وهي صحيفة تصدرها من لندن احدى الشركات باللغة العربية والانجليزية، وقد ساهم في اخراجها جمال الدين الأفغاني. [(٨)].

وقد كتب فيها، في أول عدد تصدر، مقالا بعنوان (أحوال فارس الحاضرة)، وفي العدد الثاني (بلاد فارس) وفيهما يفضح ناصر الدين شاه العجم [(٩)].

---

(١) أعلام الصحافة ٥٠ـ ٥١ .
(٢) تطور الصحافة ــ الجندي ٣٦ .
(٣) أعلام الصحافة ــ ٥٠ .
(٤) أعلام الصحافة أعلام الصحافة ٥٠ ــ تاريخ الصحافة العربية لطرازي ٢/٢٨٣ .
(٥) أعلام الصحافة ــ ٥٦ .
(٦) أعلام الصحافة ــ ٥٤ .
(٨) زعماء الاصلاح ــ ٩٨
(٩) الأعمال الكاملة ٤٣ .

و ــ **البيان**: جريدة كان يصدرها في الآستانة محمد المخزومي، تلميذ الأفغاني، وقد اعد الأفغاني منهاجها، وجعلها على غرار العروة الوثقى، وقد عطلها السلطان عبد الحميد.

أما سبب تعطيلها فيقولون بأنه وقع خطأ مطبعي في مقدمتها فكانت العبارة التي يريد كتابتها كالآتي: (من نوايانا الخدمة العامة والاخلاص ــ والنية سابقة العمل) فكتبت خطأ على الشكل الآتي: (. . . والنية سابقة اليمن) ففهم حاشية السلطان أن الأفغاني والمخزومي يسعيان لتحرير اليمن واستقلالها»[1].

ز ــ **جريدة مصر الفتاة**: يقول الدكتور محمد يوسف نجم أن هذه الجريدة كانت تصدر في الاسكندرية باسم سليم نقاش وأديب اسحق النصرانيين، وكانت بتشجيع الأفغاني»[2].

ويقول طرازي: «وقد أصدرتها (جمعية مصر الفتاة) المؤلفة من الأذكياء ابناء وادي النيل النازلين بساحته»[3].

وأي أذكياء هؤلاء وأغلب اعضائها من اليهود.

أما سبب تعطيلها فيقول طرازي: « وقد تعطلت بعد ظهورها بوقت قصير بمساعي مصطفى رياض باشا ــ رئيس الوزارة المصرية ــ التي كانت تطعن في سياسته طعنا موجعا»[4]. هذا رأي طرازي، ولكن الحقيقة غير ذلك، اذ كيف يطعن بولي نعمته؟

ح ــ **مرآة الشرق**: صحيفة تنطق بالعربية لصاحبها سليم عنحوري النصراني، وقد انشئت بتشجيع من جمال الدين الأفغاني، وتصدر في القاهرة [5].

---

(١) الأعمال الكاملة ٩٨

(٢) الفكر العربي ٦٣ .

(٣) تاريخ الصحافة ــ طرازي ٣/٥٧.

(٤) المرجع السابق ٢/٥٧

(٥) الفكر العربي في مائة سنة ــ ٦٣ .

يقول طرازي: « صحيفة سياسية أدبية نصف اسبوعية أنشأها باقتراح من الخديوي اسماعيل في ٢٤ شباط ١٨٧٩، شاعر دمشق الفيحاء، سليم بك عنحوري وكان قد قدم للخديوي كتابه (كنز الناظم). فجعل خطة الجريدة معتدلة ترمي الى مناهضة الأجنبي في مصر»[١].

ويقول أيضا: « وقد تنازل سليم بك عنحوري عن حقوقه في مرآة الشرق الى مديرها أمين بك ناصيف، الذي عهد بتحريرها الى الشيخ محمد عبده وابراهيم بك اللقاني، فنجحت نجاحا باهرا لأنه جعلها لسان حال الشيخ جمال الدين الأفغاني وتحت رعاية سليمان باشا أباظة». ولكن الحال لم تدم لهذه الصحيفة فتعطلت ثم اعيدت بوساطة رجال من البرلمان الانجليزي.

يقول طرازي: « وفي سنة ١٨٨٤ صدر قرار مجلس النظارة بتعطيل هذا الجريدة مدة ثلاثة أشهر، فأخذ يناصرها جماعة من رجال البرلمان الانجليزي»[٢].

ط ـ جريدة الاهرام: يقول الجندي بأن جمال الدين سعي في تأسيسها»[٣].

وقد تأسست سياسية تجارية أدبية عام ١٨٧٦، صاحبها ورئيس تحريرها (سليم تقلا) النصراني، ومديرها (بشارة تقلا) النصراني، وبعد مذبحة الاسكندرية ـ أي ثورة عرابي ـ (كما سماها طرازي) هجم الثائرون عليها واحرقوا المطبعة لأنها كانت مناصرة للخديوي. وكانت خطتها الداخلية مصرية عثمانية بمعنى انه يجب أن تكون للمصريين تحت سيادة الدولة العثمانية، وكانت سياستها الخارجية تميل الى فرنسا»[٤].

ي ـ جريدة القانون: جريدة تصدر بالفارسية في لندن لمهاجمة شاه ايران.

---

(١) تارخي الصحافة ـ طرازي ٣/١٥

(٢) المرجع السابق ٣/١٦.

(٣) تطور الصحافة ـ الجندي ٣٩٥ .

(٤) تاريخ الصحافة ـ طرازي ـ ٥٠ ـ ٣/٥١

يقول الدكتور الوردي:

« وقد التقى الأفغاني في لندن برجل ايراني تربطه واياه روابط الماسونية هو (المرزا ملكم خان) وكان هذا الرجل كالأفغاني شديد الحنق على الشاه وقد أصدر جريدة باللغة الفارسية اسمها القانون لمهاجمة الشاه، فتعاون الأفغاني معه في تحرير الجريدة وأخذا يملآن صفحاتها بالطعن بالشاه وذكر مثالبه وتحريض الشعب الايراني عليه»(١).

ويظهر أن هذه الجريدة كانت لسان حال الشيعة لأنها كانت تدخل العراق علاوة على ايران.

ويقول السريسي سايكس: « ان جريدة القانون كان لها في ايران تأثير عظيم، فقد كان ملكم خان ذا اسلوب في الفارسية ممتاز فأثار الايرانيين به الى درجة لم يسبقه اليها أي كاتب آخر، وصارت الجريدة تهرب الى ايران خفية في بالات البضائع المستوردة، وقد وضعت الحكومة عقوبات شديدة على كل من توجد لديه نسخة من الجريدة.

وكانت جريدة القانون ترسل الى العراق ايضا، وكان لها قراؤها المتأثرون بها فيه. فقد كان في العراق كثيرون يعرفون الفارسية خاصة بين طلبة الدين وعلمائه في العتبات المقدسة. ومن الممكن القول أن هذه الجريدة مهدت الجو لحركة (المشروطية) التي حدثت فيما بعد.»(٢).

وتقول مجلة الزهراء: « وكان سبب اصدارها أن ناصر الدين شاه ايران كان قد عزل سفير ايران في لندن (ملقوم خان) لاختلاف بينهما بالرأي فاتفق مع جمال الدين لاصدار هذه الجريدة، وقد عملت على مناهضة الشاه ووزيره الأعظم»(٣).

وفي الختام أقول:

هذا ما استطعت التوصل اليه من الصحف والمجلات التي عمل

---

(١) لمحات اجتماعية ج ٣ ص ٣٠٠ .
(٢) المرجع السابق
(٣) مجلة الزهراء المجلد الأول ص ٦٣٩ .

على تأسيسها راخراجها، وأختم قولي بأن هذه الضخامة من الصحافة تخدم دعوته الغامضة كما يقول الدكتور محمد يوسف نجم»[١].

٢ــ الخطابة: كان جمال الدين الأفغاني خطيبا يأخذ الألباب وكان جريئا لايهاب في قولته أحداً، ويروي لنا أنور الجندي خطبة شهدها شبلي شميل فقال: « وقد شهده شبلي شميل خطيبا على ندرة ذلك منه فقال : « انه وقف في تياتروزيزينيا،[١] وعلى محضر جمهور غفير من علية القوم، فألقى خطبة سياسية أبدع فيها معنى ومبنى وجرأة، وبقي يرتجل الكلام نحو ساعتين دون أن يبدو عليه أدنى تعب أو تلعثم حتى خلب العقول وأقام الناس وأقعدهم». وقال شبلي شميل: « انه تكلم بلغته الممزوجة ببعض لكنة أعجمية تنم عن أصله وكان وقعها على الأذن محبوبا، تكلم فيها بصراحته النارية. . . »[٢].

ولما ترجم الدكتور توفيق طويل جمال الدين الأفغاني نوه الى أن دعوة الأفغاني انتشرت وذاع صيتها بفضل خطبة الرنانة فقال: « وقد وفق بخطبه الثائرة المتدفقة في أن يلهب المسلمين في شتى الأقطار الاسلامية ويوقظ فيهم الوعي لما كانوا عليه من القوة، وما هم فيه الآن من ضعف، وكان لخطبه تأثيرها البالغ في المجتمع الاسلامي ــ فيما يقول الفريد كانتول سميث ــ »[٣].

وقد وصفه جرجي زيدان الذي كان من محبيه فقال: « كان خطيبا مصقعا لم يقم في الشرق أخطب منه »[٤]. والدكتور الوردي يحدد مكان الخطبة التي ذكرها الجندي. (وذكر شبلي شميل أنه شهد لجمال الدين خطبة في الاسكندرية وكان قريب العهد بمصر فوقف ساعتين يتكلم بلسان عربي فصيح حسن الكلام والمعنى حتى أدهش الناس»[٥].

«١» الفكر العربي في مائة سنة ٦٣ .

(١) التياترو: كلمة أجنبية معنا المرقص أو نادي الرقص.

(٢) أعلام وأصحاب أقلام ١١٣ .

(٣) الفكر العربي ٣٠٢

(٤) الرد على الوردي ٥٩ .

(٥) الرد على الوردي ٥٩ .

وينقل ابن اخته الميرزا لطف الله خان عبارة جاءت في صحيفة فارسية فيقول: «وأكبر صفاته الممتازة قدرته الخطابية التي كانت تضارع نفسه الجياشة بالعواصف الملتهبة بالايمان»(١).

ولكن هذه الخطب كانت لخدمة هدفه السياسي، فالخطبة التي ألقاها في الاسكندرية كانت سياسية، وقداختار لها (التياترو) بدلا من المسجد خشية أن تقوم عليه جمهرة العلماء ويشنعون عليه.

٣ــ الثورة والخروج على الحكام:

من الوسائل التي استعملها لتحقيق غاياته الثورة الدموية وحمل السلاح والقتال، وأحيانا الثورة السياسية البيضاء.

يقول أبو ريه تحت عنوان (وسائله لتحقيق غاياته): « اتخذ السيد جمال الدين طوال حياته لتحقيق غاياته ــ وسائل الثورة السياسية، وكانت هذه الوسائل هي ما يتفق مع مزاجه، وقد ظن أنها أسرع الطرق للوصول الى ما يبتغيه...»(٢).

ويقصد من عبارة (الوسائل التي تتفق مع مزاجه) أي أن جمال الدين كان حديد المزاج ولا تلائمه إلا الثورة ولذا يقول أبو ريه: «وكان من رأيه (أي الأفغاني) أن الاصلاح التدريجي بطيء الخطا»(٣).

ولهذا اختلف معه تلميذه الأكبر الشيخ محمد عبده بعد فشل ثورة عرابي وكان يرى أن اليقظة الفكرية والدينية هما السبيل الى تحقيق أغراض الأمم الاسلامية (٤).

وبعد أن افترقا عاد محمد عبده الى مصر وغير سيرته وسلوكه تماما خلافا لشيخه وأستاذه وأصبح يبتعد عن السياسة كل البعد.

---

(١) جمال الدين أسد آبادي ١٤٤ .
(٢) جمال الدين ــ أبو ريه ٥٢
(٣) المرجع السابق ٥٢
(٤) المرجع السابق ٥٢

يقول الأستاذ ابراهيم احمد العدوى: « ولما افترق جمال الدين الأفغاني عن محمد عبده بعد اغلاق جريدة العروة الوثقى بدأ منهج كل من هذين المصلحين يأخذان اتجاها خاصا يتفق مع طبيعة كل منهما. فجمال الدين الأفغاني ظل يرى ألا سبيل للاصلاح والتجديد الا عن طريق السياسة وعلى حين نادى محمد عبده بأن الاصلاح والتجديد يأتي عن طريق التربية والتعليم وبعبارة أخرى نادى موقظ الشرق بأن تجديد الأمة باصلاح الدولة، على حين حاول تلميذه محمد عبده أن يثبت بأن تجديد الدولة باصلاح الأمة»(١).

ويأتي أنور الجندي من بعد ذلك ويؤيد ما قاله أبو ريه أيضا فيقول:

« وقد آمن جمال الدين بأن الثورة السياسية هي الوسيلة المثلى لتحقيق دعوته، وفي سبيل ذلك يرى جواز خلع واقصاء الامراء الذين يؤيدون النفوذ الأوروبي أو يحولون دون هذه الاهداف، أما وسائل لاصلاح التدريجي عن طريق التربية والتعليم فكان يرى انها بطيئة جدا، وفي سبيل هدفه دفع تلاميذه..»(٢).

ولذا وجدنا تلاميذه فيما بعد يعملون على الثورة فكانت ثورة عرابي من تحريضه.

وكان الأفغاني يعد للثورة عدتها ويصنع المؤسسات الثورية التي تعمل في الخفاء كالجمعيات السرية ويؤلف الجيش الثوري من كافة طبقات الشعب، داخل الأحزاب التي يؤسسها.

فالأفغاني لمس خلال تجاربه أثر التنظيمات السرية وخاصة جمعية تركيا الفتاة والحركة الماسونية ودور الصحافة في تكوين الرأي العام الثوري، وليس من ضير عليه اذا هو تبنى تلك الأفكار والتنظيمات التي لم نكن بعيدة عن غايته»(٣).

---

(١) رشيد رضا الامام المجاهد (١٠٦)..

(٢) أعلام وأصحاب أقلام ١٠٤ .

(٣) الفكر العربي في مائة سنة ٣٠

ورأي تشارلز مشابه لرأي أبو ريه في هذا الموضوع يقول تشارلز:

«وكان من خاصة مزاج الرجل، أن الوسائل التي تخيرها لتحقيق غاياته كانت وسائل الثورة السياسية، فقد خيل اليه أنها أسرع الطرق وآكدها في تحرير الشعوب الاسلامية وتغذيتها بالحرية الضرورية لتنظيم شئونها.

أما وسائل الاصلاح التدريجي والتعليم فكان يرى أنها بطيئة جدا غير محققة العاقبة»(١).

من استقراء هذه الأقوال يتبين أن جمال الدين ربما كان يعد نفسه لحكم يقوم على الثورة وقد ذهب البعض أنه كان يريد الوصول الى الحكم لتحقيق أهدافه بسرعة.

٤ـ تدبير المؤامرات والاغتيالات للتخلص من الخصوم:

بما أن جمال الدين يؤمن بأن التغيير الثوري هو اجدى وأنفع من العمل التربوي البطيء وكان لا بد أن يقف في وجهه أشخاص ذوو نفوذ، يرى أنه لا بد من ازالتهم، ولذا كان أحيانا يخطط ويعمل على اغتيال الشخصيات المعادية من ملوك وأمراء ورؤساء جيوش.

قال جمال الدين في حديث له مع المستربراون: «لا أمل في الاصلاح قبل قطع ستة أو سبعة رؤوس» وسمى بالاسم شاه العجم وكبير وزرائه (٢).

ولذا تآمر على قتل اسماعيل لما استعصى عليه أمر خلعه. وقد روى كرومر في كتابه مصر الحديثة أن محمد عبده قال: «ان الكلام دار في خطة معينة لاغتياله (أي الخديوي اسماعيل) لم تنفذ لعدم وجود الشخص الذي يتكفل بذلك»(٣).

---

(١) تشارلز ــ ١٥ (الاسلام والتجدد والتجديد في مصر).

(٢) الاسلام والتجديد في مصر تشارلز ١٥ هامش عن الثورة الفارسية ٤٥، ٢٨. أعلام وأصحاب أقلام ١١٧.

(٣) تشارلز ١٦ هامش أعلام وأصحاب أقلام ١١٧.

فهذا يثبت أن التآمر حصل في السر لاغتيال الخديوي اسماعيل، والظاهر أنه جمع تلاميذه وتداولوا أمر الخديوي وكيفية التخلص منه وبعد اختلاف اتفقوا على اغتياله.

يقص علينا المستر بلانت، صديق جمال الدين الأفغاني والمطلع على أسراره، في تاريخه السري انه في ربيع عام ١٨٧٩ كثرت المنافسة بين التلاميذ الأنصار في الوسائل التي يمكن بها خلع الخديوي اسماعيل أو في اغتياله اذا استعصى خلعه.(١).

وعلى كل حال تم خلعه بمساعي جمال الدين الأفغاني وتخلصوا منه دون اغتياله. وقد عبر عن هذه الصفة في جمال الدين المستر تشارلز اذ يقول:

« وكان يريد أن يرى قبل موته تحقيق النتائج، فكافح لقلب النظام القائم. وكان يرى جواز خلع وقتل امراء المسلمين. . . »(٢).

وبناء على كل ما تقدم واستنتاجا من معظم الحوادث التي حصلت في ايام جمال الدين يلخصها الدكتور محمد محمد حسين: « والمهم أنه كان يتخذ الاغتيال وسيلة من وسائله السياسية»(٣).

أما بالنسبة لمقتل شاه ايران فأكثر المترجمون يعزون الى جمال الدين أمر قتله، والقليل نفوا عنه ذلك، فلنستعرض هذه القضية بالتفصل. .

يقول الدكتور عمارة: « وبعد خمس سنوات من تاريخ طرد الشاه ناصر الدين الأفغاني ، خر الشاه صريعا بيد واحد من اعوانه في ذات البقعة التي طرد منها، بل لقد تم اغتيال جميع الذين دبروا ونفذوا مأساة طرده من ايران»(٤).

ويقول الدكتور محمد محمد حسين: « هو المسؤل عن اغتيال ناصر

---

(١) تشارلز ١٥ هامش . أعلام وأصحاب أقلام ١١٧ .

(٢) تشارلز ١٥ . (الاسلام والتجديد في مصر).

(٣) الاسلام والحضارة الغربية ٦٨ ٨٢

(٤) الأعمال الكاملة ٤٦ .

الدين شاه ايران. . ، اتصل برجل هارب من ايران يدعى (ميرزا رضا الكرماني) وحرضه على قتله. »[1].

أما شكيب ارسلان فيقول: « ففي احد الأيام قدم على جمال الدين رجل من العجم، بابي المذهب، اسمه (رضا آقاخان)، صادف أنه اجتمع مع جمال الدين في حبس واحد في قزوين عندما اعتقله الشاه، فحصلت بينهما صحبة أكيدة، ثم تفارقا عندما أخرج جمال الدين من الحبس ونفي الى بغداد، ثم اخلي سبيل رضا آقا هذا، ولما بلغه بمجيء السيد الى الآستانة جاء يزوره فيها، فسر به السيد كثيرا، وكان دائما يحادثه ويتكلمان على شقاء الأمة الايرانية، بسوء ادارة سلطانها ناصر الدين»[2].

وقد أخطأ أنور الجندي في نقل العبارة من حاضر العالم الاسلامي، فصحف العبارة الآتية (بابي المذهب) الى (ويدعى بأبي الذهب) [3]، فظن القاريء للعبارة أن الرجل كنيته أبو الذهب، بينما هو بابي المذهب من اتباع الشيرازي».

أما كيفية القتل، فيقول الجندي: « بينما ناصر الدين في جامع عبد العظيم في طهران، اذ دنا منه هذا الرجل وقتله غيلة وقال:

« خذها من يد جمال الدين».

وجاءت الأنباء الآستانة، وتحدث الناس عنها فلم يخف جمال الدين مشاعره بل ابدى سروره، . . .

ولما وردت المجلة الفرنسية وفيها صورة القاتل مصلوبا معلقا والناس ينظرون اليه هتف جمال الدين: (علو في الحياة وفي الممات)»[4].

غير أن الصحف البريطانية لفقت القصة وادخلت مع الأفغاني في المؤامرة السلطان عبد الحميد، وهو خلاف الواقع. يقول الدكتور الوردي:

---

(١) الاسلام والحضارة الغربية ٦٨ ٨١ .

(٢) حاضر العالم الاسلامي ٢/٢٦٥ .

(٣) أعلام واصحاب اقلام ١١٨.

(٤) اعلام واصحاب اقلام ١١٨.

« ذكرت الصحف البريطانية في حينه أن القاتل كان بابيا غير ان التحقيق الذي قامت به الحكومة الايرانية مع القاتل دل على أنه من انصار الأفغاني وانه كان قد اجتمع بالأفغاني في اسطنبول وحرضه على اغتيال الشاه.

واعترف القاتل في التحقيق ان السلطان عبد الحميد كان قد أوعز الى الأفغاني بذلك وقال له: (لا تخشى شيئا)»[1].

ويظهر ان المتآمرين على قتله عدة اشخاص، يقول شكيب ارسلان:

« كانت الحكومة الايرانية شرعت في تحقيق حادثة القتل فثبت لديها اغراء جمال الدين لرضا آقاخان بالاشتراك مع شخص فارسي آخر اسمه (رضا آقا خان) أيضا وشخص بغدادي اسمه الشيخ ابراهيم»[٣].

كما ان الدكتور عبد المنعم محمد حسنين يؤيد القول بتحريض الأفغاني على قتل الشاه، مخالفا بذلك صاحب الكتاب المقدم له.

يقول الدكتور عبد المنعم: « ولما القى جمال الدين عصا الترحال بعد زيارته الأخيرة لايران، صمم على البقاء في الآستانة ، واجتمع حوله مريدوه، وكانوا من الايرانيين.

ثم جاء رجل هارب من ايران يدعى ميرزا الكرماني، وكان يعرفه من قبل، فلما سأله عن سبب فراره من ايران قال له: (كنت اشتغل بالتجارة في طهران فاشترى كامران ميرزا — احد ابناء الشاه — مني بضاعة، وامرنا ان نذهب الى داره لقبض ثمنها، غير انه اخذ يماطلني ويحدد لي مواعيد مختلفة، دون جدوى. حتى انقضت ثلاث سنوات، فطلبت منه ان يرد البضاعة أو يدفع نصف ثمنها، ولكنه رفض ثم لم يلبث أن أمر بضربي وحبسي، غير اني دبرت وسيلةللفرار من السجن والنجاة بنفسي، وان كنت نادما أشد الندم على ما فعلت، فقد ضاعت مني فرصة الأخذ بالثأر بعدما أصابني من خسارة وذل وهوان...

---

(١) لمحات اجتماعية ج ٣ ص ٣٠٧ .

(٢) حاضر ٢/٢٩٦ . (حاضر العالم الاسلامي).

حقا لقد كان يجب علي أن أنتقم لنفسي من هذا الأمير الغاشم الغادر) فقال له جمال الدين: (وكيف كنت تنتقم لنفسك لو كنت في ايران) فقال: (كنت أقتل الأمير). فقال له جمال الدين: (فما الفائدة اذن من قطع الغصن مع بقاء الأصل؟ ان الأولى اجتثاث الشجرة من أصولها).

وقد تأثر ميرزا رضا بكلام جمال الدين غاية التأثر وصمم على العودة الى ايران لقتل ناصر الدين»[1].

كل هذه الروايات تقول بأن جمال الدين متآمر على قتل ناصر الدين، ومع ذلك هناك من يشكك في هذا، وينفي عنه التآمر.

ومن المشككين المؤرخ عبد الرحمن الرافعي، اذ يقول:

« .. ولكن حدث أن قتل الشاه سنة ١٨٩٦، فاشتدت الريبة في جمال الدين، واتجهت اليه شبهة التحريض على قتله»[2].

ثم يؤكد هذا النفي، فيقول بأن هذه التهمة كانت السبب في التآمر عليه والقضاء عليه.

يقول الرافعي: « تواترت الروايات بأن جمال الدين مات شبه مقتول وتدل الملابسات والقرائن على ترجيح هذه الواقعة. فان اتهامه بالتحريض على قتل الشاه، وتغير السلطان عبد الحميد عليه، وحبسه في قصره، ووشايات أبي الهدى الصيادي، مما يقرب الى الذهن فكرة التخلص منه..»[3].

ولعل الأستاذ الرافعي اطلع على كلام صفات الله بن الميرزا لطف الله خان فأيده، يقول صفات الله: « وأما ما يقولونه من أن هذه الواقعة قد تمت باذن من السيد، فأنا اكذبه لأن كل ما اتصل بعلمي أن السيد لم يكن يرغب في هذا العمل، كما أن وقوع هذه الحادثة قضت على أكثر

---

(١) جمال الدين أسد آبادي ٣٢ ــ ٣٣.
(٢) الرافعي ــ جمال الدين ١٤٠.
(٣) المرجع السابق ١٤١.

خطط السيد، والسر الذي دعا مرزا رضا الى ارتكاب ذلك الأمر هو أنه لم يطق أن يرى ابعاد السيد بتلك الاهانة والقسوة مع فرط عشقه وحبه له، فلذلك أبدى عشقه الحقيقي للعيان»[1].

والقول الأول هو الأصح.

وقد انتقد الدكتور محمود قاسم موقف جمال الدين هذا وتآمره على قتله فقال:

« ولم يف جمال الدين بما وعد، ولم يكف عن الطعن في الشاه والتحريض عليه الا بعد أن انزله لحده، كما اقسم من قبل»[2].

٥ـ مجالسه الشعبية: كان من وسائل دعوته أن يخالط مختلف الطبقات الشعبية ويجالسهم ولم يتخذ مقرا ثابتا ـ فكان يتنقل حسب مستلزمات دعوته. يقول الدكتور الوردي: « وعند ما سكن في اسطنبول صار يتردد على منتزه « الكاغد خانه» فيذهب الى اكواخ الغجر الموجودة في ناحية منه، حيث يخاطبهم ويتحدث اليهم ويقدم لهم البخشيش»[3].

ومن مجالسه أنه كان يرتاد القهاوي واماكن التنزه عندما كان في مصر يقول سليم عنحوري: « وكان من ديدن جمال الدين أن يقطع بياض نهاره في داره حتى اذا جن الظلام خرج متوكئا على عصاه الى مقهى قرب الأزبكية، وجلس في صدر فئة تتألف حوله على هيئة نصف دائرة»[4].

وأحياناً كان يعقد جلساته في قهوة بالقرب من العتبة الخضراء يقال لها قهوة (البوستة)»[5].

ويقال بأنه كان يقعد في قهوة متاتيا وهي امام حديقة الأزبكية»[6].

---

(١) جمال الدين الأسد آبادي ١٣٩
(٢) جمال الدين الأفغاني ـ محمود قاسم ٨٣ .
(٣) لمحات اجتماعية ٣١٢ .
(٤) زعماء الاصلاح ـ ٧٢ .
(٥) المرجع السابق ٦٤ .
(٦) جمال الدين ـ الرافعي ١٥٢ .

وهـذه المقهى لرجـل يونـاني اسمه متـاتيـا وهي امـام البـريـد المركزي»[1].

وأحيانا يعقد جلساته في بيته الكائن في حي خان الخليلي»[2].

وكان بيته يشبه المنتدى حيث يجتمع فيه الأدباء والعلماء»[3].

وكان من عاداته أن يصحب معه خادمه (عارف ابو تراب) الذي يلازمه كظله، فاذا جلس في المقهى جلس معه واذا ذهب الى المنزل ذهب معه»[4].

وقد ذكرت في ترجمته أنه كان يرتاد بعض المنتزهات وأماكن الراحة والترويج عن النفس، واعتبرها بعض تلاميذه انها من جملة المباحات التي سمح بها الشرع، فلا ضير على جمال الدين في ارتيادها.

أما خصومه فكانوا يعدونها منقصة له وان الواجب عليه ارتياد المساجدوالابتعاد عن اماكن الشبهات.

أما باقي الوسائل فلم اتعرض لها هنا لأنني تكلمت عنها سابقا، فقد ذكرت الشيء الكثير عن عمله السري وعن الأحزاب التي شكلها، فمن أراد الاستزادة غليرجع الى الفصل الثاني في الباب الأول عند الكلام على نشاطه السري، والى الفصل الثالث من الباب نفسه في بحث ماسونيته.

ومن الواجب قبل الانتهاء من هذا الفصل التنويه إلى أن جمال الدين كان يختار المقهى والمتنزه، لأن معظم مريديه أتباع هذه الأماكن أو أنهم ممن لا تسمح الظروف لهم بارتياد غيرها. فمثلاً يوجد من أتباعه من هو نصراني أو يهودي وهؤلاء لا يمكنهم دخول المساجد ليتلقوا أفكاره ودرره الفلسفية، فليس لهم إلا مكان واحد، وكانت المقهى أصلح شيء لجمع هؤلاء.

---

(١) لمحات اجتماعية ٣/٢٧٥ .

(٢) زعماء الاصلاح ٦٤ .

(٣) تاريخ الأستاذ الامام ــ ١/٤٤ .

(٤) لمحات اجتماعية ٣/٢٧٥ .

وقد يسأل سائل هل علم انه دخل كنيسة أو معبدا لليهود؟ الجواب على ذلك انه لم يدخلها خشية الطاعنين عليه، ولكنه مهد الطريق لأمثال هذه الاجتماعات عندما دعا الى توحيد الأديان حتى اصبح القسيس يخطب على منبر الأزهر، ويخطب الشيخ في الكنيسة، ولو امتد به الأجل لفعل فعلتهم.

وهكذا نخلص الى القول في وسائله أنه كان على جانب كبير من التحرر والانطلاق وما كان ليترك وسيلة توصله الى هدفه الا طرقها مهما كانت متقدمة، ولذا رأيناه يغير شكله كلما حل في بلد، فعندما دخل الحجاز وضع العقال على رأسه وعندما كان في ايران وضع عمامة سوداء ايرانية، وعندما نزل مصر وضع عمامة بيضاء ولبس الطربوش وغير ذلك في أوروبا.

كما أنه غير صفته من ايراني الى أفغاني، ومن شيعي الى سني حنفي وذلك من الوسائل التي تساعده على نشر دعوته، وهكذا.

ـ الخاتمة ـ

وفي ختام البحث ، استعرض النقاط الرئيسية التي توصلت اليها وهي كما يلي:

١ـ ولد جمال الدين في ايران في همذان في قرية أسد آبادي، وكان ذلك في عام ١٢٥٤ هـ /١٨٣٩ م.

٢ـ ينسب جمال الدين الى أبوين ايرانيين، ومن أسرة واحدة حيث أن أمه ابنة عم أبيه.

٣ـ نشأ في ايران وتلقى العلم على أبيه حتى العاشرة، ثم انتقل عام ١٢٦٤ هـ ،/١٨٤٨م الى مشايخ بلده ثم الى مشايخ العراق عام ١٢٦٦هـ ، وكل ذلك في المذهب الشيعي الجعفري، ثم أكمل دراسته الفلسفية العليا في الهند عام ١٢٧٠هـ /١٨٥٣ م.

٤ـ دخل أرض الحجاز لمرة واحدة في عمرة عام ١٢٧٤ هـ /١٨٥٧ م ولم يعد اليها حتى وفاته، ولا ندري عن الهدف من دخوله الحجاز أكان لأداء فريضة الحج أم لغيره؟ رغم أن المترجمين يقولون بأنه أدى فريضة الحج.

٥ـ حل في بلاد أفغانستان ومكث فيها من عام ١٢٧٤ـ ١٢٨٥هـ أي ما يقارب إحدى عشرة سنة، ولم يسبق له ولا لأحد من أصوله دخول بلاد الأفغان، ولما رحل عنها لم يعد اليها الى أن مات، ولكن نقلت رفاته اليها عام ١٩٤٤ م وهي موجودة الآن هناك.

٦ــ دخل بلاد الأناضول مرتين، الأولى أيام السلطان عبد العزيز عام ١٢٨٦هـ /١٨٦٩م، وأخرج منها بعد خلاف مع شيخ الاسلام حسن فهمي أفندي. ودخلها مرة ثانية عام ١٣١٠ هـ /١٨٩٢ م أيام السلطان عبد الحميد الثاني وبقي فيها حتى وافاه الأجل.

٧ــ دخل مصر مرتين أيضا، بقي أربعين يوما في الأولى وثمان سنوات في الثانية، وكانت اقامته في مصر أخصب أيام حياته، وفيها باض وفرخ، وأنشأ الماسونية الفرنسية وألف الأحزاب المشبوهة التي تضم مختلف الأديان كالحزب الوطني الحر، ومصر الفتاة، وراح يعمل في الخفاء وراء الأجهزة السرية.

٨ــ أمضى ردحا من حياته في أوروبا مختارا، بعد اخراجه من مصر، وتنقل بين عواصم الدول المستعمرة كلندن وباريس وبطرسبرج من عام ١٣٠٠ هـ ـ ١٣٠٧ هـ، منها أربع سنوات في روسيا القيصرية. وكانت زيارته لها غامضة استطعت كشف بعض أسرارها، ولكن لم تكن زيارته لها مشرفة ولم يخدم فيها مصلحة دينية ولا وطنية.

٩ــ كانت وفاته بالسرطان باجماع الأطباء المختصين، وقد شذ بعض الكتاب عن هذا الاجماع دون بينة، وسبب هذا المرض الدخان الذي كان يدمن عليه بكثرة، وذلك في عام ١٣١٤ هـ /١٨٩٥ م.

١٠ــ دفن في تركيا أولا، ثم جدد قبره من قبل مستشرق امريكي عام ١٩٢٦ م أي بعد وفاته بـ ٣١ سنة، ثم نقل جثمانه الى بلاد الأفغان عام ١٩٤٤ م ظنا منهم أنه أفغاني، وهو اليوم هناك.

وهكذا طويت صفحة هذا الرجل وقد ملأ الدنيا صياحا وشغل الناس مُدة حياته التي دامت ٦٠ عاما قمريا أو ٥٨ عاما شمسيا وقد لوحظ عليه أمور كثيرة منها:

١ــ كثرة تقلبه وتلونه، فهو يغير شكله على حسب البيئة التي ينزل فيها، فقد لبس العقال في بلاد العرب، والطربوش في بلاد الافرنج، والعمامة السوداء في بلاد العجم، والعمامة البيضاء في مصر. كما لبس القفازين البيض وعقدة الرقبة عندما كرس للماسونية.

كما لوحظ تقلبه في دعوته، فقد دعا الى الجامعة الاسلامية ثم تركها وأخذ يدعو الى جامعة شرقية. كما مال الى الدعوة الرأسمالية في أول أمره وهاجم الاشتراكية، ثم انتقل عنها الى الاشتراكية وأخذ يهاجم الرأسمالية والأغنياء الى أن وصل به الأمر لمهاجمة عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ ودعا الى القومية عندما بدأ اليهود مهاجمة الخلافة وكان قبل يدعو الى الانسانية والأخوة العالمية التي هي شعار الماسونية.

٢ــ كما لوحظ أن اتباعه وأصدقاءه كانوا مجموعة من أخلاط تشبه عصبة الأمم، فكان لليهود مكانة عنده، فطبيبه هارون يهودي. وتلميذه مؤسس الصحف والمجلات يعقوب صنوع يهودي لاوي، وكان معلما للرقص.

كما كان للنصارى مكانة أخرى عنده، فسليم نقاش الممثل والصحافي نصراني وأديب اسحق الصحافي الثاني نصراني ارمني، وبلنت صديق العرب، الجاسوس البريطاني، كان من أعز أصدقائه، وجورج كونجي الرجل الوحيد الذي حضر وفاته ومات وهو ينظر اليه بارتياح نصراني، عدا عن مجموعة من الصحفيين النصارى الذين كانوا يتعاطفون معه وينشرون مقالاته.

٣ــ ولوحظ أيضا أنه يعمل من وراءأجهزة سرية عرفنا الكثير عنها، ولا بد أنه خفي علينا شيء غيرها.

حل في بلاد الحجاز فشكل جماعة سرية اطلق عليها اسم (أم القرى)، وفي مصر ألف الحزب الوطني الحر السري ثم انكشف أمره، كماترأس الحركة الماسونية وأدخل رجال الأزهر فيها، وألف حزبا سريا من يهود الاسكندرية سماه (مصر الفتاة) على منوال جماعة (تركيا الفتاة) المؤلف من يهود سالونيك. ولما رحل الى أوروبا اصدر مجلة العروة الوثقى لسان حال جمعية سرية بالاسم نفسه وكانت تمول من الجمعية، وكان لسان المجلة اسلامياً وقلبها يهودياً لارتباطها بالجمعيات السرية المنتشرة في أوروبا. عاد الى وطنه ومسقط رأسه ايران ليعتلي أعلى منصب حكومي بعد الشاه فيدخل في الماسونية المئات من كبار قومه. وحتى في

روسيا كانت اتصالاته مع الدولة سرياً، ومعاهداته معهم سرية. فهو يعمل في السر وللسر.

٤ــ كما تشير الروايات عنه في عقيدته خللا فالظاهر أنه شيعي امامي اثنا عشرى على مذهب الايرانيين، كما أنه يؤمن بصحة نظرية دارون، بل انه يعتبر هذه النظرية هي من مفاخر المسلمين، وأنهم السباقون اليها، كما أنه يؤمن بوحدة الوجود على الطريقة الفلسفية التي تقول بأن الوجود المحسوس وغير المحسوس يشكل مجموعة الذات الالهية، كما أنه يرى أن النبوة مكتسبة يمكن الوصول اليها بالمجاهدة والرياضة، عدا عن التلاعب بالنصوص القرآنية وتكييفها لتنسجم مع العلوم العصرية التي لا زالت في نطاق التجربة والاختبار.

٥ــ ويلاحظ أيضا أنه كان يهاجم الاستعمار في جميع وسائله ثم يتفق معهم من وراء الستار، فهو يتفق مع الاستعمار في نقل الخلافة من الأتراك العثمانيين الى العرب، وهو يعلم بضعفهم وعجزهم عن حمل هذا العبء في تلك الفترة فكان غايته من ذلك هدمها فقط.

وهو أيضا متفق معهم في وجوب خلع السلطان عبد الحميد، وهو يعلم أنه الشخص الوحيد الذي يقف في وجههم ويتمنون زواله بل ويحفرون من تحته، وقد اعترف بذلك.

ولما نشبت ثورة المهدي كان في صف أعداء الثورة بل كان يعمل معهم على اخمادها وهو يعلم أنها أعطتهم درسا قاسيا وأنزلت فيهم الخسائر الفادحة.

وقد تبين أنه يميل الى فرنسا ميلا كبيرا، فلم يعرف عنه أنه هاجم سياسة فرنسا الاستعمارية، كما أنه نقل ماسونيته من التبعية البريطانية إلى التبعية الفرنسية، كما أن معظم تلاميذه والذين يدورون في فلكه كانوا على شاكلته في ميلهم الى فرنسا، ولذا كانت معظم الصحف التي أشار على أصحابها بتأسيسها كانت تميل الى السياسة الفرنسية.

على أن ميله الى الانجليز كان يسير على أساس تبادل المصالح، فلما تصالحت فرنسا مع بريطانيا خفف هجومه عليها، ولم تكن روسيا

أقل حظا من فرنسا من الميل نحوها. على أن بعض تلاميذه يميلون الى الانجليز.

٦ـ كما فتح أبوابا كانت مقفلة، فكان له السبق في سن السنن السيئة التي عليه وزرها ووز من عمل بها الى يوم القيامة.

منها أنه فتح باب الربا اليسير في المعاملات، وكان موصدا تماما، وجاء من بعده من تمسك به وأخذ ينادي به في كل مجلس، حتى أصبح معضلة يصعب حلها.

ومنها أنه فتح باب السفور الذي أدى الى الفجـور، ووضعت المؤلفات باسم تحرير المرأة والدفاع عن حريتها المزعومة. ومنها أنه أول من دعا الى توحيد الأديان السماوية الثلاثة، وايجاد جسر يعبر عليه كل من أراد التقارب مع سائر الأديان الأخرى، حتى جـاء زمان صعـد القسيس منبر الأزهر وخطب الأزهريون في الكنائس.

٧ـ كما يلاحظ أن هناك جهة مجهولة كانت تموله وتنفق عليه خلال تنقلاته المستمرة.

فبعد أن أنهى دراسته في الهند رحل في بلاد الأفغان مدة ثم بدأت حياة الحط والترحال، ففي مصر كانت انفق عليه الحكومة المصرية بايعاز من رئيس وزرائها رياض باشا ذي الميول المشبوهة، وكان جمال الدين يدرس في الأزهر ثم تركه واتخذ البيت مدرستـه واستمر الـراتب في جريانه، وكان ينفق معظمه على المقهى والدخان وأجرة بيته الكائن في حي اليهود، وكان أغلب الأحيان هو الذي يدفع لصاحب المقهى عن جميع تلاميذه، وفي رحلاته البعيدة كانت أحيانا تنقله البواخر البريطانية على نفقتها.

ولما نزل أوروبا كانت تأتيه الأموال من جمعيته السرية ـ كـما يدعي ـ وكانت العروة الوثقى توزع مجانا، وكان هو وتلاميذه في أوروبا يعيشون على أموال تأتيهم من جهة مجهولة.

ثم انه ذهب الى روسيا وجلس فيها أربع سنـوات على قـول

أكثرهم، وأخذ يتنقل في ربوعها ويتمتع بخيراتها وفنادقها ووسائل نقلها وهو لا يملك شيئا من المال حسب أقوال تلاميذه، فمن أين كان ينفق؟ والتنقلات كانت باهظة والفنادق غالية، وكل شيء بثمن ولا أحد ينفق على أحد الا وله مأرب.

٨ـ ومما يلفت النظر أيضا في دراسة حياته أنه كان يتمتع بسمعة عالية فلا يكاد ينزل في بلد حتى يستقبل بالحفاوة والاحترام، ومعظم المستقبلين له من نوعية خاصة وهم الحكام والوزراء، مع أنه لم يخلف وراءه عملا عظيما أو ثورة شعبية عارمة، وانما كان يطرد لأسباب مختلفة كاتهامه بالزندقة أو الالحاد أو العمل على افساد العامة.

والعجيب أن يتفق في خصومته العالم التقي والشعب المؤمن، ولا يترك خلفهمؤيدين يعتد بهم ويناضلون من اجله سوى المخدوعين من تلاميذه.

وقد أثارت عجب المترجمين هذه الضجة التي تحيط به من كل جانب كلما حل بلدا أو نزل أرضا. وأكثر من يثير حوله هذه الضجة هم أصحاب الأقلام الماسونيون والصحف والمجلات المأجورة كأنهم يعدون له الأرضية التي يقف عليها، ولكن سرعان ما يكشف أمره وتعرف غايته. ولم يطب له المقام في بلد كمثل البلاد المصرية، أما في تركيا فلم يكد يضع قدمه فيها حتى كشف أمره.

٩ـ وأخيرا علينا أن نتساءل ما هي الدعوة التي خلفها؟ فمن دراستي له تبين لي أنه لم يكن له دعوة مستقلة محددة الأطراف ، فان قلنا انه داعية إلى التجديد والتحرر، قيل بل انه كان يدعو الى التحلل والتفلت وقد رأينا ثمرات ذلك في خروج النساء في الشوارع كاسيات عاريات.

وأخيرا أقول ان دعوة جمال الدين، كانت دعوة يحيطها الغموض وعدم الوضوح والظاهر أن دعوته في ميزان الاسلام **دعوة منحرفة** أفسدت الكثير وانه صاحب دعوة سياسية اكثر من كونه داعياً اسلامياً.

واذا كان الناس منذ زمن يعملون بالكتمان والسر فإنّ هذا لم يعد يصلح لهذا الزمان، فمهما تخفى المرء وراء الطلاسم والشارات المزيفة، فان هناك من ينقب عن خوافيه ويظهره للعيان. وذلك ليعلم الناس المحسن من المسيء، فلا سر بعد اليوم.

منذ بزوغ شمس الرسالة المحمدية حتى يومنا هذا وأعداء الدين الاسلامي، وعلى رأسهم اليهود يمكرون بهذا الدين، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين، وامضى سلاح استعمل في هدم الاسلام، هو استئجار رجال تزيوا بزي الاسلام، ويتكلمون بلغة الاسلام. والواجب علينا فضح هؤلاء لتفويت الفرصة على من وراءهم، ولكي لا يمدح عدو لله على أنه من أوليائه. وكشف هؤلاء أوجب من نشر مناقب الصالحين.

فعبد الله بن سبأ القى شبهته فحملها اناس مغرورون وهي دعوة قائمة الى اليوم، فهل سكت عنه الأولون، أو تركه المتأخرون؟ يقال بأن عليا ـ رضي الله عنه ـ عندما أمر بقتله صاح الناس: « يا أمير المؤمنين: أتقتل رجلا يدعو الى حبكم أهل البيت، والى ولايتكم، والبراءة من أعدائكم» فبين لهم حقيقته ولم يثنه ذلك عن عزمه، مع انه كان يتظاهر بالعلم والتقوى حتى افتتن الناس به.

ويجب ألا ننسى أن بين التقية والعمل في السر تلازما وكلاهما من بدع الشيعة وهو قائم على الكذب والخداع. ، وجعلوا الكذب تقية ليضفوا عليه صفة التقديس.

ورأيي حسب اطلاعي وبحثي ان جمال الدين واحد ممن يجب التحذير منه،وعدم الانخداع بدعوته الغامضة فلدينا الحقائق عن حياته وأسرته وسيرته. وكلها تلقي ضوءاً على الطريق الذي نحذر منه السائرين.

وليس الدعاة السابقون له بأقل خطرا منه، غير انهم يعملون في وضح النهار، واقتضى الأمر اشهارهم واظهارهم كالشيرازي صاحب دعوة البابية، ومصطفى كمال أتاتورك وغيرهما.

وأرجوا الله تعالى أن يغفر لي الخطأ والزلل، وأرجو أن لا أكون وقعت في الشطط فقلت على الأفغاني ما ليس فيه، كما أرجو القاريء الناصح أن يتحفني باهدائي عيوبي فيها لعلي أتلافاها.

وفي الختام أصلي وأسلم على خير خلقه وصفوته من رسله سيدنا محمد بن عبد الله المعصوم عن الزلل والخلل في قوله وعمله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

تمت الرسالة بعونه تعالى في بداية شهر رجب ١٤٠١هـ في مدينة الرياض.

الطالب في المعهد العالي للدعوة الاسلامية
مصطفى فوزي غزال بن عبد اللطيف

المراجع

١ــ الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: د. محمد محمد حسين. ط: دار النهضة للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة عام **١٣٩٢** هـ **/١٩٧٢** م.

٢ــ أسرار الحركة الماسونية: سلسلة تصدرها مجلة الشريعة في عمان ـ دار العلوم الاسلامية.

٣ــ أسرار الماسونية: الجنرال جواد رفعت آتلخان ـ المختار الاسلامي للطباعة والنشر والتوزيع. ترجمة: نور الدين رضا الواعظ وسليمان محمد أمين القابلي.

٤ــ الاسلام والتجديد في مصر: تشارلز آدمس. ط: لجنة دائرة المعارف الاسلامية ــ مطبعة الاعتماد بمصر **١٣٥٣** هـ/**١٩٣٥** م قدم له: مصطفى عبد الرازق.

٥ــ الاسلام والحضارة الغربية: د. محمد محمد حسين. دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى **١٣٨٨** هـ/**١٩٦٩** م.

٦ــ أعلام وأصحاب أقلام: أنور الجندي دار نهضة مصر للطبع والنشر.

٧ــ أعلام الصحافة العربية: د. ابراهيم عبده ــ الطبعة الثانية ــ الناشر مكتبة الآداب بالجماميز.

٩ــ الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني : د. محمد عمارة- المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ــ لبنان.

١٠ــ البابية: احسان الهي ظهير- الطبعة الثانية ١٩٧٩ م/١٣٩٩ هـ . الناشر : دار ترجمان السنة.

١١ــ تاريخ ابن كثير.

١٢ــ تاريخ الصحافة العربية: الفيكونت فيليب دي طرازي ــ بيروت ــ المطبعة الأدبية ١٩١٣ م.

١٣ــ تاريخ الأستاذ الامام: محمد رشيد رضا. الطبعة الأولى ــ مطبعة المنار بمصر ١٣٥٠ هـ /١٩٣١ م.

١٤ــ تاريخ آداب اللغة العربية: جرجي زيدان- طبع دار المنار راجعها وعلق عليها الدكتور شوقي ضيف.

١٥ــ تاريخ شعوب وادي النيل: د. مكي شبيكة. طبعة أولى ــ نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت ــ لبنان.

١٦ــ التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر: مستر الفريد سكاون بلنت. راجعه محمد عبده ــ مطبعة البلاغ الأسبوعي.

١٧ــ تبديد الظلام أو أصل الماسونية: عوض الخوري ــ تحقيق أبو صادق. الناشر دار منشورات البصري عام ١٩٦٥ م.

١٨ــ تطور الصحافة العربية في مصر: أنور الجندي ــ مطبعة الرسالة ١٩٦٧ م.

١٩ــ جمال الدين الأسد آبادي: ترجمة د. عبد المنعم محمد حسنين طبع دار الكتاب اللبناني ــ الطبعة الأولى ١٩٧٣ م. ألفه بالفارسية مرزا لطف الله خان.

٢٠ ــ جمال الدين الأفغاني: قدري قلعه جي طبع دار العلم للملايين ــ الطبعة الثالثة. ١٩٥٦ م. سلسلة أعلام الحرية (٥).

٢١ــ جمال الدين الأفغاني: عبد الرحمن الرافعي ــ طبع الدار المصرية للتأليف والترجمة عام ١٩٦١ م سلسلة أعلام العرب (٦١).

٢٢ــ جمال الدين الأفغاني: محمود أبو ريه. طبع دار المعارف بمصر ــ الطبعة الثانية ــ سلسلة نوابغ الفكر العربي (٢٩).

٢٣ــ جمال الدين الأفغاني: د. محمود قاسم ــ الناشر مكتبة الانجلو المصرية ــ الطبعة الأولى.

٢٤ ــ حاضر العالم الاسلامي: لبوثروب ستودارد، ترجمة عجاج نويهض، تعليقات شكيب ارسلان ــ نشر مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر. القاهرة ١٣٥٢ م.

٢٥ ــ الحرب الصليبية الأوربية التاسعة : محمد الفرحان ، الطبعة الأولى - بيروت ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م.

٢٦ــ حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي: د. محمود صالح منسي ــ طبع دار الاتحاد العربي للطباعة عام ١٩٧٢ م.

٢٧ ــ حقيقة البابية والبهائية: د. محسن عبد الحميد ــ الطبعة الثانية ــ المكتب الاسلامي.

٢٨ــ حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر: للشيخ عبد الرازق البيطار ــ حققه محمد بهجة البيطار عام ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م.

٢٩ ــ خاطرات جمال الدين: محمد باشا المخزومي. دار الفكر الحديث ــ لبنان ــ طبعة ثانية ١٩٦٥ م/١٣٨٥ هـ.

٣٠ــ الخطباء : انور احمد: نشر مكتبة انجلو المصرية.

٣١ــ دراسات عن البهائية والبابية: محب الدين الخطيب وعلي منصور ومحمد كرد علي ومحمد فاضل. المكتب الاسلامي ــ طبعة ثانية ــ ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م.

٣٢ــ دائرة المعارف: بطرس البستاني. مطبعة المعارف بيروت ١٨٨٢ م.

٣٣ــ دائرة المعارف الاسلامية: مجموعة من المستشرقين نقلها الى العربية احمد الشنتناوي ورفاقه (وجميع ما كتب عن جمال الدين من عمل المستشرق جولد سيهر).

٣٤ــ الرد على الدهريين (مصدر بترجمة للأفغاني) الدكتور عثمان أمين ــ الناشر مكتبة الخانجي بمصر والمثنى ببغداد ــ ط. ثانية ١٩٥٥.

٣٥ــ رواد الاصلاح : رشيد الذوّادي : دار المغرب العربي ــ تونس ١٩٧٣/٣/٥م.

٣٦ــ رشيد رضا الامام المجاهد: ابراهيم أحمد العدوي ــ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر. الدار المصرية للتأليف والترجمة ــ أعلام العرب (٣٣).

٣٧ــ الرد على الدكتور الوردي: بقلم غلام حسين الموسوي الأفغاني مطبعة اسعد بغداد ١٩٧٢ م.

٣٨ــ زعماء الاصلاح في العصر الحديث: أحمد أمين ــ ملتزم الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ١٣٦٨ هـ ١٩٤٨م.

٣٩ــ السيرة النبوية في الآثار المحمدية للسيد احمد زيني المشهور بدحلان.

٤٠ ــ الصهيونية والماسونية: عبد الرحمن سامي عصمت ــ ط. ثانية ١٩٥٠ م.

٤١ــ طبقات أعلام الشيعة (أو وفيات أعلام الشيعة): آغابزرك الطهراني ــ المطبعة العلمية في عام ١٣٧٢ هـ.

٤٢ــ عشر سنوات حول العالم: بقلم الرحالة محمد خير الدين الحلبي، صاحب جريدتي وفاء العرب والشورى. مطبعة ابن زيدون ١٣٥٦ هـ /١٩٣٧ م.

٤٣ــ العروة الوثقى : محمد عبده وجمال الدين ــ الطبعة الأولى ذي

الحجة ١٣٨٩ هـ /شباط فبراير ١٩٧٠ م. الناشر ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٤٤ـ الفكر العربي في مائة سنة: بحوث مؤتمر هيئة الدراسات العربية المنعقدة في ت ٢ (١٩٦٦) في الجامعة الامريكية في بيروت ـ منشورات العيد المئوي ١٩٦٧ـ نشر الجامعة الامريكية ـ رئيس التحرير فؤاد صروف.

٤٥ـ لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث : د. علي الوردي

٤٦ـ المذاهب المعاصرة وموقف الاسلام منها: د. عبد الرحمن عميرة ـ منشورات دار اللواء للنشر والتوزيع ـ الرياض ـ ط أولى ١٣٩٨ هـ /١٩٧٨ م.

٤٧ـ الماسونية في العراء: محمد علي الزعبي ـ الناشر مؤسسة مطابع معتوق.

٤٨ـ مجلة الزهراء ومجلة المجتمع ومجلة الحديث ومجلة الاعتصام ومجلة لواء الاسلام.

٤٩ـ مرآة العصر: الياس زكور ـ طبع ١٨٩٧ م.

٥٠ـ مذكرات السلطان عبد الحميد: ترجمة محمد حرب عبد الحميد.

٥١ـ المذكرات: محمد كرد علي ـ مطبعة الترقي بدمشق ١٣٦٧ هـ /١٩٤٨ م.

٥٢ـ المجددون في الاسلام ـ عبد المتعال الصعيدي.

٥٣ـ محمد عبده: عثمان امين ـ سلسلة اعلام الاسلام ـ دار احياء الكتب العربية.

٥٤ـ معجم المؤلفين ـ عمر كحاله.

٥٥ـ موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين: مصطفى صبري ـ الناشر المكتبة الاسلامية ـ رياض الشيخ ١٣٦٩ هـ/١٩٥٠ م.

٥٦ـ نابغة الشرق السيد جمال الدين الأفغاني: محمد سعيد عبد المجيد (سعيد الأفغاني)ـ دار الكاتب العربي للطباعةوالنشر بالقاهرة ١٩٦٧ م/١٣٨٦ هـ .

٥٧ـ هذه هي الاشتراكية: عبد الرحمن بن حماد آل عمرـ الطبعة الأولى ١٣٧٨ هـ /١٩٦٧ م. مؤسسة النور للطباعة والتجليد.

٥٨ـ وحي الرسالة: احمد حسن الزيات ـ الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ /١٩٥٦ م. ملتزم الطبع والنشر مكتبة نهضة مصر بالفجالة.

٥٩ـ سعد زغلول: عباس محمود العقاد.

فهرس

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن والبلدان

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية